مقتبسة
عن قصة
حقيقية

رواية

كونسيلر

"أحبيه كمُعجزة.. وانسيه كَذنب"

د. نرمين نحمد الله

إهداء

إلى رجل يساوي كل العالم..

إلى رجل دلّلني كابنته..

وتعلّق بي كأمه..

واحترمني كمعلمته..

وأحبني كامرأته..

إلى رجل يستحق أن يقال عنه: «رجل»!

إهداء

إلى توأم روحي ورفيقة الطريق الطويل..

نرمين شمس الدين:

لولاكِ أنتِ ما كنت أنا.

كونسيلر!

تذكر يوم أهديتني إياه عندما شكوت لك معايرتهم لي بـ«هالاتي السوداء»؟!

يومها قلبته أنا بين أناملي بفخر امرأة أحبتك كـ«معجزة» لا تتكرر مرتين

وليتها تنساك كـ«ذنب» اقترفته مرتين

مرة عندما وهبتك قلبي.. ومرة عندما تقبلته بعدما أعدته لي «ملطخًا» بسواده!

ليتني أدركت وقتها أنك اكتفيت بـ«تغطية» عيبي دون أن «تعالجه»

وأن «هديتك» الفاخرة لم تكن سوى كأس فارغة لن تجدي ظمآنًا!

«فاطمة»

* * *

هذه الهالات السوداء تحت عيني!

قمران «أسودان» وسط ليل ملامحي «الأبيض»..

هكذا تعودت رؤيتها -كما كل حياتي- بالمقلوب!

حدثوني عن سحر «الكونسيلر» عندما يخفي «العيوب»..

لا..هي ليست «عيوبًا»..

هي «شارات» الخبرة التي منحنا إياها حزنٌ ما.. وجعٌ ما.. ذنبٌ ما!

لكنني لما التقينا أدركت الكوكب الوردي الذي قبِل هبوطي على أرضه..حيث لا حزن..لا وجع..ولا ذنب!

معك لم أعد أكره هالاتي، ولا حتى اضطررت

لإخفائها.. فأنت محوتها دون الحاجة لـ«كونسيلر»!

«غنى»

* * *

مقدمة

الليل - المطر - الصمت

هذا المثلث الكئيب الذي طالما أثار خوف «هذه الطفلة» بداخلها.. لكنه الآن لا يؤثر مع هذا الفراغ الكبير بـ«روحها الهرِمة»!

خطواتها بطيئة شاحبة كشحوب وجه «هذا الذي دفنته يداها منذ قليل».. لكن نظراتها ليست بريئة كنظراته.قلبها يرتجف بهذا اللحن الأسود الذي يتردد كترنيمة وداع.. وعيناها؟! ما لهما عينيها؟! تراهما لا تزالان تأنسان بـ«ليل هالاتهما الأسود»؟! أم إن مطر الدموع واراهما خلفه؟!

الطريق طويل يا فاطمة.. بطول الجرح.. وربما قصير.. قصير... بطول العمر!!

قدماها تصعدان ذاك التل القديم، حيث مكانهما المنعزل الذي طالما شهد ذكرياتها معه.. هنا بدأ عمرها.. وهنا يجب أن ينتهي!

صوت مواء قريب يخدش أذنها فيذكّرها بقوله:

(ناعمة أنتِ يا هريرتي.. بل شديدة النعومة في زمان يقدس المخالب)

تبتسم ساخرة كأنها تحدثه:

- أظنك الآن تعلم إلى أي حد صارت مخالب هريرتك قاسية!!

الخطوة الأخيرة تفصلها عن قمة التل.. نظرة أخيرة لقريتها من أعلى.. حيث لا بشر.. لا حقد.. ولا ضغائن.. فقط سعف النخيل يتمايل برشاقة كأنه يلوِّح لها مودِّعًا!

نفسٌ عميق أخير ستتركه يتخلل صدرها قبل أن تعانق الهواء لتسقط.. تحدث «خائنها» سرًا من جديد كأنما تراه:

- ستموت فاطمتك للمرة الثالثة.. بعدما قتلتَها أنت في الأولى.. وقتلتُها أنا في الثانية.. لكن هذه المرة هي الأخيرة!!

تفتح ذراعيها تحتضن شيئًا لا تعرفه.. لعله طيف قديم منه.. أو شبح هزيل منها.. لا يهم.. كلاهما خادع مراوغ.. كلاهما مجرد صفر كبير في خانة اليسار!

مرحبًا بالموت.. لعلها هناك تجد الحياة!

صرخة هائلة تطلقها قبل أن تشعر بتلك القبضة التي تكمم فمها.. ذراع قوية تعتقل خصرها لتبعدها عن مرادها بالسقوط.. ثم هذه الرائحة الغريبة التي تتسلل لأنفها فلا تشعر بأي شيء بعدها؟!

* * *

كم مر من الوقت؟! لا تدري! هي استعادت وعيها لتفاجأ بعينيها المعصوبتين.. يديها المقيدتين.. ورقدتها على فراش يبدو مريحًا.

هذه الرائحة حولها.. رائحة «اللافندر»! هل هي مصادفة؟!

أم إن من اختطفها يدرك جيدًا أنها -كانت- رائحتها المفضلة يومًا ما؟! من فعلها؟!

صوت حفيف خطوات تقترب يثير حواسها فتصرخ باستنكار:

- أين أنا؟! وماذا تريدون مني؟!

تقولها وهي تنهض من رقدتها بألم، فجرح بطنها لا يزال طازجًا لم يلتئم.. لكن نفس الذراع الرجولي

الصلب يكبلها قبل أن تشعر بهذه القطرات الباردة على شفتيها.. حاولت المقاومة للحظات لكن مزيجًا من شعور العطش.. اليأس.. والعجز جعلها ترضخ في النهاية..

عصير برتقال طازج دون سكرا!

هل هي مصادفة أخرى؟!

أم إنه حقًا يعرفها إلى هذا القدر؟!

- من أنت؟!

سؤالها الذي خرج أخيرًا بمزيج من نكهة الخوف والغضب يتحول لنحيب مرتفع خانتها فيه دموع ظنتها جفّت منذ زمن..

- لماذا لم تتركني أموت؟!

لم تكد تنهي آخر حروفها حتى شعرت به يجذبها لصدره في عناق مزج قوته بضعفها.. أنامله تربت على وجنتها.. تمسح دموعها بقوة كأنما تصفعها..

لماذا يفعل هذا؟!

نفسها تسول لها بصرخة مذعورة وهي تكاد تجزم بخطوته التالية.. لكنه أبعدها فجأة كما قرَّبها فجأة لتعود خطواته تبتعد..

- أنت.. انتظر.. أين تتركني؟! ماذا ستفعل بي؟!

صرخاتها تتزامن مع وقوفها الذي سبق ترنحها وهي تحاول التحرك في المكان مغالبةً ألمها حتى اصطدم جسدها بحائط، فانهارت جالسة بجواره تبكي..

عمرها -الذي لم يكن سوى أثر «هالات سوداء» لطخت جمال ملامحها- يتراءى الآن لها كشريط

سينمائي يذكّرها كيف كانت البداية؟!

* * *

(الهالة الأولى)

(ابنة الخطيئة!)

قبل أكثر من خمسة عشر عامًا

- طال شعرك يا فاطمة!

تقولها أمها بصوتها الرقيق وهي تُجلسها في حجرها طفلة ذات خمسة أعوام.. لتمتزج ابتسامتاهما مع ردّها الطفولي:

- يبدو أن كل شيء في حياتنا يحلو مع هذا البيت الجديد.. ألن يعود أبي؟!

تنهيدة المرأة تفضح حزنها مع ما تخفيه عن حقيقة والد الصغيرة الذي طلقها ورماها وابنتها بعدما أقنعه

أهله أنها لن تنجب سوى الإناث.. ثلاثٌ منهن وضعتهن قبل فاطمة ليتلقفهن الموت سريعًا عقب ولادتهن قبل أن يمن عليها القدر بالصغيرة التي ملأت قلبها، لكنها لم تملأ عين أبيها، الذي تركهما خلفه ليبدأ حياته من جديد.. لا! لا تلومه فقد فعلت مثله لتستجيب لأول رجل طلبها للزواج.. لكن هل كان لديها البديل وهي وحدها في هذه الدنيا بلا أهل ولا مال؟!

- ألا تحبين عمك «السرجاني»؟!

- أحبه، لكن ليس مثل أبي.. جلباب أبي كان دومًا ناصع البياض، لكن «سجاني» هذا جلبابه ملطخ دومًا بالدم!

لم تكن تعلم ولسان الطفلة بها يخطئ في تهجي حروف اسمه أنه سيكون حقًا «سجان روحها» لأيام طوال قادمة، بينما ضحكت أمها وهي تنهي تضفير

شعرها لتردَّ بصبر حليم:

- الجزار دومًا جلبابه متسخ بالدم.. وعمك «السرجاني» الجزار الوحيد في القرية.. لهذا يعمل كثيرًا.. لكنني أغسل له ثوبه عندما يعود هنا ليرجع نظيفًا.. العمل لا يعيب صاحبه، بل هو سبيل لجمع المال والعيش.

- وهل يكسب «سجاني» مالًا كثيرًا؟! هل سيشتري لي أرجوحة كالتي رأيتها على شاشة التلفاز؟!

سؤال الطفلة البريء يستجلب ضحكة أخرى من أمها التي أدارتها نحوها تحتضن وجهها بين كفيها، وتتأمل ملامحها الجميلة ببياض بشرتها الناصع، حاجبيها الكثيفين، شفتيها الممتلئتين بلون الورد، غمازتيها الآسرتين، وعينيها اللتين تلونتا بمزيج من لون الزمرد الأخضر والعسل، مزيج رائع لولا هذه الهالات السوداء التي استغربتها لطفلة في عمرها..

- تسهرين كثيرًا فتفسدين جمال عينيك!

- أنتظر أبي!

جواب الصغيرة العفوي بما حواه من ألم يخز صدرها فتضمها لصدرها بقوة قبل أن تُرقدها في فراشها لترفع عليها الغطاء، وتغني لها الأغنية المعتادة التي حرّفت كلماتها الأصلية لتعطي عكس معناها..

لما قالوا دي بنيّة.. فرح قلبي وعنيّا..

قلت الحنّونة جاية.. تمسح دمعي.. وتداوي جرحي..

تشاركني لقمتي.. وتكون عكازي في دنيتي..

ولما قالوا دي بنيّة.. فرح قلبي وعنيا..

قلت الزينة جاية.. أجدّل شعرها.. وأكحّل جفنها..

واشوفها الفرحة حواليا..

لما قالوا دي بنيّة!

تغمض فاطمة عينيها على الكلمات الحبيبة التي اعتادتها تستدعي النوم العزيز الذي لا يجيئ، فتتظاهر به كعهدها وهي تشعر بانسحاب أمها من جوارها، لتراها بعينين نصف مغلقتين ترتدي حجابها الأبيض الطويل لتحمل شيئًا ما غطته جيدًا لتغادر بخطوات حذرة تعرف هي أين ستنتهي، فهي تراقبها يوميًا خفية بعد رحيلها كل مرة بهذه الطريقة..

وجهتها نحو بيت «شيخ الجامع» المقابل!

تشعر بالخوف يجمدها للحظات فتهمّ بندائها، لكن هذا «الجاثوم» غير المرئي يطبق على صدرها فيمنعها.. تعاود إغماض عينيها بقوة تستحضر حكاية

خيالية مطمئنة مما ترويها لها أمها حتى تشعر ببعض الارتياح، لكنها تفاجأ باقتراب خطواته المتحفزة فتفتح عينيها على اتساعهما لترى «السرجاني» بجلبابه المتسخ بالدم كعهده يهتف بها بغضب لم تعهده فيه قبلًا:

- أين أمك؟!

- خرجت.

حروفها المرتجفة لم تشفع لها وهو يهزها بقوة ليهتف بالمزيد من الغضب:

- هل تفعلها كل يوم؟!

الخوف المستعر بأعماقها لا يسمح بالكذب لهذا تومئ برأسها إيجابًا..

- تذهب لبيت الشيخ؟!

إيماءة أخرى بالإيجاب منها تفتح عليها أبواب جحيم لا يستوعبه عقلها الطفولي خاصة مع استطراده العاصف:

- إذن صحيح؟! تستغفلني هذه الـ«...»!

لم تفهم مرادف سبته البذيئة، ولم تجد الوقت لتفعل وهو يدفعها بقوة، لتراه يندفع نحو الخارج ليحضر ما جعل قلبها ينفطر رعبًا..

سكين كبير لامع!

هذا الذي خرج به لتعدو هي خلفه برهبة محافظة على مسافة آمنة بينهما، فتراه يطرق باب بيت الشيخ ليخرج الأخير منه ممتقع الوجه.. قبل أن يلكمه «السرجاني» في أنفه ليندفع نحو الداخل.

دقائق معدودة مرَّت على قلب الطفلة كدهور قبل

أن تسمع صوت أمها تصرخ..

هذا الصراخ الذي أذاب جليد خوفها لتندفع بدورها نحو الداخل فترى المشهد الصادم..

جسد أمها ينتفض انتفاضته الأخيرة، فتنتبه دون تركيز أنها دون حجابها الطويل الذي طالما حافظت عليه، بينما عباءتها فوقه قد انفتحت أزرارها!

- قتلتها وغسلت عاري.. دورك يا «كلب»!

بصعوبة تميز صوت «السرجاني» وهو يندفع ليطارد الرجل الذي خرج هاربًا من المكان..

- لا حول ولا قوة إلا بالله! قتلها!

- من كان يصدّق أنها كانت تتظاهر بالعفة؟!

- مسكين «السرجاني».. سيفقد عقله! لقد تزوجها

وهي «مقطوعة من شجرة» لأجل أن تربي ابنه اليتيم.. أيكون هذا جزاءه؟!

- وابنتها هذه.. ما ذنبها؟!

الأصوات تتداخل في ذهنها، فلا تكاد تميز منها شيئًا..

لماذا لا تقوم أمها من نومتها؟!

هل ستبيت الليلة هنا؟!

ماتت؟! ما الذي تعنيه «ماتت» هذه؟!

تقترب منها تناديها وتهز جسدها الملطخ بدمائه فتنتزعها الأيدي بعيدًا.. وجوه لا تعرفها وكلام لا تفهمه!!

- أريد أمي! أريد أبي!

تصرخ بها وهي تحاول التملص من بين أذرعهم، لكنهم يأخذونها بعيدًا..

إلى أين؟!

هي لا تعرف! بيت يسلمها لبيت.. يطعمونها ويرعونها دون حماسة.. دون جواب لأسئلة ردَّدتها في البداية بهلع قبل أن تبتلعها بداخلها باستسلام..

إلى أن يجيء اليوم الذي يخبرونها فيه بأنهم أحضروا أباها ليتسلمها، ولم تكد الابتسامة تعرف طريقها لشفتيها وهي تراه أخيرًا بعد غياب طويل.. تتعلق بجلبابه بلهفة، لكنه يركلها بقدمه كقطة ضالة صارخًا بقسوة:

- وما أدراني أنها ابنتي؟! من تخون رجلًا تخون آخر.. إنها حتى لا تشبهني.. لا شأن لي بها!

عقلها الصغير لم يستوعب الكثير من المرادفات بعدها، إلا قوله «لا شأن لي بها»!

هذا الذي مزَّق أملها فيه للأبد، لتعود بعدها وتنزوي في ركن قصيّ تنتظر ما سيفعله بها أهل البلدة..

«هالاتها السوداء» تزداد كثافة وجسدها يزداد نحولًا.. نظراتهم حولها بين إشفاق وازدراء تدخلها عالمًا من الخوف لم تعرفه قبلًا بهذه الضراوة.. تحاول استعادة كلمات «أغنية» أمها التي افتقدتها، لكنها لا تجرؤ على الإفصاح عن هذا الاشتياق.. عقلها الطفولي لا يسعفها بفهم ما يتحدثون عنه إلا بحقيقة واحدة بسيطة أن أمها قد فعلت ما يشين!!

فهل هناك أقسى على قلب طفل من أن يعجز حتى عن البوح بافتقاده لأمه؟!

يومًا ما ستعرف أن «السرجاني» قتل أمها لأنه ضبطها تخونه مع «شيخ الجامع» الذي كان يسكن

البيت المقابل لداره، ليختفي بعدها من حياتها وقد خرج بابنه من البلدة بأكملها، تاركًا لها خلفه وصمة لا تمحى!

* * *

- عقيم.. لا أمل في الإنجاب.

حقيقة مفردة صبّت النيران في دماء «غالية»، وهي تستمع إليها من آخر طبيب زارته في المدينة التي غابت فيها عن قريتها لأسابيع مضت..

لقد تجاوزت مرحلة «الإنكار» الأولى ومرحلة «الأمل» الثانية، ثم مرحلة «اليأس» الثالثة، لينتهي بها المقام في مرحلة «الغضب»!!

لماذا هي بالذات من بين نساء عائلتها توصم بهذا «العار»؟! وهل سيصبر عليها «طاهر» أم سيتذرع بهذا الأمر كي يتزوج بأخرى؟!

«طاهر» الذي بقي صامتًا بغموض طوال رحلتهما بالسيارة عائدين إلى قريتهما لتبادره هي بسؤالها الحاد:

- ماذا سنفعل؟!

يختلس نظرة جانبية نحوها قبل أن يردّ بحذره المعهود معها:

- ما الذي تريدين مني فعله؟!

كان ذكيًا بما يكفي أن يدرك أنها -كعهدها- قد أعدّت الجواب الذي لم يفاجئه بدرايته السابقة بها:

- لن يعرف أحد أن العيب مني.. عائلتك لن ترحمني.. ستخبرهم بأن العيب منك، وأنني أنا من أفضِّل البقاء معك دون أطفال.

مطّ شفتيه للحظة قبل أن يمنحها إيماءة القبول!

لا لم يكن حبًا ولا إيثارًا.. ولا حتى شفقة إنسانية.. بل خنوعًا!

خنوعًا اعتاده معها منذ أدرك أنها بثراء وسلطة عائلتها في القرية بوابته لـ«نيابة مجلس الشعب» التي صارت هوسه مؤخرًا.. «غالية» لم تكن جميلة ولم تكن قبيحة.. لكنها كانت تملك شيئًا ما ينفِّر منها الرجال، لهذا تأخر سن زواجها كثيرًا، وهو ما حمده حتى تكون هي من نصيبه!

لكنه لا يزال يسأل نفسه كل يوم: هل يستحق الأمر عناء احتمال امرأة بتسلطها وقسوتها العمر كله وبلا أطفال كذلك؟!

- فيمَ تفكر؟! هل تظن نفسك تمنُّ عليّ بما تفعله؟! نسيت نفسك؟! نسيت من أنا ومن تكون بدوني؟! أفق يا ابن «بائع الخُردة».. واحمد ربك على نعمة أن

رضيت بك!

ثورتها الساخطة لم تعد تثير غضبته، فهي الأسطوانة تكرر نفسها منذ سنوات توازي عمر زواجه بها.. لا تزال تعيّره ببدايات والده البسيطة رغم الثراء الذي حققه بعدها.. ولا يزال يشعر في نفسه برهبة خفية منها.. من جبروتها الذي قلَّ أن يراه في امرأة!

ربما لهذا منحها ابتسامة مهادنة سبقت قوله:

- ما الداعي لهذا الحديث الآن؟! تعلمين أنكِ تساوين عندي الدنيا كلها.. أنا أعلم أنك لا تقصدين ما تفوهتِ به، لهذا أسامحك!

هل دمعت عيناها أم إنه فقط يهيأ له؟!

للحظة واحدة شعر نحوها بالشفقة وهو يلمح طيف ضعف أنثوي معهود في موقف كهذا، لكنها تجاوزته بسرعة تليق بشخصها، متجاهلةً الرد عليه،

وهي تشير بسبابتها نحو خيال بعيد يقف على مشارف القرية:

- إنه «سليمان المجذوب».. أوقف السيارة.. أحب محادثة هذا الرجل؛ كي يخبرني بما جدّ من أخبار أهل البلد في غيابي.

أوقف السيارة مطيعًا كعهده، ليقترب منهما المجذوب بهيئته المعهودة.. بشرته السمراء التي لوّنتها الشمس توحي بعهد وسامة قديم لولا لحيته الطويلة المشعثة، وثيابه البالية الممزقة، و«جرابه» القماشي الذي يرتديه عرضيًا على أحد كتفيه بلونه الأصفر الكئيب، والذي لا يعرف أحدهم ما الذي يخفيه بداخله هذا الرجل الذي ينعتونه بـ«الخرف»، لكنها وحدها «غالية» كانت تثق بنبوءاته، وتغدق عليه من خير مالها.. لهذا استبشرت ملامحه برؤية «غالية» حيث مدّت يدها عبر نافذة السيارة ببعض النقود نحوه، فهز رأسه بهذه الطريقة البهلوانية

ليقول بطريقة مضحكة:

- «ويجااا.. ويجاا».. «تحت الطربوش كحك منقوش»!

ابتسم «طاهر» باستهانة، فيما ارتخت ملامح «غالية»، وقد اعتادت تفسير نبوءاته الغريبة هذه لتسأله بنبرتها المتملكة عن أخبار القرية، فتحولت ملامحه المضحكة لأخرى آسفة وهو يحكي لها بحروفه المتلعثمة عن حادثة «فاطمة وأمها» التي كانت حديث الناس لأيام مضت..

حاجباها ينعقدان بشدة وهي تستمع مفكرة لبضع دقائق، قبل أن تلتفت نحو «طاهر» بنظرة لهفة راجية ناقضت قولها الصارم:

- أريد هذه الطفلة!

* * *

بيت فخم بحديقة واسعة أفضل كثيرًا من بيت «السرجاني»، لكنه يحمل في قلب «فاطمة» نفس الغربة.. عيناها الصغيرتان تشبعت حدقتاهما بمرارة اليتم هذه التي لا تمحوها حلاوة.. أي حلاوة!

ذراع مجهول يسلمها لآخر، ولا تعي هي بينهم شيئًا إلا أنها ستنتقل للعيش هنا.. في بيت «طاهر بيه»!

عيناها تجوبان البيت الكبير بفضول طفولي.. كل ما فيه ضخم مهيب يفيض فخامة.. لكنه يبقى باردًا ككل العالم الآن دون حضن أمها!!

- قبّلي يد السيدة «غالية».. إياكِ وعصيان أوامرها!

العبارة تنطلق من مكان ما لتقطع سيل دموعها فتلتفت بمزيج من الفضول والخوف نحو المرأة هناك.. قسوة باردة تلطم نعومة طفولتها وهي تتلقى نظرات «غالية».. لم تكن بشوشًا متوسطة الطول

كأمها.. بل كانت جافة الملامح فارعة الطول حد أنها شعرت أمامها بأنها «قزمة» كهؤلاء الذين كانت حكايات أمها تتحدث عنهم.

- تحركي يا فتاة.. لا تقفي هكذا كالصنم!

نفس الصوت الصارم ينطلق من جديد، فتتحرك بحذر نحو «غالية»، لكنها توقفت مكانها فجأة مع عبارة «غالية» التي رمقتها بنظرة طويلة متفحصة:

- فلتغتسل أولًا ولتبدل ملابسها هذه كاملة.. احرقيها.. لا أريد رؤية أي أثر لها!

تراهم بعدها يسحبونها بعيدًا نحو حوض استحمام كبير لم ترَ مثله بهذا الحجم.. ينزعون عنها ملابس حملت رائحة «أمها الراحلة»، لتزكم أنفها رائحة صابون نفاذة استغربتها في البداية قبل أن تعتاد طيبها.. لماذا لا يحمل صابونهم رائحة اللافندر كذاك الذي كانت تستعمله أمها؟! لقد ظنت كل الصابون

يحمل نفس الرائحة.. تمامًا كما ظنت الدنيا كلها في كنف جلباب أمها فحسب!

وأخيرًا تبدلت ملابسها.. وتبدلت معها نظرة «غالية» كذلك!!

أجل.. القسوة الباردة اختفت تمامًا لتشتعل العينان المهيمنتان أولًا ببريق خسرة لم تلبث أن تحولت لفيض من حنان، وهي تفتح لها ذراعيها في دعوة صامتة بالاقتراب!

عناقٌ بدأ باردًا قبل أن تنصهر فيه كلتاهما بجحيم احتياج كل منهما للأخرى..

«غالية» التي لم تكن تحتضن جسد طفلة بقدر ما كانت تطارد سراب «كمال» مفقود..

و«فاطمة» الصغيرة التي استشعر قلبها دفء حنان حقيقي بعد طول ليالٍ باردة قضتها ملطمة في بيوت

لا تعرفها.. لا لم يكن مثل عناق أمها لكنه -ربما- يشبهه!!

وفي مكانه البعيد كان «طاهر» يراقبهما بدهشة لم يملك كبحها، وهو يرى هذا الوجه العاطفي من «غالية» لأول مرة! عجبًا! هل تبكي أيضًا؟! هل تعرف عينا «غالية» مذاق الدموع؟!!

لقد طاوعها في فكرتها هذه -كما يفعل دومًا- لكن خنوعه لها لم يكن السبب الوحيد، بل رغبته في كسب تعاطف أهل القرية، خاصة والانتخابات على الأبواب.. لن يتمكن أحد من منافسته هذه المرة.. كيف وهو «رجل الخير» الذي احتضن الطفلة اليتيمة في بيته ليربيها بعدما شهد الجميع على مأساتها.. ورغبوا في التخلص من عبئها؟!!

لعبة لطيفة.. بل صفقة رابحة!!

تسد فراغ «غالية» وتمنعها سكب «النكد» في

شراب حياته.. وفي نفس الوقت ترفع أسهمه في عيون الجميع هنا.. لكن ماذا عن الغد؟! هل سيبقيها هكذا في بيته للأبد؟! سيدع الجواب للأيام، فقد كان ممن اعتادوا إلقاء النرد وتقبل الرهان!

* * *

- ناديني «أمي»!

تهتف بها «غالية»، وهي تفتح باب الغرفة لـ«فاطمة»، وكأنما تفتح معها أبواب عالم بأسره..

ملابس ملونة جديدة.. دمى وألعاب.. فراشٌ ناعم بلون وردي.. و... هذه!!

إنها «الأرجوحة» التي رأتها على التلفاز!

طيف شاحب حزين يغزوها مع ذكرى أمها الراحلة، لكن الطبيعة الطفولية تجعل الغلبة لصرخات الفرحة،

وهي تندفع لتلقي نفسها وسط هذا «النعيم»!

فيما وقفت «غالية» تراقبها بابتسامة حانية مع خفقة قلب ودّ لو كان كل هذا حقيقيًا.. لو كانت هذه الجميلة الصغيرة التي خطفت قلبها طفلتها هي.. لكنها تعوّدت أن تحيل كل هزائمها نصرًا.. وهذه المرة لن تكون استثناء!

ظلت «فاطمة» تدور في الغرفة وعيناها تلتمعان بانبهار طفولي يكاد يمحو ألم أيام سابقة عاشتها.. يزعمون أن الأطفال ينسون سريعًا وهي كانت مجرد طفلة!

طفلة عاشت نعيمًا حقيقيًا لخمس سنوات كاملة بعدها في كنف «غالية» التي أفرغت فيها شعور أمومتها كاملًا..

الجسد النحيل للصغيرة يعود لامتلائه.. والنضرة البهية تعاود كساء ملامحها الفاتنة..

حتى دخلت «غِنى» في حياتهما.. لتعود لـ«فاطمة» «هالاتها السوداء»!!

* * *

(الهالة الثانية)

سندريللا.. دون حذاء!

متى رأت «فاطمة» «غنى» لأول مرة؟!

كان يوم شتاء قارص البرد مما اعتادت في أشباهه أن تنزوي بأحضان أمها الجديدة «غالية»، بينما تحكي لها حكاية ما مع مشروب القرفة باللبن الذي لم تحبه «فاطمة» يومًا، لكنها تشربه لأجل ألا تغضب منها، فالقاعدة التي تعلمتها في هذا البيت الجديد أن رضا «غالية» يساوي رضا الدنيا كلها، والعكس صحيح!

لكن هذا اليوم كان مختلفًا، فلم تكد تنهي واجبها المدرسي كي تُسَرّ بها «غالية» حتى انفتح باب غرفتها لتدخل منه الصغيرة التي ستعلم فيما بعد أن

اسمها «غنى».. ابنة شقيقة «غالية»!

تفحصتها بعيني طفلة لم يتجاوز عمرها العشرة أعوام.. كانت أقل منها عمرًا وحجمًا و... جمالًا!

أجل.. حتى في هذا السن يمكنها تمييز فارق كهذا مع التفاوت الشاسع في مستوى الجمال بينهما.

ولا تدري لماذا شعرت بيد باردة تقبض على قلبها الصغير بلوعة تشبه تلك التي اجتاحتها ليلة فقدت أمها.. لهذا لم تشعر بنفسها وهي تندفع نحو «غالية» تحتضن خاصرتها بذراعيها الصغيرتين وهي ترفع نحوها عينين تنبضان باحتياج رقّ له قلب «غالية» التي انحنت نحوها لتقبّل شعرها بسرعة دون أن تنظر لعينيها..

هكذا كانت قبلات «غالية» لها دومًا.. سريعة خاطفة تتحاشى فيها التقاء عينيهما، كأنما تتبين في هذا اللقاء زيف الحلم الذي صاغته ببنوّتها الكاذبة

نحوها!

- سلّمي على «غنى».. ستشاركك غرفتك حتى ندبّر لكِ واحدة أخرى!

هل قالت «لها» أم «لكِ»؟! إذن «غنى» هذه ستنتزع منها غرفتها؟!

لماذا؟! هي لم تفعل شيئًا؟! لم تذنب في شيء؟!

- أنا أديت واجبي كاملًا.. صففت شعري كما تحبين.. نظفت غرفتي.. لماذا أنت غاضبة مني؟!

تقولها بين دموع تفجّرت فجأة من العدم؛ لتلين ملامح «غالية» بهذا الطيف الغادر من أمومة خفية تستشعرها صادقة نحو الصغيرة.. لكنها أخفتها بجبروتها المعهود وهي تنحني لتقابل عيني «فاطمة» بعينين صارمتين تناسبان قولها:

- عندما تغضب منك «غالية» فإنها لن تنتزع منك غرفتك بل ستلقيكِ على قارعة الطريق تنهشك الكلاب!

لم تتعجب «فاطمة» قسوة العبارة، فقد اعتادت مثيلاتها.. حب «غالية» كان غريبًا مثلها.. لم يكن أموميًا متدفقًا غير مشروط كـ«أمها الراحلة»، لكنه كان أشبه بـ«خوذة معدنية» ترتديها على الرأس لتحميه ومجبور أن تحتمل ثقلها!

لهذا اضطرت أن تبتلع خوفها وحزنها لتعاود الالتفات نحو «غنى» التي وقفت مطرقة الرأس، وكأنها ليست في حال أفضل منها.. تمدّ نحوها كفّها مستجيبة لأمر «غالية»، فتصافحها بيد باردة دون أن ترفع إليها عينيها.

وبينهما وقفت «غالية» تتفحصهما ببعض الحسرة، وهي تقارن بين ملامحهما..

ففي الوقت الذي كانت فيه «فاطمة» ممتلئة الجسد مستديرة الوجه طويلة الشعر الذهبي كأميرة أسطورية، كانت «غنى» فتاة نحيلة سمراء شاحبة الشفتين زادتها مأساتها الأخيرة حزنًا..

لقد مات والداها في حادث مفاجئ في بلاد الغربة؛ لتفقد كل سند لها في هذه الحياة، وها هي ذي تعود للوطن كي تتمكن خالتها «غالية» من رعايتها.. «غالية» التي كان حزنها لمصاب شقيقتها -التي رحلت فجأة بعد سفر سنوات- يختلط بفرحة لم تملكها من هذه «العطية السخية» للقدر بابنة أخرى!!

ابنة من دمها هذه المرة!!

عطيّة سخية.. لكنها متأخرة!

لهذا تنهدت بالمزيد من الحسرة وهي تبسط أحد كفيها فوق كتف «فاطمة» بقوة، بينما الآخر يستريح بحنوّ على وجنة «غنى» مع سؤالها لها:

- هل أعجبتك الغرفة؟!

دموع «غنى» كانت الجواب الوحيد، والذي جعل «غالية» تنسى «فاطمة» تمامًا، لتقترب من ابنة شقيقتها تحتضنها وتهدهدها لتنغمس معها تمامًا، بينما ابتعدت «فاطمة» في زاوية الغرفة، تراقبهما بشعور غريب هو مزيج من غيرة وخوف..

هل ستحرمها الأيام من أمها «الثانية» كما انتزعت منها «الأولى»؟!

* * *

بعد ثلاث سنوات..

ها هي ذي «فاطمة» ذات الثلاثة عشر عامًا ونظرة في مرآتها لما تغير من ملامحها!

جميلة؟! الجميع يصفونها بهذا، فيما عدا تندرهم بـ«هالاتها السوداء» حول عينيها العسليتين.. هالات تفضح سهر الليالي الطويل في غرفتها الجديدة التي اختصتها «غالية» بها بعدما جعلت غرفتها الأولى لـ«غنى».. غرفة صغيرة في الطابق السفلي تجاور غرفة الخادمة.. والحقيقة التي أدركتها لاحقًا أن مكانتها في هذا البيت صارت غريبة حقًا.. مكانة وسطى ترتقي فوق «الخادمة» لكنها أقل من «الابنة».. أقل بكثير!!

أجل.. «غالية» اكتفت بابنة شقيقتها تروي بها ظمأ أمومتها، ولولا تحرجها من «كلام الناس» لأعادت «فاطمة» للشارع الذي جلبتها منه..

ورطة!

أجل.. هي تشعر بنفسها مجرد ورطة انغمست بها السيدة الكبيرة، وصارت عاجزة عن الخلاص منها!

دمعة كبيرة تتجمع في طرف عينها وهي تستعيد حلاوة أيام قضتها تتنعم بأمومة «غالية» الزائفة التي جعلتها الأيام هباء منثورًا..

وها هي ذي تتجرع مرارة اليتم مرتين!!

تأخذ نفسًا عميقًا تتمالك به دموعها وهي تعاود تفحُّص نفسها في مرآتها.. ملامح أنوثة مبكرة تبذر حلاوتها فوق الجسد الممتلئ لتمنحه مظهر سن أكبر.. ربما لهذا تلاحقها معاكسات شباب القرية أينما ذهبت.. كلامهم المعسول يرقع هذا الثقب الكبير في جلباب عاطفتها التي لو نطقت لصرخت أنها تريد الاهتمام.. تريد الشعور بموقعها على خارطة هذا العالم.. تريد هويّة!!

صوت ابتهالات العيد يصدح من المسجد القريب ليذكِّرها بأي يوم هي.. فتبتسم بمرارة وهي توجه عينيها صوب الثوب المعلق على باب خزانتها.. قديمًا

كانت «غالية» تبتاع لها خمسة أثواب على الأقل في مناسبة كهذه، وتقضي الليل معها تجرِّبهم جميعًا حتى تستقر على ما يليق أن تستقبل به العيد.. لكنها الآن تكتفي بثوب واحد تكاد تلقيه في وجهها مع ابتسامتها القاسية التقليدية، قبل أن تعود لتصبَّ اهتمامها صبًا على الأولى باهتمامها.. «غنى»!

الغريب أن «فاطمة» لم تكره «غنى» -كما لم تستطع أن تحبها- كانت ترى فيها طفلة يتيمة تصغرها وتشبهها في وضعها.. ولولا غيرة طبيعية مفترضة في وضعهما لصارتا صديقتين!

- هيا يا «فاطمة».. ارتدي ملابسك بسرعة وتعالي لتشهدي الذبح.. السيدة «غالية» تنتظرك.

صوت الخادمة يقاطع أفكارها، فتتنهد بحرارة وهي تتحرك متباطئة نحو الثوب القريب.. ثوب داكن بلون بني كئيب.. منذ متى توقفت «غالية» عن

انتقاء الألوان المبهجة لها؟! منذ ارتأت أن تخص بها «غنى» كي تسرق الأنظار أكثر، خاصة مع شحوب الأخيرة الدائم والمقارنة التي تخسرها دومًا عندما يقارنون بينها وبين «فاطمة».

ترتدي الثوب بامتعاض، لكن نظرة أخرى للمرآة ترضيها.. هي التي تمنح الثوب جمالًا لا العكس!

تصفِّف شعرها الطويل الذي تودُّ لو تطلقه حرًا على كتفيها، لكنها تخشى غضبة «غالية» التي تأمرها دومًا بتضفيره، فتنفذ لها ما أرادت.. ترتدي حذاءها لتلحق بـ«غالية» بسرعة ككل عام، ترجوها أن تعفيها من مشهد الذبح هذا الذي تكرهه.. لا تزال تذكر أول مرة شهدته هنا منذ سنوات ليعيد إليها ذكرى «السرجاني» ووالدتها.. يومها شعرت بروحها تنسحب منها مع مرأى السكين والدماء قبل أن تسودّ الدنيا في عينيها فجأة؛ ليخبروها بعدها بأنها فقدت وعيها!

ومع هذا تعاود «غالية» أمرها كل عام أن تحضر معهم مشهد الذبح كأنما تتلذذ برجائها إياها أن تعفيها من هذا الأمر.

وفي غرفتها أتمّت «غالية» ارتداء ملابسها لتبدأ في التزين بالذهب.. «ذهب غالية» في كل مناسبة يبقى حديث القرية لأيام.. ليس فقط في كثرته، إنما في ذوقه المميز الذي تحرص ألا تشبهه فيه امرأة من أهل القرية مهما زاد غناها أو جاهها.. لهذا تتكلف في جلبه من الخارج؛ لتضمن ألا يشبهها فيما ترتديه أحد.

قلادة ضخمة من الذهب والماس تشبه ريشة كبيرة تلتف حول عنقها مع قرط وسوار بذات التصميم تمنحها الطلّة المعهودة.. خاتمها المميز بنقش «وجه الأسد»، والذي تجد فيه صورتها كما تتمناها.. مع كحل عينيها الذي تفرط في وضعه لعله يخفي هذه التجاعيد الخفيفة التي بدأت تزحف لطرف عينيها..

صبغة شعرها نجحت في مداراة بضع شعيرات بيضاء خائنة كانت سببًا في طرد خادمتها السابقة عندما تجرأت واعترفت لها عفويًا بوجودها.. الحمقاء لا تعرف أن «غالية» لا تشيب!

- أمي!

صوت «فاطمة» مع طرقها على الباب يرسم ابتسامة حنان حقيقية على شفتيها.. ابتسامة وُلِدت وماتت في نفس اللحظة تقريبًا!

هي تحب هذه الفتاة حقًا!

لكنه حب غريب يمتزج بشعور آخر.. ربما هي الحسرة؛ لأنها ليست ابنتها هي.. ربما هو الغيظ من أنها تسرعت بجلبها لبيتها كي تتحمل مسئوليتها أمام أهل القرية، ولو صبرت قليلًا فقط لما احتاجت هذا مع وجود «غنى».. وربما هو شعور أقرب للنبوءة من أن هذه الفتاة ستكون ذات شأن ما عظيم هنا قد

يفوق «غنى» وربما يفوقها هي نفسها!

غريب.. صحيح؟!

نعم.. لكنها حقًا تجد صدى هذا الشعور قويًا في روحها..

- ويجاا.. ويجاااا!.. بذرة بالأمس مطمورة.. غدًا شجرة منظورة!

إنه المجذوب «سليمان»! ها هو ذا صوته يصدح في حديقة بيتها كعهده صبيحة العيد بما يشبه نبوءة تقرأ أفكارها، لهذا تنهّدت بضيق وهي تتحرك نحو باب غرفتها؛ لتفتحه فتواجه عيني «فاطمة» الجميلتين العاتبتين.. دومًا عاتبتان رغم صمت اللسان إلا من قليل كلامه..

- صباح الخير يا أمي.. كل عام وأنتِ بخير.

تقولها «فاطمة»، بينما تنكب على كفها تقبِّله كعهدها، فتبتسم «غالية» لتربت على رأسها برفق قبل أن ترد الرد التقليدي، فتبادرها «فاطمة» بقولها الراجي:

- لا أريد حضور مشهد الذبح فأنتِ تعلمين..

- ستحضرين!

قاطعت بها «غالية» كلماتها بصرامة لترتجف «فاطمة» مكانها، بينما الأولى تردف بنبرتها المتسلطة:

- لم تعودي صغيرة لهذا الدلال المقيت.. لو لم تكفِكِ كل هذه السنوات كي تنسي، فمَتى ستفعلين؟!

نظرة خائفة في عيني «فاطمة» و«جاثوم» الماضي يعاود إطباقه على صدرها.. نظرة تحولت لجذوة تمرد اشتعلت في حدقتيها وجعلت «غالية»

تتفحصها بتوجس.. هل يوشك زمام الفتاة أن يفلت من بين يديها حقًا؟! هل تفكر في العصيان؟!

- أرجوكِ يا أمي.. أخشى أن أفقد وعيي كالمرة السابقة!

- كنتِ طفلة.. الناس تكبر وتنسى!

تنسى؟! هل الأمر حقًا بهذه السهولة؟! لكن لمَ لا؟! «غالية» لا تكذب.. هي تعودت دومًا رؤية الحياة من منظورها هي.. فلماذا لا تجرب الآن؟!

الخاطر الأخير يتزاحم مع عناد سن المراهقة المألوف، لكن الغلبة دومًا تكون لـ«مراد غالية»!

لهذا وجدت نفسها تتبعها صاغرة لتخرجا من الغرفة قبل أن تظهر «غنى» في الصورة!

ثوبٌ وردي.. شعرها الذي قامت بكيّه كي تنفرد

خصلاته.. طلاء شفاه منح شحوبها بعض البريق.. وحذاءٌ ذو كعب عالٍ قارب بين طوليهما بل جعلها تبدو أكثر طولًا منها هي رغم فارق السن!

ابتسامة ساخرة ترتسم على شفتي «فاطمة» وهي تدرك القاعدة التالية.. (المال يزيف كل الحقائق).. ها هي ذي «غنى» تبدو الأجمل.. الأكثر أناقة.. الأكبر طولًا.

لقد قرأت حكاية سندريلا وطالما رأت نفسها فيها.. الفارق هاهنا ألا ساحرة هنالك ولا حذاء يرفع قيمتها!

هي ستبقى مجرد سندريلا دون حذاء.. «غنى» دومًا ستكون شمس النهار، بينما هي مجرد ظل باهت!

ربما هذا يفسر نظرة «غالية» الراضية وهي تضم كلتيهما نحو صدرها لتخرج بهما نحو ساحة البيت الخارجية، وقد اطمأنت لنتيجة المقارنة بينهما!

مشهد الذبح المهيب يفرض سطوته على «فاطمة» التي وقفت تراقبه برعب عجزت عن التحكم فيه..

صوت تهاني العيد حولها لم يشفع.. صوت صفير الأطفال وضحكاتهم لم يشفع.. ضمة «غالية» لها لم تشفع.. لم تكن ترى في وقفتها سوى سكين السرجاني يتجه نحو عنق أمها ينحرها لأنها.. لأنها..!!

الأرض تميد بها فتتمايل في وقفتها، لكن «غالية» تشدّ من ضمتها لها لتنحني نحوها هامسة:

- لو سقطتِ سأعاقبك.. أنتِ ابنتي.. وابنة «غالية» لا تضعف!

وكأنما كلماتها تعويذة سحرية شدت جسد فاطمة شدًا لتقاوم السقوط وتثبت مكانها.. تغمض عينيها بقوة مقاومةً شعورًا هائلًا بالغثيان.. لن تسقط.. لن تخيب أمل غالية.. لن تنال عقابها.. لن تسقط.. لن

تسقط!

لم تدرِ كم مر من الوقت بعدها ولا كيف مرّ.. كل ما شعرت به هو كف «غالية» تربت على كتفها لتفتح عينيها أخيرًا وترفعهما نحوها.. ابتسامة «غالية» الراضية كانت جزاءً كافيًا لها لتمنحها ابتسامة دامعة قبل أن تخفي وجهها في صدرها.. هذه الحركة الخاطفة التي وجدت صداها في قلب «غالية» على أي حال!

- يمكنكِ الذهاب الآن.. تمتعي بالعيد كما تريدين.. لو أردتِ الخروج مع صديقاتك فافعلي.

تقولها «غالية» برضا وهي تمد يدها في جيبها لتمنحها «العيدية» المعهودة، فتدسها «فاطمة» في جيب ثوبها، قبل أن ترد بما تعلم أنه سيروق لـ«غالية» أكثر:

- سأبقى هنا أفضل حتى يهدأ زحام العيد.

تقولها وهي تراقب «غنى» التي خصصت لها «غالية» مركبة مكشوفة الجوانب يقودها أحد الجياد؛ كي تتنزه بها مع رفيقاتها اللائي كُنّ يتقافزن الآن حولها بسعادة طفولية تناقض الحزن الذي سكن حدقتيها هي وهي تشاهد انشغال الجميع عنها..

«صفرٌ على اليسار» كما علَّموها في دروس الحساب.. دومًا يبقى بلا قيمة!

هكذا ترى نفسها كما يراها الجميع.. لهذا تحركت لتدور بخطوات بطيئة حول البيت قبل أن تنزوي في ركن بعينه من الحديقة جعلته لمناجاة نفسها الصامتة.. هناك حيث زرعوا زهور اللافندر.. لا تزال رائحته الفريدة تذكّرها بـ«صابون والدتها».. أجل فليصموها بما يشاءون من «دنس»، لكن ستبقى رائحة ذكراها مرادفة لـ«النظافة» في عينها!

هنا انخرطت فجأة في البكاء، وكأنّ تماسك

الدقائق السابقة لم يكن إلا قناعًا صاغته قسوة «غالية» ورغبتها هي في إرضائها.. ترى لو علمت «غالية» أنها لا تزال تذكر أمها الحقيقية أستعاقبها؟!

مزيجٌ من الشعور بالذنب مع القهر يتملكها فلا يحتمله قلب فتاة بعمرها..

«لما قالوا دي بنيّة فرح قلبي وعنيّا»

تدندن بها باللحن القديم الذي لا تدري من أين طفا على سطح ذهنها فجأة هكذا، ليزداد انهمار الدمع من عينيها، فلا تدري هل تواسيها الأغنية أم تجلدها!

- ويجاا.. ويجاااا.. حلوة الحلوات.. ستّ البنات.. لا يجدي البكاء على ما فات!

ترفع عينيها نحو المجذوب سليمان فتبتسم عفويًا وهي تراه يقترب.. اعتاد الصغار الخوف من هيئته المشعثة وثيابه المهلهلة المتسخة.. لكنها لسبب ما

كانت تأنس به.. تحب حديثه المنغم بنهاياته الممطوطة وتشفق عليه بعدما علمت عن حكايته التي رووها لها والتي ذكّرتها بحكايتها هي..

إذ كان له ابن هو كل حياته بعد وفاة زوجته.. كان يؤهله للدراسة في الجامعة رغم ضيق الحال.. ويوم ظهور نتيجة شهادته الأخيرة خرج مع أقرانه يحتفلون في المدينة القريبة عقب اطمئنانهم على نجاحهم مباشرة فأصابته سيارة لتودي بحياته.. أصدقاؤه أخبروه أن آخر كلمات ابنه قبل وفاته كانت: «أخبروا أبي أنني حققت حلمه ونجحت».. أجل حقق الفتى حلم أبيه، ثم رحل به، وبكل شيء معه، حتى عقل الرجل الذي فقده برحيله!

- لا عيد لمن فقد الحبيب!

يغمغم بها سليمان وهو يجلس بجوارها محيطًا عصاه بقبضتيه وعيناه تبدوان كأنما هاجرتا لمكان

غير المكان وزمان غير الزمان، فتبتسم ابتسامة باكية وهي تتفرس ملامحه.. سمرته الداكنة.. عيناه الغائرتان.. تجاعيد وجهه المتسخ.. شعره الأشعث.. كلها مشاهد منفرة، لكنها رأتها بفطرتها لا بعينيها، لهذا مدّت كفها الصغير تربت على قبضتيه المحيطتين بعصاه دون كلمات.. لتدمع عينا الرجل وهو يلتفت نحوها بكلماته التي لم يتكلف سجعها هذه المرة:

- تدرين متى كانت آخر مرة لمسني فيها أحدهم هكذا؟! كلهم يشمئزون مني! حتى صدَقاتهم يكادون يقذفونها في كفي قذفًا؛ مخافة أن أمسَّهم!

عيناها هي الأخرى تدمعان لتردَّ بشرود:

- لستُ أفضل حالًا منك بكثير.. كلانا يشمئزون من الاقتراب منه، ويكتفون بثواب صدقاتهم المنشود.

- «غالية» تحبك.. لكنها تخاف منك!

- مني أنا؟!

تسأله بدهشة، وقد بدت لها عيناه الغائرتان كبلّوْرَتي ساحر تقرآن الغد، خاصة عندما ارتجفت شفتاه بشبه ابتسامة ناسبت قوله:

- منكِ ومن نفسها ومن الناس.. ما من سجنٍ أكبر من الخوف عندما يتملكنا فلا تسعنا الدنيا بما رحبت!

ترمقه بنظرة طويلة متعجبة وقد بدت لها عبارته أكثر حكمة مما يفترض بمجذوب مثله..

لتتسع ابتسامته بينما يردف وعيناه تحتضنان نظراتها بحنوّ:

- لا تنتظري أن يناولوكِ نجمة.. مدّي أنتِ يديكِ وتناولي القمر!

يقولها ثم يتحرك كفه فجأة ليقبض على الهواء في

تمثيل حركي لعبارته، فتضحك لجمال التشبيه، قبل أن تراه ينتزع من حول عنقه مسبحة طويلة ملونة ليضعها حول عنقها هي.. واحدة أخرى أقصر طولًا يضعها فوق رأسها لتتدلى فوق جبينها الوضاء.. وواحدة أخرى أقصر يلفها مرتين حول معصمها لتبدو كسوار.. العجيب أنها كلها كانت زرقاء!

هذا الذي ذكرها بشيء ما جعلها تقول له بصوت متحشرج وهي تتلفت حولها مخافة أن يسمعها أحدهم:

- أخبرك سرًا؟! أمي قالت لي يومًا إنها لن تغيب عن حياتي أبدًا حتى لو اختطفها الموت، فستتحول لفراشة زرقاء تطوف حولي.

- أمك.. «غالية»؟!

- بل.. أمي.. أمي..

سؤاله الحذر يقابل تلعثم حروفها، فيبتسم بحنان يجعلها تغتصب ضحكة مصطنعة لتردف وهي تمسح دموعها:

- لا أدري لماذا زرقاء بالذات!

تتسع ابتسامته الحزينة وهو يتلمس حبات مسبحته الزرقاء حول معصمها متمتمًا:

- هو لون الحزن.. لون الغربة.. لون التفرد.. لا يعشق الأزرق إلا سجين الروح.

تتفحصه بغرابة وهي تشعر في هذه اللحظة فقط بأنها وجدت صديقًا تأتمنه ولا تخافه!

لهذا مدّت يدها في جيبها تستخرج واحدة من حلوى العيد وضعتها بسرعة طفولية في فمه ليضحك ضحكة قصيرة وهو يتناولها بنهم قبل أن يقفز من مكانه ببهلوانيته المعهودة وقد عادت

لهجته لسابق عهدها:

- ويجاااا.. ويجاااا.. شمس النهار تدحر خوف الليالي.. نورها يساوي بين الرخيص والغالي.

ينعقد حاجباها وهي تعجز عن فهم كلماته، فترمقه بنظرة متسائلة، لكنه يختفي عن ناظريها بخطواته شبه المتقافزة شديدة اللياقة مقارنة بسنّه، ليتركها وقد رسم ابتسامة حقيقية على ثغرها في بداية لعهد صداقة جديد بينهما..

* * *

- رأيتها؟!

الصوت الملهوف يأتيه من خلفه في المكان الخرب الذي يأوي إليه آخر الليل، فينهض «سليمان» من رقدته ليلتفت نحو صاحبه -الذي بدا في الظلام مجرد ظل- بنظرة مشفقة وإيماءة إيجاب.

هنا يتقدم صاحب «الظل» ليجلس متربعًا أمامه متسائلًا بنفس اللهفة:

- كيف هي؟!

يهز «سليمان» رأسه بهذه الحركة البهلوانية قبل أن يحكي له ما كان منه مع «فاطمة»، فيبتسم «الظل» ابتسامة شاردة ثم يمد يده في جيبه ليخرج المزيد من العقود الزرقاء التي ناولها له قائلًا:

- كنت أعلم أنها ستحبها.. خذ كل هذا، وأعطها إياه في المرة القادمة.

يبتسم المجذوب بحنان وهو يتابع المزيج الغريب لنظرات «الظل» بين «رضا» و«ندم».. قبل أن يشعر به يختفي من أمامه ليعود فيخفيه الظلام..

ترى أي سر يخفيه؟!

الهالة الثالثة

(ليس أبي!)

ستة عشر عامًا يا «فاطمة».. فماذا تغير فيكِ؟!

تقولها لنفسها وقد استيقظت لتوها في غرفتها شبيهة المنفى التي تقيم فيها ببيت «غالية».. تجلس على فراشها وحيدة كعهدها وسط كتبها الكثيرة.. ما بين كتب دراسية وأخرى تقترضها من إحدى صديقاتها لتقرأها خلسة بعيدًا عن عيني «غالية».. إذ كيف تخبرها بأنها صارت شغوفة حقًا بالقراءة عن الحب؟! أي حب!!

أجل.. بداخلها الآن ألف وجه لعاطفة تتسول الرفيق.. ما بين طفلة يتيمة وفتاة متمردة وعجوز نهب الحزن عمرها، ولم يترك لها سوى تجاعيد الألم!

هكذا هي ببساطة صارت ترى نفسها خلف قناع مرحها الذي تداري به رغبة عارمة في التمرد على كل ما فات والانطلاق كجواد حر في مراعٍ لا تعترف بماضٍ!

تفتح إحدى الروايات خاصتها مما تعشق بطلها حد الجنون.. حد أنها تبدأ صباحاتها بقراءة اعترافه بالحب لمعشوقته التي ترى فيها نفسها وتتخيله يقولها لها هي.. فتبتسم وهي تعد نفسها باليوم الذي يطرق فيه الحب الباب ليمنحها قصتها الخاصة.. فهل هي بعيدة عن الحب حقًا؟!

المعجبون كثيرون يلاحقونها في الطريق.. يتعقبونها وهي في طريقها للمدرسة أو لدروسها الخصوصية.. يتغزلون في جمال جسدها وشعرها الذي تتعمد إبراز بعض خصلاته عبر حجابها كي يشي بجمال ما تخفيه.. مغازلاتهم صارت هوسها الخاص.. تحب هذه النظرة التي تمنحها لها عيونهم

أنها «ذات قيمة»، ولا يعنيها المعنى الخبيث الذي يتوارى خلف هذا!

- المدرسة يا «فاطمة»!

تهتف بها الخادمة خلف الباب المغلق مع طرقها إياه، فتنتفض «فاطمة» مكانها لتخفي الرواية في مكمنها تحت فراشها بعد أن منحت «بطلها الخيالي» قبلة وداع.. ثم تحركت لتفتح الباب وتتقدم عبر الرواق القصير نحو الحمام بخطوات متقافزة لتصطدم فجأة بجسده.. «طاهر»!

لا تدري من أين ظهر، لكن مجرد رؤيته كانت تصبُّ الخوف في أوصالها، ولا تدري ما السبب.. منذ وعت على حقيقة وجودها في هذا البيت وقد نجحت «غالية» -رغم قسوة طباعها- في جعلها تشعر بأمومتها لها.. لكن «طاهر» فشل في جعلها تشعر بأبوّته!

علاقته بها لم تزد في البداية عن كونها مجرد قطعة أثاث بالية في بيته الفخم يتجاهلها وأحيانًا يضيق بها، لكنها تشعر أن نظراته مؤخرًا صارت تحمل بعض «الاهتمام» الذي تتوق إليه أرضها العطشى لأي عاطفة!

- ألن تكفّي عن رعونتك هذه؟! لماذا تقفزين هكذا كالبهلوانات؟!

يهتف بها بصوته المهيب الذي طالما أثار خوفها لترتجف شفتاها متمتمة باعتذار واهٍ وعيناها ترتفعان بترقب نحو عينيه اللتين كانتا مشتعلتين بنظرته «الجديدة» عليها، بينما تمشطان جسدها مع استطراده:

- أنتِ كبرتِ!

ارتجف جسدها كاملًا مع عبارته التي لم تفهم مغزاها.. تعنيفٌ هو أم شيء آخر؟! خاطر مرعب

ينتابها يجعلها تحيد بعينيها للأسفل فتصطدم بـ«الوشم الأخضر» الذي رأته شديد القبح على ظاهر كفه.. تزدرد ريقها بتوتر، ثم تعتذر إليه بكلمات مقتضبة، قبل أن تسرع للاختفاء عن ناظريه خلف باب الحمام الذي أغلقته خلفها.. بينما شفتاه تتلونان بابتسامة ساخرة متحسرة، وهو يداعب شاربه الكث بسبابته ونظراته تلتمع بنشوة مستمتعة..

- لماذا تقف هكذا؟!

صوت «غالية» المفاجئ يكاد ينتزعه من مكانه، فيلتفت نحوها هاتفًا بغيظ:

- ستقتلينني يومًا بحركتك المعهودة هذه؟! لماذا تتسللين هكذا؟!

فتوهجت عيناها ببريق جبروتها المعهود وهي تقترب منه أكثر لتقول عبر نبرتها الجليدية:

- صرت ترفع صوتك عليّ!

يضغط على أسنانه صامتًا دون رد، فتقسو ملامحها أكثر مع استطرادها:

- صرت تنتقدني؟! تعيبني أنا؟! أنت يا «ابن بائع الخردة»؟!

وجهه يحمرُّ بغضب ليرتفع ذراعاه نحوها كأنه يهم بضربها، لكنه يوقفهما في اللحظة المناسبة، ليزفر مشيحًا بوجهه دون رد.. هذا الذي جعلها تشعر بالظفر، لتردف بينما تلوّح بسبابتها في وجهه:

- انسَ كل شيء وأي شيء إلا مقامك.. ومقامي.. لو كنت تظن نفسك صرت عضو المجلس الكبير فهذا بفضلي وفضل عائلتي.. وكما رفعتك لسابع سماء قد أخسف بك سابع أرض!

يلتفت نحوها بنظرة غامضة لم تعتدها رغم خنوع

كلماته المعهود بعدها:

- يبدو أن مزاجك غير رائق هذا الصباح.. سأطلب من الخادمة أن تعد لكِ قهوتك.

يغادرها بخطوات مسرعة دون انتظار ردِّها فينعقد حاجباها بشدة وهي تشعر بالتوجس.. هل يوشك زمامه أن يفلت من يدها؟! هيهات! هي تمسك عنقه بقبضة من حديد، ولو فكر مجرد تفكير أن يخرج عن أوامرها فستغرق له سفنه كاملة.. صحيحٌ أنها لا تغادر البيت إلا قليلًا، لكن ما لا يعلمه أن عيونها تحوطه في كل مكان.

يخونها؟! تعلم أنه يفعل!

بل إنها تحصي خياناته واحدة واحدة.. كل واحدة منها تركت ندبتها في قلبها، لكنها أبدلتها بابتسامة مهيمنة على وجه لم يفارقه كبرياؤه.. فليعبث كما يشاء ما دام يعود إليها آخر كل ليلة صاغرًا ذليلًا

يستجدي رضاها.

لا.. لم تواجهه بعلمها عن هذا.. منعتها كرامتها و... خوفها!

أجل.. خوفها أن يسقط حاجز رهبته منها.. هي ارتضته مجرد «برواز» لصورتها أمام الناس، وواجبها أن تداري عيوبه.. فقد تعلمت بخبرتها كيف لا تضيق اللجام فتختنق الفرس أو ترخيه فيهرب!

- خالتي.. صباح الخير!

تقولها «غنى»، وهي ترتفع على أطراف أصابعها؛ لتقبّل وجنتها، فالتفتت نحوها هاتفة بعصبية ولّدها الموقف السابق:

- ألن تكفّي عن قول «خالتي» هذه؟! ألا ترتضين أن تناديني أمي كـ«فاطمة»؟!

فترتجف «غنى» مكانها لتغمغم متلعثمة:

- إنه الاعتياد فقط.. تعلمين..

- كفّي عن الثرثرة، وارتدي ملابسك كي لا تتأخري ككل يوم.. لن تنتظرك سيارة المدرسة حتى قيام الساعة.

هتافها العصبي يقاطع عبارة «غنى» التي أسرعت تختفي عن ناظريها، فيما كانت «فاطمة» تلصق أذنها بباب الحمام تستمع لكل الذي كان.. لم يكن موقف «طاهر» الخانع يدهشها؛ فالجميع يهابون «غالية».. لكن ما كان يدهشها حقًا هو «غالية» نفسها.. لماذا تعامله بهذه الخشونة القاسية إذا كانت هي من تقبلت البقاء معه رغم أنه لا ينجب كما يقول الجميع.. لا تفعل المرأة هذا إلا إذا كانت تحب.. تحب؟! «غالية» تحب؟!

الفكرة بدت لها طريفة وهي تقارنها ببطلات

القصص التي تقرأها، فوضعت كفّها على شفتيها تكتم ضحكة عابثة قبل أن تعدل ملابسها لتخرج إليها، حيث وجدتها جالسة على مائدة السفرة تسند وجهها على قبضتيها المضمومتين، فبادرتها بقبلة على رأسها مع قولها:

- صباح الخير يا أمي.

ترفع «غالية» عينيها إليها لتقابلها ملامح الفتاة الصبوح التي وجدت صداها في قلبها لترتسم على شفتيها شبه ابتسامة ناقضت قولها الحازم:

- اليوم موعد اختبارك الشهري.. لن أسمح بخطأ واحد.

- الأولى كالعادة يا أمي.. لا تقلقي.

تهتف بها «فاطمة» بمرح واثق ليفاجئها الصوت من خلفها:

- لا تغتري كثيرًا.. لا يقع إلا «الشاطر»!

تقولها «غنى» بغيظ لتلتفت نحوها «فاطمة» هاتفة:

- ليس غرورًا.. هذه هي الثقة بالنفس التي علمتني إياها أمي.

كانت تتعمد المزيد من كلمة «أمي» بعدما أدركت أنها تضيف لها المزيد من الأسهم في قلب غالية وقد صدق ظنها عندما وجدت كف غالية يتناول راحتها بحنان ناقض عبارتها الصارمة بعدها:

- كفى جدالًا واستعدا للذهاب للمدرسة..

ثم التفتت نحو «فاطمة» مردفة:

- لو حصلتِ على المركز الأول، فسأشتري لكِ الخاتم الذهبي الذي أعجبك.

- حقًا يا أمي؟!

هتفت بها «فاطمة» بسعادة وهي تنكب فوق جسدها تعانقه بحنان، فتنهدت «غالية» وهي تضمها بدورها لتفلت منها كلماتها فاضحة بعض مشاعرها:

- أريد أن يتحدث الناس ككل عام أن ابنة «غالية» تفوقت على بناتهن.

ثم حملت نظراتها بعض الحسرة وهي ترقب وجه «غنى» الذي احمرّ خزيًا وغيرة.. فالفتاة كانت ضعيفة التحصيل في دراستها، وضعف جسدها العام يجعلها دومًا عرضة للمرض الذي يعوقها عن جدية المذاكرة..

ومن جديد تشعر بالمقارنة بين الفتاتين تعتصر قلبها..

«فاطمة» لا تزال تحصد السنابل كلها، فلا يبقى لـ«غنى» إلا القش!

* * *

- لماذا تبكين هكذا؟!

تمتمت بها «غالية» بقلق حقيقي وهي ترى «فاطمة» تدفن وجهها بين ركبتيها وجسدها يرتجف بنشيج خافت، وقد انزوت في ركنها الخفي من الحديقة في هذا الوقت من الليل، لترفع إليها «فاطمة» عينين دامعتين دون رد..

فانعقد حاجبا «غالية» وهي تردف بنبرة أعلى:

- منذ عدتِ من المدرسة وأنتِ تعتكفين في غرفتك ولم تتناولي غداءك.. هل درجات الاختبار سيئة إلى هذا الحد؟!

لكن «فاطمة» مسحت دموعها وابتسامة مريرة تغزو شفتيها مع جوابها:

- الأولى يا أمي كالعادة.

- إذن ماذا حدث؟!

ترددت «فاطمة» قليلًا وهي تسترجع ما حدث في المدرسة صبيحة اليوم.. فما كاد المعلم يوزّع درجات الامتحان ليعلن أنها الوحيدة التي حصلت على الدرجة النهائية حتى شقّ هتاف إحداهن الصف:

- ابنة «العاهرة» هذه تتفوق علينا.. إنها مهزلة!

في البداية لم تدرك عم تتحدث الفتاة، لكنها ما كادت تلمح نظرات الجميع بين إشفاق وشماتة حتى شعرت بقلبها يغوص بين ضلوعها وأنفاسها تختنق بصدرها.. إنه الماضي اللعين لا يزال يغرس نصله في ظهرها!

- «فاطمة»!

عادت «غالية» تغمغم بها بقلق لتنتزعها من شرودها، فاضطرت لأن تروي لها ما حدث.. ولم تكد تنتهي حتى قست ملامح «غالية» بشدة ليحمر وجهها وهي تشرد في الفراغ قبل أن تقول لها بنبرتها الصارمة:

- كفِّي عن البكاء.. ابنة «غالية» لا تبكي.. عودي إلى غرفتك.

رمقتها «فاطمة» بنظرة طويلة مستجدية وقد ودّت في هذه اللحظة لو تبدّل حديثها هذا بمجرد «عناق»!

عناق تضمُّها فيه لصدرها وتُشعرها بهذه العاطفة التي صارت تفتقدها في كل ما حولها.. ولما يئست من أن تفهم «غالية» مرادها وقفت مكانها مطرقة

برأسها لتغمغم بفتور:

- حسنًا.. تصبحين على خير.

قالتها لتعود بخطوات مهزومة نحو غرفتها تنتظر الصباح.. «الجاثوم» القديم يعاود إطباقه على صدرها.. ينفث السم بين أنفاسها ليذرها بين يأس وقنوط.. لكن نظرة منها تتسلل نحو المسبحة الزرقاء التي علقتها هناك خلف باب غرفتها ترسم طيف ابتسامة فوق شفتيها.. لقد اعتادت هذا الصراع بينهما.. بين حجر مربوط في قدمها يشدها للأسفل وجناح ينمو على كتفها يعدها بالطيران.. هذا الصراع الذي تقرر هي دومًا حسمه بأن... تُحلّق!

لهذا وجدت نفسها ترتدي ملابس المدرسة في وقت مبكر لتذهب حتى قبل موعدها.. عيناها تتشبثان بهذه النظرة الزجاجية التي لا تعكس أيًا من مشاعرها.. لن ترى سخرية الفتيات ولا شماتتهن.. بل

نجاحها و.. فقط!!

لهذا جلست تستمع للدرس باهتمام لا تدعيه، ولم يكد يمر القليل من الوقت حتى وجدت باب الفصل يفتح لتطل منه وجه مديرة المدرسة وبجوارها.. «غالية»!

اتسعت عيناها بترقب وهي ترمق «غالية» بنظرة متسائلة، لكن الأخيرة تجاهلتها تمامًا، وهي تتقدم نحو الصفوف لتقف أمام الفتاة التي سبّتها بالأمس و.. تصفعها!

صفعتها تزامنت مع شهقات بقية الفتيات وارتجاف جسد «فاطمة» بتأثره، خاصة عندما دوى صوت «غالية» بجبروته مخاطبة نفس الفتاة:

- «فاطمة» ليست ابنة عاهرة.. «فاطمة» ابنتي أنا.. تعلمين ما تفعله «غالية» بمن يمسُّ الذين يخصونها؟!

تمتمات الفتاة المذعورة أثارت شفقة «فاطمة»، خاصة مع صمت المديرة والمعلمة الواشي بمن يملك القوة هاهنا الآن.. قبل أن تتقدم «غالية» نحو «فاطمة» لتضع كفها على كتفها بحركة موحية سبقت مغادرتها للمكان..

لتعلم «فاطمة» بعد ساعة واحدة أن الفتاة تم فصلها نهائيًا من المدرسة!

* * *

إلى نفس المكان في الحديقة تعود لكن بشعور مختلف!

رغم ما يفترض أن يملأها من نشوة الظفر بما حدث، لكنها للعجب كانت تشعر بالمزيد من الصراع.. بين «جاثوم» أسود صار يتشكل بصورة «السرجاني» وبيده سكينه.. وبين «طيف أزرق» ناعم لأمها.. الأول يقذفها في حمم من خوف.. غضب.. رغبة عارمة في

الانتقام من أي شيء وكل شيء، والثاني يهدهدها برفق ويمنحها ابتسامة صبر ورضا..

هذا الصراع الذي تشتد ضراوته كلما كبر عمرها وزاد إدراكها لحقيقة وضعها.. صحيح أنها تشعر بالكثير من الامتنان لـ«غالية» بعدما حدث.. لكن هذا لا ينفي مرارة شعورها بالخزي وهي ترى نفسها غريبة عن كل ما حولها.. حتى إن صديقاتها تفرقن من حولها بعد الموقف الأخير لتعود لصومعتها وحيدة منبوذة.

- ويجاااا.. ويجاااا.. وسط العتمة نور.. قبور يحسبونها قصورا.. وقصور يحسبونها قبورا.

تبتسم بألفة وهي تميز صوت سليمان الذي تقدم منها بهيئته المميزة.. لم تفهم حديثه كالعادة، لكنها شعرت بالارتياح لوجوده، وقد صار صديقها الوحيد..

تخرج من جيبها قطعة من الحلوى تعلم أنه يحبها،

فتمنحه إياها ليبتسم بدوره لها، وهو يمنحها مسبحة أخرى زرقاء، مما صارت هي تتيمن بها..

- سمعت ما حدث؟!

تسأله لا تنتظر ردًا وهي تجلس متربعة على الأرض ليجلس بجوارها، وهو يهز رأسه بحركته البهلوانية المعهودة، فتتنهد وهي تحكي له بأريحية عما تشعر به.. غريب هذا الرجل في شعورها نحوه.. لا تدري لماذا تأتمنه هكذا على البوح بما يجيش بصدرها.. ربما لأنه وحده من يستمع إليها بهذا الإصغاء، وربما لأنها يمكنها التبرؤ منه لو فكّر في فضح أسرارها يومًا.. وربما لأنه يشبهها كما يقول دومًا.

- هل تصدق أن أمي كما يزعمون؟!

- هل تصدقين أنتِ؟!

- لا أريد أن أصدق.

- إذن.. لا تفعلي!

يقولها مع هزة كتف وهو يداعب بأنامله عشب الحديقة حوله، ليردف بحكمة مناقضة لطبيعته البهلوانية المعهودة:

- اصنعي حقائق عالمك بنفسك يا بنية.. اكتبي انتِ الحكاية وكوني بطلتها.

تبتسم بالكثير من الارتياح وهي ترفع رأسها نحو نجوم السماء المتلألئة لتغمغم بينما ترفع ركبتيها تحتضنهما بذراعيها:

- تعلم؟! داخلي حلم كبير يكاد يُنبت لي جناحين من نور..

ثم زفرت بقنوط وهي تعود ببصرها نحو الأرض مردفة:

- لكن صورة «سرجاني» وسكينه لا تفارقني.. تصرعني في كل مرة أحاول فيها التحليق.

- ويجاا.. ويجاا.. من ينظر للخلف يفقد سواء الصراط أمامه.

عبارته الغامضة كانت إيذانًا بانتهاء جلسة المصارحة، فقد صارت تفهم من زيغ نظراته بعدها أنه لن يستمع للمزيد.. لهذا تنهدت بضيق وهي تراه يقف ليعطيها ظهره مغادرًا، لكنه توقف فجأة ليعود ببصره نحوها..

- لعل السر في اسم «أمك»!

يقولها ببطء غامض ليعاود رحلة مغادرته، فينعقد حاجباها وهي تفكر فيما يقصده.. «غفران»!

أمها كانت تدعى «غفران».. ما الذي يقصده

«سليمان» بالسر في هذا؟! أم إنها مجرد واحدة من تخاريفه؟!

زفرة ساخطة تغادر شفتيها وهي تفك ارتباط ساعديها لتقف مكانها وتعود للبيت.. خطواتها تتوقف قليلًا أمام الدرج المؤدي لغرفة «غالية».. تودُّ لو تشكرها.. لو تثرثر معها.. لو تحكي لها عما يحول بذهنها من أفكار، لكنها تطرق برأسها بقنوط وقد صارت تدرك مع كل يوم يمر أن عاطفة «غالية» كماء البحر لا يروي الظمآن!

لهذا عادت أدراجها نحو غرفتها السفلية بخطوات متثاقلة، عندما شعرت فجأة بكفيه على كتفيها..

- «طاهر بيه»!

تتمتم بها بوجل وعيناها تقابلان عينيه بتوجس ما عادت تتعجبه.. أجل! تناديه «طاهر بيه» وليس «أبي».. هو لم يتكلف طلبها منها كـ«غالية»، وهي لم

تشعر بها معه مثلها.. ربما كانت «غالية» أمًّا - بطريقتها- لكنه زهد أن يكون لها أبًا ولو حتى بطريقته!

نظراته الغريبة لها تتزامن مع حركة كفيه على كتفيها بما كان سيبدو لها عفويًا، خاصة مع عبارته المواسية بعدها إزاء ما حدث في المدرسة.. لولا..

لولا هذا الشرر الذي برق في حدقتيه، وهي تشعر وكأنما كفاه قبضتان من نار تتحركان على طول ذراعيها.. تغلق عينيها وصورة «وشمه القبيح» تكاد تصيبها بالغثيان..

- لا تخافي.. لن يمسك أحدهم بسوء وأنتِ في حمايتي.

جبينها يتعرق وهي تشعر بلمساته تزداد جرأة.. جرأة لن تسيء فهمها ولو ببراءة سنِّها هذا!

هنا تغزوها صورة «السرجاني» بسكينه ليزداد جسدها ارتجافًا.. تسمعه بأذن خيالها يصمها أنها كأمها.. تراه بنفس العين يرفع السكين نحوها، فتنتفض مكانها بقوة لا تدري من أين امتلكتها لتدفع «طاهر»، متمتمةً بكلمات لم تتبينها قبل أن تركض نحو غرفتها لتغلق بابها خلفها لاهثة الأنفاس.. هل قصد «طاهر» ما ظنَّته حقًّا؟! أم إن مخَّها فقط قد تلوَّث بما تقرأه من روايات؟!

لا.. مستحيل.. إنه هو من ربَّاها.. إنه أبوها!!

لكن «الجاثوم» إياه يعاود إطباقه على صدرها بصرخة ترددت في أعماقها..

- ليس أبي!

لتدرك بعدها أنها ستقضي ما بقي لها من أيامها في هذا البيت تختبئ منه خلف أي باب.. وأن «هالات» عينيها السوداء سيزيدها ليل السهر.

* * *

- هل بكت كثيرًا؟!

يسأله صاحب «الظل» بعدما حكى له «سليمان» عما حدث مع «فاطمة» في الفصل، ليرمقه الأخير بنظرة متفحصة.. الوجع الذي يسكن عينيه يجعل «سليمان» يجيبه مواسيًا:

- «غالية» ردّت لها حقها.

ابتسامة ساخرة تمتزج بمرارتها ترتسم على وجه صاحب الظل، قبل أن يطلق آهة عجز وهو يسقط على ركبتيه متمتمًا بكلمات لم يتبينها العجوز الذي تقدم منه ليربت على كتفه، فرفع صاحبه نظره إليه ليقول بشرود:

- أرأيت كم صارت جميلة؟!

فيبتسم «سليمان» بأسى متجاهلًا ما خلف سؤاله ليرد:

- اسمع نصيحتي ولا تنظر خلفك.. فلن يكون لكما يومًا لقاء.

العجيب أن الرجل لم يجادله بل أومأ برأسه موافقًا، ولا تزال المرارة تشق أخاديدها على ملامحه الملتاعة، ليسأله «سليمان» بتوجّس:

- ستسافر الليلة؟!

- ليس قبل أن أراها.

يقولها صاحب «الظل» بحسم، ثم يخفض غطاء رأسه على وجهه ليخفي المزيد من ملامحه، قبل أن ينهض ليغادر المكان بخطوات سريعة كعهده تلاحقه نظرات «سليمان» التي مزجت حزنها بتوجسها.. قبل

أن يرفع عينيه لسماء الليل التي خلت من نجومها متمتمًا:

- بعض الخطايا لا تغفرها توبة.. لا تكاد تغادر القلب حتى يلفظ آخر دقاته!

* * *

الهالة الرابعة

(والتقينا..!)

ثمانية عشر عامًا يا فاطمة.. ولا تزال مرآتك تحكي ألف قصة عن جمال لم تنقصه هالات عينيك السوداء.. إنما زادته جاذبية.. كأنما قدرك التحدي والمخالفة!

هكذا حدَّثت نفسها أمام مرآتها، وهي تمشط شعرها الطويل قبل أن تجدله لتعقصه فوق رأسها تمهيدًا لارتداء حجابها وثوبها الطويل كما اعتادت حتى في البيت.. أجل.. منذ صارت تنتبه لنظرات «طاهر» وتحرشاته بها وهي تحرص أن تداري جسدها قدر استطاعتها.

نفضت الخاطر الأخير عن ذهنها بزفرة ساخطة،

قبل أن تتوجه نحو خزانة ملابسها لتلتقط «الصورة» التي قبّلتها كعهدها كل صباح قبل أن تتفرس فيها بهيام..

«هاشم العدوي»!

متى أحبته؟! متى امتلك قلبها فجأة، لتصير خفقاتها رهينة اسمه؟!

هي لا تدري! بل إنها لا تذكر متى كانت المرة الأولى التي سمعت فيها اسمه.. قبل أن يصير حديث أهل البلدة، بل مصر كلها!

أجل.. هو لاعب الكرة الشهير الذي صار اسمه يتصدر عناوين الصحف والبرامج.. وابن قريتها الذي يتفاخرون به جميعًا هنا بعد ما حققه من نجاح.. وسيم بهذه الطريقة التي طالما تمنّتها في فارس أحلامها.. أبيض البشرة مع حمرة خفيفة.. أخضر العينين.. لا ليست خضرة مختلطة كعينيها، بل

خضرة صافية صريحة تصنع مع لون شعره الأشقر وجسده الرياضي الممشوق مزيجًا آسرًا.

لم تكن هذه صورته الوحيدة لديها.. بل كانت تملك أخرى تحت وسادتها.. وأخرى مستترة في حافظة نقودها.. وأخريات متواريات بين صفحات كتبها.. لقد تحوَّل فجأة لصديقها التخيلي الذي تحكي له عن أحزانها.. أحلامها.. شجاراتها المتعددة مع «غنى».. احتياج عاطفتها نحو «غالية».. وخوفها من «طاهر».. أجل.. هي التي خلت حياتها من الصديقات يومًا بعد يوم، فاتخذته عالمًا من الخيال ذابت فيه حتى النخاع.. عاشت معه فيه كل قصص الحب التي قرأتها.. فكانت له نجمة وكان لها قمرًا!

صحيحٌ أنها لم تره مرة واحدة على الطبيعة، رغم زياراته المتباعدة للقرية.. لكنها صارت وكأنها تعيش معه كل تفاصيل عمرها!

- ظهرت النتيجة يا «فاطمة».. اذهبي إلى المدرسة لتحضريها بسرعة.

هتاف الخادمة من الخارج يجعلها تشهق بانفعال قبل أن تقبِّل الصورة في يدها هاتفة بسرعة:

- القلق يقتلني يا «هاشم».. لو حصلت على المجموع الذي يدخلني كليتي المنشودة، فسأسهر معك حتى الصباح وربما... ربما نخرج معًا كما تريد دومًا.

تقول عبارتها الأخيرة بدلال، فيظنها الرائي مخبولة، لكنها حقًا تقمصت الدور الذي اختارته في عالمها الخيالي!

تبدِّل ملابسها بسرعة لتغادر الغرفة، فتستقبلها «غالية» بلهفة عبارتها التي خالطت رصانتها المعهودة:

- اذهبي وعودي بسرعة ولا تتسكعي كعهدك.. أريد أن أطمئن..

فتبتسم وهي تقبّل وجنتيها هاتفة:

- اطمئني يا أمي.. ابنتك ستشرِّفك كالعادة.

ترتجف ابتسامة حسرة على شفتي «غالية» وهي تراقب «فاطمة» تغادر بحيويتها المعهودة، لتتنهد بأسى وهي ترفع وجهها نحو الأعلى، حيث غرفة «غنى» التي تحبس نفسها فيها منذ ظهرت نتيجتها بدرجاتها المتدنية.. لا تزال «فاطمة» تعدو بجدّ في سباق حياتها، بينما ابنة شقيقتها تحبو كالسلحفاة..

لا.. لن تظلم الفتاة؛ فظروفها الصحية دومًا مضطربة، وجسدها الضعيف يبدو تربة خصبة دومًا لكل الأمراض.. لقد توزّعت أنصبة القدر العادلة كالمعتاد، فحصدت «فاطمة» الجمال والصحة والتفوق، بينما بخس قدر «غنى» في هذا كله!!

عادت تتنهد بحرارة عند الخاطر الأخير، وهي تعود ببصرها نحو باب البيت تنتظر عودة «فاطمة»..

صدرها يكاد ينشق برغبتين تتنازعانه.. إحداهما أن تفوز «فاطمة»! أن تنال المجموع الذي يؤهلها لدخول كلية الهندسة.. أن يتحدث أهل القرية أن «غالية أجادت التربية»، وأن ابنتها تفوقت كالعادة على بناتهن..

لكنها لا تنكر رغبة خفية أخرى تنبثق داخلها بنفس القوة.. أن تخسر «فاطمة»! أن تفشل ولو مرة لأجل خاطر «غنى» البائسة التي لا تزيدها مقارنتها بها إلا خزيًا وضعةً!

- نجحت يا أمي.. باركي لـ«الباشمهندسة فاطمة»!

هتاف «فاطمة» الصاخب عند الباب يقاطع أفكارها، ويكاد يخلع قلبها من مكانه، فتندفع نحوها خطوة

واحدة، لكن «فاطمة» من تكمل بقية الخطوات لترتمي بين ذراعيها صارخة بحماسة:

- الأولى يا أمي.. الأولى.. «الهندسة» مضمونة!

كانت تتحدث بانفعال، لكن انفعال «غالية» كان أقوى وعيناها تدمعان بفرح حقيقي قرأته «فاطمة» حتى دون كلمات.. عناق قصير ذابت فيه كلتاهما للحظات، لكن صوت «غنى» قطعه:

- مبارك.. لكن لا تتعجلي بالفرحة هكذا.. يقولون إن تنسيق الدرجات عالٍ هذا العام.. وقد لا تدركينها.

وبقدر الغيظ الذي شعرت به «فاطمة» من عبارتها.. كانت الشفقة التي شعرت بها «غالية» نحوها.. وهي ترمق ملامح «غنى» الشاحبة ببياض شفتيها الواضح وعينيها الذابلتين، خاصة عندما ترنحت بعدها في وقفتها، لتهرع نحوها «غالية» وتسندها هاتفة:

- ها قد عدتِ لنوبات الدوار؛ لأنكِ لا تهتمين بطعامك.. تحاليلك الأخيرة كلها سيئة.. ألن تكبري وتعتني بحالكِ أكثر؟!

هكذا كان حنان «غالية» دومًا مغلفًا بقسوتها المعهودة.. لكن «فاطمة» لم تكن تشعر في هذه اللحظة سوى بالخيبة، وهي تشعر بأن فرحتها انطفأت فجأة، خاصة عندما غادرتها «غالية» تسند جسد ابنة شقيقتها لتصعد بها نحو غرفتها.. فقط هكذا ببساطة يكون ردّ فعلها على حدث مصيري في حياتها كهذا؟!!

الغضب المشوب بالخيبة، والذي ملأها في هذه اللحظة جعلها تستجيب لطبيعتها المتمردة التي قلما تطفو إلى السطح.. تندفع لتغادر البيت كله دون إذن «غالية» كما تفعل دومًا، لتجد خطواتها تقودها نحو الطريق الخارجي الذي يفصل القرية عما يجاورها..

وتحت شجرة وافرة الظلال في ركن قصي جلست تبكي وحدها لوقت لم تعلمه..

لكنها انتبهت أخيرًا لوجود أحدهم هناك!

كان مستلقيًا على ظهره تحت شجرة قريبة تشبه شجرتها، وقد غطى وجهه بقبعة من قش.. لتدرك من طول سكونه أنه نائم!

شعرت بالقلق من وجودها هكذا بالقرب منه، خاصة عندما تلفتت حولها لتجد المكان شبه منعزل، فهبّت واقفة تهم بالمغادرة، لكنها شهقت برعب وهي تلمح الأفعى التي تنساب بنعومة نحو الرجل، وقد ارتفع رأسها تهم بالانقضاض!

* * *

- «هاشم»!

تهتف بها بذهول، وهي تناظر الرجل الذي هبّ من نومته ليرفع عنه قبعته، فجأة قبل أن يبتسم بإعجاب وهو يرقب الأفعى بجواره والتي هشم الحجر رأسها..

- تعرفينني؟!

تعرفه؟! هل يسألها؟! إنها لا تكاد تعرف في عالمها سواه! هل تخبره عن صوره التي تملأ خزانتها؟! عن أوهام يقظتها حوله أم عن أحلام نومها به؟!

«هاشم» هنا؟! حقيقي؟! بل إنها أنقذت حياته بضربتها لتلك الأفعى؟!!

لا.. لا.. إنه حلم.. حلم كغيره!!

الخاطر الأخير يملأ عينيها بالدموع وهي تراقبه من علو بينما لا يزال هو راقدًا مكانه يرفع عينيه إليها لتتسع ابتسامته العذبة وهو يتفرس ملامحها.. وقد

بدا له سؤاله غبيًا مقارنة بردة فعلها التي فضحت انفعالها..

- أنتِ شجاعة حقًا.. سأغير رأيي في بنات البلدة إذا كنّ جميعًا بجسارتك!

يقولها بإعجاب يتنامى وعيناه تدوران عليها بنظرات طالما رسمتها في خيالها، والآن تجدها أكثر عذوبة.. لهذا انعقد لسانها وهي تكتّف جسدها بساعديها ليزداد احمرار وجهها وهي تراه يقف بقفزة واحدة ليقابلها بطوله الفارع.. لا.. لم يكن في خيالها شديد الطول هكذا.. إنها بالكاد تصل لصدره!!

- هل ستبقين تحدقين فيّ هكذا طويلًا دون كلام؟! أكلت القطة لسانك؟!

ورغم المرح العذب الذي توج حروفه.. رغم الخجل الذي خضب وجنتيها بحمرة داكنة.. رغم ارتجاف الجسد بخفقان القلب..

لكن عينيها كانتا تأبيان أن تتركا عينيه!!

تتشبثان به تشبث الغريق بآخر طوق نجاة!!

عيناها اللتان وجد هو أثرهما في نفسه وهو يميز لونهما الغريب بين الأخضر والعسلي.. لون شعرها كذلك الذي انحسر عنه وشاحه قليلًا كان غريبًا بين الأشقر والكستنائي.. كل ما فيها بدا له «بين بين».. طولها.. امتلاء جسدها.. رونق ثيابها.. كل هذا لم يتخذ طابعًا متطرفًا واضحًا، بل محيرًا جذابًا كلوحة غامضة تغريك بالاقتراب كي تكتشف أكثر..

لهذا ضحك ضحكة قصيرة، وهو يضع كفيه حول خصره يتفحصها أكثر لتزداد وجنتاها احمرارًا..

«هاشم» هنا! هنا معها! هنا معها يتكلم! هنا معها يتكلم ويضحك!!

- ما دمتِ لا تريدين الكلام.. أتكلم أنا!

يقولها بتفكُّه ملاحظًا تأثير وجوده عليها، والذي خفق له قلبه بشعور أدهشه.. شعور لذيذ بكر كقطرة ندى صباحية تغازل بَتلات زهرة.. خاصة عندما استمرَّ صمتها المرتبك مع ارتجاف جسدها حتى هيئ إليه أنه يكاد يسمع صدى دقاتها..

ولما يئس من ردِّها عاد يضحك ضحكته الآسرة ليميل عليها قليلًا هامسًا بجوار أذنها:

- أخبركِ سرًّا؟!

شهقتها العالية الخجول التي تزامنت مع ابتعادها عنه جعلته يضحك ضحكة أخرى، وهو يرفع كفيه أمامه، مطمئنًا إياها قبل أن يشير حوله ليقول بعفوية مرحة:

- هنا أختبئ منهم.

- منهم؟!

سؤالها المرتبك يجعله يبتسم وهو يشير نحو شفتيها قائلًا:

- أخيرًا تكلمتِ؟! ظننتكِ بكماء!

عبست ملامحها قليلًا، فعادت ضحكته تغرد في أذنيها قبل أن يفسّر بقوله:

- أهل البلدة لا يتركون لي مجالًا للحرية.. متى وصلت فهم حولي في كل مكان.. حتى بيت أبي لا يكادون يغادرونه.. لهذا تسللت اليوم خفية لأزور هذا المكان.. هل ترين هذا؟!

يقولها وهو يشير لما بدا كبيت خشبي بسيط يدوي الصنع من فروع الأشجار كان مستقرًا هناك خلفهما.. هذا الذي رمقته هي بنظرة مبهورة، بينما يردف هو

ببعض الخجل:

- آتيه من آنٍ لآخر.. كي.. كي.. أمصّ القصب!

كان دورها هذه المرة لتغرد ضحكتها خلابة حوله، فالتمعت عيناه ببريق دافئ، قبل أن ينحني ليلتقط عوداً من القصب ناولها إياه قائلًا:

- خذي هذا عربون صداقة بيننا.. وأبقيه سرًا بيننا.. لن يسرهم أن يعلموا أن بطلهم الذي يتيهون به فخرًا يتسلل من خلفهم ليستعيد ذكريات طفولته هنا ويمص القصب!

قالها وهو يستخرج من جيبه اختراعًا طفوليًا تعرفه يسمونه «النّبلة» صوّبه بإتقان نحو شجرة قريبة ليسقط منها ثمرتها، فيهتف بحماس:

- عاش يا وحش!

تكتم ضحكتها بأحد كفيها، ولا يزال الآخر مطبقًا على عود القصب الذي منحها إياه.. كانت لا تزال ترمقه بانبهار.. لا تصدق أن كل هذا حقيقي.. لكنه يتحرك ليلتقط الثمرة الساقطة فيمسحها بكفيه ببساطة قبل أن يناولها إياها قائلًا بجدية مصطنعة:

- نصيبك من الغنيمة.. كي تكتمي السر!

لكنها لم تضحك هذه المرة، بل ظلت ترمقه بنظرة طويلة لم يفهمها، ولو أدرك لعلم أنها في هذه اللحظة كانت تسترجع كل حلم حلمت به معه.. هل يكون القدر كريمًا إلى هذا الحد؟! حد أنها تلتقيه فيمازحها هكذا ببساطة.. دون محاذير.. لقد ظنت المشاهير أمثاله مغرورين ذوي كِبر وأنفة.. لكن أن يكون بهذه البساطة.. بهذا المرح.. وبهذه الروح الآسرة التي تملكتها أكثر مما ملكتها ملامحه فهو الذي جعل عينيها تدمعان بقوة لتجد نفسها تتمتم دون وعي:

- أنت.. أجمل كثيرًا.. مما تخيلت!

ارتفع حاجباه بدهشة للحظة من هذا الاعتراف الذي لم يتوقعه بهذه البراءة.. لقد صادف الكثير من المعجبات بحكم طبيعة حياته.. لكنها المرة الأولى التي يجد فيها اعتراف إحداهن صدى كهذا في نفسه..

لكنه لم يكد يفتح شفتيه ليردّ حتى وجدها تختفي عن ناظريه!!

أجل.. ركضت فجأة مكتفية بـ«غنيمتها» دون أن تلتفت خلفها، فهتف يناديها بلهفة:

- يا...!

هنا ينتبه أنه لم يتعرف حتى لاسمها، فيخبط قبضته في راحته بخيبة، قبل أن يجلس مكانه ليتناول عود قصب غرس فيه أسنانه بغيظ..

بينما ظلت هي تعدو طوال الطريق دون توقف حتى بيت «غالية».. تشعر كأنما الأرض كلها قد طوت لها جناحيها.. تبتسم وسط دموع منهمرة فتبدو كبلهاء.. تقابلها تهاني النجاح من أهل القرية الذين يعترضون طريقها فلا تردّ.. حتى تصل لبيت «غالية» فتستقبلها الخادمة بهتافها العاتب:

- أين كنتِ؟! «الست غالية» ستقلب...

- هل ترين ما بيدي؟! هل هو حقيقي؟!

تقاطع بها قول الخادمة بلهفة لترد الأخيرة باستنكار:

- هل فقدتِ عقلك يا «فاطمة»؟! هذا ما أخذناه من «الثانوية العامة» وسنينها!

- هذا عود قصب؟! صحيح؟!

تعاود فاطمة سؤالها بإلحاح لترد المرأة كأنما تحدث مجنونة:

- بالتأكيد عود قصب.. لكن لو أردتِ أن أخبرك أن «العلبة بها فيل» فسأفعل.. حكمتك يا رب.. ماذا بك يا «فاطمة»؟! حسدوكِ أهل البلد!!

تقولها المرأة وهي ترفع كفّها تتحسس جبهتها كأنما تقيس حرارتها، لكن «فاطمة» ابتعدت لتضحك عدة ضحكات متتالية، وهي تدور حول نفسها بحركات راقصة تزامنت مع هتافها المنغم:

- حقيقي.. حقيقي.. حقيقي!

- حسدوا الفتاة! العين فلقت الحجر!!

تتمتم بها الخادمة وهي تخبط كفيها ببعضهما، لكن فاطمة لم تستمع وهي تركض بذات الخطوات

الراقصة نحو غرفتها فتغلق بابها خلفها.. تتنهد بتعب وهي ترفع كفيها بـ«غنيمتها» نحو شفتيها تقبلها تباعًا ثم وضعتها جانبًا برفق.. قبل أن تهرع إلى خزانتها تفتحها لتستخرج صورته وترفعها لشفتيها هامسة بخجل:

- يا ربي! لا أصدق.. اليوم رأيتك.. أنت كلمتني.. وضحكت لي..

ثم تنهدت وهي تضع الصورة على موضع قلبها مردفة:

- أنت معجزة!

همست بها بهيام غافلة عن أنه في الغرفة التي تعلوها كانت هناك أخرى تخفي صورة شبيهة تحت وسادتها تكاد تهيم بها حبًا مثلها..

أجل.. «غنى»!!

الفتاتان لم تتشاركا البيت و«غالية» فحسب.. بل وحب نفس الرجل أيضًا!

* * *

الهالة الخامسة

(أحبيه كمعجزة!)

(شكرًا لأنك.. قابلتني..

ودخلت نورًا في حياتي.. وملكتني..

شكرًا لحبك.. طيف الأمان الذي ضمّني..

وتميمة الحب التي دارت بأفلاكي..

ونظمت أنجمي..)

كتبتها «فاطمة» في دفترها الصغير الذي تخبئه كعادتها عن العيون، وهي تسترجع بهيام ذكرى لقائها بـ«هاشم» منذ شهرين.. شهران؟! معقول؟! تبدو وكأنها كانت معه البارحة فحسب!!

تنهيدة حارة تغادر شفتيها وهي تتناول صورته من جوارها تتأملها.. تقارن بينها وبين الحقيقة التي رأتها رؤيا العين..

- تظلمك الصور يا جميل القلب والقالب.. ترى هل تذكرني؟! هل أمرُّ يومًا ببالك؟!

لم تكن تعلم والخاطر يؤجج أفكارها أن الجواب سيأتيها بعد ساعات.. وبالتحديد.. خلف أسوار الجامعة!

كانت «غالية» قد وفرت لها سيارة تنقلها إلى هناك، حيث حلمها الذي تحقق أخيرًا.. «كلية الهندسة»!

الحلم الذي جعل الماضي يتوارى -نسبيًا- وهي تؤمّل نفسها في غد ترسمه أناملها لا أنامل غيرها..

لهذا تكدست الدموع في عينيها بمجرد أن وطئت

قدماها ساحة الكلية لتتعلق نظراتها باللافتة..

- يومًا ما.. ستكونين بهيئة التدريس هنا.. هي محطتك التالية يا «فاطمة» وما عهدتك تخذلين نفسك!

تقولها لنفسها سرًا وعيناها تتوهجان ببريق عزم لم يلبث أن تخافت وهي تميز النظرات الفضولية حولها.. لا تزال تخشى نظرات الناس، وتجد منتهى راحتها في عزلتها عنهم.. عيونهم سياط تجلدها بذنب لا تعرفه..

- أخيرًا وجدتك!

تلتفت خلفها بدهشة لمصدر الصوت فيرتجف جسدها وهي تميز هيئته رغم محاولته للتخفي.. أجل «هاشم»!

كان يرتدي غطاء رأس رياضيًا جذب مقدمته

ليخفي المزيد من ملامحه، بينما ارتدى نظارة شمسية أنيقة، لكنها تعرفته مباشرة لتغمغم بذهول:

- أنت؟! حقًا؟!

- هل سيكون هذا ردُّ فعلك دومًا عندما ترينني؟!

يسألها بنبرة عابثة احمرّت معها وجنتاها أكثر لتعود لصمتها المرتبك، فضحك وهو يجذب مقدمة غطاء رأسه الرياضي أكثر قائلًا برجاء مصطنع:

- لا! لا وقت لصمتك الكارثي هذا كالمرّة السابقة.. أنا بالكاد وصلت إليكِ.. ولا أثق أن يتعرفني أحدهم فينقلب المكان لـ«سيرك» صغير هنا.

ابتسمت رغمًا عنها بخجل، لكنها لم تستطع الإطراق برأسها ومنع عينيها من ملاحقة ملامحه.. لتتمتم بأنفاس متلاحقة:

- كيف وصلتَ إلى هنا؟!

- بالسيارة!

جوابه يستحضر ضحكة عذبة قصيرة خنقها خجلها لتغمغم بالمزيد من الارتباك:

- أعني.. كيف عرفت.. أني.. هنا؟!

لم تستطع تكوين جملة واحدة مفيدة، لكنه رحم خجلها ليقول بمرحه المعهود:

- كانت ليلة!! صديق لي في البلدة من «أيام الشقاوة».. جلست معه أحكي له عن «النداهة» التي ظهرت لي فجأة في الحقل لتنقذ حياتي وأنا نائم.. قضينا الليل كله أصف له شكلك، وهو يسترجع أسماء بنات البلدة كلها حتى تعرف إليكِ..

ثم غمزها مردفًا:

- يا «فاطمة»!

نطقه باسمها هكذا أخبرها أنها فقدت قلبها للأبد معه ولن تستعيده.. لكنها خبطت على صدرها فجأة لتهتف بهلع:

- صاحبك عرفني؟! يعرف أننا تحدثنا؟!

- وماذا في هذا؟!

- أمي ستقتلني!

تهتف بها بارتياع مسترجعة صرامة «غالية» في مثل هذه الأمور، لكن ضحكته العذبة تنزل على قلبها بردًا وسلامًا:

- اطمئني من هذه الناحية.. لكن.. ثانية واحدة! هل تسمّين ما كان بيننا يومها حديثًا؟! أنتِ بالكاد نطقتِ

بكلمة واحدة، ثم هربتِ كأمهر نشال في «الأوتوبيس»!

ابتسمت لطرافة التشبيه، فابتسم بدوره وهو يتفحص ملامحها أكثر.. اللون الوردي الذي ترتديه يضفي ظلاله الآسرة على وجهها.. ثوبها يبدو هذه المرة أكثر أناقة -رغم تحفظه- يحيط بتفاصيل جسدها بنعومة غير متكلفة.. تبدو له هذه المرة أكثر جمالًا.. لولا هذه «الهالات السوداء» حول عينيها.. لا تضع أي مساحيق تجميل، لكنها تبدو كملاك بريء وسط «كرنفال الألوان» الذي يراه حوله في الجامعة الآن..

- ماذا تريد الآن؟!

سؤالها ينتزعه من أفكاره فتتسع ابتسامته.. لم تبدُ له كلماتها فظة بقدر ما بدت له راجية طفولية خائفة.. وبخبرته في النساء يكاد يقسم أنه أول رجل

تكلمه في حياتها.. هي الأخرى كانت تحمل سبقًا ما لم تنله غيرها ممن عرفهن.. أجل.. شعوره بها كان غريبًا متملكاً آسرًا لا يكاد يعرف له توصيفًا.. لم يخطئ عندما وصفها بـ«النداهة» التي كانت تثيره حكاياها في صغره.. هذه الصغيرة تملك أجمل وأغرب عينين رآهما في حياته.. داخلهما ينبض هذا النداء الغريب الذي يعجز عن أن يتجاهله..

- «هاشم العدوي»!

الهتاف يجعل كليهما ينتفض مكانه والصوت يتردد بجوارهما بينما يردف صاحبه بانبهار:

- أنت هنا يا «كابتن»! لا أصدق.. «هاشم العدوي» هنا!

يهتف بها الفتى وهو يصافح «هاشم» بحرارة قبل أن ينادي أصحابه، فتراجعت «فاطمة» بخوف مرتبك، لكنه اقترب منها ليهمس بجوار أذنها بحسم

متملك:

- لن أستطيع القدوم هنا ثانية.. ألقاك غدًا في مكاننا السابق الساعة الرابعة.

هزّت رأسها نفيًا برفض، لكنه ابتسم بثقة ليقول قبل أن يختفي عن ناظريها وسط ثلة من معجبيه:

- سأنتظركِ!

* * *

في غرفتها تجلس «غنى» تناظر مرآتها بضجر.. كريم فرد الشعر الذي استخدمته البارحة لم يؤتِ الفعالية المطلوبة، وهاهو ذا شعرها بنفس الشكل البائس الذي تكرهه.. لماذا لا تكون الفتيات كلهن ناعمات الشعر كـ«فاطمة»؟! لماذا لم يخلقهن الله جميعًا فاتنات مثلها؟!

السخط يملؤها أكثر وهي تتجاهل شحوب شفتيها لتطليهما بسرعة هاربة من منظرهما الذي يؤرقها.. لم تكن دميمة.. لكنها كانت دومًا باهتة الصورة.. وضعف جسدها النحيل يزيد من فقر طلّتها.. خاصة عند مقارنتها بـ«فاطمة»!

تكرهها؟! لا.. هي فقط تشعر بالغضب من هذه الحرب التي تضطر لخوضها في كل مرة يقارنونها بها.. «فاطمة» جميلة.. «فاطمة» ذكية.. «فاطمة» قوية صحيحة البدن.. هي دومًا الطرف الخاسر في هذا السجال.. الشيء الوحيد الذي تفوقت فيه عليها هو «الصديقات»!

أجل.. ففي الوقت الذي تتملقها هي الفتيات راغبات في صحبتها خاصة مع الرفاهيات التي توفرها لها «غالية».. تبدو «فاطمة» منعزلة كشبح في غرفتها السفلية.

تشعر بالشفقة نحوها أحيانًا.. لكن تعود الغيرة لتغلبها.. آه! كم تتمنى لو كان والداها على قيد الحياة الآن.. لو لم تفرض عليها هذه الحياة.. «غالية» تحنو عليها كابنتها، لكن بطريقتها القاسية.. لم تعرف شخصًا يختلط حنانه بقسوته كخالتها!!

صوت طرقات هادئة على الباب يقاطع أفكارها فتنهض لفتحه.. الدوار اللعين الذي طالما يراودها يستوقفها للحظات قبل أن تفتح الباب، تستقبل صديقتها التي تأملت غرفتها بانبهار كأنما هي المرة الأولى..

- تملكين شاشة تلفاز مسطحة وحدك في غرفتك؟!

تهتف بها الفتاة بلهفة وهي تتوجه نحو الحائط القريب الذي علقت عليه الشاشة، لتبتسم «غنى» قائلة ببساطة:

- خالتي.. أقصد.. أمي «غالية» جلبته لتوفر عليّ

مشقة مغادرة غرفتي مع ظروف مرضي.

- يا لحظك!

تقولها الفتاة بتحسر، لتبتسم «غنى» ابتسامة مريرة وهي تتقدم لتستلقي على ظهرها على الفراش، ثم لم تلبث صديقتها أن لحقت بها، وقد أدركت سخف ردّها لتقول بإشفاق:

- لا أقصد مضايقتك.. لكنني أحيانًا أتعمد تذكيركِ بما تتنعمين به وتتمناه غيرك من الفتيات!

فتنهدت «غنى» بحرارة وهي تشرد في السقف متمتمة:

- لم أكن أريد سوى حياة عادية مع أبي وأمي.

- «فاطمة» ذهبت للجامعة؟! ماذا قالت لكِ عن «الجو» هناك؟! يا إلهي.. لا أطيق صبرًا على الالتحاق

بالجامعة، لعلي أقابل فارس الأحلام هناك.. يحبني طوال سنوات الدراسة ثم يتقدم لخطبتي عندما نتخرج.. ساعتها..

تركت «غنى» الفتاة لثرثرتها وذهنها يشرد في الفراغ.. حلمها بفارس الأحلام لم يكن بظروفها مشروعًا.. فقد أدركت منذ زمن أنها لن تثير إعجاب أي رجل.. متى تحركت فلا أحد ينظر إليها كأنها مجرد هواء.. هل تلومهم؟! ما الذي سيعجبهم في «عصا مقشّة» سمراء قبيحة ومريضة دومًا مثلها؟!

- «هاشم» سيصل البلد الليلة.. صديقة والدته هي أم (...) صديقتنا وقد أكدت لي هذا.. ما رأيك لو نذهب ونختبئ عند مدخل القرية ساعة حضوره ونراه؟!

حديث صديقتها يُخرجها من شرودها لتلتفت نحوها ببعض الحماس.. وحدها سيرة «هاشم» هي

ما تدفع الدماء في عروقها الآن.. رأته مرة منذ بضعة أشهر هنا في القرية يسير وسط جمع من الناس.. لم تثرها وسامته ولا شهرته كما يُفترض.. بل طفلة صغيرة كان يحملها! أجل.. طفلة يتيمة كان يضمُّها بين ذراعيه، ولم يأنف أن يحملها طوال سيره كي لا تبكي.. لا تدري لماذا أسرتها صورته هذه من حينها.. ربما لأنها رأت نفسها في تلك الطفلة!

- حسنًا.. فلنفعلها.

قالتها بحماس مخاطبة صديقتها التي ردّت دون تحفظ:

- لكن إياكِ أن يصيبك الدوار فتسقطين وتفسدين علينا الموقف!

لم تكد تتفوه بها الفتاة حتى انتبهت لفظاظة عبارتها، فاعتذرت ببضع كلمات متلعثمة، لكن «غنى» التي بدت في هذه اللحظة أكبر كثيرًا من سنوات

عمرها تدثرت بابتسامة شاحبة دون أن تجد ردًا..

ألم تقل منذ دقائق فقط إنه حتى حلمها به غير مشروع؟!

* * *

- بخ!

شهقت «فاطمة» بخوف وصيحته المفاجئة تأتيها من خلف الأشجار في المكان المنعزل الذي التقيا فيه من قبل.. لتعلو ضحكته وهو يشير بكفَّيه لها مطمئنًا بقوله العابث:

- قلبك خفيف يا «هندسة»!

ابتسمت بخجل وعيناها تتعلقان كعهدها بعينيه، بينما ذابت كلماتها على شفتيها.. لا تدري كيف تجرأت وأتت هنا بعد كذبة على «غالية» تنتهجها

لأول مرة! حتى ساعة واحدة فقط قبل الموعد كانت خطتها ألا تذهب.. لكن قلبها الأحمق خدعها أن تأتي فقط كي تمنعه المزيد من لقاءاتها! تمنعه؟! تراها تريد حقًا أن تمنعه؟!

- هل ستعودين للصمت ثانية؟! لا.. ليس بعد مغامرات طرزان التي خضتها للمجيئ إلى هنا خفية عن الأعين!

يهتف بها باستنكار مرح، لتقابله ضحكتها العذبة..

لم يؤمن يومًا بالحب من النظرة الأولى، لكنه كان يؤمن بتعرف الروح لتوأمها من اللقاء الأول..

وهو يشعر بها كأنما تسدُّ فراغًا بداخله لم تكن لتشغله أنثى سواها.. لماذا هي بالذات على ظروفها التي عرفها؟! هو لا يدري.. ربما هذه هي سطوة الحب التي لا يقف أمامها أي سلطان!

- تعالي!

يقولها وهو يشير لها نحو البيت الخشبي يدوي الصنع هناك خلف الأشجار، فتلتفت حولها بترقب لتطمئنّ نوعًا وهي ترى المكان قد خلا إلا منهما، خاصة في هذا الجو الحار.. فاستسلمت للسير خلفه محافِظة على مسافة مناسبة، قبل أن تراه ينحني ليدخل للبيت الذي تكسّر في أكثر من موضع، لكنه بقي محتفظًا برونقه نوعًا..

- «هندسة» كانت حلم عمري.. بنيت هذا البيت وأنا في الصف الأول الإعدادي.. عندما كنت أتكاسل عن المذاكرة كنت آتي إلى هنا كي أذكّر نفسي بما أطمح إليه.. لكن..

ثم بسط كفيه مردفًا باستسلام:

- تشاءون.. وتشاء الأقدار!!

ابتسمت بحنان وملامحها تشع بألف كلمة.. لو كانت تستطيع النطق الآن لأخبرته أنه هو حلم عمرها.. أنها منذ هذه اللحظة ستنجح في مجالها لأجله..

- وأنتِ تحبين «الهندسة»؟!

يقولها وهو يجلس متربعًا بهيئته العفوية المريحة لتتسع ابتسامتها وهي تومئ بالإيجاب.. فرمقها بنظرة طويلة سبقت نداءه الخافت باسمها..

- «فاطمة».

اتسعت عيناها قليلًا وهي تشعر بوهج اسمها بين شفتيه ينسيها كل ما دونه.. ومن دونه! تطور مشاعرها نحوه لم يكن منطقيًا لو حسبته بالوقت التقليدي.. لكنها أدركت منذ التقته أول مرة أنها تحبه منذ زمن.. أحبَّته في كل رواية قرأتها.. في كل بطل عشقت صفاته.. وفي كل حلم تمنت لو تجود بها عليها الأيام يومًا!

- هل أبدو لكِ متلاعبًا لو أخبرتكِ أنني.. معجب بكِ؟!

عيناها تدمعان من فرط سعادتها، لكنها لا تجد ردًا.. فقط تهز رأسها نفيًا وهي تكتِّف ساعديها كأنما تمنح نفسها بعض الدعم.. فيعاود تفحُّصه لها بغرابة.. إنها لا تبدو له لعوبًا تريد إغواءه.. ولا حتى جريئة قدر ما يسمح لها بمغامرة كهذه كما يعرف عن بنات بلدته.. لكنها مع هذا تبدو وكأنها تهرع إليه حتى وهي واقفة في مكانها! شعور غريب تلقَّفه قلبه بصدق.. وجازاها عنه بمثله..

لهذا الْتَوَث شفتاه بابتسامة ناعمة وهو يميل رأسه بسؤاله:

- فيكِ شيء غريب.. رغم خجلك وتحفظك، لكنك لا ترفعين عينيك عني.. كأنما تخشين أن أختفي فجأة.

هيئ إليه أن هالات عينيها السوداء تكاثفت فجأة مع ارتجاف شفتيها بالجواب الذي لم يتوقعه بهذه الشفافية:

- ربما.. لأن أكثر من تعلق به قلبي اختفى يومًا من حياتي فجأة.. لهذا تعودت ألا أثق باللحظة القادمة.

ضاقت عيناه وهو يميز بين حروفها اعترافًا خفيًا بمكانته لديها.. هل هو مجرد إعجاب كما اعتاد ممن حوله؟! هو التصور المنطقي الذي يليق بمراهقة مثلها.. لكن ما باله يشعر أن الأمر يفوق هذا بكثير! لقد علم من صديقه حكاية أمها.. مزيج من الشفقة والاشمئزاز اجتاحه وقتها.. لم يكن مثاليًا حد كونه متسامحًا مع ماضٍ كهذا.. لكنه لم يملك شعوره بالحمية نحوها.. لهذا تجاهل عبارتها كي لا ينكأ الجرح القديم محافظًا على مرح كلماته:

- إذن.. تعترفين بخوفك من أن تفقديني؟! أعتبر

هذا وعدًا بالمزيد من اللقاءات؟!

- بل لن نلتقي بعد اليوم أبدًا!!

أدهشه الحسم المتشح بحسرته في عبارتها خاصة عندما أعطته ظهرها لتغادر البيت الخشبي نحو شجرة قريبة استندت على جذعها.. فلحق بها ليحتضن ملامحها بعينيه قائلًا بصدق مسّ قلبها:

- أريد أن أقترب منك أكثر.. لو كنت تريدين ألا نلتقي فلكِ هذا.. لكن اسمحي لي بالكلام معك ولو هاتفيًا.

رمقته بنظرة مشتتة وهي تجد صعوبة بالغة في التمييز بين الواقع والخيال.. آه لو يدري أن حوارًا كهذا.. وقفة كهذه.. شعورًا كهذا.. رسمه قلبها في ذهنها آلاف المرات!!

- ليس لديّ هاتف.

تقولها ببعض الحرج ليهتف:

- معقول؟! ألا يزال أحدهم لا يملك هاتفًا خاصًا في هذا الزمن؟!

- أمي لا ترى له جدوى معي، خاصة وأنه لا صديقات لي.

جوابها يغرس المزيد من الشوك في قلبه وشعوره نحوها يمتزج بالمزيد من الإشفاق.. لقد صار يتفهم نوعًا طبيعة الحياة التي تعيشها فتاة مثلها بماضٍ كماضيها.. ربما لهذا لم يشاهدها يومًا في القرية قبل لقائهما الأول.. لا ريب أنها اختارت العزلة وطنًا ولا يلوموها!!

لهذا تناول هاتفه من جيبه ليمنحها إياه قائلًا بحسم مناقض لمرحه السابق:

- خذي هذا.. إنه هاتف خاص أستخدمه لطوارئ الخصوصية.. سأهاتفكِ على رقمه.

- لا.. لن أستطيع.. لن..

صوت غريب يقترب يجعلها تقطع عبارتها بخوف، فيلتفت بدوره حوله ليعود مخاطبًا إياها بسرعة:

- يجب أن تغادري الآن كي لا نخاطر بأن يرانا أحدهم.. هيا اذهبي..

تهمُّ بالاعتراض وإعادة هاتفه إليه، لكنه يرمقها بنظرة صارمة وهو يشير لها بكفه مودعًا، فلم تجد بدًا من الرحيل، ولا تزال تظن نفسها في حلم ستفيق منه قريبًا..

* * *

- ويجاااا.. ويجاااا.. تحت الطربوش كحك منقوش!

- «سليمان».. افتقدتك أيها العجوز!

تهتف بها «فاطمة» لنفسها وهي تسمع صوته عبر النافذة بنبوءة بشره المعتادة التي يكررها عندما يريد بث الأمل فيها لتهرع خارج غرفتها نحو الحديقة الخارجية للبيت.. تراه يقترب متكئًا على عصاه فتتقدم نحوه لتسند ذراعه الحر على ذراعها، وتقوده نحو ركنهما المنعزل من الحديقة، حيث جلس على حافة حوض زهور قصير.. وحده «سليمان» من تسمح له «غالية» بدخول البيت في أي وقت..

- عيناكِ تسبحان في العسل!

كانت هذه عبارته المميزة لها كناية عن الفرحة التي قلّما كان يراها في عينيها.. فابتسمت بخجل وهي تضع يدها في جيبها لتستخرج له قطعة من الحلوى مما يحبها، ناولته إياها لكنه ابتسم بمرارة، مشيرًا

لأسنانه المفقودة:

- حرّم المشيبُ علينا السكّرا!

ترمقه بنظرة مشفقة قبل أن تتنحنح لتقول بأريحيتها المعهودة معه:

- عندي أخبار جديدة..

ثم احمرّت وجنتاها باستطرادها الخجول:

- هنا!

تقولها بينما تبسط راحتها على موضع قلبها، ليرفع العجوز حاجبيه بتوجس.. لكنها مارست هوايتها الوحيدة في الثرثرة معه.. حكت له كل شيء عن لقائها بـ«هاشم» الذي كان يعرف قبلًا أنها معجبة به خفية.. حاجباه ينعقدان بقوة مع كلماتها فيبتسم تارة لسعادتها.. ويعبس تارة لقلقها.. حتى انتهت روايتها

بقولها:

- معجزة يا «سليمان».. صحيح؟!

صمته يطول وعيناه تشردان في الفراغ قليلًا ليجيبها بغموض:

- مضى زمن المعجزات يا صغيرة.

لكن ضحكتها المشرقة تغرد حالمة، وهي تكتِّف ساعديها لترد:

- قلبي يخبرني بأن طريقينا سيلتقيان.

- ليس كل الملتقين بالغي غاياتهم.. الطريق طويل والصحبة تتغير.. المهم ألا تفقدي دليلك.

- لماذا تخيفني منه؟!

- أنا فقط أحذرك.. جرح الجسد هينٌ علاجه، لكن جرح القلب لا يبرأ.

- هل تعرف عنه ما يعيبه؟!

- أعرف عنكِ أنتِ!

- ماذا تقصد؟!

سؤالها الحائر يصطدم أخيرًا بصمته الطويل مع زيغ عينيه المنبئ دومًا بقرب رحيله..

- ويجاا.. ويجاااا.. بداية بعد نهاية.. ونهاية بعد بداية.. أسرار نخفيها.. لكن من بدأ الحرب ينهيها!

يقولها وهو يتكئ على عصاه ليقف ولا يزال يردد كلماته الغريبة التي لم تدرِ نبوءة هي أم مجرد تخاريف يهذي بها العجوز..

ورغم أن كلماته أرقتها.. لكنها لم تسمح لها بإفساد فرحتها.. لهذا زفرت زفرة قصيرة وهي تأخذ طريقها نحو غرفتها التي أغلقت بابها خلفها بالمفتاح.. قبل أن تتوجه نحو خزانة ملابسها، حيث أخفت هاتفه...

يا الله! لقد صار لها عالم خفي بأسره خلف ظهر «غالية».. هذا الشعور المستحدث بنشوة المغامرة والذي يمتزج بقلق لذيذ تجد له عذوبة في صدرها.. الهاتف يرتج في يدها معلنًا عن وصول رسالة منه.. فتبتسم وهي تفتحها لتراه يستأذنها في الحديث إليها..

ومن ليلتها صارت لا تنام إلا على صوته!

* * *

الهالة السادسة

(كونسيلر..!)

- هل اشتريت قطعة الأرض في «.. »؟!

سألته «غالية» ببطء قاسٍ وهي تلوك طعامها، بينما تجلس معه على المائدة في بهو البيت، ليرمقها «طاهر» بعينين متسعتين للحظات قبل أن يرد باقتضاب:

- نعم.

- ولماذا لم تخبرني؟!

- لم أجد مناسبة.

- حقًّا؟!

نبرتها كانت تزداد قسوة مع البرود الذي كان يحاول به صبغ كلماته ليتكلف ابتسامة صفراء لوَّن بها كلماته:

- تعلمين أني لا أخفي عنكِ شيئًا.

- صرت تفعل.

الرنة الساخرة المتشحة بالوعيد تقابل مهادنته:

- لا تكبري الأمر؛ فليس مقصودًا، ولن يتكرر.

- سأضمن ألا يتكرر.. وكي لا تنسى.. اكتبها باسمي.

- ماذا؟!

استنكاره يقابل ابتسامة تشفّ واثقة منها جعلته يتلعثم بكلماته:

- لكن ابن عمي شريك لي فيها.. لو فعلتها فسيعلم!

- دعه يعلم.. عائلتك كلها تعرف أنك تسترضيني لصبري على عيبك بعدم الإنجاب.

عجبًا! هل اختلقت الكذبة وصدّقتها؟! استنكاره وجبروتها يتناحران، فينتصر الأخير كالعادة.. ليجد نفسه يتمتم:

- لا شيء يغلو على «الغالية».

تدمع عيناها بمشهد مهيب وهي تراه يدعوها بذات الكنية التي كانت قديمًا تدغدغ أنوثتها، والآن تدرك أنها صارت مجرد كذبة.. حياتها كلها مجرد كذبة.. فقاعة زائفة تكاد تكفيها مسّة إصبع لتنفجر فاضحة الوهم.. لكن من سيسمح بمسة الإصبع هذه؟! ستقطعه هي قبلها!!

لهذا تمالكت فيض مشاعرها وهي تغمض عينيها على «الدمعة العزيزة» قبل أن ترمق خاتم «وجه الأسد» في إصبعها بنظرة غريبة كأنما تستمد منه دعمًا وهي تراه دومًا رمز جبروتها المعهود.. لتغادر المائدة نحو غرفتها بالأعلى دون رد.. بينما غاص هو في مقعده وعيناه تلتمعان بنظرة وعيد متمردة صارت حديثة العهد عليه.. يومًا ما سيتخلص من ليل جبروتها هذا.. أليس الصبح بقريب؟!

عند الخاطر الأخير يغادر المائدة ليتحرك مبتعدًا كي يغسل يده.. نظرة في مرآة الحمام تريعه بمرأى مشيب شعره الذي ينتشر كالنار في الهشيم.. هل سيقبل حقًا أن يضيع عمره هكذا مع هذه «العقربة»؟! ألم يكتفِ بعد؟!

صوت خطوات تقترب يجعله يبتسم بدهاء وهو يميز صاحبتها.. خطوات «فاطمة» تشبهها.. رقيقة سريعة متلاحقة كأنها تهرب من كل العالم إلى

غرفتها.. لكنه لن يسمح لها بالمزيد من الهرب..

شهقت «فاطمة» بارتياع وهي تشعر به يظهر أمامها فجأة، ليجذب ساعدها فتجد نفسها معه وحدهما في الحمام!

* * *

- هل أخبرَتْك شيئًا عن «هاشم» هذا؟!

يسأله «صاحب الظل» بعصبية ليبتسم «سليمان» بتفهُّم والإشفاق يغلف جوابه الصريح:

- القلب وما يريد.

- ماذا؟! أنت متأكد؟! تعني أنها... أنها...

كلماته المصدومة تتخبط بصراع مشاعره، فيقبض كفَّه بغضب هاتفًا:

- كنت أشعر بهذا منذ رأيتهما معًا.. لقد كنت أتتبعها خلسة ذاك اليوم عندما وجدتها تتجه نحو ذاك المكان المنعزل الذي يطويه الشجر على التل.. ووجدت ذاك الرجل معها.. كدت أفصح عن نفسي وأبطش به وقتها.. لكن... لكن...

قطع عبارته بعجز وعيناه تنبضان بـ«قهر الرجال».. وليس أقسى من قهر الرجال لو تعلمون!!

لكن «سليمان» حرَّك رأسه بهذه الحركة الدائرية التي تميزه، والتي يزعم أنه يحاكي بها دوران الكون.. حكمة غريبة لـ«مجذوب».. لكن صاحب الظل اعتادها..

- تظنها ستذكرك إن رأتك؟!

سؤال «سليمان» ينكأ الجرح القديم.. يفجِّر آهة صاخبة في روح صاحب الظل الذي غمغم بشرود:

- ربما..

- كانت صغيرة.. عساها نسيت.

- ولماذا لم أنسَ أنا؟!

يصرخ بها صاحب الظل فجأة بانفعال فضح سنوات الألم والكتمان.. فضح مرارة الذنب القديم.. والخوف من غد يكشف الأوراق.. وأي فضيحة هذه!! أي فضيحة!!

لهذا صمت «سليمان» طويلًا يمنحه الفرصة لتجاوز مشاعره قبل أن يتحرك نحوه متكئًا على عصاه..

- نسيانها نعمة.. وجلدك بالذكرى فريضة.. وفِّ دينك.. فما لك إلا الوفاء.

فرفع صاحبه رأسه للسماء كأنما يستجدي الغفران..

قبل أن يعاود ليواجه «سليمان» بعينين دامعتين:

- لو أثق فقط أنه لا يتلاعب بها.. أنه سيصونها ويجعلها سعيدة معه.

- ومن يضمن هذه الأمور.. وهل سمّي القلب قلبًا إلا لتقلبه كما يقولون؟!

يتمتم بها «سليمان» بابتسامة شاحبة ليهز صاحب الظل رأسه بعجز قبل أن يحيط كتفي سليمان المتهدلين بذراعيه هاتفًا به برجاء:

- اعتنِ بها يا «سليمان».. لا تدعها تخفي عنك شيئًا.. احمِها حتى من نفسها.. ولو احتجتني تعلم أني لن أتردد لحظة عن فدائها بحياتي.

- تستطيع فداءها بما هو أقل.. لكنك تجبن.

يغمغم بها «سليمان» بعتاب ليتصلب ذراعا صاحبه

حوله للحظات قبل أن يتمتم بعجز:

- تعلم أنه ليس بيدي.. السنين تزيد ثقل القيد.

فيتنهد العجوز باستسلام ليميز في النور الخافت رقرقة الدمع في عيني صاحبه قبل أن يراه يشد اللثام على وجهه ليختفي من أمام ناظريه كعهده سريعًا كالبرق..

فتلتوي شفتاه بابتسامة بطعم البكاء ظللت حروف عبارته المعهودة:

- تمامًا كما قلت.. بعض الخطايا لا تغفرها توبة.

* * *

(ليلٌ طويل أنت فجره.. وفيك سيدي يحلو السهر!)

ترسلها له مكتوبة عبر الهاتف فيصلها ردُّه المتعجل:

- أريد سماع صوتك.. الآن.

تبتسم وهي تتخيل «الآن» هذه التي كتبها.. أي لهفة تحملها؟! أي عشق يفيض بين حروفها؟! وأي لذة خفية تطويها؟!

يوم بعد يوم تزداد مشاعرهما صخبًا.. لم يلتقيا منذ أشهر، وبالتحديد منذ منحها هذا الهاتف، لكنها تشعر أنها تراه في كل ما حولها.. هو الآخر صارت هي «هوسه الخاص».. لا يصدِّق أنه ارتبط بعلاقة عاطفية بفتاة بعمرها، ودون أن يكلمها وجهًا لوجه سوى مرتين فحسب.. لكنه صار يعرف عنها كل شيء.. كل تفاصيلها كانت تحكيها له ببراءة ليدرك أنه حقًا دون مبالغة صديقها الوحيد.. خاصة عندما علم أن مكانته هذه سبقت رؤيتها له بكثير.. «فاطمة» لم تكن ترضي غروره الذكوري فحسب، بل كانت تثير بداخله عاطفة هي للأبوة أقرب.. ولم يكن يتعجب هذا مع ما عرفه من ظروفها..

- «هاشم».

تهمس بها بخشوع عاشق وهي تفتح اتصاله ليهتف بها بلهفته المرحة:

- جريئة أنتِ في أشعارك المكتوبة.. لكن تتحولين لـ«كتكوت مبتلّ» عندما نتحدث مباشرة.

ثم يتنهد بحرارة أمام ضحكتها المكتومة ليردف بدفء صادق:

- افتقدتك جدًا.

- أنا لا أملك الفرصة لأفتقدك.. أنت تشغل كل عالمي يا «هاشم».. صورك حولي في مكان.. أتابع أخبارك وأرى لقاءاتك على الشاشات.. حتى في هذه الساعات التي لا نتكلم فيها.. أخلو بنفسي فأبوح لك بأسراري.

كلماتها تدغدغ قلبه بهذا الشعور الذي لم يعرفه إلا معها.. لكنه يرد بمرحه المعهود:

- هذا ليس عدلًا.. أنت يمكنك مشاهدتي في مواضع عدة، لكنني لست كذلك.. عمومًا لقد أخذت حقي!

- كيف؟!

- بالأمس اتبعت السيارة التي تقلك من الجامعة للقرية.. كنت وراءك خطوة خطوة.

- حقًا؟! ولماذا لم تخبرني؟!

تهتف بها باستنكار ملهوف ليردّ وسط ضحكاته:

- خشيت أن تفضحينا برد فعلك المعهود عندما تريني ويشك السائق بالأمر.

شردت ببصرها، وكلماته تذكّرها بذاك اليوم الذي عادت فيه من الجامعة لتفاجأ بـ«طاهر» يحتجزها في الحمام المجاور لغرفتها.. كانت أول مرة يتجرأ عليها هذا الحد.. ساعتها تجمّد جسدها رعبًا من المفاجأة، لكنه لم يزد عن أن تفحص تفاصيل جسدها بنظرات جائعة قبل أن تتوقف عيناه على هذا «الانبعاج» في جيب سروالها حيث تخفي «هاتف هاشم».. فامتدت أنامله تداهم جسدها في ذاك الموضع محاولًا صبغ حركته بسؤاله العفوي عما تخفيه.. لكنها لم تمنحه الفرصة للمزيد، وهي ترد بكذبة متلعثمة قبل أن تبتعد راكضة نحو غرفتها.. ليلتها بكت كما لم تبكِ من قبل.. ليس فقط خوفها من جرأة «طاهر» التي تزداد يومًا بعد يوم.. ولا خشيتها من ردة فعل «غالية» لو علمت بهذا.. لكنه شعورها أنها صارت «مدنسة».. صورة «السرجاني» بسكينه تطعن صدرها من جديد تكاد تسمعه يصرخ بها أنها كأمها.. جاثوم الماضي الذي يبدو أنه لن يغادرها..

- «فاطمة»؟! هل غضبتِ حقًا؟!

همسات «هاشم» الدافئة تنتشلها من جحيم أفكارها، لتتنهد بحرارة وهي ترمق صورتها في المرآة بألم.. هالات عينيها السوداء تزداد وضوحًا حتى إنها سمعت بعضهن في الجامعة يسخرن منها لهذا السبب..

- يُعيِّرْنني بهالات عيني السوداء.

يرتفع حاجباه بدهشة للحظة من تغييرها للموضوع، قبل أن يبتسم بحنان وهو يميز غرابة لهجتها التي تأسره بين براءة وألم واستسلام.. صراحتها المطلقة في البوح له بمكنون صدرها تزيد من سمك هذا الحبل الغليظ الذي صار يجمع بينهما.. غريبٌ حقًا أن تصرِّح الأنثى بعيوب شكلها خاصة لحبيبها، لكنها تفعلها دون مواربة.. كأنما هو توأم روحها الذي لا تستحيي أن تنكشف عورات عيوبها

أمامه..

- يغارون منكِ.. لا تعيريهم بالًا.. «فاطمة» أجمل فتاة بالعالم.. قوليها خلفي عشر مرات.. قوليها.. هيا..

حنانه المتشح بمرحه يغلف روحها بهذا الشعور المستحدث بـ«الأمان» الذي تجربه ربما لأول مرة في حياتها.. يمنحها هذا الدرع الذي تشعر بأنها قادرة به على مواجهة العالم كله.. أن يحب رجل مثله فتاة مثلها لم تكن مجرد عطيّة قدر.. بل معجزة لا تزال تخشى تصديقها.. وإن كانت تعيش في ظلها ما يكفيها لقيْظ العمر كله..

* * *

- «هاشم» هنا.. هل نذهب لنراه خفية ككل مرة؟!

تقولها «غنى» بحماس لم تشاركه فيه صديقتها التي مطّت شفتيها باستياء:

- ألم تسأمي منه بعد؟! لم أعد أجد الأمر مثيرًا..

ثم التمعت عيناها بحماس لتردف:

- تعرفين «...» صاحب مسلسل «...» التركي؟! هو الذي يسرق الأضواء الآن.. لقد تابعت حسابه على «إنستجرام».. لو رأيتِ صوره فـ....

تشرد «غنى» ببصرها متجاهلة بقية عبارة صديقتها العابثة، وهي تعترف لنفسها بأن ما تشعر به نحو «هاشم» ليس مجرد إعجاب عابر.. بل إنها لا تبالغ لو قالت إنها صارت غارقة في حبه.. تتلمس أخباره في كل مكان، حتى إنها صادقت قريبته هنا في القرية خصيصًا كي تعرف المزيد عنه.. ومع كل خبر عنه كانت تتيقن أنه هو فارسها المنشود.. لكن أنّى يشعر بها وهو محلق في سماء لن تصل هي يومًا إليها؟!

- فيمَ أنتِ شاردة؟! هل ما سمعته بشأن تركك

الدراسة صحيح؟!

سؤال صديقتها يردُّها لواقعها، فتزفر مجيبة:

- خالتي «غالية» لم تعد ترى داعيًا لمغادرتي البيت.. سأذاكر هنا وأذهب فقط في موعد الاختبار.

- وهل تحتاج قريبة الست «غالية» لاختبار؟! النتيجة محسومة وأنتِ في بيتكم!

تغمزها بها صديقتها فتبتسم ببعض المرارة وهي تشيح بوجهها.. كلام صديقتها صحيح.. أمر دراستها المتوسطة لم يعد مشكلة.. وبعد أقل من عامين تنال ورقة غير ذات قيمة تضعها في درج مكتبها.. لن تكون يومًا كـ«فاطمة» التي وجدت شغفها الحقيقي في دراسة مجال تحبه.. هل تعترف أنها أحيانًا تتسلل خفية إلى غرفتها؟! تتحسس مكتبها وأدوات دراستها.. تتمنى لو تكون مثلها، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه!

* * *

- «هاشم».. لا أصدِّق هذا الجنون الذي فعلناه!

تهتف بها «فاطمة» بوجه احمرّ انفعالًا وهي تستقل سيارته بجواره نحو الطريق السريع خارج المدينة كلها، ليضحك هو باستمتاع هاتفًا:

- أعجبتني تجربة «الخطف» هذه.. لو كسد سوق «الكرة» فربما أحترف الإجرام.

- يا ربي! لا أصدق..

- لا أصدق أن هذا حقيقي.. أنت معجزة!

يقولها مقلدًا لهجتها بعبارتها التقليدية له، لتضحك بخجل وهي تداري شفتيها، بينما عيناها تنبضان بفرح الكون كله..

كانت قد خرجت للجامعة كالمعتاد، ولم يكد سائق سيارتها يغادرها حتى فوجئت باتصال من «هاشم» يطلب منها الذهاب للمكتبة القريبة من الجامعة.. ظنَّته سيترك لها هدية كما صار يفعل منذ أسابيع، لكنه فاجأها بسيارته معتمة النوافذ هذه تنتظرها هناك في مغامرة مفاجئة..

- أمامنا ساعتان فقط قبل أن يحين موعدي مع السائق.

تقولها بصوت أرجفه انفعاله والخوف يمتزج بحماسها ليرد مطمئنًا:

- لا تقلقي ستصلين في موعدك.. لم أستطع فقط تجاهل أول احتفال بيوم ميلادك ونحن معًا.

دمعت عيناها بتأثر وهي ترمقه بنظرة حارة.. كيف تخبره أنها لم تحتفل أبدًا.. أبدًا بيوم ميلادها هذا..

هو مجرد رقم في أوراقها لا تكاد تذكره.. وكأنه دخل حياتها ليذكّرها بكل الفرحة التي نسيتها.. ليضع كل النقاط على حروف أبجديتها المفقودة..

لهذا تحشرج صوتها بسؤالها:

- أين سنذهب؟!

- شاطئ بعيد لا يرانا فيه أحد..

ثم التفت نحوها مردفًا بعينين عاشقتين:

- صدقيني لم أدبر الأمر إلا صباحًا.. استيقظت من النوم والفكرة الوحيدة المسيطرة عليّ هي أنني يجب أن أقابلك اليوم بأي طريقة.

جسدها يرتجف بقوة شعورها ونظراتها كعهدها لا تجد لها رحالًا إلا على مرفأ عينيه.. تكاد تتوسل جفنيها ألا ينسدلا ولو للحظة تُحرَم فيها النظر إليه..

كثيراتٌ جرّبن حب الخيال الصامت، لكنها وحدها أمسكت نجمة السماء بيديها.. لا.. بل إنها سقطت في حِجرها دون حول منها ولا قوة!

على رمال الشاطئ بعد دقائق تجلس بجواره تراقب البحر بانبهار.. لم تكن أول مرة تراه فـ«غالية» تأخذهم في نزهة صيفية كل عام لأرقى شواطئ البلد.. لكنها معه تجد الأمر مختلفًا.. بل تجد الكون كله مختلفًا.. هي هنا معه حقًا؟! وحدهما؟!

- أعجبكِ المكان؟!

يسألها وهو يرمق جانب وجهها الشارد لتومئ برأسها إيجابًا والخجل يحرق وجنتيها، فيبتسم مغمغمًا بغيرة مصطنعة:

- إنها المرة الأولى التي يشغلك فيها شيء عن النظر إليّ.

- إنها مجرد بضع ثوانٍ.

بخجل مذنب تقولها وعيناها تعاودان غزل نسيج العشق حوله ليرد بعتاب دافئ:

- ولا ثانية واحدة.

تبتسم باعتذار ليتفحص ملامحها الجميلة بهذا القرب.. الهواء يعبث ببعض خصلات من شعرها تسربت عبر حجابها فيخفق قلبها بجنون، وهو يراها الآن «أيقونة» فريدة لجمال لا تشبهها فيها سواها..

يلتقط كفَّها بين راحتيه فينتفض جسدها كله بنيران مستعرة هبط عليها اعترافه بردًا وسلامًا:

- أحبكِ.

هل قالها حقًا؟! بهذه الرقة؟! بهذا الصدق؟! لقد رسمت في ذهنها عشرات «السيناريوهات» لاعتراف

كهذا منه.. عاشته في خيالها مئات المرات.. لكنها لم تتصوره أبدًا واقعًا بهذا الجمال الآسر.. لهذا تكالبت عليها دموع العين مع خفقات القلب لتسرق من شفتيها الكلمات..

- أريد التقدم لخطبتك.

- لا!

تهتف بها بارتياع انعقد له حاجباه بتساؤل ليكرر خلفها:

- لا؟!

هنا انفجرت دموعها فجأة كالطوفان، كأنما هبطت بغتة من سابع سماء لسابع أرض.. تنتحب وهي تسحب يدها منه لتخفي وجهها بين كفيها هاتفة بحرقة بين دموعها:

- هذا ما كنت أخشاه.. أن ينتهي الحلم بسرعة.. عن أي خطبة تتحدث؟! تظن أهلك سيوافقون على واحدة مثلي؟! تظنني فتاة عادية سيفرحون بنسبها؟!

- لا يا «فاطمة».. لستِ فتاة عادية، ولو كنتِ كذلك لما فكرتُ في الزواج منكِ.. أنتِ أميرة قلبي.. انزعي من رأسك هذه الهواجس.. ولا تفكري إلا بشيء واحد.. أنكِ لي وأنني لكِ.

الصدق الحار الذي يتحدث به جفف دموعها قبل أنامله التي ترنحت بحنوّ على بشرة وجهها.. ترفع عينيها إليه من جديد تتلقف كل عطايا العشق الممزوج بوعوده.. تشعر به يلبسها قلادة ما حول رقبتها لكنها لا تراها.. لا تريد أن ترفع عينيها عنه ولو حتى لترى هديته.. كيف يمكنه أن يفعل بها هذا؟! أن ينتزع اليأس من حنايا روحها ليبذر مكانه أملًا بحجم الكون كله؟! أن يمحو «الأسوَد» من لوحتها

ليستبدله بألوان قوس قزح؟!

- أنت فعلت شيئًا ما أظن غيرك بقادر عليه.. أنتِ جعلتني أحب نفسي.. لأول مرة في حياتي.. أحب «فاطمة».

- «فاطمة» تستحق أن تحبها الدنيا كلها.

يهمس بها بحسم رفيق وهو ينهض ليوقفها معه قبل أن يبتسم مردفًا:

- كل عام وأنتِ معي.

ابتسامته ظلت رفيقة طريقهما بعدها حتى أعادها لنفس المكان الذي اصطحبها منه.. ابتسامته منحتها ألف وعد للغد.. وابتسامتها منحته عمرها كله..لكنها ما كادت تغادر السيارة حتى استوقفها بعبارته:

- كدت أنسى..

ثم استخرج من جيبه ما منحها إياه لتقلبه بين كفيها مغمغمة بحيرة:

- ما هذا؟!

- كونسيلر؟!

- يعني..؟!

سؤالها الحائر تتلقفه ابتسامته وهو يجيبها معجبًا ببراءتها:

- إنه مستحضر تجميل يستخدمونه لمداراة هالات العين السوداء.

- حقًا؟! كيف؟!

همسة انبهارها تتسع لها ابتسامته، فيجيبها بمكر

عابث:

- يمكنني أن أريكِ الطريقة عمليًا، لكنني لست مسئولًا عن النتائج خاصة مع تورد وجنتيك المغوي هذا.. لا أضمن نفسي!

تحمرُّ وجنتاها بخجل أكبر مع نظرتها العاتبة، لكنه يتنهد بحرارة مع قوله الجاد:

- شكرًا يا «فاطمة».. الساعة معك بألف عمر.

ظلت عبارته تتردد في ذهنها حتى بعدما عادت لبيت «غالية».. هذا الشعور الذي يغمرها كفيل بأن تمطر الدنيا كلها حبًا.. وما كادت تغلق باب غرفتها بالمفتاح كعادتها حتى وقفت أمام مرآتها تناظر قلادته في عنقها بهيام.. قبل أن ترفع هديته الأخرى أمام وجهها.. كونسيلرا تزيح غطاء الأنبوبة الصغيرة التي بدت لها كالسحر.. لتبدأ في تمرير محتواها حول جفنيها..

الهالات تختفي رويدًا رويدًا.. وسحر اللون العسلي الممتزج بخضرة داكنة بعينيها يتلألأ أكثر فيبدو لها وجهها أكثر جمالًا.. لم تكذب يوم قالت إنها معه فقط صارت تحب نفسها.. من اليوم لن يعيرها أحد بهالاتها السوداء.. «هاشم» علّمها كيف.. تخفيها!

الهالة السابعة

(قشرة البركان)

- الثانية يا «هاشم».. ضاع مني المركز الأول هذه المرة!

تقولها «فاطمة» عبر الهاتف ببعض الانكسار ليردَّ هو مواسيًا:

- المركز الأول حصدته ابنة عضو هيئة تدريس.. ستكبرين صغيرتي وتدركين أن الاجتهاد ليس السبب الرئيسي للنجاح في هذا البلد.

تنهدت لتصمت بعدها، فقطع صمتها بسؤاله:

- ماذا بكِ؟! قلبي يخبرني بأن ما يحزنكِ ليس أمر

النتيجة فقط.

ذبذبات ترددها تصله فيصبر كعهده عليها.. حتى يسمع سؤالها:

- هل.. تحق لي الغيرة عليك؟!

سؤالها صدمه للحظات قبل أن يردَّ وقد فهم ما بها بعد «الصورة الشهيرة» التي تداولتها وسائل الإعلام له مع معجبة أجنبية شهيرة:

- ومن يملك هذا الحق غيرك؟!

الدفء الصادق بين حروفه يغمرها لتسيل دموعها دون وعي.. ربما لو كان عشقهما عاديًا لما سألت مثل هذا السؤال.. لكنها دومًا تستكثره على نفسها.. تراه «المعجزة».. «كعكة اليتيم» التي تثير دومًا العجب.. الحلم الذي تخشى تصديقه؛ كي لا يتهموها بالجنون!

- منذ اعترفت لنفسي بحبك وأنا أتحاشى لقاء المعجبات، حتى أطلقوا عليّ لقب «الشيخ هاشم».. لكن هذه المرة باغتتني الفتاة بجرأتها ولم أستطع التملص.. صدقيني حاولت منع نشر الصورة، لكنني لم أستطع.. سامحيني حبيبتي ووعدٌ مني ألا تتكرر.

مرحه، صدقه، لهفته، اعتذاره، وأخيرًا وعده الذي امتزج بلفظة «حبيبتي» هذه كانت أكثر من كافية لتعود وتحلق فوق غيمة عشق صارت لقلبها وطنًا..

- «فاطمة».. هل تبكين؟!

جزءه الملهوف يمسها فترد بسرعة:

- لم أعد.

- كيف أصالحك؟!

تفكر قليلًا لترد:

- مباراة اليوم.. أريدك أن تلعب كما لم تفعل من قبل.. سأشاهدها مباشرة على التلفاز أنتظر فوزك.

ضحكته الآسرة تتغلغل بين حناياها ترمم ما سبق من شروخ حزنها خاصة مع رده:

- لا أعدك فالخصم صعب.. لكن لا بأس لأجلك سأحاول.. راضية عني حبيبتي؟!

- بل محلقة في سمائك.

تغلق الاتصال على ضحكته الراضية لتخبئ الهاتف في خزانة ملابسها التي تغلقها دومًا بالمفتاح منذ اكتشفت أن «غنى» تدخلها خلسة.. لن تنسى ذلك اليوم الذي عادت فيه من الجامعة لتلمحها واقفة أمام مكتبها.. تتحسس مسطرتها الكبيرة بشكلها المميز.. وتتلمّس أدوات دراستها بشغف أثار شفقتها.. طالما تحيرها «غنى» في مشاعرها الخاصة نحوها

بين إشفاق وغيرة.. هذا المزيج الذي تزداد لذوعته يومًا بعد يوم.

ظلت تلهي نفسها بالقراءة لبعض الوقت بعدها حتى موعد المباراة.. تركت غرفتها لبهو البيت الكبير حيث التلفاز لتفاجأ بـ«غالية» و«غنى» هناك..

- سأشاهده في غرفتي يا خالتي.

- «خالتي»؟! ألن تكفّي عن مناداتي هكذا؟!

- آسفة يا «أمي».. لكنني متعبة ولا أريد مشاهدة المباراة هنا.

- كفاكِ استسلامًا لوهن جسدك هذا.. اخرجي من غرفتك هذه وشاركينا الحياة.

هتفت بها «غالية» باستنكار مخاطبة «غنى» لتبتسم «فاطمة» بأسى وهي تتذكر أنها هي كانت

أولى بمحادثة كهذه.. هي الأخرى تقضي وقتها حبيسة غرفتها، لكن «غالية» كالعادة لا ترى سوى ابنة شقيقتها فحسب!

بينما كانت «غنى» تشعر بالحنق وهي تودُّ لو تشاهد المباراة وحدها في غرفتها؛ كي تستمتع بالتعليق على «هاشم» مع صديقتها المقربة على الهاتف دون محاذير.. «هاشم» الذي يزداد تعلقها به يومًا بعد يوم، خاصة وقد صارت قريبته صديقتها المقربة، وصارت تعرف عنه ما جعلها تحبه أكثر وأكثر.. حتى أنها تجرأت وذهبت لبيت قريبته هذه في موعد وجوده، متذرعةً بزيارتها كي تراه.. لكنها كالعادة لم تلفت انتباهه، بل ألقى عليها التحية بفتور، ومع هذا لم تيأس.. بل زادتها رؤيته شغفًا وأملًا..

- لا تحملقي فيّ هكذا كالمخابيل.. اجلسي.

خاطبتها بها «غالية» صارمة، فاضطرت «غنى» للجلوس بجوارها، بينما ألقت عليهما «فاطمة» تحية عابرة لتشاركهما الجلوس قبل أن تنشغلن جميعًا بمتابعة المباراة التي كان أغلب الشعب ينتظر نتيجتها؛ إذ ستفصل في مستقبل المنتخب القومي.. وبينما كان انتباه الفتاتين منصبًا على «هاشم» بطبيعة الحال، كانت «غالية» منشغلة بالنظر إليهما هما.. لم تكن الكرة يومًا من اهتماماتها، لكنها شعرت بحدسها أن «غنى» تخفي شيئًا عظيمًا بخصوص «هاشم» هذا.. صورته تحت وسادتها.. حديث عابر سمعته يومًا لها عنه مع صديقتها.. وأخيرًا صداقتها التي وطّدتها بقريبته.. لهذا أرادت التأكد من الأمر بمشاهدة هذه المباراة معها لعلها تتبين انفعالاتها.. ربما كان الأمر فقط مجرد إعجاب مراهقة..

انتبهت من شرودها على صوت المعلّق العالي في التلفاز، وقد بدا أن الأمر جلل، خاصة عندما صرخت الفتاتان في آن واحد، بينما تقفزان من مكانهما:

- «هاشم»!

ليشد انتباهها مشهد «هاشم» وهو يسقط مصابًا.. ولم تمر بضع لحظات حتى شعرت بـ«غنى» تترنَّح لتسقط مغشيًا عليها!!

* * *

- صرتَ بخير؟!

تسأله «فاطمة» عبر الهاتف لتسري ضحكته التي أدمنتها عذبة بين عروقها مع ردِّه:

- تسألين هذا السؤال منذ أسبوع وأجيبك بأنه كان مجرد حادث بسيط.. الهدف الذي أحرزته في أول المباراة أنقذ ماء وجهي ومكسب الفريق كله في النهاية كان حسن الختام.

- لكن ضربة اللاعب ذاك لك كانت عنيفة.. مشهدك وأنت تسقط وقتها كادت تخلع قلبي.. لست وحدي.. هل تصدق أن «غنى» سقطت مغشيًا عليها؟!

- معقول؟! هل هي متعصبة كرويًا إلى هذا الحد؟!

- بل هي واهنة الجسد.. أقل انفعال يصنع بها هذا.. لقد منعتها أمي من مشاهدة أي مباراة بعدها.

قالتها بعفوية دون أن يخطر ببالها أن تحمل له «غنى» ما يفوق إعجابًا بلاعب..

- يؤسفني أني خذلتك يومها.

- لم تفعل يومًا.

- ولن أفعل..

قالها بنبرته التي تزين وعوده بالورد وتزين شفتيها

هي بالابتسامة.. قبل أن يغزو العبث صوته:

- تريدين دليلًا أنني صرت بخير؟!

همهمة مترقبة منها قابلها بمفاجأته:

- أبي حصل على موعد من «طاهر بيه» الليلة.. سنأتي لخطبتك.

* * *

- «هاشم» هنا!

تهتف بها «غنى» لنفسها بذهول وهي تراه عبر زجاج نافذة غرفتها يدخل مع والديه إلى البيت، قبل أن تضحك بسعادة وهي تهرع نحو مرآتها.. تصفف شعرها الذي أفادته معالجة «الكيراتين» أخيرًا لتمنحه المظهر المنشود.. ترتدي أفضل ثيابها.. تتزين.. تتعطر.. ثم تغادر غرفتها لتهبط الدرج

بخطوات راكضة لم يسعفها فيها جسدها الواهن، لتجد نفسها تقف لاهثة الأنفاس عند قاع الدرج المواجه لغرفة استقبال الضيوف التي كان بابها مغلقًا عليهم.. حانت منها التفاتة جانبية لتجد «فاطمة» هي الأخرى تتقدم بخطوات مترددة..

- هل علمتِ أن «هاشم العدوي» هنا؟!

تسألها بلهفة فرحة لم تستطع إخفاءها لترتجف ابتسامة «فاطمة» بل جسدها كله!

منذ سمعت منه عن نيته وهي تخشى الساعات القادمة خشية الموت.. «هاشم» وفى بوعده وجاء لخطبتها لكن.. هل يكتب لها القدر النهاية السعيدة كما تقرأها في الروايات؟! هل وافق أهله بهذه البساطة؟! لقد سألته عن الأمر فتردد قليلًا قبل أن يجيبها باقتضاب.. كأنه يخفي عنها ما تجهله بشأن رفضهم لفتاة مثلها!!

- تعالي نستمع.. لا أكاد أطيق صبرًا!

تهمس بها «غنى» بلهفة وهي تجذبها من طرف ثوبها نحو الباب الذي التصقت به كلتاهما قبل أن تشعر الأولى ببعض الغيرة وهي ترقب «فاطمة» جوارها.. لم تكن تضع أي مساحيق تجميل سوى «الكونسيلر» لإخفاء هالات عينيها.. لم ترتدِ سوى ثوب بسيط بلون قاتم.. حجابها يداري شعرها كليةً ولا تكشف عن منتصفه مثلها هي.. لكنها بدت لها كالعادة أكثر تألقًا وجاذبية منها.. لماذا دعتها لمشاركتها هذه المغامرة؟! ألم يكن من الأفضل أن تصرفها كي لا يشاهدها هاشم؟! لهفتها غلبت تعقلها هذه المرة!

- الشرف لنا يا «ستّ غالية».. لقد جئنا بشأن طلب ابنتكم لابننا.

عبارة أم «هاشم» تنتزع «غنى» من شرودها لتشهق

بفرحة قبل أن تبسط كفها على شفتيها بصدمة.. بينما لم يتوقف جسد «فاطمة» عن الارتجاف والدموع تتكدس في عينيها تنتظر نتيجة اختبار لم تمر في حياتها بأصعب منه..

- لكن «غنى» لا تزال صغيرة..

يقولها «طاهر» باعتراضٍ واه ليهتف «هاشم» بسرعة:

- «فاطمة» لا «غنى»!

عبارته انفجرت كقنبلة تناثرت شظاياها وسط الجميع.. «طاهر» الذي رمقه بنظرة ساخطة، شاعرًا أن «غزاله» الذي رباه صغيرًا يوشك أن يتفلت من يده.. «غالية» التي كان ذهنها منشغلًا بابنة شقيقتها التي فقدت وعيها بمشهد سقوطه في مباراة.. فما بالها لو علمت أنه اختار «فاطمة» زوجة؟! «فاطمة» التي أغمضت عينيها بقوة وهي تلصق جبينها بالباب

تكاد ترجوه أن ينصرف.. أن يتركها تعود لـ«صومعتها الآمنة» بحلمهما البريء معًا دون أن يملك أحدهم سلطة إفساده غافلة عن «غنى» التي وقفت ترقبها بذهول غاضب.. وأخيرًا أم «هاشم» التي هبت واقفة مكانها هاتفة باستنكار:

- «فاطمة»؟! قلت «فاطمة»؟! حسبتك تقصد «غنى» عندما زعمت أنك تريد خطبة ابنة «غالية».. خاصة مع صداقتها المستحدثة لابنة عمك.

- أبي كان يعرف.

قالها «هاشم» بضيق وهو يخشى عاقبة ثورة أمه التي عادت تهتف بزوجها بحنق:

- كنت تعرف يا «عدوي»؟! كنت تعرف أنه جاء بنا لخطبة «ابنة العاهرة»؟!!

- أمي!

صرخ بها «هاشم» يمنعها المزيد، ليقف والده محاولًا تهدئة المرأة، لكن صوت «غالية» المهيمن أخرس الجميع:

- كفى!

الصمت المهيب يسود للحظات ودقات القلوب الواجفة ترجو الزمن أن يتمهل.. بينما «غالية» تقف مكانها لتحرك خاتمها في إصبعها بجبروتها المعهود، وتواجه أم «هاشم» بقولها:

- «فاطمة» ابنة «غالية» ليست «ابنة عاهرة».. الناس كلها تعلم هذا، ومن يزعم غيره فسأقطع لسانه.

- لم نقصد الإساءة يا «ست غالية».. البلد كلها تعرف كيف اعتنيتِ بالفتاة حتى صارت «زينة البنات».. هي فقط...

والد «هاشم» يحاول إصلاح الموقف، لكن «غالية» تقطع حديثه بقولها الصارم:

- الزيارة انتهت.. عودوا عندما تعلمون من الفتاة التي تريدون خطبتها بالضبط.

* * *

- ردّي يا «فاطمة».. بالله عليكِ ردي!

يهتف بها «هاشم» لنفسه وهو يحاول الاتصال بها للمرة التي لا يدري عددها دون جدوى.. كان يلعن نفسه أن لم يمهد لأمه الأمر، مكتفيًا بشرح موقفه لأبيه العاقل الذي توسم فيه تفهمًا لموقفه.. لكنه لم يتوقع تطرُّف أمه حد إهانتها بهذا الشكل..

- افتح يا «هاشم».. لن تقضي الليل كله تهرب من الكلام معي!

هتاف أمه الساخط على الباب يزيد انفعاله، فيخفي هاتفه في جيبه ليفتح الباب قائلًا:

- ألا يكفي ما فعلتِه هناك يا أمي؟! ألا يكفي تقريعك لي طوال الطريق كأنني طفل أساء اختيار لعبته؟!

- هل ستكبر على أمك يا «ولد»؟! الغرور أعماك إلى هذا الحد؟!

- هل سنعود لهذه النغمة كعادتك في كل مرة تبتغين فيها ابتزازي لفعل مرادك؟!

هتف بها عاجزًا عن التحكم في غضبه لتهتف هي بدورها، بينما تدور حوله بانفعال غاضب:

- عادتي أنا؟! أم عادتك أنت في التعلق بكل من ينقصونك قدرًا.. تظنني لا أفهمك؟! طوال عمرك

وأنت تحب شعور التفوق على أقرانك.. تختار أصدقاءك أقل قدرًا وعمرًا.. حتى أنك قطعت علاقتك بصديق عمرك فقط لأنه دخل كلية الطب.. كنت تتحاشى زيارة خالك الثري في العاصمة، ولم تبدأ في فعلها إلا عندما ذاع صيتك هناك وصرت تنافس أبناءه مالًا وشهرة.. كل هذا كنت أفهمه وأتقبله في صفاتك ما دام الأمر يتعلق بصداقة أو قرابة.. لكن عندما يصل الأمر لزواج.. لنسب.. فيجب أن أقف معك وقفة!

كان يعلم أن حديثها يحتمل الكثير من الصواب.. إنه يجد نقصًا ما بنفسه يجعله دومًا يشعر بحاجته للتفوق على من معه.. لكنه لم يكن يجد غضاضة في هذا ما دام لا يؤذي أحدًا.. و«فاطمة» أمرها مختلف.. إنه يحبها حقًا.. ليس فقط مجرد اشتهاء لأنثى جميلة دغدغت رجولته.. بل شعور بأنها كلها صارت جزءًا من عالمه.. صارت ابنته وصديقته قبل أن تكون حبيبته..

لهذا هتف مدافعًا بقوة:

- ما لها «فاطمة»؟! جميلة حد الفتنة.. أخلاقها جوهرة تتحدث عنها القرية كلها.. وقريبًا تكون مهندسة، ولا أستبعد أن تكون مدرِّسة في جامعتها؟!

- ومصيبة أمها؟!

- وهل سنأخذ كل واحد بذنب أبيه الذي ليس له يد فيه؟!

- ألم تفكر في حالك؟! في سيرتك التي ستكون كقطعة لادن بين أفواه الخلق؟! «هاشم العدوي» العظيم بمن تزوج!

صراخها الساخر يقتضُّ من خوف منطقي يجده في نفسه، لكنه يرد مكابرًا:

- تزوج ابنة «طاهر بيه» و«الست غالية» أكابر البلد.

ضحكتها المستهجنة ترد قبل كلماتها العاصفة:

- ستكذب على الناس؟! على أولادك؟! أم على نفسك؟!

يصمت طويلًا ولا يجد ردًا، فتتقدم منه لتربت على كتفه، وقد هدأت لهجتها نوعًا:

- لو كنت تحبها لجمالها فالشكل يذوي بريقه مع الأيام، ولن يتبقى لك سوى حمل ثقيل لن يحتمله ظهرك.. الدنيا كلها تفتح لك ذراعيها.. أفضل فتاة في البلد الآن تتمناك.. ما أغناك عن «فاطمة» هذه!

لكنه يرد بعناد لا يحتمل الجدل:

- بل هي «فاطمة».. «فاطمة» ولا أخرى سواها!

* * *

- تعاليا.

تقولها «غالية» بصرامتها المعهودة وهي تشير بكفيها نحو الفتاتين اللتين وقفتا أمامها في غرفتها الخاصة.. غرفتها التي لا تكاد إحداهما تدخلها إلا لمامًا؛ احترامًا لخصوصيتها.. «الفردوس المفقود» كما كانت تراها «فاطمة» في طفولتها، وهي تسترجع مذاق عناقات «غالية» الأمومية لها على هذا الفراش قبل أن تدخل «غنى» حياتهما، فتصير هي مجرد عضو زائد ينتظرون بتره، و«عرين الأسد» كما كانت تراها في سنوات عمرها المتقدمة؛ إذ أدركت أن هذا البيت كله بما فيه «طاهر» وماله وعمله يدار من هنا.. من بين أصابع «غالية».. لهذا دارت ببصرها في الغرفة تسترجع رصيدها هنا بين منح وفقد كأنما تعدُّ نفسها لما هو آتٍ..

- لماذا يصر «هاشم» هذا على خطبتك أنتِ؟! هل تعرفينه؟!

تسألها «غالية» بشكّ وهي تقرأ ملامحها الملتاعة، لترد «فاطمة» بمراوغة:

- لا أحد في البلد يجهله يا أمي.

صوتها المبحوح لم يشفع لصراخ «غالية» العالي في وجهها:

- لا تتذاكي عليّ يا فتاة.. تعرفين ما أقصده.

فالتمعت عيناها بالدموع لتطرق برأسها، لكنها رفعته فجأة عندما سمعت صراخ «غنى» بجوارها:

- كنت أشك في هذا عندما وجدت صورته بين حاجياتها يومًا، لكنني ظننته مجرد إعجاب بلاعب مشهور.. أرجوكِ يا خالتي لا توافقي على هذه

الزيجة.. أرجوكِ.

- وما شأنكِ أنتِ؟!

كانت تدرك جواب سؤالها، وتخشاه، لهذا عقدت «غالية» حاجبيها بشدة، وابنة شقيقتها ترد بحرارة عبر دموعها:

- أنا أحبه.. لا أخجل من قولها فلم أفعل ما يشين.. قلبي تعلق به وصار الحلم الوحيد الثري وسط فقر أيامي.. هل كتب عليّ أن أفقد كل من تعلقت بهم؟!

كلماتها تسكب النار في أوردة «غالية» ليرتجف جسدها بانفعاله.. أما «فاطمة» فكانت ترمق «غنى» بذهول.. هل عدم الكون رجاله حتى لا تجد فيه «غنى» إلا «هاشم» كي تحبه؟! أي عبثٍ هذا الذي يدور؟! أي مهزلة هذه في أن تظل كلتاهما تدوران في حلبة سباق ووجهتهما نفس الهدف؟! قديمًا كانت «غالية».. والآن «هاشم»!!

بينما ازدادت ثورة «غنى» لتردف وهي تلوّح بذراعها نحو «فاطمة»:

- إن كنت لا أعجبه فليكن.. ليتزوج أي امرأة أخرى سوى «فاطمة».. لن أحتمل أن أراهما معًا..

ثم انخرطت في بكاء عنيف خرجت عبره كلماتها بصعوبة:

- ليس عدلًا أن تحصد هي دومًا كل شيء!

- أنا التي أحصد دومًا كل شيء؟!

العبارة تخرج من فم «فاطمة» مطعمة باستنكارها.. بحسرتها.. وبجرح السنين الذي طوته منزوية في صومعتها.. لهذا لم تشعر بنفسها وهي تصرخ في وجه «غنى» كأنما «قشرة البركان» الواهية تلاشت أخيرًا لتنبثق حممه لاهبة محرقة:

- أنا التي صرت مجرد كمّ مهمل منذ دخلتِ أنتِ هذا البيت؟! أنا التي ألقوها في غرفة سفلية كالخادمات؟! أنا التي أكاد أتسول حنان أمي واهتمامها وسط حبها وخوفها عليكِ؟! أنا التي لا أكاد ألتقط أنفاسي كي أصل لأملي وأُنسي الناس ذنبًا لم تكن لي يد فيه، بينما أقصى مجهوداتك أنتِ أن تمشطي شعرك وحدك؟!

- كفى!

صرخة «غالية» تقف بينهما وهي تشعر لأول مرة بـ«حصاد عمرها» تأكله النار.. هما ابنتاها طوعًا أو قسرًا.. لن تعترف بحقيقة سوى هذا.. وإن كانت تميز «غنى» بميل طبيعي لفتاة من دمها وتشفق عليها من وضعها المتدني دومًا مقارنة بـ«فاطمة»، فهي لا تستطيع إغفال حبها وفخرها بـ«فاطمة» التي ترفع رأسها دومًا بين الجميع.. لكن لا بد من حسم

المسألة.. العقل يقول أن:

- هذه الزيجة لن تتم.. لن أفرق بين أختين لأجل رجل!

الصمت يسود للحظات بعد عبارتها شعرت فيها «فاطمة» كأنما قلبها توقف عن النبض.. يريدون تجريدها من «معجزتها» بزعمهم عن «عطيّة قديمة كاسدة»؟! يقارنون حب «هاشم» بمشاعر باهتة نالتها في هذا البيت كـ«لقمة خبز» فاسدة يلقونها لفقير؟!

الظلم الذي شعرت به في هذه اللحظة جعلها تصرخ بقهر:

- هي ليست أختي.. لم أشعر بها يومًا ولا هي كذلك..

رمقتها «غالية» بنظرة متوعِّدة جعلتها تقترب منها لتتعلق بكُمّ جلبابها هاتفة برجاء:

- لكن أنتِ أمي.. لهذا أرجوكِ ألا تحرميني من «هاشم».. أنا لم أخيب أملك يومًا.. لم أعصكِ أبدًا في أي أمر.

- واليوم ستفعلين؟!

تسألها «غالية» بنبرة خطيرة وعيناها تتوهجان بغضب مكتوم، بينما تمسّد خاتم «جبروتها» في إصبعها.. لتعض «فاطمة» شفتها بقهر وهي تشعر بعجز من لا حول له ولا قوة.. هل تضع رهان عمرها كله الآن على «هاشم»؟! هل تجرؤ على فعلها؟! ما البديل؟! أن تُحرَم منه؟! لا.. سيبقى «هاشم» كفة ميزانها الثقيلة مهما حوت الكفة الأخرى!

لهذا ارتجفت حروفها بالرد:

- أنا له، ولن أتنازل عنه لأي سبب.

ولأول مرة تشعر بالشفقة نحو «غالية» التي أدهشها ردُّها حد الصدمة.. حد الخيبة.. حد الوجع الذي هيئ إليها معه أن تجاعيد وجهها قد تضاعفت فجأة ليغزوها وهن المشيب.. «غالية» التي كانت تتلقى خسارتها الآن كصفعة على وجه جبروتها.. كجلدة سوط تذكرها أنها لم تكن لإحداهما أمًا حقيقة.. وأنها طوال هذه السنوات لم تكن تقبض كفها سوى على «حفنة تراب»!!

اليوم فقط تشعر أنها فقدت إحدى ابنتيها!!

- عودي لغرفتك.. لكن اعلمي منذ هذه اللحظة أنني لم أعد لكِ أمًا.

قالتها بصوت حشرجه بكاؤه وهي تشيح بوجهها أخيرًا عن «فاطمة» التي رمقتها بنظرة مصدومة للحظات، قبل أن تهرول إلى غرفتها باكية..

- هل ستتركينها تتزوجه يا خالتي؟!

تسألها «غنى» بحسرة تشبه حسرة «غالية» وهي ترى ابنة شقيقتها لا تزال عاجزة عن مناداتها بأمي، كما تفعلها «فاطمة» بعفوية.. لكن ماذا عن قول دون فعل؟! عن عصيان متمرد لأوامرها وهي التي تعودت أن كلامها سهم نافذ؟!

لهذا شردت ببصرها لتقول بمرارة تسمعها «غنى» بهذا الوجع لأول مرة:

- لقد قرأتها في عينيها.. هي لن تضحي به مهما كان المقابل..

- إذن أجبريها.. هدديها بالطرد من البيت.. هي لا ملجأ لها إلا هنا.

- ويتحدث الناس أن «ابنة غالية» كسرت كلمتها؟!

اتسعت عينا «غنى» بإدراك وهي تتبين هذه

الحقيقة لأول مرة.. هذه هي عقدة خالتها الأساسية.. أن تظل دومًا مركز الكون.. ألا يتحدث الناس أن عرش جبروتها قد اهتز.. لهذا ستميل رأسها كي لا تصطدم بصخرة تكسره.. معركتها إذن خاسرة.. «فاطمة» استحوذت على «هاشم» كما استحوذت على كل جميل!!

وفي غرفتها المغلقة وقفت «فاطمة» تشعر بـ«العري»!!

تكتِّف جسدها بساعديها وهي تشعر بخوف عجيب.. خوف لم تعرفه منذ وفاة أمها الحقيقية و«الأيدي المجهولة» تتلقفها من بيت لبيت، فلا تكاد تميز وجهًا ولا عاطفة.. هل ستتخلى عنها «غالية»؟! هل ستعود كما كانت مجرد «قطة ضالة» على قارعة الطريق؟!

«هاشم»!

تهرع نحو خزانتها لتجد عشرات الاتصالات الفائتة منه.. تتحرك أناملها بلهفة كي تتصل به، لكنها تتوقف في اللحظة الأخيرة.. تتذكر ثورة والدته وما نعتتها به.. «ابنة العاهرة».. لن ينسوا إذن.. لن ينسوا..

هنا تلقي الهاتف بحدة من يدها وهي تشعر أنها لأول مرة في حياتها تكره أمها.. بل تكره هذا «الشبه المتطابق» في الملامح بينهما.. وكيف لا وهي السبب في كل ما تعانيه؟! هل هناك أقسى من أن تطالع مرآتك كل يوم لتجد نفسك تشبه أكثر شخص صرت تكرهه؟! تكرهه بعد طول تعلق؟!

لهذا مدَّت يدها بأقرب ما نالته يداها لتهشم مرآتها بصورتها الذميمة، ليملأ أذنيها صوت دوي الزجاج المروع.. لكنه لم يكن شيئًا أمام هذا الدوي الصاخب في أعماقها.. لماذا هي بالذات يحدث لها كل هذا؟! لماذا لا تكون لها حياة بسيطة كالأخريات؟!

ظلت هذه الأفكار تؤرقها لساعات طويلة بعدها والدموع رفيقة السهر الطويل كالعادة، حتى سمعت صوت أذان الفجر.. لم تكن تصلي.. بل إنها حتى لم تفكر يومًا في الدعاء.. الصدمة التي تلقَّتها في طفولتها بشأن «شيخ الجامع» مع أمها جعلتها تزهد مظاهر هذا الدين.. لتزيد ظروف حياتها بعدها من ابتعادها عنه.. كانت تظن دومًا نفسها مدنَّسة أمام خالقها.. ترى حياتها مجرد عقاب لذنب لا تفهمه..

لهذا توجهت أخيرًا نحو النافذة تفتحها.. رائحة الهواء المبلل بالطين في هذا الوقت تتخلل مسامها فتذكرها بـ«وحل» غاصت فيه قدمها بخطيئة لم ترتكبها.. ترفع رأسها للسماء فيهيأ إليها أن الغيوم البيضاء تنزاح لتفسح مجالًا لهيبة اللون الأسود.. كأنما تعطيها الفرصة لدعاء تبوح به لأول مرة بهذه الحرقة:

- أعرف أنك تكرهني.. لو كنت تحبني لما أسلمتني

لحياة كهذه.. لما حرمتني من أبي.. من أهلي.. من أمّين لا أم واحدة.. لكنني أدعوك هذه المرة ألا تحرمني من «هاشم».. اجعله النور الذي انتظرته في آخر الطريق.. اجعله الرحمة التي تفيض على قلب ملّ طول خذلانه.

لتشعر بعدها وكأنما وقع في قلبها شيء ما لم تدرِ هل هو نبوءة بالقبول أم دعوة للقرب.. كل ما عرفته أنها ولأول مرة في حياتها توضأت.. لتصلي..

* * *

الهالة الثامنة

«الرهان»

- هي ستتزوج حقًا؟! بهذه السرعة؟!

يسأله «صاحب الظل» بلوعة سكنت عينين غائرتين بالألم، ليرد «سليمان» بنبرته الغامضة:

- المقادير أنفاق مظلمة لا يعلم الواقف في أولها ما يخفيه آخرها.

يقولها وعيناه تحطان على بضع خصلات اجتاحها المشيب في شعر صاحبه كادت تدفعه لتعليق تراجع عنه بحكمة شكرها لنفسه خاصة عندما غمغم صاحبه:

- ستتزوج! تتزوج وتسافر بعيدًا عن هنا؟! تظنني حقًا صرت بلا دور في حياتها؟!

- كنت صاحب الدور الأكبر.. هل نسيت؟!

يقولها «سليمان» بعتاب خفي، وهو يضرب الأرض بعصاه، ليهز صاحبه رأسه بيأس مذنب، بينما «سليمان» يردف بنبرة نالها الإشفاق:

- ربما آن لزهرتك أن تجرب أرضًا غير هذه لعلها تترعرع فيها أكثر.. ومن يدري؟! ربما هي عطيّة القدر لك أنت الآخر.. كي تنسى!

- أنسى؟!

يتمتم بها «صاحب الظل» بحسرة قبل أن يزفر بقوة، وهو يدور في المكان كلَيْث حبيس:

- دعك مني أنا.. ما يعنيني الآن هي.. هي فحسب؟!

أنت كنت عيني عليها في بيت «طاهر».. فمن يطمئننا عليها بعد ذلك؟!

فامتلأت عينا العجوز حزنًا شاطره فيه ليرد بغموض:

- دعها تخوض حربها بنفسها فـ«مهرتك» ليست بالضعيفة.. فارسها حارب الدنيا لأجلها، لعلهما يكملان السباق لآخره.

هنا اشتعل وجه الرجل بشعور عاصف تفهمه «سليمان» -على غرابته- قبل أن تلين ملامحه هاتفًا به برجاء:

- أريد أن أراها.. مرة واحدة فقط.. أرجوك ساعدني.

ظهر الرفض على وجه «سليمان» جليًا للحظات، لكن «الدمع العزيز» الذي ترقرق في وجه صاحبه

جعله ينهض من جلسته ليومئ برأسه في استسلام.. فرفع صاحبه وجهه للسماء مداريًا انفعاله قبل أن يغطي وجهه بلثامه، ليسير خلف «سليمان» متأهبًا للقاء تمناه بكل جوارحه..

وفي غرفتها كانت «فاطمة» تراقب السماء المظلمة عبر النافذة في هذا الجو المتأخر من الليل.. كعادتها تقضي الليل ساهرة وهالات عينيها تزداد سوادًا.. لا تكاد تصدِّق كيف جرت الأحداث بهذه السرعة في الأيام السابقة.. كيف ازداد تشبث «هاشم» بها ليواجه الجميع بعناد.. هذا الذي كان سيجعلها أسعد فتاة على وجه الأرض لولا شعورها بأنها فقدت أمومة «غالية» التي لم تحدثها بكلمة من ليلتها.. وبأنها زادت عذابات «غنى» التي لم تغادر غرفتها من حينها، كأنما بادلتها عزلتها.. يا للسخرية!! الآن هي من تخرج مع «هاشم».. يشتريان مستلزمات بيتهما الجديد.. يسيران معًا وسط أهل القرية.. يتنزهان في أماكن لم تخطر لها يومًا على بال.. فلا تكاد ترى

غرفتها التي اختارتها قديمًا منفى إلا قليلًا.. بينما غنى هي التي صارت حبيسة.. هل تشعر بالتشفي؟! لقد ظنت أنها ستفعل، لكن الغريب أن الجواب: لا!

كل ما يملؤها الآن هو شعورها بالخوف من الغد.. العصفور السجين فتحوا له القفص أخيرًا، لكنه لا يزال مترددًا في التحليق.. السماء التي كانت حلمًا حبيبًا صارت فجأة.. غريبة.. مهيبة.. مقبضة.. كعالم أبهرتها نقوش بواباته حتى إذا فتحتها راعها اختلافه!!

- ويجاااا.. ويجاااا.. نجمة في السماء.. أم حصاة على الأرض.. لا تهلك ذراعيك كي تطال الأولى.. ولا تنحني للثانية.. نصيبك يصيبك.

تميز صوت «سليمان» العالي بعباراته الغريبة التي لا تفهمها، فتضع وشاحها على رأسها، وتهرع نحو الحديقة كي تلتقيه.. تحتاج حقًا أن تلقي همومها في

رحابه.. مكانته كصديق لم يحتلها أحد بعده، ولا حتى هاشم.. لهذا اقتربت من سور الحديقة تبحث عنه في مكانهما الذي اعتادا اللقاء فيه.. لتبتسم عفويًا وهي تراه جالسًا هناك على حافة حوض الزهور يدق الأرض بعصاه، ورأسه يناجي السماء بتمتمات شفتيه غير المفهومة..

- جئت تبارك زواجي، وتخبرني أنك ستفتقدني؟!

تقولها هي وقد علمت أنه لن يتفوه يومًا بكلمات كهذه وإن فاضت بها عيناه فيبتسم لها عبر أسنانه المكسورة وهو يمد يده ليناولها «مسبحة زرقاء».. لكنها ألقتها جانبًا بعنف هاتفة:

- لا أريد أي شيء يذكرني بتلك المرأة.

- منذ متى؟!

- منذ كبرت وفهمت الحقيقة.. منذ أدركت أنها

سبب كل عذاباتي.

- الحقيقة؟! الحقيقة! ما رأيت يومًا كلمةً أصدق منها.. ولا أكذب!

- ماذا تعني؟!

لكنه يطرق برأسه متمتمًا بكلمات لم تتبينها، فتنهدت بأسف لتجلس بجواره قائلة:

- سأفتقدك يا «سليمان».. لكنني سأزورك متى استطعت.

- تظنين نفسك ستعودين؟!

- ولم لا؟!

يرمقها بنظرة مشفقة ليعود لنبرته غموضها:

- لو غادرتِ كـ«غزال شريد» فلن تعودي إلا كـ«ليث منتقم».. ليتكِ لا تعودين!

كلماته تقبض قلبها بذاك الشعور المهيب.. لم تتلقّ يومًا كلماته كهذيان مجذوب بل كنبوءة رجل غلبت بصيرته بصره.. لهذا انفرجت شفتاها تكاد تسأله عما يقصده لولا أن لمحت ذاك الظل هناك وسط الظلمة الكاحلة!

لا.. لم يكن ظلًا.. بل رجلًا ملثمًا يرمقها بعينين نافذتين من فوق السور..

- «سليمان»! هناك رجل..

صرختها تنقطع عندما يختفي الرجل فجأة عن ناظريها، فتنادي الحارس تطلب منه تمشيط المكان، لكنه يعود إليها خائبًا زاعمًا أن لا أحد..

- أنا واثقة أنني رأيته يا «سليمان».. أنا لا أهذي.

- كيف كان؟!

- ملثمًا.. لكن عيناه.. عيناه.. رباه!! أنا أعرفهما.. أذكرهما!!

تهتف بها بأنفاس متلاحقة وصدرها يعلو ويهبط، لتخبط جبينها بكفها مردفة بحيرة:

- لكنني لا أذكر صاحبهما.. أنا واثقة أنني أعرفه.

- ربما تتوهمين!

- لا.. أو.. ربما.. لا أدري.. أنا حقًا مشوشة.

يهز «سليمان» رأسه بحركته البهلوانية المعهودة متجاهلًا عبارتها.. قبل أن يقف مكانه لتزيغ عيناه بقوله:

- ربما لا تلتقي الوجوه ثانية.. انتبهي لحالك ولا تسرفي في اتباع قلبك.. القلب أبصر من العين.. لكنه إذا عشق عمي.

تدمع عيناها وهي تشد بأحد كفيها على عصاه، بينما تربت بالآخر على كتفه هامسة:

- لن تحضر حفل الزفاف؟! لو أردت يمكنني أن أجعل «هاشم» يدبر الأمر.

فتدمع عيناه هو الآخر وابتسامته ترتجف بين تجاعيد وجهه، لكن «السخرية الأبيّة» التي فاضت في ملامحه تمنحها جواب النفي..

- ويجاا.. ويجاا.. لو اهتزت الأرض تحتك فاجلس طوعًا قبل أن تقع قسرًا.. نور بعد نار.. ونار بعد نور.. والكف فارغة بعد طول جَنْي.

يقولها «سليمان» وهو ينسحب متكئًا على عصاه،

فترمقه «فاطمة» بنظرات ضائقة، وقد شعرت أن زيارته هذه المرة مختلفة.. تبًا لك يا «سليمان»! هل كانت تنقصني تخاريفك المقبضة هذه!!

تتمتم بها ساخطة ثم تحيد عيناها نحو قمة السور هناك حيث كان الظل الذي توهمته.. قبل أن تزفر لتعود بخطوات متثاقلة نحو غرفتها غافلة عن عيني «غالية» التي كانت واقفة في شرفة غرفتها تراقب المشهد من علوّ منذ سمعت صرخة «فاطمة» المستنجدة بالحارس.. عجبًا.. هل صار الناس يتجرأون على بيت «غالية»؟! كلمات «سليمان» الأخيرة تنخر كالسوس في عصا كبرياء طالما اتكأت عليها، والآن تنذرها بالسقوط لتهوي هي خلفها..

صدقت يا «سليمان» ويا ويلي من صدقك.. الكف فارغة بعد طول جَني..!

* * *

ثوبها الأبيض يحيط تفاصيل جسدها بنعومة.. وطرْحتها البيضاء تتدلى خلف ظهرها بمشهد طالما حلمت به.. هالات عينيها التي طالما أرقتها تختفي الآن تمامًا بتأثير زينتها الاستثنائية.. تتأبط ذراع «هاشم» لتسير بجواره وسط الجموع رافعة رأسها.. قبل أن تراه..

«السرجاني».. هو هو.. بقسوة ملامحه.. بشراسة عينيه.. بقوة جسده الذي كان يتقدم الآن نحوها.. تصرخ بـ«هاشم» لكنه لا يسمعها وسط صخب الحضور.. ابتسامة «السرجاني» تتسع وهو يتقدم أكثر وأكثر.. ثم لم تدرِ من أين ظهر سكينه ليلتمع نصله تحت الأضواء ويهوي في طريقه إلى قلبها!!

تفتح عينيها فجأة وقد أفاقت من نومها تلهث بصعوبة، وهي تشعر بـ«الجاثوم» القديم يعاود إطباقه على صدرها.. تحاول تحريك جسدها لكن دون جدوى.. كل ما فيها مشلول.. كأنما تجمدت..

تحاول الصراخ لكن دون جدوى.. لم تدرِ كيف ظلت على هذا الحال لكنها تمكنت أخيرًا من النهوض لتهرع نحو نور الغرفة تفتحه..

الضوء يغشي عينيها للحظات لتعاود تفحص الغرفة برعب.. هل كان هذا كابوسًا؟! تبًا! لماذا الآن بالذات يعاود كابوس «السرجاني» ظهوره في حياتها؟! لقد كانت قد نجحت في تناسيه طويلًا.. لكن لا بأس.. غدًا ينتهي كل هذا.. غدًا تصير زوجة «هاشم».. حبه سيحميها من أي سوء.. سيكون كما اختارته دومًا حبيبها وصديقها وأباها وزوجها.. وستكتفي به عن العالمين!

ابتسامة حالمة تزين شفتيها وهي تتحرك لتتناول هاتفها الذي زينته آخر صورة أرسلها لها.. كانت صورة لفراشهما في بيتهما الذي أعداه معًا.. وقد زينه لها ببتلات من الورد الأحمر في شكل القلب الشهير.. وكتب لها بعدها:

- دنياي كلها تنتظرك لتنير بكِ.

- هل كتب هذا حقًا؟! ترى من الأولى بقولها أنا أم هو؟!

هكذا حدَّثت نفسها وعيناها تدمعان بفرحة بلغت حد الألم.. الألم من أن تفقد كل هذا فجأة كما حصدته فجأة!

صوت خطوات حذرة تقترب من غرفتها تجعلها تفيق من خواطرها لتعبس وهي تتقدم نحو الباب بترقب.. الباب الذي فُتِح فجأة ليطل منه وجه «طاهر»!

شهقة ارتياع خافتة تغادر شفتيها وعيناها تجحظان وهي تراه يغلق الباب خلفه، وابتسامة شيطانية تتراقص على شفتيه، بينما عيناه كالعادة تجريان على جسدها بطمع شهواني.. فيما تجمدت

عيناها هي برعب على وشمه الأخضر القبيح كالعادة..

- إذن هكذا تتزوجين غدًا وتغادرين بيتي ببساطة؟!
ألا يقولون إن «جحا أولى بلحم ثوره»؟!

فينعقد حاجباها بغضب من تشبيهه المقزز قبل أن تشحب ملامحها وهي تراه يقترب أكثر فتتوقع الأسوأ.. صورة «السرجاني» اللعينة مع كابوسه تعتصر عنقها، فتلهث متلاحقة الأنفاس، وكأنما سكينه على رقبتها بالفعل.. لتجد نفسها أخيرًا بين ذراعي «طاهر» يدنسها بأنامله، ويكاد يصمها بشفتيه..

- لا تخافي.. لن أفسد هدية «العريس» المنتظرة..
سأتفحصها فقط.. آآه..

دفعة مفاجئة منها له جعلته يقطع عبارته الحقيرة يفقد اتزانه قليلًا لتعدو هي نحو «الكومود» بجوار

سريرها، حيث كسرت الكوب الزجاجي الموضوع فوقه لتضع حافته المدببة فوق عنقها، مغمغمةً بصوت مرتجف:

- لو لمستني سأقتل نفسي.

- لن تجرؤي على فعلها.

يقولها بينما يقترب منها بحذر لتشدد يدها على قطعة الزجاج فوق رقبتها، فتشعر بالدم يسيل على جانب عنقها، لكنها لا تحس بألم.. كل إحساسها الآن كان منصبًا نحو مركز واحد.. ألا تدنّس ولو بلمسة.. ليس فقط لأجل «هاشم».. بل لأجل ألا تشبه صورة تكرهها الآن بقدر ما أحبتها يومًا.. صورة أمها!

لهذا جاء ردُّها مفعمًا بقوة لم تدرِ من أين ملكتها:

- لا مزاح في الشرف.

- شرف؟! تتحدثين عن الشرف يا ابنة «غفران»؟! ماذا رأى منكِ ذاك الفتى إذن كي يتمسك بكِ بهذه الطريقة ويعاند الجميع ليتزوجك؟! تظنينني ساذجًا لأصدق أنك لم تمنحيه من نفسك شيئًا بل كل شيء؟!

يقول عبارته الأخيرة كأنما يبصقها، فتنتفض قائلة بنفس القوة رغم دموعها المنهمرة:

- لو لم يكن واثقًا في أخلاقي لما اختارني زوجة وتحدى الجميع كما تقول..

ثم عاد صوتها لارتجافه وهي تشعر بالمزيد من الدماء اللزجة تسيل على عنقها:

- أرجوك.. اخرج.. لو شعر أحدهم..

انقطعت عبارتها عندما فتح الباب فجأة ليطل منه وجه «غالية» التي تراقصت شياطين الغضب على

وجهها، وهي تراقب المشهد بتوجس، لتهتف من بين أسنانها:

- ما الذي يحدث هنا؟!

- أمي!

هتفت بها «فاطمة» وهي تلقي قطعة الزجاج من يدها لتهرع إليها وتلقي نفسها بين ذراعيها.. بينما اختلق «طاهر» كذبته بسرعة:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. يبدو أن الفرحة أفقدتها عقلها.. كنت ذاهبًا للحمام لأسمع صوتها تبكي وتضحك بأصوات غريبة.. أتيت لتفحص الأمر، فوجدتها تكسر الكوب -كما كسرت مرآتها هذه من قبل- لتضعه على عنقها كما رأيتِ..

ثم صمت قليلًا يتبين أثر عبارته على «غالية» التي تجمدت ملامحها تمامًا، فازدرد ريقه مردفًا:

- جيدٌ أنها ستغادر هذا البيت ونتخلص منها.. عسى ألا يعيدها إلينا «هاشم» هذا بعدما يتبين جنونها.

ساد الصمت بعدها إلا من صوت نشيج «فاطمة» المرتفع بين ذراعي «غالية» التي رمقت «طاهر» بنظرة جوفاء جعلته يلوح بكفه ليغادر الغرفة هاتفًا بضجر مصطنع:

- سأعود للنوم.. لا تنقصني سخافات الفتيات هذه!

ظلت «غالية» على صمتها بعد رحيله للحظات، قبل أن تبعد «فاطمة» مغمغمة بصوت مختنق رغم برودته:

- جرحك يحتاج لعناية..

قالتها لتخرج وتعود بما تعاملت به مع الجرح السطحي، فانطلقت من «فاطمة» آهة خافتة وهي

تشعر بأثر الكحول على رقبتها، لكن «غالية» رمقتها بنظرة عميقة طويلة جعلتها تتمتم بما يشبه الاعتذار:

- شكرًا يا أمي.

- ألم أخبركِ أنكِ لو قبلتِ هذه الزيجة فلم أعد لكِ أمًّا؟!

تقولها «غالية» بنبرة غريبة عن جبروتها المعهود.. بل كانت معجونة بقهر.. بخيبة.. بحسرة من فقد كنزه بعد طول ادخاره..

لهذا عادت دموع «فاطمة» تسيل، بينما تهتف بحرقة:

- لم أجحد فضلك ولن أفعل يومًا.. لماذا لا تفهمينني؟! لماذا لا تنصفينني ولو لمرة واحدة؟! «هاشم» هو أجمل ما حدث لي.. معجزتي التي لا أصدق إلى الآن كيف نالتني ونلتها.

- لا تزالين صغيرة والعمر يحمل لكِ الفرص.. ما أغناكِ عن رجلٍ تشتهيه أختك!

- بل ما أفقرني! ما أفقرني وأحوجني إليه يا أمي!

مزيج غريب من العناد والرجاء يظلل حروفها، ويجعل «غالية» تواجهها بجبروتها المعهود:

- تعلمين بماذا تضحين إذ تقبلين هذه الزيجة؟! ستخرجين من هذا البيت ولن تعودي إليه أبدًا!

رغم التهديد الواضح الذي حملته العبارة، لكن «فاطمة» قرأت في العينين المهيمنتين رجاءً خفيًا.. كلتاهما في هذه اللحظة كانت ترجو من الأخرى ما لا تطيق.. والخذلان كان الجواب المؤسف الذي نالته كلتاهما!!

- حمقاء! تراهنين بعمرك على رجل؟! ماذا تعرفين

أنتِ عن الرجال؟!

تغمغم بها «غالية» وهي تعطيها ظهرها لتتوجه نحو نافذة غرفتها تفتحها لتطالع ظلام الليل أمامها..

- ماذا تعرفين عن الخوف الذي يسكنك فتدارينه لتَظهري للكل كما عهدوكِ قوية لا تنكسر؟! ماذا تعرفين عن الخذلان؟! عن الخيانة؟! عن حائط خُدعتِ بالاستناد عليه لينقض ساقطًا بكِ؟! تراهنين على رجل؟! بئس الرهان!!

كانت عينا «فاطمة» تتسعان مع كل كلمة تقولها «غالية».. هل تعني بها نفسها مع «طاهر»؟! ألم تصدق كذبته عما رأته؟! لماذا إذن لم تعاتبه؟! بل إنها لم تستفسر منها عما حدث! تراها تعرف! طوال هذه السنوات تعرف!! رباه!!

لكن حتى لو كان «طاهر» بهذا السوء.. لماذا تقارنه بـ«هاشم»؟! لا لا.. «هاشم» ليس كـ«طاهر» أبدًا كما

أنها ليست كـ«غالية»!

- وددت لو كنتِ أذكى.. لو كنتِ أقوى.. لو كنتِ «ابنة غالية» التي ربيتها طوال هذه السنوات لتكون سندي في هرمي!

تتمتم بها «غالية» بنفس النبرة الغريبة التي تمزج جبروتها بخيبتها فلا تملك «فاطمة» الرد.. تلتفت نحوها «غالية» أخيرًا لترمقها بنظرة طويلة بدت في عيني «فاطمة» كأنها نظرة وداع..

- ثيابك معدة في حقائبك.. هذه الغرفة ستعود للخادمة الجديدة.. سأحضر العرس؛ كي لا يتندر الناس أن «ابنة غالية» عضَّت يدها بعد هذا العمر.. لكن متى تخرجين من هنا فلن تعودي بعدها أبدًا!!

تقولها وهي تتحرك نحو باب الغرفة، لكنها تتوقف فجأة أمام «فاطمة».. عيناها تمتلئان بدموع عصية وذراعها يرتفع ببطء نحو وجه «فاطمة» فلا تدري

هل ستصفعها أم تعانقها.. لكنه يتوقف فجأة مكانه، كما يتوقف الزمن كله في عيني «فاطمة» الآن وهي تشعر برهبة الاختيار!!

- أرجوكِ يا أمي.. اطلبي أي شيء.. أي ترضية.. إلا هذا!!

تهتف بها برجاء بين دموعها، لكن «غالية» تغلق عينيها بقوة كأنما تكتم انفعالًا عاصفًا بين جنباتها، قبل أن تغادر الغرفة صافقة بابها خلفها..

«فاطمة» اختارت رهانها.. وانتهى الأمر!

* * *

- أخيرًا.. نحن معًا!

يهمس بها «هاشم» بنبرة عاشقة بعدما دلف معها إلى غرفة نومهما في هذا الفندق الفخم الذي اختاره

لقضاء «شهر العسل».. والتي كانت مفاجأته لها هذه الليلة..

فاغرورقت عيناها بالدموع وهي تتلفت حولها برهبة ممتزجة بالانبهار.. لم تتصور يومًا أن تكون ليلة زفافها بهذا البذخ.. الزفاف المميز الذي حضره كثير من نجوم المجتمع بطبيعة الحال.. والذي أقيم في العاصمة، حيث شقتهما الجديدة التي اختارها «هاشم» هنا بعيدة عن القرية، حتى كليتها نقل منها أوراقها إلى الجامعة هنا في العاصمة، كأنما يريد أن يجتث جذور ماضٍ صار يؤرقهما معًا.

- خائفة؟!

يهمس بها أمام شفتيها، وكفاه يحطّان على خصرها يقربها منه أكثر، فترمقه بنظرة مشتتة وهي تشعر بهذا التقارب الحسي بينهما لأول مرة يزلزلها.. لم يلمسها أحدهم بهذه الطريقة يومًا إلا «طاهر»..

وشتان بينهما!

طوال الحفل وهي تسترجع كابوسها الرهيب.. تبحث عن «صورة السرجاني» وسط الوجوه.. تترقب حضوره بسكينه.. لا تكاد تصدق أنها نجت منه.. نجت منه ومن بذاءة «طاهر» وأنانية «غنى» وألسنة أهل القرية.. وجبروت «غالية»!

غالية التي أهدتها طاقمًا ذهبيًا فخمًا تمايلت له أعناق النساء في الحفل، وظنّها أنها فعلتها فقط كي يتحدث الناس عن كرم أخلاقها.. لكن الاتفاق الأخير بينهما كان واضحًا!!

الخاطر الأخير يجعلها تغلق عينيها بألم يسيء هو فهمه ليلصقها به مردفًا:

- لم تتركي يدي طوال الحفل كطفلة تخشى ترك أبيها وسط الزحام.. تمامًا كما لم أتركها أنا كأعمى وجد فيكِ شمس ظلامه!

ترتجف ابتسامتها وهي تفتح عينيها تتأمل عينيه بهذا القرب.. خضارهما الصريح يبدو لها كجنة تفتح لها ذراعيها.. تتوارى معها كل عذابات جحيمها، فتهمس له بما نبض به قلبها دون مواربة:

- عانقني يا «هاشم».. أخفِنِي عن كل هذا العالم بين ذراعيك.

لم يكن يحتاج لرجائها الذي ذاب بين خجل واحتياج.. بل كان يتوق لهذه اللحظة التي تمنَّاها منذ اعترف قلبه بعشقها.. ضمَّها بين ذراعيه يبثها عاطفة لم يجد لها مسمى.. ضمَّها كابنة تائهة يهدهدها كأب.. كأنثى شهية يجتاحها كعاشق.. بل كروح يقدسها كمتيّم..

شفتاه تطوفان على بشرتها تلهبها بهذا الشعور الذي تجربه لأول مرة، فتنتفض بين ذراعيه ليتذوق مرارة دموعها..

- «فاطمة».. هل تبكين؟!

يهمس بها بجزع وهو يحيط وجنتيها براحتيه، لكنها تخفي وجهها في صدره هامسة بين دموعها.. منفجرة ببوح هذه السنين الطوال التي قضتها قبله:

- تدري كم سنة؟! كم سنة عشتها محرومة من شعور كهذا؟! من أمان كهذا؟! من عناق كهذا؟! من قبلات كهذه؟! كم سنة عشتها منبوذة في غرفة بيت لا أعرف لي فيه صفة؟! كم سنة تمنيت فيها كتفًا.. أي كتف.. أستند عليه واثقة أن لن يسقط بي؟! تمنيت قلبًا.. أي قلب.. يغمرني بعاطفة تشعرني فقط بآدميتي.. تمنيت..

كلماتها تنقطع بين شفتيه لتنصهر روحاهما معًا بهذا الشعور الخاطف قبل أن يبعدها أخيرًا ليمسح بقايا دموعها بأنامله هامسًا:

- تمنيّ ما تشائين وعهدٌ عليّ حبيبتي أن أحققه لكِ.. أنا لكِ قلب وكتف وسند وروح.

- أنت رهاني الأخير في هذا العالم.. لو خسرته فلا حياة لي بعده.

- وأنتِ كسبتِ رهانك دون رجعة يا «محظوظة».. فهنيئًا لكِ به!

يهمس بها بمرحه المعهود وهو يقرص أحد وجنتيها بشقاوة عذبة فاحمرت وجنتاها خجلًا وهي تميز في عينيه لمعة خاطفة أشعلت ثورة دمائها لتبتعد عنه خطوة بظهرها هامسة بارتباك:

- كان الحفل رائعًا؟!

- جدًا.

يهمس بها بينما يقترب الخطوة التي ابتعدتها،

فتعاود التحرك للخلف هامسة بنفس الارتباك:

- الثوب كان جيدًا؟!

- جدًا جدًا.

يعاود الاقتراب فتعاود الابتعاد بظهرها هامسة بنفس الارتباك اللذيذ:

- كنت أبدو جميلة؟!

- جدًا جدًا جدًا.

يقولها وهو يقترب بابتسامته العابثة التي تغرقها في شعور تتمناه وتخشاه.. فتحاول الابتعاد مجددًا، لكنها تفاجأ بـ«برودة» الحائط خلفها وبـ«اشتعال» أنامله الراقصة فوق بشرتها تعزف لحنًا خاصًا بجنون العاشقين..

هل هكذا يبدو الحب في أوج زهوته؟!هل هكذا يمتزج جسدان بسلطة اتحاد روحين؟! هل هكذا يبدو مذاق العسل بعد طول صيام؟! هل هكذا يكون دفء الشريد بعد طول برد وغربة؟!

نِعم الرهان إذن.. نِعم الرهان!!

* * *

- «غنى».. افتحي.

تهتف بها «غالية» عقب وصولها للبيت بعد انتهاء حفل الزفاف، بينما تطرق باب غرفة ابنة شقيقتها، لكن الأخيرة لم تُجِب..

فزفرت بقوة وهي تشعر بألم رأسها يزداد.. لقد حضرت الحفل رغمًا عنها مع «طاهر»؛ كي لا يتندر الناس أن ابنتها خرجت عن طوعها.. لكنها لن تنسى لـ«فاطمة» فعلتها أبدًا.. هي التي عاشت عمرها كله لا

يلوى لها ذراع ولا تكسر لها كلمة.. ينالها الآن هذا من فتاة كهذه!

- افتحي يا «غنى» وإلا سأكسر الباب!

تهتف بها بغضب وهي تحرك مقبض الباب بعصبية لتتبين أنه مغلق من الداخل.. الحمقاء! لا تزال تحبس نفسها غارقة بحسرتها.. كل هذا لأجل رجل!! يا للخيبة!

الصمت الطويل الذي ساد بعد عبارتها جعلها تشعر بالقلق، فعادت تصرخ بعصبية:

- افتحي يا بنت.. افتحي!!

هنا شعرت أن ثمة شيئًا ما غير طبيعي يحدث، فنادت «طاهر» الذي تقدم نحوها متسائلًا لتخبره بالوضع، قبل أن يتقدم ليلكز الباب بكتفه محاولًا كسره، وقد شعر بالقلق هو الآخر..

بضع محاولات فاشلة سبقت الأخيرة الناجحة لينفتح الباب وتظهر خلفه «غنى»..

أو بالأدق جسدها المطروح أرضًا، وقد سقطت جواره علبة حبوب منومة فارغة كفتهما السؤال عما حدث..

* * *

الهالة التاسعة

«نبتة بلا جذور»

- صباحية مباركة يا «عروس»!

يقولها «هاشم» بلهجة ممطوطة النهايات تشبه لهجة قريتهم التي لا تزال هي عاجزة عن التخلي عنها بينما تخلص منها هو بحكم طبيعة اختلاطه بأهل العاصمة..

فابتسمت بخجل وهي تتذكر كيف أيقظها بهذه الطريقة الفريدة التي لم تتصورها يومًا إذ فتحت عينيها على دغدغة شفتيه لبشرتها.. إن كان حبه لها معجزة فهذه العاطفة الحسية التي أغرقها بها أشبه بزلزال عجيب لا ترتج له أرضها، بل به تستقر أكثر!

- تعِدينني؟!

يسألها وأنامله تطوف على بشرة وجهها بنعومة، لتردَّ بصوت لم يفقد أثر النوم بعد:

- بماذا؟!

- أن تكوني حُلوة هكذا كل يوم!

يقولها بعبثه المرح، وأنامله تأخذ طريقها لحمالة قميص نومها، فتتسع ابتسامتها الخجول، وهي ترفع غطاءها إلى رقبتها، فتجلجل ضحكته وهو يسحب الغطاء منها هاتفًا:

- عديني أولًا.

- عدني أنت!

- بماذا؟!

- ألا تضيع مني فأضيع من نفسي.

تقولها بملء روحها من احتياج لرجل صار رهانها الأخير، فينحني فوقها ليضم جسدها بين ذراعيه بقوة كأنما يمنحها ردًا غير منطوق للحظات سبقت همسه الذي عاد إليه مرحه:

- عميقة جدًا هذه الجملة يا فتاة.. قرأتِها في رواية.. ها؟!

فتضحك وهي تراه يعود معها لبساطة لهجتهما القروية ممطوطة النهايات.. تعترف أنها تعشق فخامة طلّته عندما يظهر أمام الكاميرات ويتحدث بتلك الـ«كاريزما» الساحرة، لكنها تحب بساطته هذه معها أكثر.. فلينَل الجميع منه قشرة ظاهره.. وليبقَ الباطن الحقيقي له ملكها وحدها!

وبهذا الخاطر الأخير رفعت ذراعيها تحيط بهما

خصره بتملك لتقبّل جبينه هامسة:

- أنت جميل حقًا.. أجمل من أي حلم اشتهيته.

- تقبّلين جبيني؟! هل أنا والدك؟!

استنكاره المرِح ينتزع ضحكتها الخجول، وهي تخفي وجهها في كتفه، بينما هو يردف بنفس النبرة:

- خسارة تعبي في تعليمك الليلة الماضية.. كله راح..

ثم ابتعد برأسه ليرفع ذقنها نحوه هامسًا بنبرة أشعلتها عاطفته:

- يبدو أننا نحتاج للمراجعة.. والكثير.. الكثير جدًا من الدروس..

تنتهي كلماته ذائبة بلهيب عاطفة اجتاحتهما غاب

فيها قلبها في جنته الخاصة، بينما عقلها كان يشتعل بلهيب آخر تزيده سعادتها معه تأججًا.. هل آن لها حقًا أن تنسى الماضي؟! أن تطمئن وتفتح ذراعيها لكل هذه السعادة؟! أم إن القدر لا يزال يدَّخر لها المزيد من الصفعات؟!

«جاثوم الماضي» يعاود إطباقه على صدرها، لكنها هذه المرة تملك ما يمكِّنها من إزاحته.. لقد كسبت رهاني يا «غالية».. كسبته!

* * *

- أنا آسفة يا خالتي.

تغمغم بها «غنى» بنبرتها الواهنة وهي ترقد على فراشها بالمشفى.. ثلاثة أيام مرَّت بها هنا لا تكاد تفرق فيها الحقيقة من الخيال.. آخر ما تعيه هو ذاك القرار المجنون الذي اتخذته بالتخلص من حياتها؛ كي لا تعيش لحظة فقدها لحلمها بالرجل الذي

تمنَّته.. لحظة خسارتها وانتصار «فاطمة» كالعادة!

- أرجوكِ.. ردّي عليّ.. أنتِ لم تحدثيني بكلمة منذ أفقت.. أخبريني على الأقل.. كيف كُسر ذراعك؟!

قالتها «غنى» بألم وهي تميز ذراع «غالية» المجبّر، لكن الأخيرة لم ترد، بل دفعت إليها بطبق من الطعام الذي سمحوا لها به أخيرًا، فترددت «غنى» للحظات بين رفض معدتها له وبين رغبتها في استرضائها حتى تغلب الشعور الأخير، فتناولته منها كارهة.

شردت «غالية» ببصرها وهي تراقبها تتناول طعامها بعينين كسرهما الخذلان.. لن تنسى تلك الليلة التي وجدتها فيها بين الحياة والموت.. لن تنسى تلك القبضة التي اعتصرت قلبها وهي تراهم يحملونها إلى هنا تظنها لن يكتب لها نجاة.. لن تنسى ذاك الهاجس الذي أحرق روحها مذكرًا إياها أنها ستفقد «ابنتيها» كلتيهما في ذات الوقت!

هذا الهاجس الذي لم يهدأ حتى بعدما اطمأنت لنجاة «غنى».. والذي جعلها تفقد تركيزها لتسقط من أعلى الدّرَج فينكسر ذراعها!

- «فاطمة» كسرت ذراعي.. كسرت كلمتي.. كسرت قلبي.. وكسرت «غنى»!

ودّت لو تصرخ بها بملء فيها.. لو تدق بها على قلبها المفجوع بفقده.. لو تبكي كما تبكي النساء.. تولول ناعية خسارتها.. لكن مثلها لم تكن لتفعلها أبدًا!

- انتهيت منه يا خالتي.. شكرًا.

تقولها «غنى» بنبرتها المنكسرة، فتلتفت نحوها من شرودها لتتناول منها الطبق بكفّها السليم، وعيناها تمزجان قسوتها بألمها في مزيج لا يليق بسواها..

- سامحيني.. أعرف أن جرمي عظيم.. وأن ما فعلته سيبقى عارًا على جبيني أمام أهل القرية

كلهم.. لكن صدقيني كان هذا رغمًا عني.. لا يمكنك أن تفهمي شعوري تلك الليلة.. شعور أنثى لم تعرف في حياتها سوى طعم الخسارة.. الخذلان.

ابتسامة ساخرة مريرة تجتاح شفتي «غالية» وهي تستمع لكلمات ابنة شقيقتها.. ماذا تعرفين يا صغيرة عن الخسارة.. عن الخذلان؟! عن عمر تعيشينه داخل كذبة اختلقتِها وتخشين أن يأتي اليوم الذي تُفتضح فيه!

- لماذا أدخلتِها حياتنا؟! كأنها خُلقت لتكون مرآة لكل ما افتقدته أنا!

لا تزال «غنى» تهتف بها بحسرة بين دموعها، ولا تدري أن كل حرف من عبارتها خنجرٌ مسموم يطعن في الجسد الذي يئن بألمه..

- لو كنتِ ربيتِ كلبًا ضالًا لكان حفظ صنيعك أكثر من تلك الجاحدة التي هجرتك لأجل رجل! كيف

تناست كل ما صنعتِه لأجلها؟! أنتِ جعلتِ منها هذا الكيان الذي تفتخر به ولولاكِ كانت نهشتها ذئاب الشوارع.

- كفى!

تهتف بها «غالية» أخيرًا بصرامتها المعهودة، خارجة عن صمتها، فترتعد «غنى» مكانها متوجسة من هذا اللهب المتطاير بعيني خالتها التي هبت واقفة مكانها لتهتف بنبرة متوعدة بينما ترفع ذراعها المجبر:

- وحقّ كسرة ذراعي وكسرة قلبي قبله.. سأجعلها تدفع ثمن ما فعلته بي وبك.

* * *

يترنم بأغنية ماجنة وصوته الثمل يفضح أين قضى سهرته، وهو يدخل من باب البيت آمنًا من

بطش «غالية» المشغولة بابنة شقيقتها في المشفى كما يظن..

يلقي نظرة عابرة نحو غرفة «فاطمة» الخالية الآن منها ليعضّ شفته السفلى بغيظ بينما يتمتم:

- أفلت الغزال ولم تبقَ إلا البومة!

بصق مع كلمته الأخيرة وهو يرفع رأسه لأعلى، حيث غرفته مع «غالية»، قبل أن يعاود رأسه تمايله مع الغنوة الماجنة من جديد وهو يصعد الدرج بخطوات مترنحة.. حتى وصل لغرفته التي ما كاد يفتح بابها حتى فوجئ بـ«غالية» أمامه..

- بسم الله الرحمن الرحيم!

تمتم بها دون وعي، ولا يزال ذهنه مشوشًا بتأثير الخمر، لينعقد حاجبا غالية بغضب هادر، بينما هو يهز سبابته نفيًا بقوله الذي تثاقلت كلماته بفعل السُّكْر:

- لا.. لستِ حقيقية.. أنت شبح.. ولو أن شبح «غالية» لن يختلف عنها.. كلاهما يوقف القلب رعبًا.. أعوذ بالله!

يقولها وهو يبسط راحته في وجهها بهذه الحركة الشهيرة قبل أن يعود للترنم بلحنه..

- لن أضيع «مزاج» الليلة هدرًا.. المرأة كانت كـ«طلقة رصاص».. آه.. لو تكون كل النساء في حلاوتها!

يغمغم بها باستحسان ثمل وخطواته تتعثر في طريقها حتى انقلب على ظهره ساقطًا في شبه غيبوبة وصوت شخيره العالي يقرع رأسها كالطبول!

هل وصلت جرأته إلى هذا الحد؟! أن يأتي لبيتها ثملًا بعد ليلة ماجنة من لياليه التي اعتادت تجاهلها؟! هل فقدت «غالية» هيبتها إلى هذه

الدرجة؟! صار الجميع يستهينون بها ويركلون كرامتها بأقدامهم؟!

الدم يغلي في عروقها مع الخاطر الأخير، فتهرع نحو الحمام القريب لتملأ أحد القدور الصغيرة بالماء البارد قبل أن تعود به إليه لتلقيه فوق رأسه بعنف..

شهقة ارتياعه تطفئ بعض غيظها، وهي تراه يهز رأسه بحدة هاتفًا بها بغلظة:

- ما هذا؟! هل جننتِ؟!

لكنها تجذبه من ذراعه، لتوقفه ثم تدفعه بذراعها السليمة بعنف نحو الحمام، لتوجهه قسرًا نحو حوض الاستحمام الذي فتحت صنبوره لينهمر الماء البارد فوقه مع هتافها الصارم:

- أفق أولًا، ولنعلم من منّا الذي قد جُنّ!

يلهث بقوة وصدمة الماء البارد على جسده تلجمه وتناقض اشتعال نظراته الموجهة نحوها.. حتى شعرت هي بأنه قد استعاد ما يكفي من وعيه، فأغلقت الصنبور لتهتف به بصرامة:

- اخلع ملابسك هذه كلها كي تحرقها أمامي.. وبعدها يكون لنا كلام آخر.

- لا آخر ولا أول.. أنا اكتفيت منك ومن جبروتك.

يصرخ بها ولا يزال ذهنه مشوشًا، لترتد هي للخلف مصدومة، بينما يغادر هو حوض الاستحمام ليمسك ذراعها السليم، فيهزه مردفًا:

- إلى متى تظنينني لعبة في يدك؟!

- ترفع صوتك عليّ يا ابن «بائع الخردة»؟!

- ومن تكونين أنتِ؟! دميمة عاقر لا تساوي شيئًا

دون جاه عائلتها.. أنا ابن «بائع خردة»، لكنني صنعت لنفسي طريقًا.. فماذا فعلتِ أنتِ بعد كل هذا العمر؟! الفتاة اللقيطة التي صدّقتِ أنها ابنتك باعتك في أول فرصة.. ولم يتبقَ لكِ سوى ابنة شقيقتك الخائبة التي لا ترفع رأسًا ولا تسد خانة!

ربما لو كان في وعيه كاملًا لما تجرأ على البوح بهذه الكلمات.. لكنها -للعجب- لم تصدر أي رد فعل.. كلماته هذه لم تكن أول مرة تسمعها بل سمعتها آلاف المرات.. ليس بصوته.. إنما سمعتها في كل ليلة كانت تعلم فيها عن خيانته.. في كل مرة كان يمسُّها فوق فراشهما ببرود من يؤدي دورًا يكرهه.. في كل نظرة كانت تراها في عينيه لغيرها.. يعيّرها بقبحها؟! بعقرها؟! بتخلّي «فاطمة» عنها؟!

«فاطمة»! «فاطمة»! كأنما صارت مصيبتها السد الذي تهاوى ليغرقها من بعده الطوفان..

- اخرج من هذا البيت.. ولا تعدا

صوتها الصارم رغم ارتجافه لم يفقد سطوة جبروته بعد.. حتى إنه أنساه أن هذا البيت بيته هو لا بيتها هي كما تتصرف دومًا!!

لهذا رمقها بنظرة مشتتة ليرخي ذراعه من حولها قبل أن تشعر به يغادر ليختفي صوت خطواته رويدًا رويدًا.. تخرج خلفه بعد دقائق طالت تراقب أثر قطرات الماء الذي تركته ثيابه المبتلة على الأرض.. آه لو كان لحياتها نفس الأثر في الحياة.. بدلًا من هذا الشعور الذي صار يسحقها أنها صارت أخيرًا بلا قيمة..

خطواتها المهزومة تفصح عن نفسها وهي تشعر بهواء هذه الغرفة صار يخنقها.. تتوجه لغرفة «غنى» تفتحها لتقع عيناها على جسدها النائم في فراشها.. أثر دموعها المتجمدة على وجهها لم يجف.. لقد

عادت من المشفى اليوم بعدما زعموا تمام تشافيها، لكنها تبدو كأنها فقدت كل حياتها.

لم تستطع تحمُّل المشهد أكثر، فأغلقت الباب برفق لتهبط الدرج نحو غرفتها.. غرفة «فاطمة»!

زعمت أنها ستمنحها لإحدى الخادمات، لكنها لم تستطع.. جزء واهن من أمومتها الخفية كان ينتظر عودة «ابنة قلبها».. لكن السواد الأعظم من روحها كان يتمرد بالثورة.. بالرغبة في الانتقام.. ما عاش من يكسر كلمة «غالية».. أبدًا!

عيناها تصطدمان بالمسطرة الضخمة المميزة لدراسة «فاطمة» بالهندسة، فتتوجه نحوها وعيناها تتوهجان بإعصار مشاعرها.. اعتزاز.. فخر.. حنين.. خيبة.. حسرة.. وجع..

- تعلمين؟! أنا تمنيت يوم زفافك كأي أم.. تمنيت رؤية جمالك في الثوب الأبيض.. تمنيت سماعهم

يقولون «ابنة غالية أجمل عروس».. أنتِ سرقتِ فرحتي بهذا كله ولأجل من؟! لأجل رجل؟! ألا لعنة الله عليهم جميعًا!

الدموع «العزيزة» تنهمر على خدها فتمسحها بسرعة لتتبدل ملامحها المتوجعة لأخرى قاسية ناسبت قولها:

- غدًا تتعلمين الدرس بأقسى طريقة.. هذا عهد «غالية» ولن تخلفه!

* * *

لحن غربي صاخب يهدر في المطعم الفخم الذي اصطحبها إليه «هاشم» لتزيغ عينا «فاطمة» في المكان بتشتت.. أيامها السابقة معه مضت كأنها حلم!

طوفان مشاعره الذي أغرقها وأحياها يكاد يجرف معه ماضيًا طالما أضناها.. لكنها لا تزال تشعر بالغربة

في عالمها الجديد.. كنبتة بلا جذور..

- «هاشم العدوي»!

لم تعد تتعجب هذا الهتاف والعيون الفضولية التي تترصدهما في كل مكان يذهبان إليه، والذي يزيد من شعورها بالغربة معه عندما تراه ينسحب منها لتتلقفه الأضواء وعدسات الكاميرات.. تمامًا كما الآن!

- جميلة لكن طراز ثيابها سيئ للغاية.. كيف يرتبط «هاشم» بواحدة مثلها؟!

- يقولون إنها فلاحة من قريته!

- حظوظ! يترك كل معجباته ويتزوج هذه!

الهمزات المستنكرة حولها تصلها بصوت لا يتعمدون مداراته عنها، لكنها هي تتعمد تجاهله.. ملامحها الجامدة بابتسامتها التي صارت تجيد

تكلُّفها تفي بالغرض.. لكنها تشعر بـ«هالات عينيها» تزداد سوادًا مع كل كلمة تسمعها.. كأنما تحتاج المزيد من «الكونسيلر» السحري الذي صارت لا تستغني عنه!

- عفوًا يا حبيبتي.. انشغلت عنكِ، لكنها ضريبة الشهرة.. يبدو أنني في الفترة القادمة سأحتاج لحراسة شخصية تبعد الفضوليين كما ينصحني بعضهم.

يهتف بها بمرحه المعهود وهو يعاود جلوسه قبالتها، مكتفيًا بابتسامتها ليسألها باهتمام:

- أعجبكِ الطعام؟!

إيماءة إيجاب شاحبة سبقت قولها الراجي:

- دعنا نعد إلى شقتنا.

يبتسم مراعيًا طبيعتها الانعزالية التي يكذب لو قال إنه يكرهها! أجل.. هو يحب انزواءها في صومعتها؛ إذ لا ترى ولا تسمع شخصًا غيره.. يحب «هوسها» به وعشقه الذي يدرك أنه صار يجري في عروقها مجرى الدم.. ولا يخجل من الاعتراف أمام نفسه بأنه بات يضيق مثلها بهذه التعليقات التي يسمعها من الناس حولها.. ما أغناه وما أغناها عن هذا كله!!

لهذا قام ليجذب ذراعها برفق قبل أن يسير بجوارها بهذه الطريقة التي يعشقها كلاهما؛ إذ يحيط كتفيها بذراعه لتشعر هي وكأنما يحميها من العالم، ويشعر هو أنها صارت جزءًا منه للأبد!

صمتها طوال الطريق يؤرقه، لهذا لم يكادا يصلان لشقتهما الجديدة ويغلق بابها خلفه حتى احتضن خصرها بكفيه ليقرب وجهه من وجهها متسائلًا:

- ماذا بكِ؟! ثلاث ليالٍ لم تذوقي فيها النوم إلا قليلًا!

فترفع أناملها نحو وجهها تشعر كأنما هالاتها السوداء ليل حالك يلتهم ملامحها..

- هل أبدو بشعة؟!

- أنت امرأة لا تليق بها إلا الفتنة.. في كل ظروفك!

حنان كلماته مع ابتسامته يمنحها المزيد من الأمان فتسند رأسها على صدره ليعاود سؤاله:

- اصدقيني القول يا «فاطمة».. ماذا بكِ؟!

تتردد قليلًا قبل أن تجيبه بهمسها الخفيض:

- افتقدت أمي.

يرفع حاجبيه ببعض العجب، لكنه صار يدرك أبعاد هذه العلاقة الغريبة بين «غالية» و«فاطمة».. علاقة مركبة بمشاعر متناقضة لا يلوم فيها «فاطمة» كثيرًا بعدما علم عن جبروت شخصية «غالية» الشهير..

- تريدين مني أن أكلمها؟! ربما هدأ غضبها بعد هذا الوقت!

يقولها بحماس كاذب، وقد أخفى عنها ما أخبرته به أمه عن محاولة «غنى» الانتحار ليلة زفافهما، وما يتناقله أهل القرية من شائعات حولها بسبب هذا.. يعلم أن الموقف صار أكثر تعقيدًا، لكنه لا يريد إحزانها أكثر..

- غضب «غالية» لا يهدأ.. هو كالنار التي تزيدها الريح اشتعالًا فلا تبقي ولا تذر.

تقولها بيقين آسف، فيرفع ذقنها نحوه هامسًا:

- نادمة على زواجنا؟!

شهقتها المرتاعة ترافق تشبث كفيها بذراعيه مع هتافها:

- إياك أن تشكَّ بهذا.. لو كنت أندم على شيء في حياتي فهو أنني لم ألتقِك قبل هذا.. أنت معجزتي يا «هاشم».. النعمة التي سأبقى العمر شاكرة لها..

ابتسامته تهديها قبلة ناعمة على شفتيها، فتصمت للحظة ثم تردف:

- لكنني أشعر أنني آثمة.. منبوذة.. ربما يبدو لك هذا غريبًا، وأنا التي لم تعرف في حياتها هوية واحدة أصلية.. لكنني حقًا أحببتها كأمي، وتمنيت لو تعاملني مرة.. مرة واحدة كابنتها..

انقطعت عبارتها بدموعها، وهي تعاود دفن وجهها في صدره:

- أنا أهاتفها كل يوم.. كل يوم يا «هاشم».. لكنها لا تردّ.. ألا تفتقدني كما أفعل أنا؟! لو كانت ربت قطة ضالة لكانت اهتمت بمصيرها أكثر من هذا!!

الإشفاق يدفعه للمزيد من الكذب، فيربت على ظهرها هامسًا:

- أمي تخبرني بأنها تسألها عنك دومًا كي تطمئن.. لا بأس.. الأيام كفيلة برأب الصدع.

- هل تظن هذا؟!

- بل أنا واثق!

يقولها بابتسامته الآسرة التي تقلب عالمها كعصا ساحر، فتبتسم بدورها لتعاود قولها الراجي:

- هل لي بطلب آخر؟!

- طلباتك كثرت يا «هندسة»!

يغمزها بها بينما يقرص وجنتها مشاكسًا لتضحك، ثم تقول:

- لم أعد أحب خروجنا وسط الناس.. أنت تعلم أنني عشت عمري منعزلة في غرفتي.. اختلاطي بالناس يربكني.

يوافق قولها هوى في نفسه، فيرفع راحته المفرودة بجوار وجهه بتلك الحركة الشهيرة ليقول بلهجة رسمية:

- عُلِم وينفَذ يا «افندم»!

ملامحها تشرق بضحكتها من جديد وهي تستطيل على أطراف أصابعها لتقبِّل وجنتيه بامتنان، لكنه رفعها من خصرها نحوه ليطبع على شفتيها هدايا

عشقه، قبل أن يحملها بين ذراعيه نحو غرفتهما ليهوي بها فوق الفراش.. همساته الملتهبة بعشقه ترفعها فوق سحاب جنة ما كانت إلا له وبه..

* * *

- أول يوم في الكلية الجديدة.. كفى كسلًا يا «هندسة»!

تستيقظ من نومها على صوته كالعادة، وشفتاه منشغلتان بين حديث وقُبَل، فتفتح عينيها بصعوبة لتميز ثيابه الرياضية التي يرتديها.. دومًا هو يستيقظ قبلها ليمارس رياضة الجري لساعة، ثم يعود ليوقظها في طقس يومي لم يتغير منذ أسابيع توازي عمر زواجهما.. كأنما يأبى أن يبدأ يومها إلا به، كما لا ينتهي إلا بين ذراعيه..

- نصف ساعة فقط يا «هاشم».. أنت جعلتني أسهر كثيرًا أمس.

تغمغم بها بنبرة ناعسة ليرد باستنكار مرح:

- أنا الذي فعلت؟! هل أذكّرك؟! حسنًا..

أكمل بقية عبارته العابثة همسًا في أذنيها لتحمرّ وجنتاها خجلًا مع جرأة كلماته، فتدفعه عنها برفق هاتفة:

- كفى! حسنًا.. أنا المذنبة هنا.. سأقوم وأمري لله.

ضحكته تتزامن مع عناقه القوي لها، قبل أن يسمح لها بالنهوض، فتمطّت بدلال هامسة:

- لا أصدّق أني سأعود للتعب في الدراسة.. أنت أفسدتني دلالًا.. كنت أعتبر فترة الدراسة بمثابة نزهة في بيت أمي..

قطعت عبارتها فجأة مع طيف الحزن الذي احتل

ملامحها، وجعله يربت على وجنتها مواسيًا:

- ألم نتفق أن ننسى الماضي؟!

- معك حق!

تغمغم بها بفتور وهي تغادر الفراش نحو الحمام القريب تلاحقها نظراته التي تبدل مرحها للكثير من القلق.. هو يخشى عودتها للاختلاط بالناس.. طوال الفترة السابقة وهو راضٍ بعزلتها الاختيارية هنا تعفيه من القيل والقال.. من النبش في ماضٍ ليس لها ولا له ذنب فيه.. ولولا علمه بحلمها الكبير بالتخرج في كليتها هذه لطلب منها الاكتفاء ببيته وتربية أولاده.

ابتسامة كبيرة زيَّنت شفتيه مع الخاطر الأخير، ورأتها هي عقب خروجها من الحمام لتهتف به:

- لماذا تبتسم هكذا؟!

- كنت أفكر في أولادنا!

- تفكر بهم اليوم فقط؟! أنا أفكر بهم كل يوم.. اخترت أسماءهم واحدًا واحدًا!

تهتف بحماس وهي تتوجه نحو خزانة ملابسها تستخرج منها قميصًا بسيطًا ارتدته على عجل، بينما هو يسند رأسه على ذراعيه مستلقيًا على ظهره، ومتأملًا جمالها بارتياح:

- واحدًا واحدًا؟! لماذا؟! تريدين كم واحد؟!

- عشرة!

- عشرة؟! لماذا؟! أرنبة؟!

يهتف بها باستنكار مرح، لتبتسم وهي ترتدي سروالها مجيبة بشجن:

- أريد عائلة يا «هاشم».. تعلم أهمية هذا عندي.

فقام من رقدته ليتوجه نحوها مكتنفًا ذراعيها بقبضتيه هامسًا:

- دعيني أشبع بكوني طفلك الأول.. تعلمين أنني أدمنت تدليلك لي.

لكنها تغرق وجهه بقبلاتها لتهمس له بصدقها الذي طالما يمسّ قلبه:

- دومًا ستبقى أنت الأول والأغلى.. لكن.. ألا ترى أننا تأخرنا كثيرًا في هذا الأمر؟!

- لم يمضِ على زواجنا بضعة أشهر يا عَجول!

- وددت لو أحمل منك طفلًا من أول ليلة.

عيناها تمطرانه عشقًا ممتزجًا برجاء خفي يجعله

يقول باستسلام:

- حسنًا.. نزور غدًا طبيبًا لنطمئن.. لكن هل ستستطيعين المضيّ في دراستك لو حدث الحمل؟!

- لأجله أضحي بكل شيء!

تهتف بها بحماسة تجعله يضحك لبراءتها التي لا يكاد يجدها في عالمه الآخر الذي يعيشه خارج هذا البيت.. ربما لهذا يزداد عشقه لها يومًا بعد يوم!

بينما تحركت هي نحو مرآتها ترتدي حجابها قبل أن تبدأ في وضع «الكونسيلر» كعهدها في كل يوم.. الأمر لم يعد مرتبطًا بتبرج بقدر ما صار علاجًا لنقص تراه دومًا في نفسها..

- كنت أريد أن أحدثكِ بشيء ما.

همهمتها الخافتة جوابها على قوله السابق قبل أن

يردف هو بتردد:

- لا داعي لأن تختلطي كثيرًا برفقائك في الجامعة.. ولا داعي لأن يعرف أحدهم أكثر من أنك ابنة أحد أعيان الريف.

- تريدني أن أكذب؟!

تسأله مبهوتة من طلبه، لكنه يتنهد مقتربًا منها ليرفع «الكونسيلر» أمامها بقوله:

- ليس كذبًا.. هذا مثل هذا.. مجرد محاولة لإخفاء عيب قد يعيّروننا به وليس لنا يد فيه.

تستسلم لسلاسة منطقه، فتومئ برأسها مطيعة، ليبتسم مقبلًا وجنتها ثم يقول ببساطة:

- سأوصلك للجامعة، لكن السائق سيتولى أمر العودة.

- حسنًا.

تقولها متقبلة انشغاله المعهود بعمله، ليردف هو ببعض الحذر:

- شيء آخر.. سأسافر الليلة لأمي.. تريدين المجيء معي؟!

كان يعرف الجواب سلفًا؛ فهي لم تعد للقرية منذ زواجهما إلا في زيارة واحدة لأمه أظهرت لها فيها الأخيرة رفضها الواضح لـ«فاطمة»..

- قريتنا صارت محرمة عليّ.. أنت تعرف.

تهمس بها بمزيج من خزي وأسى لتردف بشبه ابتسامة:

- اذهب أنت ولا تقلق.. يمكنني المبيت وحدي.

- ألا تأتين ونحاول معهما مرة أخرى؟!

قالها محاولًا زرع الأمل فيها، وإن كان هو نفسه لا يملكه.. فالأيام لم تغير موقف أمه ولا «غالية» من زيجتهما هذه..

لهذا ردّت هي بنفس النبرة:

- نحن نحتمل نتيجة قرارنا.. لن أحتمل المزيد من الرفض.. أنا اعتدت عزلتي هنا معك..

ثم ارتجفت شفتاها بابتسامة حالمة وهي تمسّد بطنها:

- ربما لو رزقنا الله بطفل.. يرقق قلبهما علينا.. ساعتها فقط يمكنني إعادة المحاولة.

كان يترك لها حرية القرار في هذا الشأن، خاصة

وهو لا يريد المزيد من المشاكل مع أمه.. لهذا تنهَّد مستسلمًا ليختم الحوار بقوله:

- كما تشائين.. دعيني أبدل ثيابي كي نغادر للجامعة..

ثم قرص وجنتها مداعبًا كعادته:

- أريدك أن ترفع رأسي يا «هندسة».

* * *

- أنتِ واثقة من هذه المرأة يا «أم سيد»؟!

تسألها أم «هاشم» وهي تجلس معها في بهو بيت «الشيخة» ذات «السر الباتع» كما يصفونها.. فتجيبها صاحبتها بإجلال:

- وعهد الله لم أصدق إلا عندما رأيت بنفسي.. كنت

أشفق عليكِ وأنتِ تحكين لي كيف خطفت تلك الفتاة «بنت الحرام» ابنك.. وعندما أخبروني عن الشيخة «فوقية».. قلتِ إنها حلك الوحيد كي يعود إليك ابنك.. هل أحضرتِ شيئًا من أثره؟!

ناولتها أم «هاشم» ما بيدها، لتقبضه نحوها فجأة متسائلة بتردد:

- واثقة أنه لن يؤذي الولد؟!

- اطمئني يا امرأة.. إنه فقط للتفريق بينهما.. سيجعله يراها «قردة» ولا يطيق القرب منها.. شهران على الأكثر، ويعود ابنك لعقله، ويُرجعها من حيث أتت.

هنا تهدأ أم «هاشم» قليلًا لتعطي لصاحبتها بغيتها قبل أن تتنهد بغضب قائلة:

- تصدقين أنها لم تأتِ لزيارتي منذ تزوجها إلا مرة

واحدة؟! «ابنة غفران» تتكبر عليّ أنا بعد ما أكرمها ابني وقبل زواجها منه.. يقولون في المجلات إنه يعاملها كالأميرات.. وكلما سأله أحدهم عن سر نجاحه هذه الأيام يزعم أنها هي.. أنا أربيه وأكبره.. لتخطفه مني فتاة كهذه!

فشهقت صاحبتها باستنكار، وهي تخبط بكفها على صدرها هاتفة:

- الفتاة أكلت عقله.. لكن ماذا نقول؟! «العِرق دساس» وابنة «غفران» ورثت دهاء أمها التي كانت تخون زوجها وهو الغافل لا يدري!

- لا تذكريني بهذا الأمر.. دمي يفور كلما استعذْتُ تلك الحكاية.. لا أدري كيف تجاوز هاشم عن هذا؟! وماذا لو رزقه الله بطفل منها؟! ماذا سيقول لأولاده عن جدتهم؟! سيقول لهم قتلها زوجها؛ لأنه ضبطها مع عشيقها!

- لا لا.. نحن سنتصرف بسرعة.. الشيخة المبروكة لن يرضيها أن يحدث هذا.. ابنك سيعود إليك.. لا تخافي.

تقولها المرأة مطمئنة قبل أن تقوم من مجلسها لتتحرك نحو غرفة الشيخة القريبة تصاحبها أم «هاشم» والرجاء يملأ قلبها.. ابنها سيتخلص من عار تلك الفتاة التي أطارت عقله!

* * *

الهالة العاشرة

(حافة الهاوية)

- سامحيني يا «غالية».. أقسم لكِ أنني لم أكن في وعيي.. «أولاد الحرام» أغروني لأشرب معهم الخمر.. خطأ لن يتكرر.. أقسم لكِ!

هتف بها «طاهر» يسترضيها في بيتهما، لكنها رمقته بنظرة طويلة باردة دون أن تغير جلستها.. لم تكن يومًا أزهد فيه مما هي الآن.. لكنها لن تدع الناس يتحدثون أن زوجها هجرها.. وبعد هذا العمر!

- اجلس يا «طاهر».. ماذا تحب أن تشرب؟!

قالتها ببرود قاسٍ أرعبه ليغتصب ضحكة صفراء وهو يجلس على الكرسي جوارها قائلًا:

- لماذا تقولينها هكذا؟! هل يضيّف الرجل في بيته؟!

- لن يبقى كذلك!

قالتها بصرامة جعلته يعقد حاجبيه بغضب ألجمه عن الرد.. لتردف هي وعيناها تتوهجان كجمرتي نار:

- ستكتبه باسمي.

- ماذا؟! هل سترثينني حيًا؟!

- زعمت أنك نادم على خطئك تريد الغفران.. شيء بسيط كهذا سيجعلك تفكر ألف مرة قبل أن تعيدها..

ثم قست نظراتها أكثر:

- هذا بيت «غالية».. الناس كلها تسميه كذلك.. نقل ملكيته مجرد حبر على ورق يا سيادة النائب.

قالت عبارتها الأخيرة مهددة، كأنما تذكره بسلطان عائلتها لتردف:

- أم إنك لا تريد أن تكسب الانتخابات بالتزكية ككل مرة؟!

أسقط في يده وهو يشعر كعادته بالعجز أمام جبروتها.. تبًا! كم يكره هذه المرأة! كم يتحين الفرصة كي يتخلص من سلطانها هذا عليه! لا بأس.. الأيام بينهما لعله يكسر قيدها هذا يومًا ما ليمنحها صفعة لن تنساها أبدًا!

- كما تريدين.. لا شيء يغلو على «الغالية»!

يقولها مهادنًا، فتلتمع عيناها بالدموع كعهدها كلما سمعتها.. يظنها انخدعت بكلامه، لكن الحقيقة أنها تتذكر في كل مرة يقولها أي فقاعة زائفة تعيش فيها.. لا بأس.. الوهم أرحم من الحقيقة أحيانًا!

لهذا أشاحت بوجهها عنه لتهتف ببرود:

- لو تكرر هذا الموقف فلن تمر على خير.

هزَّ رأسه بحقد ناقض استسلام نبراته:

- لن تتكرر.. كانت «ساعة شيطان»!

فأشاحت بكفها في حركة أغاظته أكثر لكنه تحكم في نفسه ليغادرها نحو غرفتهما بالأعلى بينما تنهدت هي بحرارة وهي تطرق برأسها مشبكة أناملها.. حياتها فقدت بريق الشغف الذي كان يملؤها برحيل «فاطمة».. «فاطمة» التي كانت شمسها ومصدر فخرها وسط الجميع.. «ابنة غالية» التي كانت تتفوق دومًا على بنات القرية.. والآن لم يبقَ لها سوى خذلان «طاهر» وخيبة «غنى»!

«غنى» التي زادتها محاولة انتحارها كسادًا في

سوق الخاطبين خاصة مع هزالها وجمالها المحدود، فبقيت كالشبح تجوب الدار دون أي حياة!!

رنين هاتفها برقم «فاطمة» يقاطع أفكارها فيتشنج جسدها مكانه.. الجاحدة لا تزال تهاتفها كل يوم في نفس الموعد، كأنما تنتظر منها الصفح! قلبها يخزها بقوة يناشدها أن ترد.. افتقدتها.. افتقدتها حد الألم!! لكن سلطان جبروتها لا يزال صاحب الكلمة الأولى هاهنا..

«فاطمة» كسرتها.. ولن تهدأ حتى تكسرها.. فما كانت ممن يتركون ثأرًا!!

* * *

- شَرطة واحدة حمراء.. لا حمل! النتيجة سلبية ككل شهرا!

تهتف بها فاطمة بقنوط وهي تطالع الشريط بيدها..

الشهر يمر تلو الشهر ولا جديد.. لا طفل!

فيربت «هاشم» على كتفها قائلًا بمواساة:

- لا بأس.. هذا أفضل؛ كي تتمكني من المذاكرة بجد.. حلمك بالتدريس في الجامعة أولى.

لكنها هزَّت رأسها بعدم اقتناع لتمد ذراعيها وتحتضن خاصرته بقوة ملقية رأسها على صدره:

- تعلم أهمية هذا الأمر لي.. أنت صرت كل عالمي يا «هاشم».. عالمي الذي أريده أن يتسع بقطعة منك ومني.. الطبيبة تؤكد أن لا مانع من الحمل لديّ ولا لديك.. فلماذا لا يحدث؟!

- كل شيء بأوان يا حبيبتي.. لا تدعي هذا الأمر يشغلك فامتحاناتك على الأبواب!

قالها بضيق مشوب بالشفقة، وهو يشعر أن حياتها

كلها صارت متوقفة على هذا الأمر.. تنام وتقوم وهي تحلم به.. لا ينكر أنه يرغب بطفل منها، لكن ليس بهذا الشغف المتطرف..

- كنت أريد أن أحدثكِ بأمر ما..

يقولها بابتسامته الداعمة محتضنًا وجنتيها براحتيه، فتبتسم له بخوف زاد حلكة ليل هالاتها السوداء حول عينيها.. أجل.. لا يزال «الجاثوم» القديم يعرف كيف يقبع على صدرها يمنعها تنفس أمانها حتى وسط جنة حبه هذه..

- أحد أصدقائي يعرض عليّ مشاركته في مطعم كبير، وأراها فكرة جيدة، لكنها ستستنزف معظم مدخراتنا.

- مطعم؟! وما علاقتك أنت بعمل كهذا؟!

- تعرفين أن مستقبل لاعب الكرة ليس مضمونًا..

يومٌ هنا ويوم هناك.. لهذا أرى من الخير استثمار مالنا في مشروع جانبي، فلا نعلم ما تخبئه لنا الأيام.

اتسعت ابتسامتها برضا وهي تمنحه إيماءة موافقة.. هكذا هو دومًا يشاركها كل تفاصيله الصغيرة.. صحيحٌ أنها لا تعترض على أي رغبة يتحمس لها، فيبدو رأيها مجرد «تحصيل حاصل».. لكن يكفيها هذا الشعور أنها «شريكته».. «صديقته» و«حبيبته».. هذا الشعور الذي لم يخذلها هو فيه منذ تزوجها.. بل منذ عرفها!

رنين هاتفه يقاطع أفكارها فيبتعد عنها ليجيب الاتصال قبل أن تنفرج أساريره بفرحة عارمة وهو يرد على محدثه بكلمات لم تتبينها.. فاقتربت منه بابتسامة عفوية ليغلق الاتصال، ويلتفت نحوها مطوقًا إياها بذراعيه:

- «فرصة العمر» يا «فاطمة».. أخيرًا «عقد

احتراف» بفريق «...» الشهير بإيطاليا.. تعلمين ما الذي يعنيه هذا؟! نقلة أخرى في مستقبلنا..

انتهت عبارته بقبلاته الحماسية لوجهها فاتسعت ابتسامتها لسعادته قبل أن تسأله بتردد:

- هذا يعني أننا سنسافر.

تركها من ذراعيه ليهرع نحو خزانة ملابسه، حيث شرع في تغيير ثيابه بسرعة مع جوابه المتلهف:

- بالطبع.. ألم أقل لكِ إنها نقلة أخرى.. هذا هو الحلم الذي يتمناه أي لاعب..

ثم شرد ببصره وهو يحرك سبابته وإبهامه بذاك الوضع الشهير، بينما يردف بنفس الحماس المتلهف:

- تخيلي عناوين الأخبار عندما يتحقق الأمر.. «هاشم العدوي» يحترف في نادي «...»، الفرعون

المصري يحلق في سماء إيطاليا.. وربما «يلعب الزهْر» وأصل لأبعد من هذا.

خفق قلبها لسعادته وهي تشعر بلهفته هذه تدغدغ هذا الجانب الأمومي فيها.. لكنها سألته ببعض الحذر:

- ودراستي؟!

ظل شاردًا ببصره للحظة بعد سؤالها قبل أن يضحك قائلًا باستهانة:

- عن أي شيء تتحدثين؟! أخبركِ عن قفزة ستحملنا للعالمية، وأنتِ تتكلمين عن دراستك؟!

أظلمت ملامحها فجأة لتطرق برأسها، فشعر بالندم على عبارته ليعاود اقترابه منها مربتًا على كتفها وصوته المرح يحمل أسفه:

- لا تقلقي يا «هندسة».. سنتدبر حلًا لهذا الأمر.. لا يرضيني أن أحقق حلمي على حساب حلمك.. لكن دعينا نفكر بالعقل؛ ففرصة كهذه لن تتكرر مرتين.

عادت شفتاها ترتجفان بابتسامة قلقة وهي تومئ برأسها له، فمنحها قبلة ناعمة سريعة على شفتيها، قبل أن يتناول مفاتيحه بسرعة، ليهتف بينما يغادر الغرفة:

- سأذهب الآن للتفاوض مع رجُلهم.. ادعي لي بالتوفيق.. وتخلّي عن صومعتك الليلة، فأنا أريد الاحتفال معك بهذه المناسبة في أحد الأماكن المميزة.

تنهدت بقلق وهي تسمع صوت باب الشقة يغلق معلنًا عن خروجه، قبل أن تتوجه نحو مرآتها، ولا يزال «الشريط» في يدها معلنًا عن خيبتها.. لا تدري لماذا تشعر بالانقباض من فكرة سفرهما هذه.. لا تريد

إفساد فرحته لكن.. هل تنقصها الغربة؟! ألا يكفيها شعورها هاهنا بأنها مجرد شجرة اجتُثت من فوق الأرض ما لها من قرار؟!

لكنها نحّت شعورها هذا جانبًا وهي تلقي الشريط من يدها جانبًا، لتزفر بقوة وهي تتوجه نحو هاتفها.. لم يكن الموعد اليومي للمكالمة التي تجريها لـ«غالية»، والتي لا ترد عليها كالعادة.. لكنها تشعر بحاجتها إليها الآن.. كأنما لا يزال «الخيط الرفيع» بينهما وحده يكفيها كي تشعر ببعض التوازن.

صوت الرنين الرتيب كالعادة في أذنها يحشوها بالمزيد من اليأس.. عن أي «خيط رفيع» تتحدثين يا غافلة؟! خيطكما انقطع من زمن!

* * *

- ويجاااا.. ويجاااا.. بين ساعة وساعة يتغير الحال.. يحيرنا الجواب وننسى السؤال.. هي دنيا من

اسمها دنيا.. ما اليوم فوق رأسك هو غدًا تحت النعال!

يهتف بها «سليمان» بصوته المميز وهو يجوب شوارع القرية كعهده متكئًا على عصاه.. حتى يقترب من بيت «غالية»، فيعاود هتافه:

- لهفي عليك يا طيرًا أسروه.. وعدوه بالجنة ثم سجنوه.. قصوا جناحه وزعموا أنهم خيروه.. ثم يبكون تغريده الذي حُرموه..

- «سليمان».. تعالَ!

تهتف بها «غالية» مشيرة له من شرفتها، فيهز رأسه بحركته البهلوانية المعهودة وهو يقترب من باب البيت ليسمح له الحارس بالدخول.. عيناه تنسحبان بشجن نحو ركن الحديقة القصي الذي كان يشارك «فاطمة» فيه.. فتدمع عيناه بحنين وقلبه يخفق بلوعة تشبه شبيهتها بفقد ابنه قديمًا..

- افتقدتك يا «ابنة غفران».. لكن عزائي أنكِ في الغربة أكثر أمنًا.

يتمتم بها لنفسه قبل أن يفاجئه صوت «طاهر» القاسي:

- من الذي سمح بدخول هذا المجذوب هنا؟!

عيناهما تتلاقيان بغموض عدائي نثر هالته بينهما قبل أن يقطعه صوت «غالية»:

- أنا! يعلم الجميع أن بيتي مفتوح له في أي وقت.

جبروتها المعهود يفرض نفسه على الصورة، فيزفر «طاهر» بحنق ليلوح بذراعه هاتفًا:

- ما زلتِ تصدقين خرافات معتوه مثله؟! واحدة من هذه هي التي جعلتك تُدخلين «فاطمة» تلك إلى

هنا! تذكرين؟!

كان يعلم أنه يضغط على وترها الحساس بذكر خيبتها في «فاطمة»، لكنها ردّت ببرود قاسٍ:

- قلب «غالية» مثل عقلها لا يخطئ.. ولا تزال الأيام تحمل الكثير.. اذهب أنت لحالك، ولا تشغل نفسك بي.. أنا أجيد تصريف أموري..

ثم التفتت نحو «سليمان» مردفة:

- بارك لـ«طاهر بيه».. فاز بنيابة المجلس هذا العام.

قالتها ببطء ضاغطة حروفها كأنما تذكر زوجها بمنّتها عليه.. فالتمعت عينا سليمان بنظرة قاسية توارت خلف حركة رأسه البهلوانية كأنما ينفذ طلبها بمباركته إياه.

نقل طاهر نظراته الحانقة بينهما، ثم ضمّ طرفي

عباءته فوق جلبابه ليتمتم ببضع كلمات ساخطة، قبل أن يغادر البيت تلاحقه نظرات غالية الشاردة.. والتي التفتت نحو «سليمان» لتقول بابتسامة ودود:

- كيف حالك؟! مرّ وقت طويل منذ رأيتك هنا؟! كيف تعيش؟!

- الله لا ينسى عباده.

- ونعم بالله! خذ يا «سليمان».

قالتها وهي تمنحه بعض المال الذي تناوله ليضعه في جيب جلبابه المهترئ بعدم اكتراث كعهده.. فابتسمت وهي تشير له نحو الداخل:

- لم تقرأ لي فنجاني منذ وقت طويل.. تعالَ.

تقدم معها نحو الداخل ليجلس على الكرسي بجوار أريكتها قبل أن تناوله فنجان قهوتها المقلوب على

طبقه قائلةً بمرارة تسربت عبر الصوت القوي:

- عساك تحمل لي أي بشرى.. القلب يحتاج فرحة يا «سليمان».

فالْتَوَت شفتاه بشبه ابتسامة وهو يرفع الفنجان يتأمله بشرود سبق قوله:

- أرى غشاوة تحجب عن القلب فرحته.. وطريق طويل ينتهي بجرف جبل.. وعلى الجانبين غزالان أحدهما يزأر كأسد، والثاني يعوي بقدمه الجريح.. وبينهما ضبع ميت.

- خيبك الله! هل هذه هي البشرى؟! ما معنى هذا؟!

تقولها وهي تشعر بانقباض قلبها، لتغيم عيناه بقوله:

- سيف الحقد ذو شفرتين يؤذي صاحبه قبل غيره.

- أي سيف؟! وأي حقد؟! الواضح أنك هرمت وصرت تخرف.. هيا اذهب.. اذهب!

هتفت بها بعصبية ملوحةً بكفها، فابتسم عبر أسنانه المكسورة ليضع الفنجان جانبًا، ويتكئ على عصاه ليقف، ثم رمقها بنظرة عميقة سبقت قوله:

- قلبك طيب.. دعيه يتنفس.. لا تخنقيه.

عقدت حاجبيها بقوة ناقضت ترقرق الدمع في عينيها، وهي تشعر بكلماته تمس جانبًا خفيًا بروحها لا يكاد يستشعره سواها.. ربما لهذا تحب هذا الرجل وتثق ببصيرته.. ربما لأنه يرى ما يخفيه قناع جبروتها عن الآخرين.. لهذا لاحقته نظراتها بشرود وهو يغادر صالة البيت..

بينما تحرك هو ببطء في الحديقة لتقع عيناه على «غنى» جالسة هناك على نفس حوض الزهور الذي

كانت تشاركه فيه «فاطمة».. اقترب منها بخطواته البطيئة، لترفع إليه عينيها الذابلتين قبل أن تقول بابتسامة شاحبة:

- سرقتَ مكان صاحبتك؟! لا بأس.. ربما هي فرصتي لأشعر أنني سلبتها شيئًا ما.

ورغم «ظاهر» ما تحمله كلماتها من حقد، لكنه تعوَّد ألا يسمع الناس بأذنيه بل بقلبه.. قلبه الذي قرأ «باطن» حسرتها ووجعها.. لهذا اقترب أكثر ليجلس بجوارها على حافة الحوض، فانتبهت للمال الذي منحته له «غالية» يكاد يسقط من جيبه.. هذا الذي أشارت له قائلة:

- دسّه جيدًا في ثيابك.. قد يسرقه أحدهم.

- لا أحد يأخذ رزق غيره.. كلنا فقير يمد يده لصاحب الفضل.. ومن شغل نفسه بكف غيره عاد ليجد كفه هو فارغًا!

قالها بنبرة ذات مغزى تركت أثرها في روحها، فدمعت عيناها لتهمس بخفوت:

- كفّي دومًا فارغ.

- بل عيناكِ لا تبصران النعم.

تنهّدت بقوة بعد عبارته لتشبك كفيها في حجرها، فذكّرته بـ«فاطمة» عندما كانت تفعلها دومًا.. ربما لهذا رقّ لها قلبه وهو يردف:

- «فاطمة» كانت مثلك يومًا ما.. لكنها تعلمت كيف تمد يدها لتقتنص من السماء نجمة.. بينما أنتِ قابعة فوق صخرتك تنتظرين أن تسقط في حِجرك.. والنجم لا يهوي إلا محترقًا.. فاحذري!

- ماذا تقصد؟!

تسأله بحيرة، لكن بصره يزيغ في الفراغ دون ردّ، فتزدرد ريقها لتقول بعجز من نفدت حيلته:

- خالتي تحكي الكثير عن صدق نبوءاتك.. بل ربما كنت أنت سبب ما وصلت إليه «فاطمة».. أخبرني بأي شيء يخصني.. سأدفع لك ما تريد..

تقولها لتضع يدها في جيبها مستخرجة بعض المال، لكنه قبض بكفه على يدها يمنعها قبل أن يقول ببطء:

- لا تسرفي في البكاء على الأمس فتضيعين اليوم والغد.. خسارة العمر لا تفوقها خسارة.

- لا أريد كلامًا كهذا.. قل لي بشارة.. أي بشارة!

- البشارة تصنعها أفعالنا، وأنتِ تصرين أن تبقي يديك مشلولتين.

- ماذا تريدني أن أفعل؟!

- انفضي عنكِ رداء يأسك، وتمتعي بما وهبه لك القدر.

بدت لها عبارته محمسة نوعًا، فهزت رأسها راضية قبل أن تتلفت حولها تتيقن من ألا أحد يسمعها لتعود إليه بسؤالها:

- تعرف حلًا ينسيني رجلًا أحببته؟!

- الحبُ لا يُنسى.. بل يطمس أثرَه حبٌّ آخر فيجعله هباء منثورًا.

- وكيف أجده؟!

- غافلة! تظنين أننا من نبحث عن الحب! هو من يبحث عنا ليجتاحنا دون إرادة!

- إذن فلن يجد طريقي أبدًا.

قالتها بقنوط ليرد بابتسامة طيبة:

- هو يجدنا جميعًا في النهاية.. لا تقلقي.

بدت لها عبارته أخيرًا كبشارة، فابتسمت لتقف قائلة:

- سأعتبرها واحدة من نبوءاتك الصادقة.. بماذا أكافئك لو كنت لا تريد مالًا؟! تريد حلوى كالتي كانت تمنحك إياها فاطمة؟!

- لا أريد مالًا ولا حلوى.

- إذن ماذا تريد؟!

تسأله بحيرة ليقف متكئًا على عصاه، ويرتجف صوته برجائه:

- أخبريني عنها.. هل هي بخير؟!

تشتعل ملامحها بحقد لم تستطع إخفاءه لتهتف بحدة:

- لا أعرف شيئًا عن تلك الجاحدة.. فلتحترق أينما كانت!

أطرق برأسه دون ردّ ليعطيها ظهره، ويتحرك نحو الباب الخارجي.. ليفاجأ بها تستوقفه هناك، فتربت على كتفه تغمغم بنبرة خافتة:

- هي بخير.. تعيش معه في سعادة كما أعلم.

فابتسم عبر أسنانه المكسورة ليشير بيده نحو قلبه قائلًا بما ظنها حقًا تحتاج سماعه:

- بداخل كل منا شعلتان إحداهما للخير والأخرى

للشر.. ونحن فقط من نحدد أيّهما نغذيها لتتوهج أو نهملها لتخبو!

* * *

- الشهر يمر تلو الشهر، ولا يزال ابني غارقًا في غرامها!

هتفت بها أم «هاشم» لصديقتها التي ردّت مدافعة:

- هذه الأشياء تتطلب وقتًا، ثم ألم تلاحظي أنها لم تحمل منه بعدُ؟!

اتسعت عينا أم «هاشم» بإدراك لتهتف مستبشرة:

- تقصدين أن هذه بركات الشيخة؟!

- يا ساذجة! أكنتِ تظنينها مصادفة؟! بالطبع هي بركات الشيخة.. في البداية نمنع نسلهما معًا.. ثم

نفرق بينهما رويدًا رويدًا..

تقولها المرأة بلهجة من تملك الخبرة، لتهز أم «هاشم» رأسها قائلة:

- كلام معقول!

- اصبري ولا تتعجلي.. ابنك سيعود لعقله يومًا بعد يوم.. ليرميها في النهاية كسلعة بائرة.

قالتها المرأة بابتسامة حماسية انتقلت لأم «هاشم» التي هتفت بها بلهفة، بينما تخلع عن معصمها إحدى أساورها:

- فليسمع منك الله! خذي هذه للشيخة كي تجتهد معنا.

التمعت عينا المرأة بطمع ناقض عبارتها:

- لا لا.. الشيخة لا تأخذ شيئًا لنفسها.. هي لا تطلب إلا ما يمليه عليها مخدومها.

لكن أم «هاشم» هتفت بإلحاح:

- هذه هدية.. و«النبي قبل الهدية».. بالله عليكِ امنحيها إياها.

فابتسمت المرأة لتتناولها منها وتدسها في ثيابها قائلة باستسلام:

- ما دام الأمر هكذا فلا بأس.. الشيخة مبروكة وتستحق كل خير.

قالتها لتغادر بيت أم «هاشم» التي تنهدت بحرارة، وهي تنتظر تحقيق مرادها بفارغ الصبر، قبل أن تنتبه لصرخة توجع أطلقها زوجها من الداخل لتهتف بجزع:

- ماذا بك يا أبو «هاشم»؟!

* * *

- لا تقلق.. سيكون بخيرا!

قالتها «فاطمة» مواسية بينما تراه مكتئب الوجه ليرد:

- صحَّته تسوء كثيرًا.. لا أحتمل رؤيته وهو يتوجع هكذا بعد صحته الوافرة التي كان الجميع يتحدثون عنها.. أحمد الله أن فتح لي باب الرزق من ناحية الكرة، وإلا كيف كنا سنحتمل نفقات علاجه؟!

- «سليمان» كان دائمًا ما يقول «سبحان من يبتلي ويدبر».. لكن.. هل سيغير هذا شيئًا بشأن سفرك؟!

سألته بقلق ليرد بزفرة حائرة:

- لا أدري يا «فاطمة».. الأمر متوقف على رأي الأطباء بشأن حالته.. تعلمين أن ليس لوالديّ سواي.. ولن أترك أمي تعاني في رحلة علاجه وحدها.

شعرت بالإشفاق نحوه وهي ترى فرحته تنطفئ في أوجها دون أن تملك ما تريحه به.. لكن مهلًا.. يمكنها أن...

- «هاشم».. ما رأيك لو أبقى أنا هنا مع والديك أساعدهما وتسافر أنت وحدك؟! بعض الوقت فقط حتى نطمئن على والدك.

- حقًا؟! تظنين هذا كافيًا؟!

يسألها بتردد لترد بحماس عندما رأت في اقتراحها ما قد يمنحه بعض المساعدة:

- بالطبع! يمكنهما المكوث معي في شقتنا هنا.. وأنا سأتابع حالته مع الأطباء.. كما أن هذا الاقتراح

سيمكنني من استكمال دراستي بصورة طبيعية، فلا نضطر للبحث عن حل بهذا الشأن.

يفكر قليلًا وقد بدا له حلها كطوق نجاة، لكنه يعود ليشاكسها بابتسامته الواهنة:

- لا آمن عليكِ وحدك.. ناعمة أنت يا هريرتي في زمان يقدس المخالب.

لكنها تبتسم بدورها قائلة وهي ترفع أصابعها في وجهه:

- ومن قال إني لا أملك بعضها؟! أنا فقط أفضل أن أستكين بحضنك!

اتسعت ابتسامته للحظات وهو يتأمل ملامحها بضيق آثر كبته كي لا يظهره لها.. لقد اعتاد صحبتها.. بل أدمنها.. لا يكذب عندما يقول دومًا إنها سر نجاحه.. يحب صورته في عينيها.. «هوسها» المفرط

سيمكنني من استكمال دراستي بصورة طبيعية، فلا نضطر للبحث عن حل بهذا الشأن.

يفكر قليلًا وقد بدا له حلها كطوق نجاة، لكنه يعود ليشاكسها بابتسامته الواهنة:

- لا آمن عليكِ وحدك.. ناعمة أنت يا هريرتي في زمان يقدس المخالب.

لكنها تبتسم بدورها قائلة وهي ترفع أصابعها في وجهه:

- ومن قال إني لا أملك بعضها؟! أنا فقط أفضل أن أستكين بحضنك!

اتسعت ابتسامته للحظات وهو يتأمل ملامحها بضيق آثر كبته كي لا يظهره لها.. لقد اعتاد صحبتها.. بل أدمنها.. لا يكذب عندما يقول دومًا إنها سر نجاحه.. يحب صورته في عينيها.. «هوسها» المفرط

به يمنحه الثقة ليتقدم أكثر.. نقاء مشاعرها التي يوقن أنها لم تكن يومًا إلا له يمنحه التوازن في حياته التي لا تخلو من حقد وضغائن منافسيه.. لو كانت تظنه «معجزتها» فهي «جنته».. كيف بعد كل هذا يمكنه أن يتركها وحدها هنا ويسافر؟! لكن.. ما البديل؟!

- فيمَ شردت؟! أرجوك يا «هاشم» ابتسم.. تعلم أن قلبي ينقبض عندما أراك هكذا.

قالتها برجاء وجد صداه في قلبه موقنًا من صدقها.. هو تعلم منذ أول أيام عشقهما أنه وحده يتحمل مسئولية سعادتها؛ إذ منحته هي مفاتيحها كاملة.. لهذا نحّى هواجسه جانبًا ليسألها وهو يتلفت حوله:

- هل أعجبك المكان؟!

كانا يجلسان في أحد المطاعم الفاخرة المنعزلة

نوعًا كي تضمن لهما المزيد من الخصوصية.. ورغم أنها تكره الخروج من البيت، لكنها وجدت بالمكان دفئًا محببًا أنساها مؤقتًا انقباضة قلبها بشأن سفره وحده.. ستكون هذه أول مرة يفترقان فيها منذ وقت طويل..

- جميل حقًا.. إضاءته مريحة.. تذكّرني بمشهد أحببته في آخر رواية قرأتها.

- لا فائدة! الروايات ستفسد رأسك.

يقولها مازحًا وهو يغرس الشوكة في الطعام أمامها ليطعمها بنفسه، فابتسمت وهي تلوكه لتهمس له بهيام:

- ولمَ العجب؟! أنت جعلت حياتي رواية جميلة أنت بطلها!

- لا يا «هندسة»! تظنين احتفال الليلة سينتهي

ببضع كلمات..

ثم غمزها مردفًا بنبرة ذات مغزى:

- أنا رجل أفعال لا أقوال.. هناك شيء «أحمر» في قاع خزانتك ينتظر أن ترتديه منذ بضعة أيام، وأنتِ تتجاهلين.. والليلة توقيت مناسب لتجربته.

فاحمرَّ وجهها خجلًا لتغرس شوكتها في الطعام أمامها هامسة بغيظ:

- ما دمت عدت لمزاحك الوقح فقد اطمأننت أن مزاجك قد راق.

ضحكته الآسرة تغرد في أذنها فتبتسم وهي تراه عبر جفنيها المسبلين يقول بنفس النبرة العابثة:

- لم أعد جائعًا.. هيا نعُد للبيت.

- أنا جائعة.

تقولها بعناد لذيذ مدركة نواياه لتلتمع عيناها بتوجس وهي تراه يقول باستسلام لم تعهده:

- كما تريدين.

ثم شهقت بعدها وهي تشعر بقدمه تداعب ساقها تحت المائدة ليحمر وجهها أكثر مع همسها المستنكر:

- ماذا تفعل يا مجنون؟!

- أساعدك كي تشبعي بسرعة!

يقولها وحاجباه يتراقصان بمشاكسة فلم تملك ابتسامتها التي ناقضت غضبها المصطنع:

- حسنًا.. شبعت!

فتزيد وتيرة عبثه تحت المائدة محافظًا على براءة ملامحه:

- متأكدة؟! يمكننا طلب بعض الحلوى؟!

- «هاشم»!

تهمس بها باستنكار لم يخلُ من دلال، فضحك ليغمزها هامسًا:

- يا قلب «هاشم»!

قلبها يخفق بجنون كأنما تعيش هذه اللحظات لأول مرة معه.. ربما هذا هو سحره المتجدد الذي تعيشه معه يومًا بيوم.. هذا الغرام الذي لا يفقد عذريته أبدًا مهما مرّ به الوقت.. والذي تثق الآن أكثر من أي وقت مضى أنه رهانها الرابح.. الرابح دومًا..

تأبطت ذراعه لتغادر معه المطعم ولم تكد تفعل

حتى رفعت رأسها للسماء بنجومها اللامعة لتتنهد بارتياح هامسة:

- الجو رائع!

- تريدين التمشية قليلًا؟!

يسألها برقة لتومئ برأسها قائلة:

- لم نفعلها منذ زمن بعيد.. هذا المكان هادئ ويناسب الأمر.

فأطاعها ليسير جوارها متمهلًا بينما يقول بزهو:

- ذنبكِ أنك تزوجتِ بطلًا مشهورًا تلاحقه العيون أينما كان.

لكنها أسندت رأسها على كتفه لتهمس بهيام:

- لا تعنيني العيون.. المهم أنه ملكي.. ملكي وحدي.

ابتسامته تمنحها الكثير من الوعود، فترفع عينيها للقمر الذي بدا لها في البداية مكتملًا.. قبل أن يعود ليتوارى خلف غيومه.. فتنهدت لتقول بشرود:

- حتى السماء تبدو هنا مختلفة عن سماء قريتنا.. أذكر عندما..



- احترسي!

هتافه الحاد يقاطع عبارتها، فتخفض رأسها نحوه، وقبل أن تنتبه لما يعنيه شعرت به يدفعها بعيدًا عن طريق السيارة التي بدت وكأنها ظهرت من العدم.. هذه التي اندفعت نحوه بنفس السرعة ليتفاداها في الوقت المناسب.. لكن يبدو أنه لم يكن مناسبًا تمامًا!

* * *

- جراحة في ساقه؟!

هتفت بها بجزع أمام الطبيب في المشفى الذي نُقِل إليه «هاشم» ليرد الأول بأسف:

- أعرف حساسية الوضع لرجل بمهنته.. لكن لا بديل.

- وهل ستعود لحالتها الطبيعية بعدها؟!

تسأله بارتياع لتمنحها ملامح الرجل الآسفة الجواب القاتل..

«هاشم» لن يتمكن من اللعب ثانية!

* * *

الهالة الحادية عشرة

(السقوط!)

- أغلقوا التلفاز.. لا أريد شيئًا يذكّرني بشأن الكرة هذا!

هتف بها «هاشم» بحدة وصوت المباراة على شاشة التلفاز يدفع إليه بحنينه لتلك الأيام التي تبدو وكأنها كانت حلمًا بعيدًا.. منذ وقت الحادث وهو يتحاشى الحديث عن الأمر مواجهًا الجميع بوجه بارد.. لكن قشرة البركان الخامدة تنتظر وقتًا كهذا؛ كي تفيض منها حمم انفعالاته المخفية.. البساط انسحب من تحت قدميه فجأة وفي قمة مجده.. ليجد نفسه يسقط من علٍ!

- أنا السبب!

غمغمت بها «فاطمة» بين دموعها وهي تخفي وجهها بين كفيها مدركة ما يعانيه.. تتذكر كيف كان همه أن يدفعها بعيدًا عن السيارة التي أصابته هو..

- ليتك كنت أنتِ!

والهتاف الساخط كان من أمه التي انتقلت للعيش معهما هي ووالده بعد الحادث، والتي تقدمت لتلكزها في كتفها، مردفة بصراخها الهائج:

- لم نرَ خيرًا منذ اصطبحنا بوجهك.. ابني حياته انتهت بسببك.

- أمي! لا ترفعي يدك على زوجتي..

قالها «هاشم» بصوته الذي فقد حيويته، وهو يخفي جسد «فاطمة» خلفه ليواجه أمه بقوله:

- إنه نصيب لا يهرب أحد منه.. ثم إن الأمر لم ينتهِ بعد.. العلاج الطبيعي سيأخذ وقتًا طويلًا، لكنهم يقولون إن هناك أملًا.

- تخدعني أم تخدع نفسك؟! ما راح لا يعود.. كله بسبب «وجه الشؤم» هذه.

انخرطت «فاطمة» في نحيب عالٍ، ليزفر «هاشم» بسخط، بينما أمه تردف:

- دموع التماسيح هذه لن تنطلي عليّ.. إنها تعيش حياتها طولًا وعرضًا بعد الحادثة خارج البيت بزعم دراستها، وعندما تعود تتصنع الحزن.. هل منعتها دموعها هذه من الذهاب للجامعة بأفخر الثياب التي اشتريتها أنت من مالك؟!

- حرامٌ عليكِ! أنا أكاد أقتل نفسي تعبًا لأنجح هذا العام؛ كي أجد شيئًا أسعده به، وأخرجه من حالة اكتئابه هذه!

هتفت بها «فاطمة» شاعرة بالقهر، ليلتفت نحوها «هاشم»:

- اسكتي أنتِ يا «فاطمة» الآن.

لكن والدته تمادت في غيّها وشعورها بأنه حتى «سحر الشيخة» يتأخر أثره يضاعف غيظها:

- وترفعين صوتكِ عليّ أيضًا؟! الآن تتحدثين وكأن ابني صار حملًا ثقيلًا عليكِ تدّعين أنكِ تخففين عنه؟!

- سأترك لكما البيت كله ما دام هذا صار حالكما كل يوم.. أنا ذاهب إلى المطعم.

هدر بها «هاشم» بحدة ليخرج بـ«عرجته المستحدثة» صافقًا الباب خلفه، ولم يكد يفعل حتى تقدمت أمه من «فاطمة» لتهتف بها وقد رفعت كفيها

في وضع الدعاء:

- لعن الله اليوم الذي رأينا وجهك فيه.. الخراب حلّ بابني من وقتها.

- كفى يا أم «هاشم».. اتقي الله فيها.. تعالي واتركيها لحالها.

هتف بها أبو «هاشم» من داخل غرفته بصوته الواهن الذي بدا وكأنه لا يزال يحتفظ بهيبته أمام زوجته التي حدجتها بنظرة قاتلة قبل أن تعود لزوجها، بينما كتفت «فاطمة» جسدها بذراعيها وهي تعود لغرفتها بخطوات ذبيحة.

أغلقت الباب خلفها وهي تشعر أنها عادت «فاطمة القديمة» التي تريد أن تختبئ من كل العالم بين أربعة جدران.. الفارق هاهنا أن «هاشم الحلم» لم يعد موجودًا..

أجل.. قديمًا كان يمكنها الحلم به.. بل ومحادثته دون أن يعلم عنها شيئًا.. والآن ينام بجوارها كل ليلة، لكنه بعيد كما السماء.. صمته يحكي ألف حكاية عن وجعه الذي لا يريد التحدث عنه.. ولو حتى إليها هي.. ووقته كله صار يشغله في مطعمه الجديد الذي وضع فيه كل مدخراته، والذي بقي له بعد انحسار الأضواء عنه.

لقد حاولت إخراجه من اكتئابه هذا بكل ما تملك لكنها عجزت.. كلما اقتربت اصطدمت بجبل جليد صار يحاوطه من كل جانب.. ليته يبوح لها بهمه.. يبكي بين ذراعيها حسرته.. بل ليته يصرخ بها -كأمه- أنها السبب ويعاقبها بأي عقاب، لكن أن يكون بهذا البرود المنطفئ بعد طول اشتعاله، فهو ما لم تعد تطيق عليه صبرًا، خاصة مع الزوابع التي تثيرها أمه يومًا بعد يوم..

عادت الدموع تسيل على وجنتيها فمسحتها

بأناملها وهي تتوجه نحو صورة زفافهما المعلقة أعلى فراشهما.. تناظر شمس الفرحة التي كانت تملأ العيون وتقارن بينها وبين ليل كئيب صارت تعيشه معه..

- افتقدتك يا «هاشم».. افتقدتك جدًا.

تنهمر معها زخة أخرى من دموعها فتستلقي على الفراش تغطي وجهها بذراعها، وترفع الغطاء على وجهها في عادة رجعت إليها بعد طول هجران..

لم تدرِ كم مرّ عليها من الوقت، فلم تعد تهتم بحساب الساعات، لكنها شعرت به أخيرًا يدخل إلى الغرفة.. خطواته كسيرة مثله.. يجلس بجوارها على طرف الفراش ليرفع عنها الغطاء ثم يصلها همسه:

- أنتِ مستيقظة؟!

الدموع التي عادت تبلل وجنتيها تحت ذراعها

المطوي منحته الجواب، فتنهد ليرفعه عن وجهها ويمسحه بأنامله هامسًا:

- لم تأكلي شيئًا منذ الصباح.. وها قد انتصف الليل.. قومي وتناولي أي شيء.

لكنها تشيح بوجهها في رفض، فعاد يتنهد بحرقة هاتفًا:

- بالله عليكِ يا «فاطمة» لا تزيدي همي.. يكفيني ما بي!

- ولماذا لا تشاركني «ما بك» هذا؟! لماذا لا تلقي همك على صدري؟! ألم تكن تزعم دومًا أنني ابنتك وصديقتك وحبيبتك؟!

تغمغم بها بين دموعها وعيناها تنظران إليه بعتاب كسير ليخفت صوتها حد الهمس بينما تردف:

- أنت حتى لم تلمسني من يومها.. أنت.. أنت كرهتني؟!

لم تكد تنتهي منها حتى شعرت به ينحني فوقها لتمنحها شفتاه الجواب، بينما ذراعاه يعتصران جسدها بهذه الطريقة التي تشعرها وكأنه يودّ لو يلتصق بها للأبد.. قبل أن يجتاحها إعصار عاطفة كبتها طوال هذه الأيام، وافتقدت حرارتها منه.. لم يقل لها شيئًا، لكنها سمعت نحيبه في لمسات كانت تلسعها كالسياط ثم تربت عليها بنعومة.. اكتوت بحسرته في عناق كان يسحقها في ثوانٍ بقسوة ثم يتشبث بها باحتياج.. حتى قبلاته كانت متناقضة بين لين وتوحش.. لم تشعر يومًا معه كما تشعر الآن.. كأنما جسده يرقص بالسيف فوق جسدها فلا تدري هل يطربها اللحن أم ترهبها لمعة نصله!

- أحبك!

همستها اليتيمة شقّت هذا الجو الغريب بينهما كأنما ألهمتها فطرتها أنها وحدها منجيتها وسط المعمعة هذه.. لتسكن حركته تدريجيًا وتعود رقصته لسابق نعومتها..

حتى إذا سكنت الأنفاس أخيرًا شعرت بجبينه يلاصق جبينها، فهمست به برجاء:

- لا تتركني من يديك.. أفتقد عناقك يا «هاشم».. أرجوك.

هنا شعرت بسخونة دمعه تلامس وجنتها وذراعاه يشددان ضغطهما حولها لتكتم شهقة لوعتها، بينما تسمع همسه فاضحًا قهره لأول مرة منذ الحادث:

- هل تصدقين؟! تصدقين أن كل شيء انتهى هكذا فجأة؟! كل الأحلام التي بنيتها للغد؟! أنا كنت أحضّر أوراقنا للسفر للخارج.. كنت أتهيأ لارتقاء درجة أخرى في سلّم طموحي.. ذراعي كان يكاد يلمس القمة..

وفي آخر لحظة.. آخر لحظة.. أقع لأسقط على ظهري دون قيام.

وفي هذه اللحظة تمنت لو أنه لم يحكِ.. لو أنها لم تحترق معه بهذه النار.. لو لم تشهد هذا القهر الذي يمزق حروفه.. والذي تشعر أنها السبب فيه.. هو كان كل همه ساعة الحادث أن يدفعها هي بعيدًا عن السيارة فلم ينتبه لحاله..

- أنا انتهيت يا «فاطمة».. صرت مجرد «بدل فاقد» للبطل القديم.

يقولها منغمسة بيأسه لترد بين دموعها:

- لا تقل هذا.. بطولتك لم تكن ركلات أقدام.. بطولتك كانت في حب الناس لك.. لو عدت لتفقد مواقع التواصل التي هجرتها منذ الحادث لعرفت أنك لا تزال نجمًا في قلوبهم.

- ساذجة أنتِ! الناس تنسى، ولا تذكر إلا بريق من يخطف أبصارهم.

- إذن دعك من الناس.. أنا كل «ناسك» كما كنت تقول دومًا لي.. إذا كان طريق الكرة أغلق في وجهك فربما تجد طريقًا آخر أكثر نجاحًا.

ابتسامته الساخرة بمرارتها كانت كل جوابه قبل أن تشعر بجسده ينزاح عنها ليعطيها ظهره رافعًا غطاءه فوقه كأنما يعلن النهاية.. بداية النهاية!

* * *

- ألن تخرجي لمقابلة العريس هذه المرة أيضًا؟!

هتفت بها «غالية» بسخط لترد «غنى» بصوتها المخذول كعهده:

- لا.. لا أريد.

- أنت تثيرين جنوني بتصرفاتك هذه.. تظنين سوق زواجك رائجًا فقط باسم عائلتنا؟! نسيتِ أن محاولة انتحارك السوداء ليلة زفاف «فاطمة» لا تزال سيرة في الأفواه؟!

- لا.. لم أنسَ.. وربما هذه هي مأساتي!

كلماتها خرجت ملطخة بدموعها ليرق لها قلب غالية، وإن حافظت ملامحها على صرامتها.. فاقتربت منها لتربت على كتفها قائلة بتوجس:

- ما الذي لا تنسينه بالضبط؟!

- كما فهمتِ يا خالتي.. أنا ما زلت أحبه.. ولا أتصور أن يدخل حياتي رجل غيره!

هنا دفعتها «غالية» بقسوة هادرة بها:

- غبية كتلك الحمقاء الأخرى التي تركت كل شيء خلفها كي تتزوجه! كنت أستوعب إعجابك كأي مراهقة بلاعب مشهور.. لكن ها هو ذا عاد مجرد رجل عادي وذا عاهة أيضًا.. ما الذي لا يزال يعجبك فيه؟! أم هي مجرد رغبة طفولية في امتلاك ما تحوزه «فاطمة» فحسب؟!

لكن «غنى» مسحت دموعها لتقول بصوتها الكسير:

- أنا لم أحب لاعب الكرة.. أنا أحببت «هاشم» بتفاصيله التي عرفتها من قريبته.. أحببت حنانه الذي تمنيته لنفسي.. أحببت بساطته التي تشبهني.. أحببت كفاحه ومثابرته حتى وصل لمكانته على عكسي. هل أخبرك بالأغرب؟! أحببت إصراره وتمسكه بـ«فاطمة» ووقوفه في وجه الجميع لأجلها.. وتمنيت لو كان كل هذا لأجلي أنا!

- أفيقي يا حمقاء.. أفيقي.. العمر يمر بكِ وأنت

كـ«البيت الوقْف»، لا تتحركين من مكانك.. تضيعين عمرك في أوهام.

صرخت بها «غالية» بجنون، وهي تكاد تفقد عقلها أمام هذه التي تراها تذبل يومًا بعد يوم خاصة عندما غمغمت «غنى» بنفس الانكسار:

- عمري ضائع على أي حال.. هذا العريس الذي تحكين عنه لا يريد أن يتزوجني أنا.. بل يريد الاقتران باسم عائلتنا.

- حتى لو كان ما تقولينه صحيحًا.. ماذا في هذا؟! كلنا تزوجنا بهذه الطريقة!

- تريدين لي حياة كحياتك يا خالتي؟!

صمت مهيب ساد بعد عبارتها التي سقطت فوق رأس «غالية» كدلو بارد.. «غالية» التي تجمّدت ملامحها إلا من دمع عزيز تجمع في المقلتين

الصارمتين.. وجعل «غنى» تشعر بالندم على ما تفوهت به لتقترب منها مغمغة:

- آسفة.. لكن لو كنتِ تحبينني حقًا كابنتك لما رغبتِ أن أعيش كما تعيشين.. تظنيني صغيرة لا أفهم.. لا يا خالتي.. أكرم لي أن أعيش عمري دون زواج من أن أباع لرجل لا يرى فيّ أبعد من نفوذ عائلتي.

هيئ إليها أن جسد «غالية» يرتجف، لكن الأخيرة تمالكت نفسها لترتعش شفتاها بابتسامتها وقولها المهزوز:

- ألم أقل لكِ إنك غبية؟! ساذجة؟! حياتي هذه التي لا تعجبك تحسدني عليها كل نساء البلدة.

- أنا لا أريد حياة تحسدني عليها النساء بينما أنا أنعي حظي.. أنا أريد حياة أحسد فيها أنا نفسي على فرحتها.

هتفت بها «غنى» بقنوط ليزداد الوجع الأخرس في نظرات «غالية»، بينما الأولى تطرق برأسها لتردف دون وعي:

- كل ما أريده هو أن أحِب وأحَب.. لا أريد أن أكون سيدة في عيون الناس وجارية في قلب زوجي.

عبارتها بدت كخنجر مسموم طعن قلب «غالية» التي ندَّت من شفتيها أنّة خافتة غادرة فضحتها، وجعلت «غنى» تنتبه لوقع كلماتها، فاقتربت منها لتربت على كتفها هاتفة بأسف:

- لم أقصد يا خالتي.. كنت فقط...

لكن «غالية» أزاحت كفَّها عن كتفها بقسوة لتهتف بها بجبروتها المعهود، بينما تبرز خاتمها المميز بنقش وجه الأسد أمام وجهها:

- لا تريدين مقابلة العريس؟! فليكن.. غدًا أثبت لكِ أن ما تفكرين به مجرد كلام أغانٍ.. لا وجود للحب في هذا العالم الذي لا يعترف إلا بالقوة.. غدًا أثبت لك أن جبروت «غالية» هو الذي ينهي اللعبة دومًا لصالحها!

* * *

غادرت «فاطمة» سيارة الأجرة لتهرع بخطوات راكضة نحو المطعم الذي يملكه زوجها، والذي صار يقضي فيه أغلب وقته.. استقبلها النادل باحترام، ليتوجه بها نحو الركن الخاص الذي يحتله «هاشم» دومًا.. وما أن رأته حتى هتفت به بلهفة فرحة بينما ذراعاها يحطان على كتفيه:

- الأولى يا «هاشم».. النتيجة ظهرت.. الأولى.. الأولى!

وصل صوتها حد الهتاف في آخر كلمة وهي تشعر

بالسعادة أخيرًا تعرف طريقها لقلبها بعد معاناة الأسابيع السابقة.. هاهو ذا خبر مفرح وسط الكآبة التي صارت تظلل حياتهما..

لكنه فاجأها ببرودة ملامحه وهو يزيح ذراعيها عنه بينما يتلفت حوله قائلًا:

- نسيتِ نفسك؟! ألا تراعين أننا في مكان عام؟!

بدت عبارته كصفعة أطفأت وهج ملامحها وهي تتلفت حولها مثله شاعرة بالحرج والـ... خيبة!

لقد هرعت إليه فور أن علمت بالنتيجة كي ترى فرحته -المعهودة- بنجاحها.. لماذا لم يفرح هذه المرة؟! إنها كادت تقتل نفسها اجتهادًا في مذاكرتها فقط لأجله.. كي تمنحه أي فرحة لعلها تنسيه إحباطه!

هنا حانت منها التفاتة لحاسوبه المحمول الذي

فتحت شاشته أمامه لتتبين ما الذي كان يشاهده قبل وصولها.. إحدى مبارياته القديمة المسجلة، والتي كان قد حقق فيها انتصارًا مشهودًا..

ولم يكد ينتبه هو لنظراتها للشاشة حتى أغلقها بعنف كاد يكسرها، لترفع إليه عينين دامعتين وشفتين مرتجفتين تكتمان بكاءها.

ضمّ قبضتيه بغضب مكتوم وهو يشيح بوجهه.. الغضب منها ومن نفسه ومن كل شيء.. هل يجرؤ على الاعتراف أن نجاحها هذه المرة يزعجه؟! يزعجه وهو يذكّره بأنها صارت أفضل منه.. هذا الشعور الذي يجربه معها هي لأول مرة.

ابتسامة حادة تلوّن شفتيه بالسخرية من وضعهما الجديد المقلوب.. لم تلبث أن اتشحت بالمرارة.. ثم الندم وهو يراها تطرق بوجهها المحمر من فرط انفعاله..

فأخذ نفسًا عميقًا يتمالك انفعالاته، ثم اقترب منها خطوة ليغتصب ابتسامة باهتة قائلًا:

- مبارك يا «هندسة».. لكن «الدّخلة» هذه لا تليق بالمكان.. تعلمين أن...

ولأول مرة لا تستمع منه لبقية كلماته التي تاهت في فراغ شرودها.. مرحه المصطنع لم يخفف وخز هذا الخذلان الذي كان ينخر كالسوس في عرش حبهما.. «هاشم» لم يعد كـ«هاشم».. هذا الرجل لم يعد كـ«حبيبها»!

طوال الأيام السابقة وهي تحتمل صعوبة دراستها.. سخافات أمه التي تتطاول حد مد اليد.. مرض والده الذي تضطر للرعاية به مع أم زوجها.. انشغاله هو عنها أغلب وقته في هذا المكان كي يقف على قدميه كما يزعم.. مزاجيته وتغير طباعه التي تزداد حدة مع الوقت.. كل هذا كانت تتحمله صابرة كوضع

مؤقت بانتظار أن يتجاوزا معًا هذه المحنة.. لكن يبدو أنه ليس وضعًا مؤقتًا، بل صار أسلوب حياة!

- «فاطمة».. لماذا لا تردّين؟!

ينتزعها بها من شرودها البائس، فتغتصب ابتسامة باهتة كابتسامته، لتعدل وضع حقيبتها على كتفها وما زالت عاجزة عن رفع عينيها إليه:

- آسفة.. شردت قليلًا.. ماذا كنت تقول؟!

- كنت أقول إننا لم نخرج وحدنا منذ وقت طويل.. ما رأيك لو نذهب لأي مكان تحبينه الآن؛ احتفالًا بنجاحك؟! اختاري هديتك، وأنا سأجلبها لك مهما كانت.

كادت تهتف به أنها لا تريد الخروج.. لا تريد التنزه.. لا تريد هدية.. بل تريد «هاشم» القديم.. «هاشم» ذا الابتسامة القادرة على محو عذاب عمرها كله....

«هاشم» «معجزتها» التي تخشى أن تتحول لـ«لعنة»!

لكنها لم تستطع الرد إلا بإيماءة خافتة دون أن ترفع بصرها نحوه.. شعرت به يتناول مفاتيحه ليلقي بعض الأوامر لمساعده، قبل أن يتحرك معها لأحد المراكز التجارية القريبة.. كانت المرة الأولى التي يخرجان فيها سويًا منذ الحادث.. وكعهدها بانعزاليتها تفقد توازنها عندما تكون وسط الزحام.. تشعر وكأنما عيون الناس تخترقها لتعرّيها.. هذا الشعور الذي كان -هو الآخر- يشاركها فيه الآن وهو يسير معها في المركز المزدحم..

جزء بداخله ينتشي بنظرات بعضهم الفضولية التي تعرفته، والتي طلب أصحابها التصوير معه.. بينما جزء آخر يكتوي بنظراتهم المشفقة نحو عرج قدمه المستحدث.. فيود لو يعود ليختفي خلف شاشة حاسوبه في ركنه المنعزل في مطعمه يجتر ذكريات نجاح لن يعودا!

كلاهما الآن متشابهان!كلاهما يريد الهرب من عيب لم يكن له ذنب فيه لكن تحرقه صورته في عيون الناس!كلاهما كان يشعر بالغربة وسط الجمع، ويبحث عن وطنه في صاحبه.. لهذا تشبث الكفان بعضهما لتلتقي عيناهما أخيرًا بنظرة عميقة حملت كل مشاعرهما.. نظرة قطعتها سقطة!

أجل.. تعثرت قدمه العرجاء بالسلم الكهربائي فجأة، وكاد يسقط لولا تشبثها هي به مع صرخة قصيرة لم تتعمدها لفتت إليهما أنظار الجموع أكثر، وجعلته يصرخ بها دون وعي:

- لماذا تصرخين؟! أنا بخير.. لا أحتاج مساعدة.

ينفصل الكفان أخيرًا ليعود كل منهما لإطراقته الصامتة و«قوقعته» التي انعزل بها عن الآخر..

- دعنا نعد للبيت.. أنا متعَبة.

غمغمت بها بصوت استهلكته انفعالاتها ليخرج غضبه اليائس في زفرة مشتعلة، وهو يسير بجوارها مغادرين المكان.. ظلت صامتة طوال الطريق الذي لم يقطعه سوى رحلته القصيرة لأحد محلات الحلويات، حيث اشترى كعكة كبيرة، وبعض الحلوى عاد بها إليها ليهتف بمرح مصطنع:

- فلنحتفل بالبيت أفضل مع أبي وأمي.

كانت تدرك حربه الفاشلة مع نفسه متظاهرًا بأن لا شيء حدث.. ومتجاهلًا هذا الشرخ الكبير في علاقتهما، والذي صار مهددًا بأن ينقض البنيان.. لكنها لم تكن تستطيع فعل شيء.. هي اعتادت خوض معاركها وحدها في «صومعتها» المنعزلة، وعندما ظهر هو في حياتها سلّمته مفاتيح قلعتها كاملة كي يتولى هو الدفاع عنها.. والآن تجد نفسها «بين بين».. ترقص على السلم.. فلا هي قادرة على العودة لروحها المحاربة القديمة.. ولا هي صارت آمنة

لحصونها معه.. شعور مخيف حقًا لمن جربه!

- هيا بنا!

انتزعتها عبارته من شرودها لتنتبه لتوقف السيارة التي غادراها لتصعد معه نحو شقتهما، وما أن فتحت أمه الباب حتى هتف بها:

- باركي لـ«فاطمة».. نجحت.

رمقته «فاطمة» بنظرة جانبية، مدركة أنه لم يشر إلى ترتيبها -الأول- فتعمقت نظرة الخذلان في عينيها تزيدها غمغمة والدته المتهكمة:

- هذا ما تفلح فيه! الشخبطة على الورق.. لكن كـ«ربة بيت» فاشلة بامتياز.

لم يبهجها دفاع «هاشم» عنها كالعادة هذه المرة أمام أمه، بل شعرت وكأنما تريد الهرب منهم جميعًا

إلى غرفتها.. فلينتهِ كل هذا العبث الآن، ولتعد فقط إلى صومعتها تحت غطائها تلعق جراحها بنفسها، لعلها تستعيد مهارة مداواتها لنفسها من جديد..

- سأبدل ملابسي.

قالتها بفتور مطرقة الرأس لتسمع صوته خلفها:

- ارتدي الثوب الجديد.. هذا وقته.

قالها كأنما يمنحها شبه اعتذار مبطن لتتوج شفتيها ابتسامة باهتة، وهي تتحرك نحو غرفتهما.. تبدّل ملابسها ببطء وتود لو تبقى فترة أطول، لكنها تسمع صوته من الخارج يستعجلها.. ترتدي الثوب الذي كان بلون ذهبي اختاره لها «هاشم» قائلًا إنه يبرز بريق عينيها الآسر -وقتها- لكنها الآن تراه وقد زاد من شحوب لون بشرتها، خاصة مع الهالات السوداء التي صارت هاجسها..

تمد أناملها تتناول «الكونسيلر» لتدور بسحره - الزائف- حول عينيها فترضيها النتيجة.. تخفي عيوبها كما علّمها «هاشم»!

تخرج إليهم أخيرًا، فلا تدهشها نظرة الحقد التي رمقتها بها أمه، وهي تقول بفظاظة:

- الثياب المنفوشة هذه للنحيلات.. تبدين كـ«الدّب» في هذا الثوب.

كانت تعلم أن جسدها يميل للامتلاء، خاصة مع طبيعتها التي تميل لعدم الحركة، وقد كانوا يعتبرون هذا في قريتها من مقومات الأنوثة.. لكن أم «هاشم» لا تفتأ تذكرها بهذا كأنه عيب لن تبرأ منه!

- دعي النحيلات لمجلات الموضة.. أنا أحب زوجتي هكذا بارزة المنحنيات.

هتف بها «هاشم» بذات المرح «المصطنع» الذي لم

يعد يسمن ولا يغني من جوع، والذي تلقته هي صامتة لتتوجه نحو المائدة، حيث شرع «هاشم» في رصّ الطعام لتهتف أمه باستنكار:

- تأتي من عملك متعبًا لترص الطعام لـ«الهانم»؟! تعالَ حبيبي استرح.. ودعها هي تعمل شيئًا مفيدًا في حياتها.

لكن «هاشم» يهادن أمه ببضع كلمات قبل أن يمنحها هي نظرة اعتذار لم ترَها، وهي لا تزال تطرق برأسها في خيبة..

- مبارك يا ابنتي.. مجتهدة طوال عمرك.. بارك الله لك.

كانت هذه كلمات والده الذي خرج إليهم بخطواته الواهنة، والذي جعلتها كلماته ترفع رأسها أخيرًا نحوه، بينما الرجل يردف وهو يتقدم نحوها:

- كنت واثقًا من نجاحك.. وأظنكِ حققت المركز الأول كالعادة.. أنتِ تعبتِ هذا العام وتستحقين هذه الفرحة.

لم تشعر بنفسها وهي تندفع نحو الرجل فجأة تلقي نفسها بين ذراعيه وجسدها يرتجف ببكائها الذي كتمته طوال هذه الساعات.. بل طوال هذه الأيام.. وكيف لا تفعل؟! وهي تراه يسمعها الكلمات التي تمنت سماعها من «هاشم» منذ عرفت الخبر! هذا بالضبط هو العناق الذي لم ترد غيره هدية.. لكنها لم تنله!

بكاؤها الحار ألجمهم جميعًا للحظات، قبل أن تمصمص الأم شفتيها متمتمة بتهكم خافت.. بينما تصلّب جسد «هاشم» وهو يعقد حاجبيه شاعرًا أن أرضه قد تزلزلت تحت قدميها.. هي «ابنته» هو! كيف ترتجي يومًا عناقًا من سواه ولو كان أباه! لكن ألم يفرط هو بهذه المكانة؟! ألم يخذلها ويخذل

نفسه قبلها؟!!

- وحّدي الله يا ابنتي! لماذا تبكين هكذا؟! يجب أن تفرحي اليوم بالذات..

ثم أبعدها عنه ليربت على ظهرها مردفًا:

- شكرًا لأنك أدخلتِ فرحة كهذه على بيتنا بعد بؤس الأيام السابقة.. «هاشم» كان محقًا عندما تمسّك بكِ يا «وجه الخير»!

انتهت عبارته بقبلة على رأسها، فتمالكت نفسها لتنحني مقبلة كفّ الرجل..

- طوال عمرك وأنت تحب «شغل الأفلام» يا أبا «هاشم».

تهتف بها حماتها بغيظ، لكن زوجها نهرها بعبارة زاجرة، قبل أن يعاود التربيت على ظهر «فاطمة»،

ليتقدم معها نحو المائدة.. لكنها تعثرت بطرف ثوبها الطويل لتفقد توازنها فلم تشعر إلا وهي تتشبث بطرف مفرش المائدة بعنف، لتسقط الأطباق من عليه بدويّ مرتفع..

- خائبة.. مائلة.. «وجه شؤم».. ألم أخبركم؟!

هتفت بها أم «هاشم» ليخرسها زوجها.. بينما لم تستطع «فاطمة» منع نفسها من الردّ هادرة بثورة:

- ارحميني! ماذا صنعت لكِ كي تكرهيني إلى هذا الحد؟! أنا تقبلت غيرتك كأي أم تحب ابنها لكن...

- غيرتي؟! منك أنتِ؟! يا ابنة.. «غفران»؟!

لم تنطق اللفظ «المعهود»، لكنه وصل «فاطمة» كاملًا بكل ما يحمله من مهانة وخزي، لتصرخ فيها بوجع ما عادت قادرة على كتمانه:

- أمي حسابها عند ربي.. وأنتِ أيضًا.. حسبي الله ونعم الوكيل فيكِ!

- تدعين عليّ في بيت ابني!

الصراخ بينهما تشتد وتيرته و«هاشم» وأبوه عاجزان عن منعه، فيجذب كل منهما زوجته بعيدًا.. ولم يكد باب غرفة والديه يغلق خلفهما حتى التفت نحوها «هاشم» بنظرات مكفهرة هاتفًا:

- أنا مللت هذا الجو.. هذا لم يعد بيتًا.. لو لم تحتملي أبويّ فمن يحتملهما؟! أرميهما في الشارع كي تستريحي؟!

نظراتها الدامعة وسط أنفاسها اللاهثة لم تبدُ مصدومة بمقولته.. كانت تدرك بحدسها أن موسم الخذلان إذا حان فلا رادّ لحصاده..

لهذا رمقته بنظرة ذبحته قبل أن تغادره نحو

غرفتهما تلاحقها نظراته المشتتة.. هو لم يعد يفهم نفسه.. يثق أن أمه هي المخطئة، لكنه لا يدري لماذا يميل لمعاقبة «فاطمة» بذنبها؟! تراه حقًا يشعر بالغيرة من نجاحها؟! نجاحها الذي كان يبهجه في وضعه القديم.. لكنه الآن يذكي شعوره بالنقص!

زفر زفرة ساخطة وهو يلقي أحد الأكواب أمامه جانبًا بعنف ليتكسر.. قلبه يرجوه أن يذهب ليسترضيها.. ألا يفسد فرحتها في يوم كهذا.. لكن «جانبًا مظلمًا» بروحه تزداد هوّته السحيقة عمقًا يومًا بعد يوم يجبره أن يتراجع.. أن يقسو عليها فلا تشعر يومًا أنها في مكانة أفضل منه.. هذا «الجانب المظلم» الذي انتصر على رجاءات قلبه ليدفعه للهروب من كل هذا كالعادة تاركًا لها جحيمًا تحترق فيه وحدها..

* * *

عزفٌ على الناي ذو شجن يقطع صمت الليل الكئيب حوله، وتدمع له عيناه وهو يتذكر من رحل من أحبة.. أنامله تتلاعب فوق الناي بمهارة لا يزال يملكها حتى بعد كل هذه السنوات التي انقطع فيها عن فعلها.. لكنه شعر الليلة بالذات بحاجته لهذا.. ربما هو شعوره الرهيب بالفقد الذي يزداد يومًا بعد يوم.. هو اعتاد وحدته.. عزلته الاختيارية في هذا المكان الموحش في أطراف القرية، والتي يقطعها بطوافه كمجذوب يمنحونه إحسانهم تارة.. ويقذفونه بلعناتهم تارة.. فيعود إلى هنا آخر الليل قانعًا بغنيمته.. ومؤملًا نفسه بنهاية مُرضية بعد هذا السعي الطويل..

- أبكيتني يا رجل.. يا لغرابة هذا العزف!

صوت «صاحب الظل» يقاطع شروده، فيلتفت نحوه بوجه بشوش قبل أن يتقدم نحوه الأول لينحني فوقه في عناق قصير صاحب قوله:

- افتقدتك حقًا يا صديقي!

كان «سليمان» قليل الكلام كعادته، لكن عينيه الغائرتين كانتا تفيضان بمشاعر جارفة نحو صاحبه الذي جلس جواره، ليربت على ركبته قائلًا بمودة:

- كيف حالك؟!

- كيف حالك أنت؟! لم تعد تزورني منذ تزوجت فاطمة.. هل انتهت حاجتك بي؟!

يقولها «سليمان» بعتاب لطيف ليتنهد صاحبه وهو يطرق برأسه قائلًا:

- عاهدت نفسي ألا أذكرها مادامت قد صارت في عصمة رجل.. هذه هي الأصول.. صحيح؟!

فالْتَوت شفتا سليمان بشبه ابتسامة وهو يضع

الناي جانبًا لتزيغ عيناه في الفراغ بقوله:

- ليت القلوب تسير على الأصول هذه.. جياد القلوب جامحة لا تعيقها أسوارا!

فهز صاحبه رأسه ليتجاوز عن الحديث بقوله:

- لم يكن هذا سبب ابتعادي الفترة السابقة.. لكن أبي كان مريضًا.. تعلم أنه شديد التعلق بي ويزداد تعلقه هذا عندما يمرض.

هزّ «سليمان» رأسه ليتمتم بيقين:

- لا تقلق.. لن يموت قبل أن يرد مظلمته.. رأيتها في منامي منذ سنوات.. وظني أنها رؤيا خير.

فتأوه صاحبه بخفوت ليطالع السماء التي أظلمت إلا من بضع نجمات قليلة.. قبل أن يقول بشرود:

- تعلم كم أخشى هذا.. وكم أتمناه!

- أعلم أيها التعِس!

هتف بها «سليمان» ليبتسم صاحبه ابتسامة بائسة سبقت سؤاله المتردد:

- هل علمت ما حدث لزوجها؟!

- وكلامك عن «الأصول»!

يقولها سليمان متهكماً فيرمقه صاحبه بنظرة راجية أصابت هدفها في قلبه ليرد بابتسامة شاحبة:

- هي بخير.. سعيدة معه كما يقولون.

- الحمد لله.

- من قلبك؟!

يسأله «سليمان» ليرد صاحبه بانفعال:

- أنت الذي تسأل هذا السؤال؟! ألا تعرف ما الذي تعنيه هي لديّ؟!

فتتسع ابتسامة العجوز ليهز رأسه بما يشبه الاعتذار بينما يردف صاحبه بحرارة:

- فلتكن هي بخير، وكل شيء بعدها هيّن.. كفاني أن أعلم أنها سعيدة.

رمقه سليمان بنظرة مشفقة فارتجفت ابتسامة ذابلة على شفتيه، وهو يتناول «الناي» من جواره ليمنحه لـ«سليمان» قائلًا:

- عاود عزفك يا «عَرّابي».. لحنك يدمي القلب لكنه يواسيه..

* * *

- قضية؟! أي قضية؟!

هتف بها «هاشم» بجزع وهو يتلقى الخبر من مساعده، بمجرد دخوله للمطعم ليردف الرجل بوجه مسودّ:

- ليتها قضية واحدة.. بل ثلاث قضايا.. ثلاث بلاغات بحالات تسمم من عندنا هنا في المطعم.

شحب وجه «هاشم» والرجل يستطرد بانفعال:

- فضيحة! الناس ستقول إننا كنا نستغل شعبيتك السابقة لنقدم طعامًا فاسدًا.

- لكن كيف؟! أنا أتمم بنفسي على جودة كل شيء.

هتف بها «هاشم» مصعوقًا ليرد الرجل:

- لا أعرف.. هناك لجنة بالداخل للتفتيش.. فليجعل الله العواقب سليمة!

نظر «هاشم» نحو المكان الذي يشير إليه الرجل بهلع ليهز رأسه بقوله:

- مصيبة! هذا المطعم هو كل ما أملك الآن.. حتى لو ثبت أن البلاغات كيدية.. شائعة واحدة ستدمر سمعة المكان..

قالها لينهار جالسًا في مكانه وقلبه يرتجف بقوة انفعاله.. هذا المكان لم يعد مصدر رزقه الوحيد فحسب، بل إنه ينفق منه على علاج والده.. لو خسره فستكون كارثة للجميع!

صوت رنين هاتفه يقاطع أفكاره فيتناوله بتشتت ليجد رقمًا غريبًا تجاهله لكنه عاد يرن بإصرار.. فتح الاتصال ليفاجئه الصوت الأنثويّ بجبروته المعهود:

- يمكنك القول إن تقرير اللجنة عندك أنا من سيكتبه.. لو أردت أن تحتفظ بمطعمك الذي صار كل ما تملك فأنت مضطر لأن تسمع مني حديثًا ما..

عقد حاجبيه بغضب وهو يفهم أبعاد ما يحدث ليعاود الصوت المهيمن الحديث:

- أنا هنا في العاصمة.. أريد مقابلتك.. ولن أهين ذكاءك فأطلب منك ألا تعرف «فاطمة» عن حديثنا هذا أي شيء..

ثم هيئ إليه أن الصوت ازداد قسوة مع استطراده:

- على الأقل.. حتى تنفذ أنت ما سنتفق عليه.

* * *

الهالة الثانية عشرة

(خيانة رحيمة!)

- «هاشم»! هل قضيت ليلتك هنا؟!

هتفت بها أمه بجزع وهي تراه ينام على غير عادته في الغرفة المخصصة للضيوف.. ملامح الإرهاق بادية على وجهه فاضحة سهر ليلة الأمس وقلقه على المطعم بعدما حدث، فتنهد بإرهاق وهو يقوم من رقدته لتردف هي بحدة:

- هل طردتك «الهانم» من غرفتكما؟! هذه آخرتها؟!

لكنه زفر بقوة ليهتف بصوت شاحب:

- تعالي يا أمي.

تقدمت لتجلس جواره، فتناول كفها ليقبل ظاهره باحترام قبل أن يقول بحزم راجٍ:

- «فاطمة» ليست كما تظنين.. هي أرقّ مخلوقة قد تعرفينها.. يكفي أنها عندما تحزن لا تكبد غيرها مشقة احتمالها بل تنزوي في عزلتها مكتفية بصمت انكسارها.. أنا الذي أشعر بالخجل من نفسي لأنني لم أعد أستطيع احتواءها كالسابق.. ظهري يثقله حمله وليس لي طاقة بحمل جديد..

ثم عاد يقبل ظاهر كفها مردفًا:

- أرجوكِ يا أمي لا تظلميها.. هي ليس لها في هذه الدنيا غيرنا.. لو كنتِ تريدين سعادتي حقًا فهي لن تكون إلا معها.

مطّت المرأة شفتيها بعدم اقتناع، فرفع رأسه يقبّل جبينها قائلًا:

- لأجل خاطري يا أمي.. ما بي يكفيني.

رقّ قلبها للحزن الكسير في صوته، فهتفت به بجزع:

- ماذا بك يا ابني؟! منذ ليلة أمس وأنت لست على طبيعتك.

لكنه اغتصب ابتسامة مصطنعة ليقوم واقفًا مع قوله:

- لا تقلقي يا «ست الكل».. بعض مشاكل العمل المعتادة.. ادعي لي.

- فتح الله عليك أبواب فضله.

- و«فاطمة»؟!

- تتكلم وكأنني أظلمها؟! لكن حسنًا.. سأتجنب

الحديث معها كي ترتاحوا جميعًا.

رمقها بنظرة عاتبة جعلتها تقول كاذبة:

- معك حق.. هي مجرد فتاة يتيمة مهما بلغت حماقاتها.. سأعتني بها.

منحها ابتسامة راضية ليسألها:

- أين هي؟!

- تقف في الشرفة منذ ساعتين.

قالتها وهي تمصمص شفتيها بعدم رضا، ليقول هو بأسف:

- إنها أول ليلة أبيت فيها خارج غرفتنا دون أن أخبرها بالسبب.. لا ريب أنها غاضبة.. سأذهب لأسترضيها.

قالها ليغادر الغرفة تلاحقه نظراتها المغتاظة قبل أن تستخرج من طيات ثيابها «عمل الشيخة» الجديد، والذي تحركت به متسللة نحو غرفتهما؛ لترفع وسادة الفراش وتضعه تحته..

- ماذا تفعلين؟!

هتفت بها «فاطمة» خلفها باستنكار، لترد المرأة وقد أربكتها المفاجأة:

- ألستِ في الشرفة مع «هاشم»؟!

لكن «فاطمة» تقدمت لترفع الوسادة، وتستخرج الشيء الغريب الذي تعرفت إليه..

- ما هذا؟! أليس يشبه أعمال السحر؟!هل تسحرين لي؟!

هتفت بها «فاطمة» بذهول مستنكر، وهي تتذكر ذاك اليوم من طفولتها عندما جمعت «غالية» أفراد البيت كله لتريهم شيئًا يشبه هذا، وتسألهم عن مصدره، لتكتشف أن أحد قريباتها صنعته كي تفسد بينها وبين «طاهر»، لكن «غالية» أفسدته بمساعدة شيخ كبير ذهبت إليه.. وكأي ذكرى تنقش في الصغر كبرت «فاطمة» تعتقد كثيرًا في جدوى مثل هذه الأمور!

- ماذا يحدث؟!

هتف بها «هاشم» بدهشة وهو يدلف إلى الغرفة، لكن أمه تمالكت نفسها بسرعة لتهتف:

- انظر ماذا وجدت أنا تحت وسادتكما.. زوجتك تسحر لك.. هاهو ذا في يدها!

اتسعت عينا «هاشم» بصدمة لتتجمد «فاطمة» مكانها من تبجُّح المرأة المفترى:

- كنت أتعجب كيف جعلتك تتعلق بها هكذا.. كيف جعلتك كالخاتم في إصبعها.. الآن ظهر كل شيء.. تحت الساهي دواهٍ كما يقولون!

دمعت عينا «فاطمة» من فرط شعورها بالظلم، لكنها لم تحرك ساكنًا.. كعادتها مؤخرًا لم تعد تستند سوى إلى جدار عزلتها.. تتلقى السهام بصبر وتتحاشى السقوط!

بينما تحرك «هاشم» لينظر للشيء في يدها بعدم تصديق.. هو يعرف هذه النظرة في عيني «فاطمة» جيدًا.. نظرة مقهور يخشى أن يتحدث فلا يُصدّق..

- انظر ما ستفعله بها كما تريد.. أما أنا فلن أجلس في بيت الشعوذة هذا ساعة واحدة.. سأعود مع أبيك للبلدة.

هتفت بها أمه تداري مصيبتها، لتغادر الغرفة

بخطوات راكضة، فيما أطاح «هاشم» بهذا الشيء ليسقطه من كف «فاطمة» أرضًا ويسألها:

- هل فعلتِ هذا حقًا؟!

سهمٌ آخر تلقته صامدة لتصمت للحظات قبل أن ترفع إليها عينيه بنظرتها التي صارت تذبحه:

- أنت حقًا تسألني؟!

تقولها بخيبة.. باستنكار.. بوجع ينزف بين الحروف لتردف بابتسامة مرتعشة:

- لكن معك حق.. أنت ما عدت تعرفني كما لم أعد أعرفك.

ضمّ قبضته بقوة والشيطان يغرس بروحه ألف خاطر.. قلبه يصدّق لوعة حروفها، لكن عقله يصرخ به أن هاهي ذي واقفة والدليل في يدها!

لكنها تقطع عليه حيرته عندما تنسحب من أمامه لتستلقي فوق الفراش رافعة فوقها غطاءها حتى رأسها كالعادة تهرب إلى صومعة عزلتها.. فزفر زفرة مشتعلة ورأسه يضج بكل هذه الضغوط.. كاد يذهب نحوها ليعاود الاستفهام منها، لكنه نظر في الساعة المقابلة ليتبين قرب موعده المهم مع «غالية».. لينظر ماذا يكمن خلف تدبيرها ذاك!

لهذا بدّل ملابسه بسرعة ليلقي على جسد «فاطمة» المتواري خلف غطائه نظرة مشتتة قبل أن يغالب نفسه ليتركها.. ويرحل!

* * *

- ماذا تريدين؟!

يقولها «هاشم» بتوجّس أمام «غالية» التي جلست أمامه في بهو أحد الفنادق الفخمة في العاصمة.. لم

تتخلّ عن طراز ثيابها المعهود إذ كانت ترتدي عباءة سوداء ووشاحًا أسود ساترًا.. ومع هذا بدت طلتها المهيمنة بجبروتها المعهود، وكأنها طغت حتى على هيبة مكان فخم كهذا..

- «غالية» لا «تريد».. «غالية» تأمر والجميع ينفذ!

قالتها ببرود صارم انعقد له حاجباه بغضب، فانحنت بجذعها تقترب منه بابتسامة قاسية ناسبت قولها:

- تظن أنك أخذتها من حضني رغمًا عني؟! لو لم أرغب في فعلها لدفنتها بيدي قبل أن يزفوها إليك.

انقبض قلب «هاشم» للقسوة الصريحة في ملامحها، لكنه تمسك بهدوئه الظاهري بقوله:

- لا داعي لهذا الآن.. «فاطمة» الآن زوجتي.. وأطمئنك بأنها سعيدة معي.. لو أردتِ سؤالها..

- أسأت فهمي!

قاطعت بها عبارته بصرامة ليزداد انعقاد حاجبيه، بينما ارتسمت ابتسامة باردة على زاوية شفتها مع استطرادها:

- لم يعد لي شأن بها.. منذ خرجت عن طوعي، ولم تعد لي بها حاجة.

- إذن.. لماذا دبرتِ أمر المطعم هذا؟!

صمتت قليلًا تتلاعب بأعصابه، ثم فجّرت مفاجأتها:

- ستتزوج «غنى».

- ماذا؟!

هتف بها مصدومًا، ليفغر فاه، فابتسمت لتقول

بنبرة غامضة:

- الفتاة تحبك.. حتى إنها حاولت الانتحار ليلة زفافك.. ترفض خاطبيها لأجلك.. لم يعد أمامي حل سوى أن أزوّجك إياها!

- هل تمزحين؟! تظنيني لعبة ستشترينها لقريبتك؟!

هدر بها بغضب لينتفض مكانه مردفًا:

- لن أكمل هذا الهراء.. أنا راحل.

قالها ليعطيها ظهره، فوصله صوتها من خلفه:

- فكّر جيدًا.. أنت تعلم ما الذي يمكنني فعله.. ربما أراعي «العيش والملح» بيننا فلا أوصل الأمور للسجن.. لكن لن أرضى بأقل من أن يضيع منك المطعم كله.. طرقي كثيرة.. ساعتها ماذا ستفعل؟! ستتسول طعامك وطعام زوجتك؟! أم علاج والدك؟!

خفق قلبه بجنون وهو يشعر بأنها كبّلته.. يعلم ما الذي يمكن أن تفعله امرأة بجبروتها.. تمامًا كما يعلم أنه الآن لم يعد كالسابق..

لهذا عاد يلتفت نحوها ليرمقها بنظرة مشتتة سبقت قوله:

- لم يعد فيّ ما يغري قريبتك الساذجة هذه! لم أعد البطل المشهور الذي تملأ صورته المجلات ويتباهى به ذووه.

- أعرف.. لكنها تحبك.. وأنا أريد إسعادها.

- إسعادها بتزويجها من رجل متزوج؟!

- لن تبقى كذلك طويلًا!

قالتها بثقة ليهتف هو بانفعال، بينما يلوح بسبابته:

- إلا هذه! لن أطلق «فاطمة».. أبدًا!

لكنها ابتسمت ذات الابتسامة القاسية لتقول:

- لم أعد أكترث بفاطمتك هذه.. لكن ظني لن يخيب.

صمت قليلًا وقد أسقط في يده فلم يعد يدري بماذا يرد.. لتردف هي بلهجة آمرة:

- سيكون زفافكما في حفل كبير في قريتنا.. لكنني سأخبر الجميع أنك طلقت «فاطمة» هذه، فلن أدعهم يتحدثون أن ابنتي زوجة ثانية.. تولّ أنت أمر إخفاء الأمر عن «فاطمة».. ولا أظن هذا صعبًا، فعهدي بها أنها منعزلة في صومعتها عن الكون كله.

عقد «هاشم» حاجبيه بقوة يفكر.. لن يكون إخفاء الأمر على «فاطمة» عسيرًا حقًا.. فهي لا تختلط

بأحد.. وهو لم يعد محط الأنظار كالسابق.. وحتى لو سمعت الخبر، فيمكنه زعم أنها شائعة.. وهي ستصدقه.. هي دومًا تصدقه!

ضميره يخزه بقوة وهو يشعر بأنه يطعنها في ظهرها لكن ما البديل؟! الجميع يعلمون ما الذي يمكن أن تطاله يد «غالية» المهيمنة!

لهذا أطرق برأسه يفكر أن يطلب منها مهلة للرد.. لكنها كعهدها أرادت أن تكون الكلمة الأولى والأخيرة لها:

- غدًا أنتظر ردّك.. أعرف أنك ستوافق!

* * *

- ماذا؟! ماذا قلتِ؟! «هاشم» يتزوجني أنا؟! لهذا ذهبتِ إلى العاصمة؟!

هتفت بها «غنى» بذهول لتمنحها ابتسامة «غالية» اليقين، فأطلقت صرخة خافتة لتزدرد ريقها مردفة:

- و«فاطمة»؟!

فشردت «غالية» ببصرها لتردّ:

- هو لا يريد تطليقها، لكنها هي من ستطلبها.. أنا أعرف هذا الجانب المتمرد فيها.. لا يظهر كثيرًا لكنه إذا ظهر طغا.

رمقتها «غنى» بنظرة مصدومة وهي لا تكاد تصدِّق.. «هاشم» سيكون زوجها؟! زوجها هي أمام كل أهل القرية؟! هل سيتحقق الحلم بهذه السهولة؟! لا.. لا.. لا يمكن أن يتم الأمر بهذه البساطة.. «هاشم» يحب «فاطمة» ولن يخونها!

- لكن.. هو لا يحبني.

هتفت بها «غنى» بقنوط، لترد خالتها بضحكة ساخرة مكتومة:

- ما زلتِ تتحدثين عن الحب؟! الحب الحقيقي الموجود في هذه الحياة هو حب المرء لنفسه.. القوة الحقيقية هي المال والسلطة.. متى كانت في يدك فالكون كله معها.

قالتها «غالية» وهي تقبض كفها بقوة ليبدو بريق خاتمها بنقش «وجه الأسد» أخاذًا تحت الأضواء.. بينما بدا عدم الاقتناع على وجه «غنى»، لتردد بأنفاس متقطعة:

- لن يفعلها يا خالتي.. لن يخون «فاطمة».. لن يفعلها!

لكن «غالية» التي قست ملامحها أكثر ابتسمت لترد بيقين:

- سأدع الأيام تجيب عليكِ.

* * *

وقفت «فاطمة» في مطبخ شقتهما التي صارت خالية من أبوي «هاشم» بعد مغادرتهما إلى القرية منذ قرابة الأسبوعين..

أسبوعين فقط، لكن حياتها بدت وكأنها تبدلت بعصا ساحر وردية! «هاشم» عاد لطبيعته المحبة القديمة.. يغدق عليها عاطفته واعتذاراته بشتى الطرق.. تراه ندم على سوء ظنه بها؟! أم إن سحر والدته قد فسد برحيلها عن البيت؟!لا يهم.. لا يهم.. المهم أنها عادت معه لجنّة عشقهما وكفى!

صحيحٌ أنها تشعر أن عينيه تتواريان منها كثيرًا خلف غيوم غامضة لا تفهمها.. لكنها تكتفي بدفء وجوده الذي يبدد صقيع خلواتها.. لم تكن تحتاج لاعتذاره كي تصفح.. بل تلقته كأرض جدباء تستقبل

قطرات الغيث بنهَم جائع وترتجي المزيد..

- صباح الخير يا «هندسة»!

صوته الحبيب يصدح خلفها بمرحه المعهود، بينما ذراعاه يحيطان بخصرها، وشفتاه تطبعان هداياهما السخية على عنقها، فتبتسم له هامسة:

- أحلى صباح!

- لماذا استيقظتِ مبكرًا؟!

يغمغم بها بين دفء قبلاته، لكنها تتفلت من بين ذراعيه، لتهتف بصوت عادت إليه حيويته:

- إنه يوم ميلادي.. وأردت صنع كعكة كي نحتفل.. هل نسيت؟!

سؤالها الأخير سبق صفحُه عتابَه كعهدها ترضى

منه بأقل القليل.. لكنه اقترب منها ليعاود ضمَّها بين ذراعيه هامسًا بصدق:

- «فاطمة» لا تُنسى..

ثم استخرج علبة صغيرة من جيب منامته، ليفتحها لها مردفًا:

- كل عام وأنت نور حياتي.

تتسع عيناها بانبهار طفولي مع مرأى الخاتم الثمين ببريقه الأخاذ.. قبل أن تُغرق وجهه بقبلاتها هامسة بعاطفتها الفائرة:

- وأنت معجزتي!

تشعر به يعتصرها بين ذراعيه بجموح عاطفة ذكَّرتها بأيام زواجهما الأولى.. يحملها ليضعها فوق الطاولة وجسده يتلو بين ذراعيها ترانيم عشق

شاركته فيها.. الدنيا تتلون في عينيها بالوردي من جديد بعد طول رمادية.. فلا تدري هل تبتسم فرحًا أم تتوجس خوفًا.. لكنها بين هذا وذاك تتوه في غمار أمواجه مؤْثِرة عدم التفكير..

- لماذا تبكين؟!

يهمس بها أخيرًا لتشعر بنعومة أنامله على وجنتيها، لتفتح عينيها أخيرًا مستعيدة شعورها بالزمان والمكان..

- ما زلتِ غاضبة مني؟!

يهمس بها بندم وهو يحتضن وجنتها براحتيه لتهز رأسها نفيًا بينما ترد:

- كيف تفعل هذا؟! كيف تجعلني بابتعادك فاقدة لكل شيء حتى توازني؟! بينما بلحظة قرب واحدة ترد لي نفسي من جديد؟! أنا لا أحبك يا «هاشم».. ما

بيننا لا يمكن أن يكون مجرد حب.. أنا معجونة بك.. منصهرة فيك.. أنا -ببساطة- أنت.

ابتسامته ترتجف على زاوية شفته بألم غامض لم تفهمه.. يسبل جفنيه، فتقبّل هي عينيه لتهمس:

- تذكر وعود ليلة زفافنا؟!

فيصمت قليلًا كأنه يتذكر، قبل أن يقول بصوت غلب شجنه مرحه:

- أن تبقي جميلة للأبد.

- وألا تضيع مني.. فأضيع من نفسي!

ترتجف بها همساتها اللاهثة، فيعاود إسبال جفنيه بخزي لم تفهمه، ليخفي وجهها في صدره هامسًا:

- أنا أحبك.. مهما حدث بيننا اعلمي أنني أحبك

حقًا.. ربما ليس بقدر ما تحبينني، لكنه بأقصى قدر منحته لأحدهم.. فحبك ملائكي، لكنني مجرد بشر.

عادت عيناها تدمعان من جديد، لترفعهما إليه هامسة:

- أي شيء في الدنيا لا يساوي أماني معك.

فعادت ابتسامته للارتجاف، وهو يبتعد عنها بوجهه، ليتنحنح قائلًا بنبرة أكثر جدية:

- تذكرين الـ«كورس» الذي حدثتِني عنه منذ أيام.. لقد وجدت «أكاديمية» قريبة يمكنكِ الذهاب إليها لتحصلي عليه.

- لكنه مكلِّف نوعًا.

- لا شيء يغلو على «فاطمة»!

تنتهي كلماته بقبلة امتنان منها على جبينه، قبل أن تقفز من فوق المائدة، لتهتف بحماس طفولي:

- لن أخيب أملك فيّ.. فاطمتك ستبلغ أقصى طموحها.. دومًا سأكون الأولى.. أعدك.

شعر بوخزة غيرة -خفية- في صدره وهو يرمقها بذات النظرة المشتتة.. حديثها يداعب الجانب «الأبويّ» الذي يشعر به نحوها، لكنه يطعن في «رجولة شرقية» ترى لنفسه الأحقية أن يكون هو الأفضل دومًا.. لقد تزوجها وهو البطل المشهور وهي مجرد فتاة لقيطة، فكيف يتقبل سهولة انقلاب الأدوار، فيكون هو مجرد رجل، وتكون هي الأكثر تألقًا؟!

صوت رنين الباب يقاطع أفكاره، فيتوجه لفتحه بينما تتحرك هي خلفه بفضول.. لينتفض جسدها بلهفة وهي تميز الجسد الذي دخل لتوه..

«غالية»!

* * *

- أمي! هل صفحتِ عني أخيرًا؟!

تصرخ «فاطمة» بفرحة وهي تلقي بنفسها على صدر «غالية» التي تجمّدت ملامحها بقسوة ناقضت خفقان قلبها بهذا الشعور الذي تأبى الاعتراف به.. حاجتها لهذا العناق الذي افتقدته!

- كنت أعلم أنكِ ستسامحينني.. وتزورينني في بيتي.. لو كنت أعلم..

- بيتك؟!

هتفت بها «غالية»، مقاطعة باستنكار لتجذب كفّ «غنى» الواقفة جنبها، وتردف بصوتها المهيمن:

- إنه بيت «هاشم».. زوج ابنتي.

فابتسمت «فاطمة» لترد باستغراب:

- لا أفهم.

رمقتها «غالية» بنظرة حملت كل جبروتها، لتقول ببطء قاسٍ:

- أنتِ لم تعودي ابنتي منذ كسرتِ كلمتي.. «هاشم» زوج ابنتي.. «غنى»!

تفجّرت القنبلة وسط أربعتهم، ليكون «هاشم» أول من يتقدم نحو «غالية» هاتفًا بحدة وقلبه يرتجف من هذه المفاجأة التي لم يتوقعها:

- لم نتفق على هذا!

لكن «غالية» تجاهلته تمامًا، لتتشبع بصدمة

«فاطمة» التي وقفت ترقبهم بسكون للحظات قبل أن تضحك ضحكة قصيرة لتهتف بهم:

- إنها خدعة.. هكذا قررتم الاحتفال بيوم ميلادي.. صحيح؟!

قالتها لتصفق بعدها بكفيها مع ضحكة أخرى طويلة، لكن الصمت الرهيب الذي ساد بعدها جعلها تعاود التفرس في ملامحهم.. الظفر القاسي المتشح بغرور ملامح «غالية».. الوهن الممتزج بالإشفاق في ملامح «غنى».. وأخيرًا الغضب الهادر المتشح بالذنب في ملامح «هاشم»..

هل هذا حقيقي؟!

- هذه صور زفافهما في قريتنا لو كنتِ تريدين التأكد!

هتفت بها «غالية» وهي تناولها الصور التي لم تكد

«فاطمة» تتفحص أول واحدة منها حتى جذبها «هاشم» من يدها بعنف، ليلقيها جانبًا مع صراخه بها، وهو يحيط ذراعيها بكفيه:

- افهمي ما حدث أولًا.. هي أجبرتني على هذه الزيجة.

- وهل يجبَر الرجال على الزواج كالنساء.. عيبٌ عليك أن تقولها!

هتفت بها «غالية» ببرود لتزيحه جانبًا، بينما تمسك كتفي «فاطمة» المصدومة لتهزهما بقوة مردفة:

- ألم أحذركِ يومًا أن رهانك خاسر؟! بعتِ أمك وكسرتِ كلمتها لأجل من؟!

ثم تركتها لتتوجه نحو «غنى» التي وقفت مرتجفة الجسد، ودموعها تسيل على وجنتيها، لتهزها بنفس الطريقة هاتفة:

- وأنتِ؟! ألم أخبركِ ألا يوجد هناك ما يدعى «حب».. وأن جبروت «غالية» دومًا ينتصر؟!

- كذب.. كذب.. كلكم تكذبون.. «هاشم» لن يفعل هذا بي أبدًا!!

صرخت بها «فاطمة» بانهيار وقد بدأت تدرك ما يدور.. عقلها بل جسدها كله يرتج بإدراك ذكرى تلك المرة منذ بضعة أيام عندما أخبرها أنه سيسافر لوالده؛ لأنه مريض، ويقضي معه ليلته.. ليلته هذه التي قضاها مع.. مع.. مع «غنى»!!

توجه نحوها «هاشم» ليضمها محاولًا تهدئة جسدها الذي ينتفض كالمحمومة، وصوت صراخها اللاهث يصم أذنيه:

- اهدئي يا «فاطمة» وافهمي أولًا.. هي هددتني بأن يضيع المطعم من يدي.. والسجن! كانت ستسجنني..

علاج أبي.. «فاطمة».. لم أقصد.. كنت...

كلماته كانت مبعثرة مشتتة يزيدها صراخها تمزقًا وهي تتلوى بين ذراعيه تسد أذنيها بكفيها معًا، وتغمض عينيها بقوة مع صراخها:

- لا أريد أن أسمع.. لا أريد أن أرى.. كلكم كاذبون.. أعيدوني لغرفتي.. لفراشي.. لغطائي.. لا تدعوني..

لتنقطع كلماتها مع تقطع أنفاسها أخيرًا، وسقوطها فاقدة للوعي بين ذراعيه..

* * *

- عساكِ الآن راضية!

قالتها «غنى» ببرود كسير وهي تقف مع «غالية» في بيت الأخيرة الذي عادا إليه.. لترمقها «غالية» بنظرة صامتة طويلة سبقت قولها:

- ألم أزوجكِ الرجل الذي تحبينه؟! ألم أقِم لكِ زفافًا ظلت البلدة كلها تتحدث عنه؟! ألم تشعري لأول مرة في حياتك أنكِ صرتِ أفضل من «فاطمة» وأنكِ نلتِ شيئًا يخصها؟! ماذا تريدين أكثر؟!

فارتعشت ابتسامة مريرة على شفتي «غنى» وهي تردد خلفها:

- حقًا.. ماذا أريد أكثر؟!

قالتها وهي تسترجع ليلة زفافها الكئيبة.. كيف بدا «هاشم» وقتها وكأنه لا يطيق النظر إليها.. كانت ترتدي أفخم ثوب زفاف رأته في حياتها.. تحمل أجمل طلّة رأت نفسها فيها.. وتنظر إليه بكل الحب الذي ادخرته له منذ خفق قلبها له.. لكنه لم يكن يرى كل هذا.. بل كان شاردًا ساهمًا مطرق الرأس كمن فقد عزيزًا.. حتى عندما اختلى بها في بيتهما الجديد الذي هيأته لهما «غالية» قريبًا من بيتها لم يبدُ وكأنه

يراها.. بل تركها تبدل ثيابها في غرفتهما ليقضي ليلته وحده -بكامل ثيابه- في صالة البيت متكئًا على الأريكة يرمق السقف بشرود، بينما تراقبه هي خفية من خلف باب غرفتها تنتظر أن يأتيها.. ولم يأتِ!

أجل.. غادر صبيحتها دون أن يحدّثها بكلمة، ودون أن تجرؤ هي على أن تقترب أكثر!

- اقتنصي فرصتك واكسبي قلب زوجك.. مظهرك البائس هذا لن يجتذبه.. اطرقي الحديد وهو ساخن واجعلي كفته تميل إليكِ.

هتفت بها «غالية» بصرامتها المعهودة لتهتف «غنى» بانكسار:

- و«فاطمة»؟!

- تدّعين الآن شفقتك عليها؟! لماذا وافقتني إذن

من البداية؟!

هتفت بها «غالية» بقسوة لتمسك ذراع «غنى» بقوة مردفة:

- اسمعي يا فتاة.. لا أمقت في حياتي قدر الضعف والتردد.. هذه فرصتك الأخيرة لتعيشي حياة طبيعية كبقية البنات.. ولو لم تستغليها لعدتِ إلى بيتي مجرد بضاعة كاسدة لن يقبل بها أحد.. ضعي كلامي هذا حلقة في أذنك وإلا فلا تلومي إلا نفسك!

قالتها لتدفعها ببعض القسوة، قبل أن تصعد الدرج نحو غرفتها التي أغلقت بابها خلفها، لتسمح أخيرًا لقناع قوتها أن يتشقق فتبدو من خلفه خيوط ألم خفية تجاهلتها.. «نشوة الظفر» تسري في عروقها فتمنحها شعورًا فائرًا بالقوة.. لكن بقايا واهنة من إنسانيتها كانت تصارع لتطفو على السطح..

- نفذتِ ما برأسك وخربتِ حياة البنتين؟!

هتف بها طاهر بنبرة غريبة وهو يتطلع إليها من فوق فراشه بنظرة غامضة لترمقه بنظرة عاصفة سبقت قولها:

- دعك في شأنك..

كان من الممكن أن تكتفي بعبارة كهذه في الظروف العادية، لكنها وجدت نفسها تتقدم منه لتقول وكأنها تخاطب -ضميرها- لا تخاطبه هو:

- أنا لم أخرب حياة أحد.. أنا عرّيت لكل منهما الحقيقة كي تراها دون رتوش.. جعلت «فاطمة» ترى أن رهانها على الحب وحده خاسر.. لو كان «هاشم» يحبها حقًا لأخبرها بالحقيقة قبل أن يقدم على الزواج.. لبحث عن ألف حل قبل أن يرضخ لطلبي ببساطة.. لكنه استسهل.. اعتبر تضحيتها حقًا مكتسبًا.. أما «غنى» فقد منحتها فرصة تحقيق الحلم.. «هاشم» كان لها هوسًا، فأردت أن أقربه منها

كرجل لترى بعينيها ميزاته وعيوبه، وتقرر هل تريد الاستمرار معه أم تنجو بحياتها من هذا كله!!

ابتسامة ساخرة شقّت وجه «طاهر» الذي قست ملامحه وهو يقوم ليغادر الفراش نحوها قائلًا بعينين متّقدتين:

- بل أردتِ أن تثبتي لهما ولنفسك قبلهما أن جبروت «غالية» هو ما ينتصر دومًا.. عاقبتِ «فاطمة» على عصيان أوامرك، وجلبتِ لابنة شقيقتك الرجل الذي تحبه كأنما تبتاعين لها دمية.. أعجبتك لعبة التحكم في مصائر الناس كأنك تضعين يدك على رقابهم!

الدمع «العزيز» يترقرق في العينين القاسيتين، لكنها ترد بصرامة:

- «غالية» لا تنسى ثأرها.. وكلمتها لا تكسَر.

- خافي من نفسك على نفسك.. لا يقع إلا «الشاطر» كما يقولون.

قالها بنبرة غامضة ليرمقها بنظرة أخافتها حقًا.. أخافتها كما لم تفعل من قبل.. لكنه غادرها بخطوات سريعة قبل أن تطالبه بتفسير..

* * *

في مكانها المستحدث بالحديقة على حافة حوض الزهور تجلس «غنى» ترمق شمس الغروب بأسى.. كيف ظنَّت أنها ستكون سعيدة عندما تنتزع من «فاطمة» فرحتها؟! كيف حسبت أن امتلاك رجل سيكون بإرغامه على الزواج منها؟! بل كيف باعت مبدأها وهي التي تمنت رجلًا تكون بقلبه ملكة لا جارية.. ثم وجدت نفسها تتحرك كالمغيبة خلف خطوات خالتها.. فهل يكون لها نفس مصيرها؟!

- ويجاا.. ويجاااا..!! سيف الضحية أقسى من

سيف الجلاد.. ومن يلوم الذبيح لو للثأر عاد؟! عجلة تدور فتزل قدم بعد قدم.. والمنجل الأعمى لا يميز دمًا عن دم..!!

- «سليمان»!

تهتف بها «غنى» بلهفة قبل أن تتردد وهي ترى نظراته العاتبة، فتقف لتتقدم منه والذنب يحفر أخاديده في وجهها..

- أريد أن أتكلم معك.

يرمقها بنظرة متفحصة ليجلس في مكانه المعهود مطرقًا برأسه، فتعاود الجلوس بدورها لتقول بصوت مختنق:

- لا أجد غيرك أبوح له بمّا بداخلي.. الآن فقط أفهم لماذا كانت «فاطمة» تخصك بأسرارها..

انهمرت بعدها دموعها على خديها لتردف بينها بكلمات متقطعة:

- أعرف أنك لو علمت الحقيقة فستلومني.. لكن.. من يلوم المرء لو وجد حلمه فجأة أمامه فمد إليه يده؟! أنا بشر.. بشر ولست ملاكًا..

لم يحتجْ لسماع الحقيقة التي تحكي عنها فقد أدرك ببصيرته ما كان.. لهذا خبط الأرض بعصاه بحركته الرتيبة قائلًا:

- أنتِ لم تمدي لحلمك يدًا.. أنتِ سرقتِه دون حق.. وشتان بينهما!

شعرت بالرهبة منه للحظات كعادتها مع نبوءاته التي لا تدري من أين يأتي بها، لكنها لم تملك أن تهتف به بيأس:

- أشعر أنني تائهة.. واقفة في منتصف الطريق.. لا

يمكنني التقدم ولا الرجوع.

لكنه عاد يقف ليعطيها ظهره وقد تأكد مما كان يجول بخاطره منذ سمع عن زفافها لـ«هاشم».. ولم يكد يتحرك بضع خطوات حتى لحقت به لتستوقفه بقولها:

- ماذا أفعل؟!

لكنه هزّ رأسه ليقول قبل أن يتركها خلفه:

- ما دمتِ تستلذين بـ«ثوب الضحية» فلا تلومي إلا نفسك.. يوم تخلعينه ستعلمين حقًا ما الذي يمكنك فعله!

* * *

- سأقتله يا «سليمان».. سأقتله!

هتف بها «صاحب الظل» بغضب هادر وهو يدور حوله بعجز زاد غضبه بينما يردف:

- عندما سمعتكم تقولون إنه طلق «فاطمة» ليتزوج قريبة «غالية» هذه جنّ جنوني.. سألت نفسي أين عساها تذهب؟! ولمن؟! سافرت للعاصمة حيث بيته، وسألت بواب بنايته؛ لأتأكد أنه لم يطلق «فاطمة» بعدُ.. ورأيتهما معًا يا «سليمان».. رأيتها تخرج معه من البناية، وتبتسم له وكأن الغافلة لا تعلم.

لكن «سليمان» ظل يخبط الأرض بعصاه قائلًا بخفوت:

- فعلتها «غالية».. لفّت حبلها حول أعناق الجميع كعهدها!

- فلتحترق «غالية» وكل ما يخصها.. ما يعنيني هو «فاطمة».. الوغد يخونها!

هدر بها صاحبه، ليتنهد «سليمان» قائلًا:

- خيانة رحيمة.. هي على الأقل لا تعرف.. الوهم أرحم من الحقيقة أحيانًا.

- وهل سنتركها هكذا تحت رحمة وهم؟!

- اطمئن.. «غالية» لن تتركها طويلًا.. هي ما فعلتها إلا لتكسرها.. وأظن سفرها الأخير كان لهذا الشأن.

- يا إلهي! تعني أنها الآن قد تكون عرفت!! لن أطيق صبرًا.. سأذهب إليها يا «سليمان».

هتف بها صاحبه بجزع ثائر، ليوقفه «سليمان» بقوله:

- تعقَّل يا رجل.. بأية صفة وبأية هوية ستواجهها؟! لا تدع جنون عشقك يدفعك لنكأ جروحها أكثر! كفاها ما هي فيه!

كان جسد الرجل يرتجف بانفعاله وعيناه محمرتان غضبًا، لكنه قبض كفيه عجزًا ليغمغم بحرقة:

- تدري كيف سيكون حالها لو علمت أن الرجل الذي باعت الدنيا كلها لأجله غدر بها؟! بمن ستحتمي وهي لا ملجأ لها؟! لن يكون أمامها إلا أن تحتمل قهرًا.. هل ستتركها تموت حية معه؟!

لكن «سليمان» عاد يضرب الأرض بعصاه، ليرفع وجهه للسماء مراقبًا القمر الذي تحرك ليختفي خلف غيومه:

- صبرًا يا بنيّ.. صبرًا.. أوشكت القافلة أن تضع رحالها.. وينال كل ذي حق حقه!

* * *

الهالة الثالثة عشرة

(معجزة آلت للعنة!)

بعدما تهدل أحد كتفيك بالخيانة تريد إقناعي أن الآخر سيبقى يدعمني؟!

تظنني أرضى؟! حاشايَ! أنا ما عشقت «نصف رجل»!

* * *

- بالله عليكِ يا «فاطمة» قومي.. ردّي عليّ.. فقط افتحي عينيكِ واسمعيني.. ليس الأمر كما تظنين!

تسمعه بين غياهب ذهنها فلا تكاد تميز صوته.. كل ما تسمعه هو صوت «غالية» الشامت.. و«غنى»

الخانع.. وصرخاتها هي.. صرخاتها التي انحبست داخل حلقها لتنفجر شظاياها في روحها!

- حبيبتي.. أقسم لكِ أن الزواج صوري.. لم أمسَّها.. إنني حتى لم أحدِّثها.. كنت مُجبرًا يا «فاطمة».

يهتف بها بانفعال وهو يهز جسدها الساكن على الفراش كجثة؛ لعلها تستجيب، لكنها لم تفتح حتى عينيها.. فقط دموعها الخائنة أخبرته أنها تسمعه..

- قومي يا «فاطمة».. انهضي.. سنصلح كل شيء معًا كالعادة.. سنفكر سويًا في حل يرضيكِ.

«نصلح».. «نفكر».. «سويا»..؟!

ألا يزال حقًا من الممكن أن يجمعنا أي شيء ولو «ضمير»لغة؟!

حديث نفسها يجفُّ على الشفاه المرتجفة، فلا

يصله منها شيء إلا تمتمة مبهمة جعلته ينكب فوقها ليحتضنها بقوة هاتفًا:

- ماذا تقولين؟! ارفعي صوتك.. أريد أن أسمعك.. ثلاثة أيام وأنتِ في هذا الحال.. تكلمي.. اشتميني.. اصرخي فيّ.. افعلي أي شيء إلا صمتك هذا.

أجل.. سأفعل يا «هاشم».. سأفعل!

يشعر بها أخيرًا تتحرك بين ذراعيه لتفتح له عينيها.. نظرتها تتحاشاه لما حوله.. تدفعه عنها لتقوم وتغادر الفراش بخطوات مترنحة حاول مساعدتها فيها، لكنها دفعته برفق معترضة قبل أن تتحرك نحو الحمام القريب الذي أغلقت بابه.. فبقي هو خلفه يناظره بقلق.. يسمع صوت الماء المنهمر بالداخل، فيزدرد ريقه بتوتر.. لا بأس.. على الأقل هي أبدت مظهرًا من مظاهر الحياة بعدما ذبحته بردّة فعلها الساكنة طوال الأيام الثلاثة الماضية.. سمع صوت

ارتطام ما فوقع قلبه بين قدميه ليفتح الباب بسرعة فتتسع عيناه بصدمة من مرآها.. كانت ترتدي كامل ثيابها تحت سيل المياه المنهمرة من حوض الاستحمام.. وتخبط رأسها في الحائط الذي تتشبث به كفاها بقوة وبوتيرة رتيبة، فتنبعث منها أنّات تمزق القلب..

- يا ربي! ماذا تفعلين؟!

يهتف بها وهو يتقدم ليغلق صنبور المياه، ويحاول منعها من إيذاء نفسها، لكنها عاودت فتحه لتشير نحو صدرها مغمضة العينين متمتمة بخفوت:

- نار.. هنا.. نار.. دعني أطفئها!

جذبها نحو صدره متأوهًا بألم، لتغرقهما المياه معًا، لكنها دفعته عنها بعنف غريب على طبيعتها الخانعة، لتعطيه ظهرها وتحتضن نفسها بذراعيها، فيدرك وقتها بارتياع أن ما كُسِر بينهما قد لا ينصلح!

* * *

تجلس على الكرسي في شرفة بيتهما تراقب الليل الغريب الذي خلا من نجومه.. تشعر به يرفع عليها غطاء يدثرها بعد استسلامها لنوبة سعال قصيرة.. ثم يمد يده إليها بمشروب دافئ مع قوله:

- أليس من الأفضل أن تدخلي كي لا تصابي بالبرد؟!

لكنها ترمقه بنظرة عميقة ثم تخفض بصرها ليده الممسكة بالكوب دون أن تتناوله منه، لتغمغم بفتور ساخر:

- تخاف عليّ؟!

يضع الكوب جانبًا ليهتف بها بانفعال أجّجته الأيام السابقة:

- تعلمين الجواب يا «فاطمة».. أخبرتك أنني كنت مضطرًا.. أنتِ تعرفين «غالية» أكثر مني.

- أنت حتى لم تخبرني.. لم تمنحني أي خيار.

بنفس الفتور الساخر الذي وجده غريبًا على طبيعتها الوديعة تقولها ليجد نفسه يردّ بثورة أكبر:

- أي اختيار؟! وماذا كنتِ ستفعلين لو عرفتِ؟! هل كنتِ ستمنعينني قسرًا وتتركيني أخسر مصدر رزقي الوحيد؟! أم كنتِ ستقفين أنتِ في وجهها؟! افهمي إذن.. علمكِ وقتها لم يكن ليغير شيئًا.

- لكنه الآن يغير كل شيء!

- ماذا تقصدين؟!

يسألها بتوجُّس لترفع أصابعها الرقيقة أمام عينيها،

وتشرد فيهما مغمغمة:

- كلكم استضعفتموني؛ لأنني بلا «أظافر».. لم أؤذِ أحدًا يومًا.. كلكم أهدرتم دمي واستبحتم أقل حقوقي.. كلكم زعمتم لي حبًا دهستموه تحت أقدامكم في أول اختبار حقيقي.. «غالية» التي رمتني وراء ظهرها عند أول موقف طالبت فيه بحق قلبي في الاختيار.. وأنت.. أنت الذي طعنتني في ظهري بدعوى أنك مُجبر.. نسيت أنني ضحيت لأجلك بكل عالمي قبلك.. نسيت؟!

هنا صرخ هو فيها بحدة أجفلتها:

- ما دام هو وقت استعراض الفضائل، فأذكّركِ بأنكِ من نسيتِ! نسيتِ أنني تحديت العالم كله لأجلك.. نسيتِ أنني كان من الممكن أن أتزوج من تفوقك مالًا ونسبًا.. بل ونسيتِ أن عاهة قدمي هذه كانت بسببك.. والآن تحاسبينني على جبروت من تدّعينها

أمك؟!

ثم انحنى فوقها فجأة لتشتعل عيناها بلهيب نظراته، بينما يردف:

- من بنا إذن كان لعنة الآخر أنا أم أنتِ؟!

ورغم أن هيئته في نور الشرفة الخافت مع هذا الغضب المستعر الذي يشحن الجو حولهما كان ليثير خوفها في أي وقت آخر، لكنها الآن لم تكن تشعر سوى بـ«نار» تحرق أحشاءها من الداخل و«صقيع» يغلف ملامحها من الخارج، لهذا انفرجت شفتاها عن كلماتها المتثاقلة:

- إذن.. يتخلص كل منا من لعنة صاحبه!

- ماذا تقصدين؟!

- طلِّقني!

الصوت الرهيب للفراغ حولهما يصم أذنيها للحظات، قبل أن تراه يبتسم ابتسامة عصبية وهو يعاود الاستقامة بجسده لينظر إليها من علوّ قائلًا باستهانة:

- أطلّقك؟! علمتِ الآن أنكِ حقًّا لا تجيدين فهم اختياراتك؟! من لكِ لو طلقتكِ؟! لأين تذهبين؟!

- للشارع الذي جئت منه.

عبارتها الذبيحة تطحن قلبه طحنًا، وتجعل صوته يرتعش بقوة شعوره:

- أنتِ لي.. ملكي.. أنا أحبك.. هذه هي الحقيقة التي لن تتغير.

لكنها أغمضت عينيها لتقول بحسم:

- حقيقتي أنا تغيرت.. لم أعد أريدك!

أثارت عبارتها جنونه، وهو يراها بعين «شعوره بالنقص» ليعاود انحناءه فوقها، فيجذبها نحوه من ذراعيها هادرًا بانفعال:

- اليوم ما عدتِ تريدينني؟! ما عدت «معجزتك» التي كنتِ تتباهين بها؟! صرتُ مجرد رجل عادي وأنتِ المهندسة «الأولى» دومًا التي ينتظرها أعظم مستقبل؟!

- ما دمت ترى الأمر هكذا.. فهو هكذا.. لم أخالفك يومًا في رأي.

برود عبارتها ينتهي بصفعته لها على وجنتها!

صفعة صرخت لها «روحها» قبل «شفتيها».. وغضب لها «قلبه» قبل «كبريائه».. هل صفعها حقًا؟! هل فعل هذا بفاطمته ابنة قلبه؟!

الإدراك الأخير يجعله يجذبها بقوة ليغمرها في صدره.. يخفي وجهه في طيات عنقها وشفتاه تحملان لها اعتذارًا عجز عنه لسانه.. كما عجز عنه «صفحها»!!

لهذا دفعته بكل ما أوتيت من قوة، لتهتف به بتنمُّر شرس يراه منها لأول مرة بهذه الحدة:

- ستطلقني يا «هاشم».. لن أبقى على ذمتك يومًا واحدًا بعد الآن..

- ولو لم أفعل!

يقولها بانفعال ليفاجأ بها في الثانية التالية تعتلي سور الشرفة، لتهتف وهي تحرك جسدها برعونة:

- سأقتل نفسي.

ارتجَّ قلبه بجزع وهو يتبين صدق نيتها، خاصة أنها لم تكن في حالتها الطبيعية، فتقدم نحوها خطوة مهدئًا، لكنها عادت بظهرها للخلف في وضع خطير، جعله يصرخ بها وهو يمد نحوها ذراعيه:

- انزلي يا «فاطمة».. نحن في الطابق العاشر.

- توقف مكانك وإلا.. سأرمي نفسي.

فازدرد ريقه بتوتر والعرق يغرق جبينه، ليهتف بها مهدئًا:

- حسنًا.. سأنفذ لكِ ما تريدين.

- ستطلب المأذون.. حالًا.

بصوت مرتجف رغم قوته تقولها ليومئ برأسه برعب وعيناه تتعلقان بجسدها الذي لو أفلت توازنه لثانية فستكون نهايتهما معًا..

- سأطلقك كما تريدين.. لكن.. بالله عليكِ انزلي.

ظلّ قلبه يرجف بجنون حتى بعدما اطمأن لاستقرار قدميها على الأرض، وما كادت تفعل حتى اندفع نحوها ليحاول ضمّها إليه، لكنها أوقفته بكفّ مرتجف لتهتف به بين لهاث أنفاسها:

- لا تراجُع يا «هاشم».. طلاقي منك أو موتي.. اختر أنت!

* * *

تجلس «غنى» على فراشها في بيت «غالية» الذي عادت إليه مؤخرًا.. ما حاجتها لبيت فخم تكون وحدها فيه؟! بيت ظنَّته سيكون الحلم المنتظر، لكنها وجدته قفرًا خربًا!

«هاشم» الذي يبدو وكأنه لن يقبلها في حياته أكثر

من كونها «اسمًا رسميًا» على بطاقة هويته.. لكن هل تلومه؟! هل تجرؤ أن تفعلها خاصة بعد ما حدث من «غالية»؟!

ليته فقط يحدثها.. ليته يسمعها فيفهم أنها ليست راضية عن زواجهما بهذه الطريقة.. إنها فقط أرادت فرصة.. فرصة واحدة كي تعيش حلمًا به كان أجمل شيء تمنَّته.. فرصة واحدة تشعر بدفء حنانه هذا الذي يحكون عنه.. فرصة واحدة تخبره بأنها راضية أن تشاركه فيها «فاطمة».. لكن ليسمح لها فقط أن تتذوق «الثمرة المحرمة» التي يهفو إليها قلبها!

فرصة تظنه لن يسمح بها أبدًا.. لكن.. ماذا لو سعت إليها هي؟!ماذا لو ذهبت إليه وتخلصت من قيود خجلها وضعفها لتقترب خطوة منه لعله يجزيها عنها خطوة بدوره؟!

نعم.. ستفعلها!

بقايا من كبريائها تزجرها، لكنها تتشبث بخيوط من أمل في شمس حب تبدد هذا الصقيع الذي تحياه.. ابتسامة واهنة تكلل شفتيها وهي تتوجه نحو خزانة ملابسها.. تتضرَّج وجنتاها بحمرة خجل، وهي تدور بأناملها على ثيابها فتختار أحدها.. تخلع عنها منامتها لترتديه، لكنها تتوقف قليلًا أمام مرآتها بقميصها الخفيف.. جسدها النحيل فقير الأنوثة يُشعرها بالمزيد من الخزي.. تقترب أكثر من المرآة فتدهشها هذه «الهالات السوداء» حول عينيها!!

عجبًا.. متى ظهرت هذه؟! هل انتقلت «لعنة فاطمة» إليها؟! هل هو عقابها؛ لأنها ظلمتها؟!

ضميرها يذكي الخاطر الأخير، لكنها تحاول نفضه عنها بقوة.. «سليمان» نصحها أن تنفض عنها «ثوب الضحية الخانعة».. وهي ستمتثل لنصيحته.. لعلها تنقذ غدها من أمسها!

الفكرة الأخيرة تمنحها المزيد من الحماس، لتعود نحو خزانة ملابسها، لكنها ما كادت تفعل حتى وجدت باب غرفتها يفتح ليطل منه وجه «غالية» وعبارتها تكسر لها أجنحتها الوليدة:

- «هاشم» طلق «فاطمة»!

* * *

ظلت ترمقها بنظرة مصدومة لدقيقة كاملة حتى كادت تكذِّبها، لكن نظرة الظفر القاسية على وجه «غالية» لم تكن لتخطئها عينها.. لهذا تلعثمت حروفها بقولها:

- طلقها؟! بهذه السرعة؟! كيف وافق؟! هل أجبرتِه على هذا أيضًا؟!

لكن ابتسامة «غالية» الغامضة اشتعلت بوهج عينيها مع كلماتها:

- بل فعلتها «فاطمة» كما توقعت.. أخيرًا أدركت أن رهانها خاسر.

شحبت ملامح «غنى» بقوة وهي تتشبث بباب خزانتها تواري خلفه جسدها وهي تشعر بـ«العري» كما لم تفعل من قبل.. ليس فقط عري جسدها، بل عري إنسانيتها كذلك.. «هاشم» طلّق «فاطمة».. فأين عساها تذهب بعدها؟! وبمن تحتمي؟!

خاطرها الأخير تترجمه شفتاها لكلمات متبعثرة تنتهي بعبارتها:

- لا ريب أنها ستعود إليه.. «ساعة غضب» و...

- حمقاء!

قاطعت بها «غالية» عبارتها لتهتف:

- لا تفهمين «فاطمة» جيدًا.. على عكس وجهها اللين الخنوع تخفي روحًا متمردة بجسارة لو أطلقتها لسحقت كل من يقف في طريقها.

رمقتها «غنى» بنظرة حائرة وهي تشعر أنها لا تفهمها.. حروف «غالية» تقطر فخرًا، كأنما هي سعيدة أن «فاطمة» حقًا بهذا الوصف.. كأنما هذه هي «ابنتها» التي أرادت.. لكنها مع هذا تقطر وجعًا كأنما تنعي فقدها!

- لو طلبت العودة إلى هنا.. فستسمحين لها؟!

تسأل خالتها بحذر، لتبتسم «غالية» ابتسامة غامضة وهي تردُّ بغرور:

- أين عساها تذهب سوى إلى هنا؟! أنا.. أنتظرها!

قالتها لتغادر الغرفة دون المزيد، تاركة «غنى» خلفها تنتفض من فرط شعورها أن الأيام القادمة

ستحمل لها إعصارًا قد يقلب حياتها رأسًا على عقب!

* * *

- كيف حالك يا ابني؟! بخير؟!

يسأله أبوه بإشفاق وهو يجلس على فراشه في بيته بالقرية، والذي استقر «هاشم» على طرفه ليجيبه بأسى ما عاد يفارق ملامحه:

- لا خير بعدها.. لا خيرا!

فتنهّد الرجل ليعاود سؤاله بإشفاق عاتب:

- لماذا هاودتها على الطلاق؟! ظننتك لن تفعلها أبدًا!

- خشيت أن تؤذي نفسها.. قلت في نفسي إنها لن تبتعد كثيرًا فليس لها غيري.

- لهذا أذللتها؟! هل هذا عهدنا بـ«بنات الناس» يا «هاشم»؟!

- بنات الناس؟! ابنة «غفران» صارت من «بنات الناس»؟!

تهتف بها أمه بشماتة متهكمة، وهي تدخل من الغرفة لتوِّها، مستمعة عبارة زوجها الأخيرة لينتفض «هاشم» مكانه صارخًا بها:

- كفى يا أمي.. كفى ظلمًا.. لن أسمح لكِ بكلمة واحدة تمسُّها!

- تصرخ بي يا «هاشم»؟! بالتأكيد.. «سحرها» لا يزال يؤثر عليك!

هتفت بها أمه باستنكار ليرد بانفعال:

- هل صدَّقتِ الكذبة التي افتعلتِها؟! أنا أعلم من

يومها من الذي جاء بذاك الشيء لبيتي.. لكنني لم أرد أن أكذِّبك وقتها أمام «فاطمة»؛ حفاظًا على صورتك.

ارتجّ عليها فلم تستطع النطق بكلمة، بينما هو يردف بتهكم مرير:

- ارتاحي وقري عينًا إذن.. ها هي ذي اختفت من حياتي.

لكنها لوَّحت بكفها لتهتف وقد أخذتها العزة بالإثم:

- بالطبع سأرتاح وأوزع «الشربات» على البلد كلها.. هذه الفتاة لم تكن تصلح لك.. احمد الله أنك قد تخلصت منها.. واهتم بزوجتك.

- زوجتي؟!

بدا «هاشم» مصدومًا من كلمتها، كأنه نسي حقًّا أنه قد تزوج «غنى»، لتهتف به أمه بغيظ:

- نعم.. زوجتك التي تركتها خلفك كـ«البيت الوقف».. زوجتك التي تليق بك عائلة ونسبًا.. لا أدري أين عقلك يا «ابن بطني» وأنت تعمى عن قطعة الذهب لأجل قطعة صفيح!!

- أم «هاشم»!

صيحة زوجها الهادرة تمنعها المزيد، ليصيح بها الرجل بنبرة متوعدة:

- قسمًا بالله العظيم لو تدخلتِ في حياته من جديد لتكونين حرامًا عليّ!

شهقت المرأة بارتياع ليردف الرجل وهو يخبط كفًا بكف:

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! تسحرين لابنك؟! ابنك؟! ألم تخافي عليه؟! ألم تخافي من

خالقك؟! امشي الآن.. اغربي عن وجهي.. اتركيني مع ابني وحدي.

هدر بها بعنف لترتجف المرأة بخوف وتغادر الغرفة، ولم تكد تفعل حتى تنهدت بقوة.. ثم تحولت ملامحها لسعادة خفية وهي تهز رأسها متمتمة برضا:

- بركاتك يا «شيخة».. ابني عاد إليّ!

فيما كان «هاشم» مطرقًا برأسه أمام والده الذي عاد يسأله باهتمام:

- وأين «فاطمة» الآن؟!

- لا أدري.. لم أرها منذ تلك الليلة التي طلقتها فيها.. لكنني أعلم وجهتها.. لا ريب أنها ذهبت لـ«غالية».

وكأنما استحضرها بذكره ليرن هاتفه باسمها، فزفر بقوة ليفتح الاتصال ويصله صوتها الصارم:

- لم أزوجك ابنتي لتقضي معها ليلة وتتركها خلفك تلوك الناس سمعتها.. علمت أنك وصلت البلدة.. كما علمت أنك طلقت زوجتك.. لم يعد هناك ما يشغلك عن ابنتي إذن.. سأنتظرك لتأتي وتأخذها لبيتكما.. لا تتأخر!

* * *

- سأجنّ يا «سليمان»! أين عساها ذهبت؟! أربعة أشهر منذ طلقها ذاك الوغد ولم تظهر!

هتف بها «صاحب الظل» بصوت أرجفه انفعاله الذي شاركه فيه «سليمان»، وهو يرفع وجهه للسماء بما بدا كدعاء قبل أن يسأله بقلق:

- هل بحثت عنها جيدًا في العاصمة؟!

- في كل مكان قد تذهب إليه.. حتى كليتها.. لا أحد

- لم أزوجك ابنتي لتقضي معها ليلة وتتركها خلفك تلوك الناس سمعتها.. علمت أنك وصلت البلدة.. كما علمت أنك طلقت زوجتك.. لم يعد هناك ما يشغلك عن ابنتي إذن.. سأنتظرك لتأتي وتأخذها لبيتكما.. لا تتأخر!

* * *

- سأجنّ يا «سليمان»! أين عساها ذهبت؟! أربعة أشهر منذ طلقها ذاك الوغد ولم تظهر!

هتف بها «صاحب الظل» بصوت أرجفه انفعاله الذي شاركه فيه «سليمان»، وهو يرفع وجهه للسماء بما بدا كدعاء قبل أن يسأله بقلق:

- هل بحثت عنها جيدًا في العاصمة؟!

- في كل مكان قد تذهب إليه.. حتى كليتها.. لا أحد

يعرف عنها شيئًا.. كأنها فصّ ملح ذاب!

هتف بها صاحبه ليمرر أصابعه بقوة في خصلات شعره كادت تقتلعها مردفًا بانفعال:

- أخشى أن تكون قد آذت نفسها!!

- أما أنا.. فأخشى شيئًا آخر..

يقولها «سليمان» بغموض وهو يخبط الأرض بعصاه، لينحني صاحبه نحوه هاتفًا:

- لا تنقصني ألغازك يا «سليمان».. أخبرني ماذا تقصد.. أنا أكاد أفقد عقلي خوفًا عليها.. هل تعلم أين يمكن أن تكون؟!

لكن «سليمان» عاد يرفع بصره للسماء برهبة قبل أن يتمتم:

- لن أستبق حكم القدر.. عساه يخيب ظني.. عساه يخيب!

* * *

وقفت «غنى» في صالة بيتهما تراقب وجه هاشم الذي دفنه بين كفيه بألم.. جلسته التي باتت تكرهها على الأريكة كل ليلة يقضيها هنا معها حتى يغلبه النوم هناك.. قلبها يتمزق وهي تشعر بقلقه على «فاطمة» يفني روحه.. حتى إنه أهمل مطعمه ولم يعد يفعل شيئًا إلا البحث عنها.. تمامًا كـ«غالية» التي تفعلها سرًا دون أن تبوح لها لكنها تعلم.. تعلم أن كليهما يترقب ظهورها بلهفة كي تعود له روحه.. وإن كان دافع «غالية» هو جبروتها الذي تود نصرته بعودة «فاطمة» نادمة.. لكن دافع «هاشم» أقوى من أن ينكره راءٍ!

نفضت الخاطر الأخير عن ذهنها وهي تشعر به

يثبطها عما تتهيأ له.. حان الوقت لتأخذ فرصتها.. «فاطمة» اختفت.. لكنها هي موجودة.. تريد فقط أن يراها.. أن يستمع إليها..

خطواتها تتهادى إليه مع نسيم عطرها الواهن الذي يشبهها.. فيرفع إليها عينيه الشاردتين بنظرة خاوية.. طالما بدت له كشبح.. شبح مخفي في الظل لا يريد أن يفسح له مجالًا في النور.. مجرد دمية بلاستيكية الأداء! طالما شعر بالتحفظ نحوها من حكايات «فاطمة» القديمة له عنها.. من غيرتها منها.. ومن الجفاء الذي فرض نفسه بينهما.. لكن هذا التحفظ الآن يستحيل لنوع من الكراهية وهو يراها لعنة دخلت حياته.. يزعمون أنها تحبه؟! بئس الحب هذا!! بئس الحب!!

- ماذا تريدين؟!

يهتف بها بجفاء صدمها وهو يخدش صورته

«الحنون» التي طالما رسمتها، فدمعت عيناها مجفلة وهي تجلس جواره، لكنها صممت أن تكمل مشوارها:

- أريدك أن تسمعني.

- ألا يكفي أن أسمع «غالية»؟!

هتف بها بتهكم ممتزج بالازدراء ليردف وهو يشيح بوجهه عنها:

- طلبت مني البقاء معك وها أنذا..

ثم عاد يلتفت نحوها مصححًا بذات النبرة:

- بل هددتني لدقة التعبير!

فازداد تكدّس الدموع في عينيها، ليهتف هو بها بانفعال زادت نبرته:

- دعي عنكِ دموع التماسيح هذه فلن أصدقها.. الدموع هذه لمن يشعرون.. أما أنتِ وخالتك فقد خلا قلباكما إلا من صوت غروركما.. عساكِ سعيدة الآن بهذه الزيجة الميمونة..

ثم مد يده يربت على وجنتها ببعض العنف مردفًا:

- مبارك يا «عروس»!

سالت الدموع الحبيسة على وجنتيها مع شهقة نحيبها التي رقّ لها قلبه نوعًا، فأشاح بوجهه وهو يضغط على أسنانه لتهمس هي به بين دموعها:

- فقط اسمعني أولًا.. لا تدري كم حاربت نفسي لأتملك من الشجاعة ما يجعلني آتي إليك اليوم لأتكلم.. أرجوك.. اسمعني فقط.. ولا ترد.. دعني ألقي هذا الثقل عن كتفي..

زفر زفرة مشتعلة وهو الذي يكاد يرجوها أن تغرب

عن وجهه.. لكن حرقة دموعها جعلته يكتفي بصمته الذي اعتبرته جواز مرور.. فحكت!!

حكت له عن حبها منذ سنوات.. عن تلصّصها لرؤيته خفية في كل مرة يزور فيها القرية.. عن صداقتها المتعمدة لقريبته كي تعرف عن أخباره.. عن روحه التي عشقتها قبل ملامحه.. عن حلمها المستتر به.. عن تلك الليلة الكارثية التي رأته فيها يدخل بيت «غالية» لأول مرة، لتظللها فرحتها قبل أن تعلم أنه جاء يخطب «فاطمة».. عن شعورها بالقهر وهي ترى نفسها محرومة حتى من حق الحلم به.. عن محاولتها الانتحار ليلة زفافه، وقد عجزت أن تحتمل أن يكون لأخرى وبالذات لـ«فاطمة».. عن خواء أيامها بعدها ورفضها لأن تكون لسواه.. وعن شعورها المتناقض عندما أخبرتها «غالية» أنها ستجبره على الزواج منها..

- قد تسيء فهمي.. قد تراني مجرد مدللة أعجبها

رجل، فطلبت من أهلها أن يزوجوه لها.. قد تراني ظالمة باغية جُزت على حق «فاطمة».. وقد تراني مجرد فتاة واهنة تتحكم بها «غالية» كما تشاء لتحقيق رغباتها.. وقد أكون حقًا كل هذا.. لكن ما أريدك أن تعلمه.. أنني حتى لو كنت كذلك.. فخلف هذا كله قلب واحدة أحبتك بجنون.. ورأت فيك النور الوحيد في ظلمة حياتها!

كان قلبه يهدر بقوة مع كلماتها رغم إشاحته بوجهه عنها.. مزيج رهيب من مشاعر متناقضة تجتاحه.. دهشة.. حيرة.. شفقة.. لكنها كلها كانت مغلفة بغضب!!غضب أسود من كل هذا العبث الذي يحدث هاهنا!!

- أنا انتهيت.. شكرًا لأنك.. سمعتني.. يومًا ما كان هذا وحده حلمًا!

تهمس بها مضرجة بصدق مشاعرها، فتطفئ قليلًا

من جحيم غضبه.. القليل الذي مكّنه فقط من اختلاس نظرة واحدة نحوها.. ولأول مرة يتفحص ملامحها التي وجدها تشبه «غالية» كثيرًا.. لولا مسحة الحزن الكسيرة التي تظللها.. ابتسامة مريرة تظلل شفتيه وهو ينتبه لـ«هالات عينيها» السوداء التي ذكّرته بـ«فاطمة».. ربما هذا هو التشابه الوحيد الآن بينهما!

بينما رمقته هي بنظرة أخيرة تحاول تبيّن أثر كلماتها عليه لتمنحها تعابيره الجامدة المزيد من اليأس، فقامت من جلستها جواره لتعود لغرفتها تلاحقها نظراته التي تحولت لانكسار..

ماذا فعلتِ بنا جميعًا يا «غالية»؟! وأين عساها «فاطمة» الآن؟!

* * *

صوت الناي الحزين يؤنس خلوته في مكانه

المعهود، وأنامله تشاطر روحه عزفها الشجيّ.. رائحة الليل تحمل لقلبه أثر الجرح القديم، فيأخذ نفسًا عميقًا ليزفره ببطء معاودًا عزفه.. قلبه يرتجف ترقبًا وهو يرفع عينيه للسماء مراقبًا القمر الذي انكسر في وضع «الهلال» ليختفي بهاؤه خلف حجب الظلمة.. وصوت كروان حزين من خلفية الصورة يمنح المشهد المزيد من الرهبة.. كأنما هي مقدمة لوصول صاحبه الذي جاءه يعدو ملثمًا كعهده ليقطع عليه خلوته هاتفًا بجزع:

- مصيبة يا «سليمان».. مصيبة!

فعقد حاجبيه متوجسًا ليرى صاحبه يخلع عنه لثامه بتحفز مفصحًا عن احمرار وجهه الغاضب ليصرخ بين أنفاسه اللاهثة:

- «فاطمة».. «فاطمة» تزوجت «طاهر»!

* * *

الهالة الرابعة عشرة

(سيف الضحية)

- ما هذه الضوضاء الصاخبة؟! زفّة مَن هذه؟!

- يا للفضيحة!

- الفتاة تزوجت أباها! القيامة قربت!

- «طاهر بيه» تزوج على الست «غالية».. ستموت لو عرفت!

- «الرجل الناقص»!.. يتزوج البنت التي رباها في بيته؟! لكن.. معه حق.. البنت جمالها كالسيف!

- عِرق «غفران» دساس.. وابنتها مثلها.. أغوت «هاشم» في البداية ليتحدى الدنيا ويتزوجها.. والآن

بعدما طلّقها تعضُّ اليد التي امتدت لها وتغوي الرجل الذي رباها!

- الدنيا دوارة وكما تدين تدان.. «غالية» بجبروتها طمعت في «هاشم» لابنة شقيقتها العانس، وخربت بيت «فاطمة» البائسة.. والآن يذيقها «طاهر» نفس الكأس!

- فضيحة؟! ليتها تكون فضيحة فقط.. بل ستكون مجزرة.. تظنون «غالية» ستسكت؟! ستقتلهما معًا!!

هتافات أهل البلدة الصاخبة تختلط بذرات الهواء الخانق حولها، لكنها تتلذذ بسماعها.. كما تتلذذ بشعورها «المستحدث» بلذة الانتقام وهي تركب السيارة جوار «طاهر» بثوبها الأبيض -كما اشترطت عليه- في زفّة صاخبة تجوب بهما البلدة من أولها لآخرها..

قبل أن تتوقف بهما أمام بيت «غالية»!!

نظراتها تتجمّد أمام البيت الذي شهد لحظات طفولتها وصباها.. بابه الفخم الذي بدا لها يومًا بوابتها إلى الجنة.. الحديقة التي طالما شهدت بكاءات انكساراتها.. مبنى البيت ذي الطابقين الذي يخفي الآن خلفه أكثر امرأة أحبتها.. وكرهتها!!

قلبها يخفق بقوة فاضحًا بقايا من شعور ظنّت نفسها وأدَتْها بعد ليلة طلاقها من «هاشم».. فتقمعه بقسوة قناعها الجديد، وهي تلتفت نحو «طاهر» بابتسامة مغوية صارت تجيد إتقان سحرها:

- أين بيتي الذي قلت إنك ستفاجئني به؟!

عيناه تلتمعان بهذه النظرة التي طالما كرهتها، بينما تدور على منحنيات جسدها فوق ثيابها ليشير للبيت المقابل لبيت غالية تمامًا:

- ها هو ذا.. لا أظن أن هناك موقعًا أجمل من هذا

كي تحققي انتقامك وتكسري أنفها!

ترنو ببصرها إلى البيت الذي أشار نحوه، لتلتوي شفتاها بابتسامة قاسية تشبه ابتسامة «غالية» قبل أن يرتجف جسدها وهي تشعر به يلمس كفها.. بل شعرت وكأنه يسحقه في كفه.. لا يا «فاطمة».. صبرًا.. المشوار لا يزال في أوله.. تجلدي!

وجوارها كان هو يعتصر كفّها البض وجسده ينتشي بقرب وصال طالما تمناه منذ أيام طويلة.. منذ فوجئ بها تأتيه بقدميها في شقته الخاصة بالعاصمة، والتي يقضي فيها بضع ليالٍ مختلسة بعيدًا عن «غالية» بزعم انشغاله ببعض مصالحه في المجلس.. ليلتها اصطدم بشخصيتها الجديدة الغريبة عليه.. نفس الجمال الآسر الذي تمناه لنفسه منذ تفتحت براعمه بين يديه.. لكنه ما عاد مغلقًا ببراءة نافرة.. بل غلفته بضعف احتياجها وقوة رغبتها بانتقام يشاركها فيه!

أجل.. وجهتهما الآن واحدة.. أنف «غالية» الذي يجب أن يُكسَر!

- هيا بنا يا عروس نتمتع ببعض الوقت قبل أن تفتح «غالية» أبواب جحيمها.

يهمس بها بصوت كالفحيح لتلتوي شفتاها بابتسامة مغوية.. ترى متى يصل الخبر «غالية»؟!

ترجَّل من السيارة ليفتح لها الباب، ويتأبط ذراعها ثم توجه بها نحو بوابة البيت الذي تعمَّد اختيار موقعه المستفز.. لكنه ما كاد يدلف إلى داخل حديقته حتى سمع هتافها خلفه:

- «طاهر»!

* * *

تجمّدت «فاطمة» مكانها والصوت المهيمن الذي طالما ألفته يصدع في أذنيها كالرعد.. بينما شعر «طاهر» بخوف غريزي تملكه للحظة بحكم الاعتياد، لكنه دفع المزيد من الغضب ورغبة الانتقام في عروقه، ليلتفت نحو «غالية» فيصطدم بملامحها الذاهلة..

أجل عيناها كانتا متسعتين حدّ الجحوظ تتأمل ثوب «فاطمة» الأبيض، والذي يناقض سواد عباءتها هي.. بينما جسدها يرتجف رغمًا عنها وهي تشير بإصبع مهتز نحو «فاطمة» بسؤال لم تجرؤ على البوح به..

لكن «طاهر» رفع رأسه يتأمل وجوه الناس الذين تجمعوا من كل صوب يرقبون المشهد المهيب.. لتلتمع عيناه بظفر.. هذه هي اللحظة التي تمنّاها طوال هذه السنوات.. والآن تأتيه بشهوة الانتقام..

- «فاطمة».. زوجتي.. يا «غالية»!

يهتف بها كأنما يُسمعها لكل أهل القرية.. كأنما يشاطر بها «فاطمة» لذة انتقامهما.. كأنما يطعن بها قلب «غالية» التي انتفض جسدها فجأة، كأنما تدفع عنها وهن هذه اللحظة العابر، لتتقدم منهما ووجهها الأحمر يفضح غضبًا كالبركان:

- أيها البائس ماذا فعلت؟! ستكون نهايتك.. ونهايتها!!

قالتها من بين أسنانها ولا تزال تتقدم منهما حتى لم يبقَ بينهما إلا خطوة واحدة.. لا تكاد تصدِّق هذا الذي يحدث.. الخبر وصلها منذ دقائق، لكنها كذَّبته تمامًا كما تُكذِّب الآن عينيها.. «فاطمة» لن تفعلها.. «طاهر» لن يفعلها.. لم يخلق بعدُ من يكسر جبروت «غالية»!!

عيناها تلتقيان بعيني «فاطمة» المتوهجتين ببريق

غريب عليها.. وكأنما تحولت لـ«مسخ» لا تعرفه.. طالما خشيت «بذرة تمردها»، لكنها لم تتوقع أبدًا أن ينطلق ماردها بهذا الجنون. قبل أن تقول لها الأخيرة بتشفّ:

- انظري إليّ.. انظري جيدًا.. تعجبك زينتي؟! تظنينني سأرضِي رجلي هذه الليلة.. يا «أمي»؟!

تضغط «فاطمة» حروف كلماتها الأخيرة بحقد، فترفع «غالية» نحوها كفًا مرتجفًا بصفعة أوقفها «طاهر» الذي كاد يسحق معصمها، وهو يهوي به لأسفل قائلًا لها من بين أسنانه:

- لا أحد يرفع يده على امرأتي.. «فاطمة» الآن زوجتي وهيبتها من هيبتي.

أصوات الناس الذين يراقبون المشهد من الخارج تدوي في أذنيها كالرعد.. فتطلق زمجرة شرسة وعروق جبينها النافرة تكاد تنفجر مع هسيسها:

- كيف جرؤت؟! هل نسيت قدرك يا ابن «بائع الخردة»؟! مكالمة هاتفية واحدة مني تكفي لسحقكما معًا كحشرتين!

لكنه ضحك ضحكة شامتة، ليقترب من أذنها هامسًا:

- تعلمين كم تمنيت أن أردّ على عبارتك المعهودة هذه الرد الذي يليق؟! والآن آن الأوان لابن «بائع الخردة» أن يرد لك كل صفعة وجّهتِها لكرامته.. فيمَ كنتِ تظنين صبري عليكِ طوال الأيام السابقة إذن؟! أقاربك ذوو النفوذ من كنتِ تتجبرين بهم.. الآن صرت أعرف لكل منهم ثغرة تكفيني عَضّة غدره.. ما عاد لديكِ ما تهدديني به.. مضى عهد «غالية» وحان عهد «طاهر».. اليوم أعلو ولا يُعلَى عليّ!

ملامحها تشحب حد الموت، وهي تشعر بالأرض تتزلزل تحت قدميها.. تنظر أمامها فلا ترى سوى

نظرة «طاهر» المتوعدة.. ونظرة «فاطمة» الحاقدة.. تنظر خلفها فلا ترى سوى وجوه الناس بين فضول وشماتة تنعي سلطان جبروتها القديم.. فيعود جسدها لارتجافته كأنما يرجو سقوطًا رحيمًا لن يناله!

- هل ستبقين طويلًا هنا؟! أريد الانفراد بعروسي!

يقولها «طاهر» بنفس النبرة القاتلة ليهبط صدرها ويرتفع بجنون ناسب صرخاتها الهادرة بعدها:

- ستندم.. كلاكما سيندم.. لم يُخلق بعدُ من يكسر أنف «غالية».. هذه الدنيا كلها تسير على هواي.. كلها طوع كلمتي.. غدًا أريكما انتقامي كيف سيكون!

تهدر بها ملوحة بذراعيها وعيناها تنتقلان بهوس بينه وبين «فاطمة» وبين جموع الناس الذين تراهم بعين عقدتها، كأنهم جمهور ينتظر كلمتها كي تنهي هذا العرض!

فتتقهقر للخلف، محاولةً التحكم في رعشة جسدها، لكنها كانت تدرك أن الزلزال الذي هزّ أرضها أقوى من أن تعود بعده لثباتها.. تنظر إليهما نظرة أخيرة يلونها الذهول بين لوعة وغضب، ثم تغمض عينيها عليها، كأنما تعد لها ما يليق بها من ذخيرة الانتقام، قبل أن تعطيهما ظهرها، لكنها لم تكد تفعل حتى أطلق «طاهر» سهمه الأخير:

- «غالية».. أنتِ طالق!

* * *

- خالتي!

تهتف بها «غنى» بملامحها الشاحبة كالعادة، والتي زادها الخبر شحوبًا.. لقد سقطت «غالية»!

يقولون إنها نوبة قلبية؛ بسبب الانفعال، لكنها تعلم

أنها الضربة القاصمة لجبروتها المعهود!

«فاطمة» فعلتها! عرفت كيف تجذب البساط من تحت أرجلهم جميعًا بجذبة واحدة ليقعوا على ظهورهم.. هل تلومها؟! الغريب أنها انتابتها نوبة هستيرية من الضحك عندما سمعت الخبر.. «فاطمة» تزوجت «طاهر»! لكنها عندما أفاقت تبينت أن خالتها كانت محقة عندما كانت تتحدث عن الوجه الآخر لـ«فاطمة» المختفي تحت رمادها الساكن.

- لماذا أنتِ هنا؟! أنا بخير.. عودي لزوجك!

صوت «غالية» المبحوح لم يفقد بقايا هيمنته العتيدة بعدُ، لتهتف بها «غنى» وهي تشعر بوهن جسدها الساكن على فراشه يخز قلبها:

- كيف أتركك وأنتِ....؟

- أنا ماذا؟! أنا بألف خير.. بضع ساعات من النوم،

وستعود لي قوتي.. تظنين أنهما كسراني؟! أبدًا.. هما فقط طعناني في ظهري، لكنني لن أسكت..

- اهدئي يا خالتي.. الطبيب حذر من انفعالك.

تهتف بها بقلق، لكن «غالية» تصيح بها بنبرة أعلى:

- قلت لك أنا بخير.. عودي لبيتك.. هيا.. لا أحتاجك.. «غالية» ليست بحاجة لأحد.. غدًا كلكم تعلمون من تكون.. اخرجي واتركيني..

لم تجد بُدًا من طاعتها وهي ترمقها بنظرة مشفقة طويلة قبل أن تغادر بيتها.. نظرة عابرة منها لبيت «طاهر» المقابل تجعل قلبها ينتفض بلوعة.. تتخيل «فاطمة» الآن معه.. ماذا فعلتِ بنفسك يا بائسة؟! ضميرها يخزها بندم حقيقي، وهي تشعر أنها دمّرت «فاطمة» بفعلتها حقًا.. ليس فقط عندما انتزعت منها «هاشم»، بل عندما جعلتها تنجرف لانتقام حقير كهذا.. وما المقابل؟! شبح رجل لم يعد يصلح لها أو

لسواها!ليت الأيام تعود فتبقى في غرفتها الآمنة راضية بحلمها اليائس به.. بدلًا من هذا الواقع الذي تصطلي بجحيمه!

* * *

- هل انتهيتِ؟! تأخرتِ عليّ يا عروس!

تسمعها بصوت «طاهر» يأتيها من خلف باب غرفتهما الذي أغلقته عليها كي تتجهز له.. فيخفق قلبها بقوة وعيناها تناجيان صورتها في المرآة بنداء متوجع.. ها قد حققت أول خطوة في انتقامها.. أول رشفة من كأس كبيرة تنوي تناولها كاملة.. «هالاتها السوداء» تبدو لها أكثر عمقًا.. عجبًا! لقد ظنت نشوة الانتقام ستمحوها.. لكن لا بأس.. ها هنا «الحل السحري» دومًا..

أناملها تمتد لـ«الكونسيلر».. تمسد بها ما حول عينيها محاولة التعامي عن هالاتهما.. بعض الدموع

«الخائنة» تتجمع في مقلتيها، فتذكّرها بـ«فاطمة القديمة» لكنها تكز على أسنانها كأنما تسحقها قبل أن تبالغ في تبرجها.. زينة شفتيها المهلكة.. عطرها الخلاب.. وقميص نومها الذي اختارته بعناية لتكمل به صورتها المغوية..

- أنتِ لا تتزينين لـ«طاهر».. أنتِ تذبحين «غالية» كما ذبحتك.. تذكري هذا كي تتمي الأمر كما ينبغي.

على سيرة الذبح تراودها صورة «سرجاني» من جديد، فتبتسم بقسوة وهي تمسد عنقها..

- تساوت الرؤوس يا «سرجاني».. لن يسلبني أحدهم بعد الآن ما أملكه.. كما فعلت أنت وفعلت «غالية» بعدك.. الآن «فاطمة» هي الأخرى تملك سيفها.. وأعدك ألا يكون أقل حدة من سكينك!

- لن أنتظر أكثر.. نفد صبري!

يهتف بها بصوته البغيض، لتكتم شهقتها بقوتها المستحدثة وهي تراه يدفع الباب ليدخل.. عيناه تدوران فوقها بنفس النظرات التي كرهتها في صغرها والآن.. الآن تشتهيها!!

تشتهيها بروح «المسخ» الجديد الذي تلبَّس روحها.. تشتهيها وهي تذكّرها بمكمن قوتها الآن.. بمذاق الانتصار الذي تجرعته أمام «غالية».. وبهرم طموحها الذي ترجو أن تصل لقمته وبعدها ستسحق ماضيها كله في قاعه!

تبتسم له بتلك الطريقة المدروسة التي تعلمتها.. مع نظرة أجادت تلوينها بسحر أنوثتها ليقطع المسافة بينهما بخطوة واحدة، فتجد نفسها بين ذراعيه.. «الوشم الأخضر القبيح» يكاد يلتصق بعينيها فتتقلص أحشاؤها رغمًا عنها وقلبها يرجف رجفة باردة تسري بين أوردتها بألم خالص.. لكنها تتشربه بنفس القوة المستحدثة، قاهرةً هذا النداء الخافت

في روحها يذكّرها بروحها القديمة..

هذا النداء الذي علا وجيبه فجأة وهي تسمع الصرخة تأتيها من الخارج عبر النافذة بصوته الذي تعرفه:

- «فاطمة»!

* * *

- سأفرغ فيه مسدسي! هل جرؤ أن يأتي إلى بيتي ويصرخ بحديثه هكذا؟!

يهتف بها «طاهر» متوعدًا وهو يفلتها من بين ذراعيه، ليتوجه نحو خزانة ملابسه بينما يعلو صوت «هاشم» من الخارج، فتتوجه هي نحو النافذة ترقبه خلفها دون أن تفتحها..

- اخرجي يا «فاطمة».. اخرجي من هنا.. لن تكون

هذه حياتك.. اخرجي وخذي ثأرك مني أنا.. أنتِ هكذا تنتقمين من نفسك يا غبية.. اخرجي يا «فاطمة».. اخرجي..

صراخه يتقطع بحدَّته وهي تراه يرفع ذراعيه بيأس خارج أسوار البيت، لتدمع عيناها رغمًا عنها، وهي تميز تهدُّج صوته بما يشبه البكاء بعدها، بينما يخبط بقبضته على صدره:

- أنتِ لي أنا.. نسيتِ؟! كيف طاوعتك نفسك أن تفعليها؟! اخرجي يا «فاطمة» ولا تخافي.. أنا سأبتعد بك عن كل هذا.. فقط تعالي.. تعاااااالي..

صرخته الهادرة تنقطع وهي ترى الحارسين يكبلانه، فيقاومهما بشراسة بينما «طاهر» يهتف خلفها ملوحًا بمسدسه:

- سأؤدب هذا النذل.

لكنها اغتصبت ابتسامة ساحرة لتتوجه نحوه، وتبسط كفها على صدره هامسة بإغواء:

- وتفسد ليلتنا كما يريد هو؟! لا.. ظننتك أذكى من هذا؟!

يزدرد ريقه بتوتر متابعًا حركة شفتيها اللتين تمطهما بتعمد ليعتصر خاصرتها بذراعه هامسًا بلهفة:

- معكِ حق.. دعيه يعوي كالكلب طوال الليل.. وتعالِي أنتِ!

لكنها تدفعه برفق هامسة باستنكار مصطنع:

- ويتجمع الناس حوله، وتكون فضيحة جديدة؟!

فيعقد حاجبيه وهو يسمع صراخ «هاشم» يدوي من جديد ليسألها:

- ماذا تريدين؟!

فتعاود رسم ابتسامتها مختبرة سحرها من جديد:

- دعني أنا أخرج له.. سأعرف كيف أخرسه.

- لا!

هتف بها بغيرة خشنة وعيناه تعاودان غزوهما لمفاتنها، لكنها عادت توظف أسلحتها لتقول برجاء:

- أريد أخذ حقي برؤية القهر في عينه كما فعلت أنت مع «غالية».. أريد أن أصرخ به أنني وجدت رجلًا حقيقيًا يستحقني بدلًا منه.. كثيرٌ عليّ؟!

فانعقد حاجباه وهو يتفحص ملامحها محاولًا قراءة خبيئتها.. طالما عجز عن فهم هذه الفتاة.. لم يتوقع أبدًا أن تسعى هي نحوه بعد طلاقها مباشرة، لتشترك رغبتهما في الانتقام بنفس الطريقة،

فيخفيها عن الأعين تمهيدًا لهذه المفاجأة.. لهذا يجد صورتها الجديدة غريبة عليه.. بقدر ما يشتهيها.. بقدر ما يرهبها.. لكنه رأى أن ينفذ لها مرادها هذه المرة، لعل رضاها يؤتي بثماره في ليلة تمناها منذ زمن بعيد..

لهذا لوّح لها بكفه موافقًا، فمنحته واحدة من ابتساماتها المهلكة، قبل أن تضع عليها حجابها لتخرج إلى «هاشم»..

- اتركانا وحدنا!

هتفت بها بصرامة تخاطب الحارسين اللذين ترددا قليلًا قبل أن ينفذا أمرها ويدلفا إلى الداخل.. فاندفع نحوها «هاشم» وقد همّ باحتضانها، لكنها عادت خطوة للخلف، ملوحةً لتوقفه بإشارة من كفها:

- قف مكانك.. ولا تمس ما ليس لك.

- ما ليس لي؟! تقولين ما ليس لي؟! أنتِ.. أنتِ لستِ لي؟!

يهتف بها بلوعة لترد بابتسامة قاسية:

- ربما التبس عليك الأمر فقط، وتظنني أشبه فاطمتك القديمة.. تلك التي اعتزلت العالم في صومعتها راهبة لعشقك فكافأتها بخيانتك.. تلك التي رفعتها لأعلى قمم العشق ثم خسفت بها سابع أرض..

ثم رفعت أصابعها بأظافرها الطويلة المقلمة مردفة:

- انظر.. لم أعد هي.. الآن صارت لي مخالب.. مخالب قادرة على تمزيق أي يد تفكر في إيذائي!

نضح وجهه بالألم وهو يهتف بها:

- هذا ليس كلامك.. هذه ليس صورتك.. أرجوكِ يا «فاطمة» لا تفسدي كل شيء.. لا تصلحي خطئي

بخطأ.. أنت ستقتلينني لو منحتِ ذاك الرجل ما هو لي.. بل ستقتلين نفسك في أول لحظة تسمحين فيها لغيري أن يمسك!

- ما زلت مغرورًا.. ما زلت تظن نفسك البطل الذي جعلته معجزتي.. افهم كي تستريح.. أنا لم أعد أنا، كما لم تعد أنت أنت!

كلماتها تصدمه، فيرتد للخلف كمن تلقى طعنة، قبل أن تبتعد هي بظهرها قائلة كالمغيبة وعيناها تزيغان في الفراغ:

- غدًا كلكم ستدفعون ثمن خيانتي.. ستشهدون أن «فاطمة» الحقيقية وُلِدت من جديد.. ولن يقف أمامها أحد.

* * *

على الفراش جوار «طاهر» تستلقي على ظهرها..

تغطي جسدها العاري وترمق السقف بشرود.. صوت شخيره المتقطع بجانبها يفصح عن استسلامه للنوم أخيرًا بعدما أشبع نهمه منها.. جسدها الملوث بآثاره يستصرخها أن تطهره، لكنها تمعن في تعذيب نفسها بعناد صار قوت روحها.. فليحترق كل شيء.. فلتحترق هي نفسها.. ما داموا جميعًا سيحترقون قبلها!

تغمض عينيها بقوة تستعيد تفاصيل هذا اليوم الذي لن تنساه.. كسرة عين «غالية» وهي تتقهقر للخلف أمام جموع الناس.. دموع «هاشم» وهو يرجوها الرحيل معه.. نظرات أهل القرية الذين وقفوا يراقبون دخولها بيت «طاهر» كسيدة لا كـ«شبه خادمة».. درجة فوق درجة ترتقيها قدماها في هذا السلّم الذي سيوصلها لما تريد..

راضية؟!

السؤال الأخير يرجف جسدها بمرارة جواب لا تريد الاعتراف به.. تائهة هي حقًا.. وليس أسوأ من أن يتوه المرء عن نفسه!!

- ويجاااا.. ويجاااا.. لا تطفئي النار بالنار.. فعلها من قبلك واحترقوا!!

- «سليمان»!

تهمس بها بلهفة، وكأنما عاد إليها بصوته جزءًا من «فردوسها المفقود».. وأخيرًا تجد الدافع كي تغادر فراشها.. تضع عليها حجابها لتتوجه نحو النافذة، فتراه جالسًا على ركبتيه أمام البيت يسند جبينه على عصاه، ولا يزال صوته يقطع الصمت المهيب..

- خاب وخسر.. خاب وخسر.. من وجد انتقامه وضيّع نفسه.. من أرضى حقده فخنق فطرته..

- اسكت أيها العجوز الخرف وامشِ من هنا.. تظن

بيت «طاهر بيه» كبيت «غالية» مكانًا لنقيق ضفادعك هذا!!

تسمع أحد الحارسين يهتف بها وهو يتحرك نحوه ليلكزه بطرف سلاحه، فتهرع للخارج كي تلحق به.. لكنه كان قد ابتعد عن البيت بخطوات لحقته فيها لتناديه بلهفة:

- افتقدتك يا «سليمان».

يتوقف مكانه دون أن يلتفت نحوها، فيسمع ضحكة بمذاق البكاء تتحشرج مع كلماتها:

- وددتُ لو أمكنني أن أحتضنك الآن.. لو أبادلك الحلوى بمسبحة زرقاء.. لو أفرغ في كنف جلبابك خبايا صدري كالسابق لكن... لكن...

- «فاطمة» ضاعت منك.. لو وجدتِها فرديها إليّ!

يغمغم بها ولا يزال عاجزًا عن النظر نحوها، قبل أن يستمر في طريقه تلاحقه نظراتها التي امتزجت بفيض دموعها.. قبل أن تعود ببصرها للخلف، حيث بيت «طاهر» الذي عادت إليه بخطوات متثاقلة.. وهل بقي لها غيره؟!

* * *

عبر نافذة غرفته الخاصة في «الدار الخاصة بالعجزة والأيتام» وقف «صاحب الظل» يراقب طفلة من أطفال الدار تبدو منزوية عن بقية الأطفال.. تحتضن دميتها وترمقهم بنظرات خائفة.. يتقدم منها أحدهم ليمنحها قطعة من الحلوى فتتناولها منه بتوجس.. تلتهمها لتكافئه بابتسامة مترددة تغريه بأن ينتزع منها دميتها، لكنه ما كاد يفعل حتى تخدش وجهه بأظافرها.. يصرخ الطفل فيتجمع حولها الأطفال ينهرونها.. تنكمش وهي تعاود ضم دميتها قبل أن تعدو بعيدًا لتختبئ خلف

جذع شجرة و.. تبكي!

- ما أشبهها بكِ يا «فاطمة»!

يهمس بها لنفسه ولا ينتبه للمعة دمعة خائنة فرت من طرف عينه، إلا عندما سمع صوت أبيه بجواره:

- يا إلهي! هل تبكي يا «هارون»؟!

ينتفض مكانه وهو يلتفت نحوه، وكأنما خشي أن تفضحه أفكاره أمامه هو بالذات.. ليبتسم ابتسامة شاحبة وهو ينحني على الرجل الذي استقر جسده فوق كرسيه المتحرك، ليهتف به بمرح مصطنع:

- وهل يبكي ابنك يا «حاج»؟! ظننتك تعرفني أكثر من هذا!

لكن الرجل يرمقه بنظرة متفحصة، ليتنهد وهو يقول بشرود:

- ولأنني أعرفك فلا أستبعد البكاء عليك.. مثلك من يبدو قوي الشكيمة صلب الظاهر تهزمه رقة قلبه عندما يظن نفسه وحده.. تذكّرني بنفسي عندما كنت في سنك.

يزدرد «هارون» ريقه بتوتر وكلمات أبيه تنكأ الجرح القديم.. فيعاود الاستقامة بجسده وقد ساءه أن تبتلع دوامة الماضي والده من جديد، ليهتف به بنفس المرح المصطنع:

- هل هي محاولة للتشبُّه بي كي تعيد أمجاد ماضيك؟! لا يا «حاج» لم تكن وسيمًا هكذا مثلي.

فيبتسم الرجل لكلماته مدركًا محاولته للتهرب من الحديث..

- كنت أكثر وسامة يا «ولد».. ولولا اعتزازي بسابق عملي، لكنت قدّمت في مسابقة السينما.. وأخذت

المركز الأول!

- يا للتواضع! تعرف يا «حاج»؟! وددت لو أملك نصف ثقتك هذه بنفسي! ساعتها كنت لأتقدم لخطبة أجمل بنت في البلدة وأنا مطمئن.

- لا أريدك أن تخطب أجمل بنت في البلد.. أريدك أن تخطب أي «عنزة» فقط كي أطمئن عليك.. شعرك شاب قبل أوانه، ومن يراك يظنك تجاوزت الأربعين، ولا تزال مضربًا عن الزواج..

ثم أشار له بسبابته كي يقترب لينحني نحوه «هارون»، فيهمس له أبوه:

- هل تعاني من مشكلة صحية ما؟! أخبرني ولا تخجل.. أنا أبوك ويمكنني البحث معك عن حل.

لكن «هارون» يصدر صيحة مستنكرة، ليهتف بنفس النبرة المازحة، وهو يخبط بقبضته على

صدره:

- عيبٌ عليك يا حاج.. ابنك «وحش».. أنا فقط ما زلت أبحث عمن تليق لأن تكون زوجة ابنك.. تظن أي فتاة تصلح لهذا المقام؟!

لكن العجوز يلوح بكفه في استهانة هاتفًا:

- وحش؟! وهل بقي في جيل «الدجاج الأبيض» هذا وحوش؟! الوحوش هذه كانت على أيامنا.. أيام الخير و«السمن البلدي»!.. تعرف أنني في شبابي كنت...

فيبتسم له «هارون»، وهو يستمع لهذا الحديث الذي يتكرر تقريبًا يوميًا بصيغ مختلفة.. لكنه يسمعه منه باهتمام كأنها المرة الأولى.. يعلم أن الرجل القعيد لم يعد يملك من دنياه إلا حديث الذكريات وهو.. هو ابنه الوحيد!!

- بينما كنت في الثامنة عشرة.. إحداهن طلبت مني يومًا أن أغيِّر لها أنبوبة الغاز.. ما زلت أذكر نظرتها وهي تراني أرفعها بكف واحدة لأحملها على كتفي.. بعدها ببضعة أيام كانت تلقي لي بورقة كتبت فيها رقم هاتفها.. لكن.. حد الله بيني وبين الحرام.. تركت السكن كله كي لا أدنِّس حرمة جاري.

- بارك الله لك يا حاج.. ونعم الأخلاق.

- الحقيقة.. هي الأخرى كانت.. قبيحة جدًا!

يقولها العجوز وقد تغضن وجهه باستيائه، ليطلق «هارون» قهقهة عالية:

- ولو كانت جميلة.. لكنت نوَّمت ضميرك!

فيهز العجوز رأسه يمنة ويسرة بنظرة عابثة لا تليق بسني عمره، ليعاود «هارون» الضحك فيتنهد أبوه وهو يتفحص ملامحه ليقول بنبرة عاد إليها الشجن:

- هكذا أريد دومًا أن أراك يا ابني.. ضحكتك تملأ وجهك.. كفاك ما لقيت في حياتك بسببي.

رنة الذنب في كلام أبيه تكاد تقتله، فينكب على كفه مقبلًا ليهتف له بصدق:

- لا تقل هذا أبدًا.. لولاك أنت لما كنت أنا.

فيربت العجوز على رأسه برضا ليتلفت حوله قائلًا:

- أحوال الدار لا تعجبني.. نحتاج لزيادة العمالة.. نريد أناسًا يمتلكون من الضمير ما يؤهلهم للتعامل مع أطفال كهؤلاء.. انشر إعلانًا في الصحف واطلب المزيد.. وأنا سأجري المقابلة الشخصية بنفسي.

- إذن لن ينجح أحد يا حاج!

يقولها بيأس مصطنع ليرفع والده حاجبه فوق

عينيه خلف منظاره الطبي، هاتفًا بصوت عاد إليه مرحه:

- ماذا تقصد؟! أنني أعقِّد الأمور؟! إنها فقط مائة مقابلة شخصية رفضت ذويها؛ لأنهم كلهم «حمير».. «أحذية بلا أربطة».. أو «لصوص».. والدار هنا مضرب الأمثال في النزاهة، ولن أرضى بأقل من هذا المستوى!

- حقك يا «حاج».. لا تقلق.. سأنفذ لك ما تريد.

يقولها «هارون» مستسلمًا لمنطق العجوز الذي أعطاه ظهره، ليتحرك بكرسيه نحو الخارج مع كلماته المتذمرة وهو يشيح بكفه:

- كلام! كلام! لست بفالح في «زواج» ولا «عمل».. كل ما تجيده هو: «لا تقلق يا حاج».. «أوامرك يا حاج»!

فيبتسم «هارون» وهو يتابع انصرافه بعينين حانيتين، مدركًا ما خلف تذمره الدائم من قلب طيب.. قبل أن تتلاشى ابتسامته وهو يعود ببصره للحديقة، حيث لا تزال الطفلة الصغيرة تختبئ باكية تحت الشجرة.. فتدمع عيناه من جديد ولا يشعر بنفسه إلا وهو يغادر غرفته ليهرع إليها.. ولم تمضِ بضع دقائق حتى كانت الصغيرة تضحك بين ذراعيه، وهو يلاعبها بحنان، بعدما أسرها بحديث يجيد به ترويض خوف من مثلها.. قبل أن تميل على وجنته تقبلها لتغادره وتعود للعب مع بقية الأطفال..

فتنهد بحرارة وهو يتحسس موضع قبلتها على خده، لتغيم عيناه بنظرة قتلها وجعها.. وهو يتذكر شبيهتها.. «فاطمة»!

آهة متوجعة تغادر صدره ليهمس لنفسه بحرقة:

- آه يا «فاطمة».. لو يمكنني أن أعيد لكِ ضحكتك

مثلها.. عمري كله فداء لحظة كهذه.

الهالة الخامسة عشرة

(وانسيه كذب!)

كيف تتبدل الأيام هكذا؟! كيف تشوه ملامحنا فتنتزع منّا ملائكيتنا وتقذفنا في جحيم الأبالسة؟!

* * *

بصالة بيتهما «الكئيب» تنتظر «غنى» عودته ككل ليلة.. نفس السيناريو الذي يتكرر بتفاصيله.. يعود ليرتمي على الأريكة، متجاهلًا إياها قبل أن يغط في نوم متقطع تذبحه كوابيسه بالاسم الذي تفضحه شفتاه.. «فاطمة»!

«فاطمة» التي حققت انتقامها منهم جميعًا.. ها هي ذي «غالية» عاجزة عن مغادرة بيتها؛ خشية النظر

في وجوه الناس.. ها هو ذا «هاشم» عاجز حتى عن العودة لعمله في العاصمة كأنما ينتظر عودتها إليه، ويرجو أن يُحدث وجوده هنا فارقًا.. وها هي ذي تتخبط بين جدران يأسها، وقد فقدت أرضًا تحملها أو سماء تظللها.. لقد نالت «ثمرتها المحرمة»، لكنها طُرِدت من جنتها قبل حتى أن تتذوقها! فبئس المصير!

صوت الباب يفتح ليبدو خلفه وجه «هاشم» الشاحب.. ليرمقها بنظرة عابرة كأنما لا يراها قبل أن يأخذ مكانه المعتاد على الأريكة هناك.. يمدد جسده متأوهًا بخفوت وعقله يهيم في غياهب حرقته.. الأيام صارت متشابهة.. يقضيها جميعها في إحصاء خساراته.. البداية كانت قدمه.. ثم عمله.. شهرته.. وأخيرًا.. فاطمته.. فاطمته التي يزور «مكانهما المنعزل» القديم على التل كل يوم باحثًا عن بقايا منها هناك.. لعل الذكرى تطفئ لهيب قلبه وهو يتخيلها كل ليلة بين ذراعي «طاهر»!

- أين كنت؟!

أخيرًا تجد الجرأة كي تأخذ أي خطوة في هذا الطريق المظلم بينهما، ليلتفت نحوها بلامبالاة تحولت لقسوة:

- وما شأنك؟!

لكنها تتمالك نفسها لتتقدم منه أكثر، وقوة صوتها تناقض الدمع المتكدس في عينيها:

- لن أحتمل رؤيتك تضيع هكذا.. إذا كنت أنا عاجزة عن الخروج من هذا الجحيم فاخرج أنت.. انجُ بنفسك وابتعد من هنا.

همهمة ساخرة تغادر شفتيه، وتجعل دموعها تتحرر مع كلماتها:

- أنا أخطأت عندما هاودت خالتي يومًا.. أخطأت عندما تصورت أنني يمكن أن أبني سعادتي على أنقاض بيت آخر.. واليوم لا أمانع لو أدفع ثمن خطئي بأي طريقة.. أهون عليّ أن أحرَم قربك من أن تبقى معي بهذه الصورة فأراك تموت حيًا بسببي..

ثم انتحبت لتردف بما بدا كصرخة غريق:

- طلّقني يا «هاشم».

كلماتها تقذف الحمم في أوردته، لتجده في لحظة يعتصر ذراعها بقبضته هاتفًا بغضب:

- هل هي أوامر «غالية» الجديدة؟! تظنونني لعبة في أيديكم؟!

تهز رأسها نفيًا بانفعال وجسدها يرتج خوفًا منه و-عليه- لكنه يدفعها بعيدًا بعنف هادرًا:

- لم يعد لديّ ما أخاف عليه.. المطعم بعته ونقوده تكفي لعلاج والدي، فلم أعد قلقًا بهذا الشأن.. و«فاطمة» خسرتها.. بماذا ستهددني خالتك هذه المرة؟! حياتي نفسها لم تعد ذات قيمة عندي!

- لهذا أرجوك أن تبتعد عن كل هذا.. عد إلى العاصمة.. ابحث عن عمل جديد.. لا تترك قدميك لهذا الوحل تغوص فيه أكثر.. أرجوك يا «هاشم».. أرجوك.

تهتف بها بكل ما أوتيت من قوة ليرمقها بنظرة عاصفة وصدره يعلو ويهبط بانفعال قبل أن تلتوي شفتاه بابتسامة متحدية:

- لا.. بل سأبقى هنا.. أشاهد فصول المسرحية للنهاية..

ثم عاد يقترب منها حتى امتزجت أنفاسهما مردفًا بقسوة مستحدثة على طبعه الحنون:

- ولن أطلقك.. سأبقيكِ هكذا في المكان الذي اخترتِه لنفسك.. تذبلين يومًا بعد يوم بجوار رجل لا يطيق النظر في وجهك.. أنتِ و«غالية» بدأتما اللعبة بطريقتكما، لكنني سأكملها بطريقتي.

* * *

على فراشه يجلس «طاهر» عاري الجذع يراقبها وهي تتزين له خلف مرآتها.. شهران كاملان مرا بهما معًا شعر معها وكأنه قد جدد شبابه.. أنوثتها الطاغية كفته ما كان يبحث عنه في البغايا أيام زواجه بـ«غالية».. والآن يجد نفسه كأنما هو مسحور بفتنة هذه الصغيرة التي تكاد تذهب عقله.. من يصدق أن الطفلة التي التقطها بقرف من الشوارع استجابة لأمر «غالية» من سنوات تكبر في بيته ليشتهيها كرجل، لكنه لا ينالها إلا بعد كل هذا الطريق.. فتكون «الطُّعم» المناسب لانتقامه من «غالية».. وتكون في

ذات الوقت غنيمة قدره بعد هذا العمر؟!

- لا تحتاجين للزينة.. جمالكِ وحده يكفي!

يقولها مدللًا وهو يغادر الفراش ليتوجه نحوها فتتقلص أحشاؤها بنفس النفور كأنما هي المرة الأولى.. هذا النفور الذي تكرهه بقدر ما يذكرها بـ«فاطمة» القديمة الهشة التي يدهسها الكل تحت أقدامهم.. لهذا تقاومه بضحكة مغناج متكلفة، وهي تمسد ما حول عينيها بـ«الكونسيلر» مدارية هالاتها السوداء:

- لو لم أتزين لـ«سيد الرجال».. فلمن أفعل؟!

كانت تستغل كل ذرة من ذكائها مدركة عقدة رجل مثله عاش عمره مغلفًا بالنقص مع «غالية»، لهذا انتشت جوارحها وهي ترى كلماتها تؤتي ثمارها.. وهاهو ذا يتقدم منها بلهفة ليعتصر كتفيها بقبضتيه من الخلف، قبل أن تشعر بشفتيه على رقبتها، فيما

بدا كتقبيل، لكنها شعرت به كـ«نحر»!

أغمضت عينيها باشمئزاز صارت تجيد قهره لتتكلف أنينًا خافتًا زاد جنونه وأنامله تعيث فسادًا بين جنبات جسدها..

- قولي إنكِ تحبينني.. قوليها.

يزمجر بها بين هدير عاطفته الصاخب، فينتفض قلبها من طول سباته ليعوي بين ضلوعها بألم.. إلا هذه يا «فاطمة».. إلا هذه.. أنتِ دنستِ جسدك فلا تدنسي قدس هذه الكلمة!

- هذه الأشياء لا تقال.. تحسّ!

تزيد من هسيس «السين» بغنج متعمد في مراوغة متعمدة، فتشعر به يرفعها نحوه ليجتاحها بعاطفة فائرة.. شعورها بتقلص أحشائها يزداد لكنها تقاومه.. تقاومه بـ«صورة غالية المكسورة وهي تتقهقر للخلف

أمام أهل القرية».. تقاومه بـ«دموع هاشم وصراخه المتوسل لها «.. تقاومه بـ«زهوة شعورها المستحدث بالقوة التي طمست صورة السرجاني القديمة فما عادت تزور كوابيسها».. لكن مقاومتها هذه تنهار أخيرًا وهي تجد نفسها تنفلت من بين ذراعيه لتنحني بجسدها فتفرغ ما بمعدتها على الأرض.. قبل أن يحاوطها الدوار لتسقط مغشيًا عليها!

* * *

- ماذا تعني بأنك لا يمكنك فعل شيء؟! هكذا إذن؟! ابن «بائع الخردة» هذا سيركبنا ويدليّ قدميه؟!

تهتف بها «غالية» باستنكار وصوتها ذو الجبروت يفقد قوته رويدًا مع ما يتلقاه من الطرف الآخر للاتصال.

- «طاهر» لم يعد كالسابق.. أنصحك بأن تنسي شأنه.. أعرف أن ضربته لك كانت في الصميم.. لكن..

أعدك بأن نتربص به حتى الوقت المناسب!

- الوقت المناسب؟! ومن سيصبر للوقت المناسب؟! هيبة ابنة عمك صارت في الأرض.. بل هيبتكم كلكم.. إذ كيف يفعل بي هذا، والبلدة كلها تعلم من نحن ومن هو!

تهدر بها بعصبية ليزفر قريبها الذي طالما كان يساندها بنفوذه بنفاد صبر، وهو يسمع منها هذا الكلام يوميًا منذ ما يقارب الشهرين ليهتف أخيرًا:

- انتهينا يا «غالية».. اقبلي خسارتك ودعيه لشأنه.. نصحتك من قبل ألف مرة بألا تُفْرِطي في خنق الرجل بتسلطك، لكنك كنت تتلذذين بذلك.. لو كنت مكانه...

أغلقت الاتصال في وجهه دون أن تستمع للمزيد، وهي تشعر بقلبها يكاد يتوقف غضبًا.. وعجزًا!!

ترفع إصبعها المزدان بخاتم «وجه الأسد» أمام وجهها.. الخاتم الذي خلعته لتقلبه أمام ناظريها لتغمغم بعينين متقدتين:

- ما الذي يحدث؟! كيف يتخلى الجميع عني هكذا؟! كيف يجرؤون؟!

ثم تضغط على أسنانها لتردف بحقد:

- والله ليدفعنّ جميعًا الثمن.. ما عاش من يكسر «غالية»!

صوت زغاريد عالية من البيت المقابل تقبض قلبها بترقب، فتنتفض من مجلسها لتتوجه نحو النافذة.. تزيح أستارها بأنامل مرتجفة وهي تشعر بالنار تشبُّ بين ضلوعها.. النار التي أحرقت قلبها حد التفحم وهي تستمع للهتافات من الخارج تنبئها بالخبر..

- الستّ «فاطمة» حامل!

لتعتصر أناملها قماش الستارة بقوة تشبه اعتصار قلبها قبل أن تتهاوى لتسقط مكانها.. ويسقط «خاتمها» جوارها!

* * *

- وزِّع الذبائح على أهل البلدة كلها.. لا يبيتن اليوم في القرية واحد جائعًا.. وأخبرهم أن لهم مثل هذا يوم تلد «فاطمة» بالسلامة.

يهتف بها «طاهر» بفرحة طاغية، مخاطبًا أحد الخفر، الذي هرول لينفذ أمره، فيما عاد هو إلى غرفة «فاطمة» التي استلقت على فراشها، لينكب على كفها يقبله بحرارة هاتفًا:

- لا أصدِّق نفسي.. حامل يا «فاطمة»؟! وبهذه السرعة؟! ليته يكون «الولد» يا «وجه الخير»!!

تلتمع عيناها بدموع مشتتة، فتعضّ على شفتها محاولة منعها، لكنه ينحني فيقبّل وجنتها بعنف هاتفًا بنفس الانفعال:

- علام البكاء؟! لا.. من اليوم لن تذوقي إلا طعم الفرح.. اطلبي وتمنيْ يا ست البنات.. وأنا سألبي.

قبلاته تعيد لها الغثيان، فتقوم من رقدتها واضعة كفّها على شفتيها، ليتراجع هو ببعض الحرج قائلًا:

- لا بأس.. الطبيب قال إن هذا طبيعي في شهور الحمل الأولى..

ثم غمزها مردفًا:

- ستُحرَم من «الحلاوة » قليلًا لكن لا بأس.. كله يهون فداء لـ«الغالي المنتظر»!

قاطع رنين هاتفه عبارته، ليغادر الغرفة مجيبًا

الاتصال تلاحقه نظراتها المشتتة..

«الغالي المنتظر»!!

تتحسس بطنها بأناملها والدموع تعاود سيلانها الصامت على وجنتها..

- أريد أن أنجب منك عشرة أطفال.. أريد عائلة يا «هاشم».. عشت عمري كله أفتقد هذا الشعور!

تتذكرها بصوتها كأنما مر عليها ألف عام.. تلتوي شفتاها بابتسامة ساخرة، وهي تقارن خيبتها في كل مرة كان تحليل الحمل فيها يأتي سلبيًا مع «هاشم».. بنفس الخيبة الآن وهي تشعر بـ«ثمرة انتقامها» في أحشائها!!

ابتسامة تحولت لضحكة عالية وهي تكور قبضتيها حول فكها في وضع النداء لتصرخ بما بدا كجنون:

- أنا حامل يا «غالية».. حامل من رجلك.. كذبتك ستفتضح أمام البلدة كلها.. الناس كلها الآن ستعلم أن زوجك رماكِ؛ لأنك أنتِ من لا تنجب.. موتي بحسرتك.. كما قتلتني بحسرتي..

صراخها ينتهي بنحيب مرتفع دام لدقائق قبل أن تتراخى أناملها لتعتصر صدرها في موضع القلب.. وصراخها يتحول لهمسات مختنقة:

- أنا حامل يا «هاشم».. حامل من غيرك.. أخيرًا ستكون لي عائلة.. دونك.. دونك..

مذاق «الفقد» يمتزج بمذاق «الظفر» في تجانس عجيب.. كأنما هي يد القدر تصفعها بأحد كفيها ثم تربت عليها بالآخر.. فلا تدري هل تصرخ قهرًا.. أم تسجد شكرًا.. كل مفاهيمها صارت مختلطة.. متخبطة.. كطير أصابوه وأخطأوا تأويل رقصه الذبيح بين الجدران!!

* * *

- أخبروا أبي أني نجحت.. لأجله!

كأنما يسمعها «سليمان» بصوت ابنه الراحل.. كانت آخر كلماته لمن حاولوا إسعافه قبل أن تفيض روحه لبارئها.. تدمع عيناه بحنين لم يلبث أن تحول لعزم لا يزال ينمو بصدره منذ علم الخبر..

«فاطمة» حامل من «طاهر»!

بعد كل هذه السنوات.. آن الأوان أن يأخذ بثأر ابنه.. أن يتخلص من تمثيلية «المجذوب» الذي يجوب البلد بخرافاته.. أن ينتزع حقه الذي سلبوه منه.. سنوات مرَّت به وهو ينتظر هذه اللحظة.. لحظة الحساب.. أن يدفع كل مجرم ثمن جريمته.. فقط لو يسمعها منه بأذنيه.. لو يمتلك الدليل فلا يلوم نفسه ولا يلومه أحد!

تتوهج عيناه بالمزيد من الغضب وهو يطرق الأرض بعصاه بقوة، بينما يضغط على أسنانه..

- حانت ساعة الحساب يا «طاهر».. والبادي أظلم.

* * *

ليلة حالكة السواد غاب قمرها متدثرًا بغيومه.. أغصان النخيل تتمايل بغضب عاصف مع صوت الرياح.. صوت كروان مختنق يأتي صداه من بعيد ليضفي على المشهد المزيد من الرهبة.. سيارة «طاهر» تظهر من بعيد يقودها حارسه الذي يهتف به الأول بجذل:

- حدثني يا «ولد».. ماذا يقول أهل البلد عني بعد ما حدث مؤخرًا؟!

فيداهنه الرجل بابتسامته المتملقة:

- يشكرون فضلك يا «سيدنا».

- لست أعني هذا يا «مغفل».. أقصد عن شأن الطفل وسيرة «غالية» -قطعها الله- هل جدّ شيء أثناء سفري اليومين الماضيين؟!

فتتسع ابتسامة حارسه وهو يحاول التركيز في الطريق:

- تعلم أن الناس في بلدتنا لا شغل لهم إلا الكلام.. لكن لا أحد يجرؤ على الخوض في سيرة «نائب بلدنا» وتاج رأسها!

يصدر همهمة ساخطة موقنًا من كذب حارسه المنافق.. يعلم أن الجميع هنا يهابونه ولا يحبونه.. لكنه لا يستاء من هذا بل لا يكترث.. هو تعلم أن القوة تشتري أي شيء.. أي شيء حتى الضمائر.. والقلوب؟! القلوب هذه كلامها خائب.. لكن حتى هذه تلين بالوقت.. و«فاطمة» خير دليل!

ذكرها يستجلب ابتسامة جذلة لشفتيه فيداعب شاربه بإصبعه.. لقد اشتاق تلك الصغيرة لهذين اليومين.. اشتاق أنوثتها التي تحيي رميم رجولته.. بل يعترف أنه حقًا تعلّق بها كما لم يفعل مع امرأة من قبل.. وكيف لا؟! وهي التي رفعت رأسه وسط أهل البلدة كلها بولدها المنتظر.. الآن فقط يمكنه الصراخ بحقيقة عقم «غالية» التي بدّلتها بجبروتها طوال هذه السنوات.. والآن ينهدم جبروتها.. وكذبتها معًا!!

- ويجاا.. ويجاااا.. حانت ساعة الحساب.. أما علمتم أن لكل عنق مقصلة؟!

صوت «سليمان» يأتيه من بعيد، فيزفر بقوة وهو يتناول هاتفه محاولًا التشاغل به:

- ألا يزال هذا الغراب ينعق في البلدة؟! ينقبض قلبي كلما سمعت صوته العكر.

- الناس هنا تحبه.. وتتبرك به.. يشفقون عليه بعد مصابه بابنه وفقدانه عقله.. يقولون إن...

يقطع الحارس عبارته مصدومًا ويضطر لإيقاف السيارة فجأة، فينتبه «طاهر» ليترك هاتفه متسائلًا بسخط:

- لماذا أوقفت السيارة أيها الـ....

لكنه يقطع سؤاله وهو يرى المشهد الصادم أمامه..

فهناك على قارعة الطريق كان «سليمان» يحتجز جسد «فاطمة» بأحد ذراعيه، بينما الآخر يُشهر سكينه فوق رقبتها!

* * *

ترجّل الحارس من السيارة متمالكًا صدمته ليرفع سلاحه في وجه «سليمان» الذي صرخ بـ«طاهر»

الذي بدا كفأر مذعور داخل السيارة:

- حياتها وحياة ابنك في يدي.. دع حارسك يرمي سلاحه!

فترجل «طاهر» من السيارة وذعره يتقلب بين غضب ولهفة:

- ارمِ سلاحك وابتعد.

- لا.. لا تبتعد.. بل ظل مكانك.. وليتجمع أهل البلدة كلهم.. حقهم أن يروا آخر الحكاية كما شهدوا أولها!

يصرخ بها «سليمان» بصوته الجهوري وهو يدور حول نفسه محتجزًا جسد «فاطمة» معه.. ليتجمع أهل القرية مع صوت ندائه..

- اترك «فاطمة» أيها المجنون.. لو حدث لها مكروه، فسأرميك للذئاب تنهشك حيًا!

هتف بها «طاهر» بعجز، ليصرخ به «سليمان»:

- مجنون؟! ومن أصابني بالجنون؟! من حرق قلبي على ابني في عز شبابه؟!

امتقع وجه «طاهر» وهو يرى الناس يتحلقون حولهما بصمت، متابعين ما يدور بمزيج من فضول وقلق يخشون أن يقترب أحدهم خطوة، فتكون نهاية «فاطمة» وابنها!

- ماذا تقصد أيها العجوز الخرف؟!

- أنت قتلتَ ابني.. وقد انتظرتُ طوال هذه السنوات كي آخذ بثأري.. لكنني سأكون أكثر رحمة منك.. لن أدعه يموت بعدما تراه.. بعدما يزهر بقلبك يومًا بيوم.. بعدما يكبر حلمك به ويوشك أن يتحقق.. بل سأقتله في بطنها.. واحدة بواحدة.. والبادي أظلم!

- تعقّل يا رجل!

- أتعقّل؟! وهل بقي لي عقل؟! تقتل ابني فقط؛ لأنني رفضت التنازل لك عن أرضي؟! وبعدها تستغل حزني وإشاعة فقداني لعقلي كي تتآمر مع إخوتي وتنتزعوها مني.. كنت تراني أجوب الشوارع كالمتسولين وأنت تعلم أنك سلبتني أرضي وبيتي وابني؟! والآن تتحدث عن العقل؟!

يصرخ بها «سليمان» وهو يشدد ذراعه على عنق «فاطمة» أكثر، فتطلق صرخة مكتومة والذعر يبدو جليًا في عينيها، ليتلفت «طاهر» حوله كأنما يدرس الوضع.. حاول الإنكار أولًا، لكن خوفه على «فاطمة» وابنه المنتظر جعله يهتف أخيرًا بيأس:

- لم أقصد قتله.. أقسم بالله العظيم لم أقصد.. كنت فقط أريد ترويعك؛ كي تتنازل لي عن الأرض، وأنت كنت متشبثًا بعنادك.. لكن الغبي الذي وكلته

بالأمر أفسده.. كان مجرد خطأ!

هتافات الناس العالية حوله تنبئه بخطورة ما اعترف به، لكنه يطمئن نفسه أن لا أحد منهم سيجرؤ على الوقوف بوجهه.. فقط لو يخلص «فاطمة» منه.. وبعدها سيمزقه إربًا أمامهم ولن يبالي!!

- خطأ! خطأ! حياة ابني التي ضاعت هدرًا خطأ؟! عمري الذي راح بعده خطأ؟!

تنخفض حدة صوت «سليمان» تدريجيًا بعدها وذراعه يتراخى نوعًا فوق عنق «فاطمة» مع ارتجاف جسده الواشي بانفعاله، فيستغل «طاهر» الفرصة ليجذب «فاطمة» بعيدًا بسرعة ويهتف بأهل القرية:

- عليكم بهذا المجنون.. كبلوه حتى أتصل بالشرطة!

لكن الصمت الرهيب المشحون بانفعالاته يكون جوابهم للحظات قبل أن يجدهم يتقدمون بحركة متجانسة نحوه هو كأنهم رجل واحد.. تحركت «فاطمة» جانبًا تحتمي بإحدى الأشجار، بينما أنبأته نظرات العيون بأنه لا ينتظر خيرًا..

كل منهم في هذه المرة لم يكن يرى مظلمة «سليمان» فحسب.. بل كان يرى قهره الخاص في رجل -يفترض- أنه يمثلهم ليجلب لهم حقوقهم، لكنه كان يستغل منصبه بكل دناءة ليدهس رقابهم..

حتى حارسه الخاص الذي وقف مراقبًا لم يستطع رفع سلاحه في وجوه من وجدهم يشبهونه في القهر والذل..

- بالأمس قتل ابن «سليمان» ليسرق أرضه.. لو سكتنا.. فمن سيقتل من أبنائنا غدًا؟!

- القاتل يقتَل بحق الله.. النفس بالنفس وهو

اعترف.

- لكل ظالم نهاية.. وللصبر حدود يا «طاهر بيه».. سنشهد كلنا أمام النيابة بما سمعناه.

الهتافات الساخطة ترافق تقدمهم الحثيث نحوه وهم يتزايدون كأنما نبت لكل رجل مائة رجل جواره.. فيصرخ بهم «طاهر» بجنون:

- من هذا الذي تشهدون ضده؟! أنا سيادة النائب.. صاحب الحصانة.. كل كلامكم لن يساوي كلمة واحدة مني.. أنا...

كان يتحدث وهو يتراجع إلى الخلف متقهقرًا أمام تقدمهم الحثيث نحوه غافلًا عن غصن الشجرة المكسور خلفه، والذي انغرس في ظهره من الخلف بقوة حركته!

صرخة هائلة يتردد صداها في هذا الليل يلفظ

معها طاهر آخر أنفاسه!!

التكبير يملأ المكان، والناس يضربون كفوفهم بعجب، ويرفعون رؤوسهم للسماء بخشية..

«سليمان» يجثو على ركبتيه أمام جثة «طاهر» التي بقيت معلقة مكانها عبرة.. يخمش الأرض بأظافره مع قوله المختلط بدموعه:

- نم وارتح يا ابني.. القدر شاء أن آخذ بثأرك دون أن تلوث يدي بقطرة دم واحدة.. أحتسبك عند الله يا قرة عيني.. لعل هذا يكون بركة هذه البلدة، ونهاية لعهد الظلم والجبروت!

يشعر بكف «فاطمة» يربت على كتفه، فيرفع إليها عينين دامعتين:

- لم تجرِ الأمور كما اتفقنا.

فتتمتم بجسد مرتجف:

- هكذا أفضل.. الله أراد بك رحمة!

كانت خطتهما -بعدما اعترف لها بحقيقة قتل «طاهر» لابنه- أن يتظاهر بتهديدها كي يجبره على الاعتراف أمام أهل البلدة كلها حتى إذا أخذ ثأره لم يلمه أحد.. لكن القدر حقًا كان أكثر رحمة به!!

يرفع رأسه للسماء بتضرع خافت.. القمر يتحرر أخيرًا من غيومه ليبزغ كاملًا وسط السماء.. ينشقّ الغمام عن مطر منهمر يغمر الحضور جميعا كأنما هو بداية جديدة لطهر بعد دنس!

الهالة السادسة عشرة

(المسخ!)

لم تكن قسمتك عادلة!

حين افترقنا تركت لي اسمي وملامحي واحتفظت مني بكل ما دون ذلك..فما أظلمك قاضياً! وما أبخسني عاشقة!

* * *

- مات؟!

تصرخ بها «غالية» بغضب تواجه الخبر لتطلق بعدها عدة صرخات وهي تضرب الحائط بقبضتها الفتية..

- كيف مات دون أن ينال عقابي؟! دون أن يذوق لدغة انتقامي؟!

ثم يخفت صوتها لترتعش نبراته وقبضتها تنتقل لصدرها هي تكاد تشقه:

- دون أن يدفع ثمن عمري الذي ضاع معه؟! هه؟! يظنه كان بخسًا؟!

ثم تنشقّ شفتاها عن ابتسامة ساخرة بمذاق المرارة، وهي تتبين المفارقة في مناقضة اسميهما لواقعهما.. فلا هي كانت «غالية» ولا هو كان «طاهر»!

قطرات من الدمع العزيز تذبح وجنتها، فتمسحها بظاهر كفها بعنف لتصرخ بخادمتها:

- أريد عباءة ملونة.. خضراء.. حمراء.. أي لون غير الأسود.. سأخرج بها الليلة وسط أهل البلد كلهم.. واجلبي لي تلك المرأة كي تخضب لي كفيّ.. اطلبي

من الصائغ أضخم طاقم ذهب لديه يأتيني به.. أريد أن يروني جميعًا الليلة كشمس النهار!

ترمقها خادمتها بنظرة دهشة لم تخلُ من إشفاق.. هذا الذي جعلها ترفع إصبعها الذي فقد خاتم «وجه الأسد» لتصرخ بها بنفس الجنون:

- أين خاتمي؟! كان معي تلك الليلة التي سقطت فيها.. سأخرب بيتكم كلكم إن لم تعثروا عليه.

- سأقلب الدنيا بحثًا عنه.. لا تغضبي يا سيدتي.

تهتف بها الخادمة محاولة تهدئتها، لكنها تعود لتصرخ كأنما أصابها مس من الجنون:

- تظنون الأمور تفلت من يدي؟! تظنون جبروت «غالية» لم يعد كما كان؟! غدًا تعلمون جميعًا.. غدًا أريكم أن كلمتي هي التي تضع خط النهاية.. اغربي عن وجهي.

تدفع معها جسد الخادمة بعنف يلقيها أرضًا فتتأوه الأخيرة لتعاود الوقوف هاربة من غضبتها.. فيما تتوجه «غالية» نحو النافذة تراقب بيت «فاطمة» المقابل من خلف أستارها، وهي تضغط على أسنانها بغضب..

- أنا ربّيت الأفعى في داري.. لم أخطئ عندما كنت أدعوكِ «ابنة غالية».. لم أكن أبالغ في خوفي الدفين من ذكائك.. أنتِ ابنتي حقًا وليست تلك «الخائبة» «غنى» التي لا تجيد سوى البكاء جوار الحائط.. لكن لا تلميذ يتفوق على أستاذه.. تظنين أنكِ ربحت؟! خطفتِ الرجل وحملتِ منه والآن يموت لتحصدي ماله الذي جمعه بفضلي أنا؟!! لا والله لن يكون.. وحق شيبة شعري هذا معه لن أتركك تتنعمين وولدك هذا بقرش من ماله!

تختمر الفكرة في رأسها لتتوج شفتيها بابتسامة

شيطانية قبل أن تتحرك لتنفذها..

* * *

- «سليمان»!

يهتف بها «هارون» بلهفة وهو يأتيه ملثمًا كعهده، قبل أن يعانقه بحرارة مع صوته المتحشرج:

- أخيرًا أخذت حقك.. كدت أبكي عندما علمت الخبر.

- الحمد لله.. حقّ عليه نصر عباده ولو بعد حين.

يتمتم بها «سليمان» بخشوع وهو يربت على ظهره.. ليرفع إليه عينين دامعتين:

- القدر حرمني ابنًا.. وعوضني باثنين.. أنت و«فاطمة».

ذكرها يؤجج عاطفته، فيزدرد ريقه وهو يسأله بتردد:

- كيف هي؟! أشفق عليها من هذه الدوامات التي تدخلها واحدة تلو أخرى.

- تترنح كالطير الذبيح.. لا تكاد تجد أرضًا ثابتة تقف عليها.. تارة تنتشي بنشوة الانتقام.. وتارة تتحسر على مرارة ما فقدته.. عزاؤها في ابنها أن قد يعوضها!

فتلتمع عينا «هارون» بدمعة:

- تظنها ستحبه وهي تدرك ممن جاء وكيف جاء؟! سيبقى ندبة في خاصرتها العمر كله!

لكن «سليمان» يتنهد بحرارة، ليبتعد ويجلس قائلًا:

- طلبت منها السفر بعيدًا عن القرية؛ كي ترمي كل شيء خلف ظهرها.. لكن بريق الانتقام لا يزال يعميها.. تريد أن تقهر «غالية» لآخر لحظة.. وتثبت لكل أهل البلدة أن الفتاة اليتيمة التي طالما نهشوها بألسنتهم خرجت الرابحة في النهاية.

- أي ربح؟! لقد خسرت نفسها.. هل بعد هذه خسارة؟!

يهتف بها «هارون» بغضب.. غضب منها ولأجلها.. ليرمقه «سليمان» بنظرة متفحصة طويلة سبقت قوله:

- أما آن الأوان أن تفصح لها عن نفسك؟! لعل عوجها بحبك يستقيم!

- تظن هذا ممكنًا الآن؟! «فاطمة» الجديدة التي ألفت مذاق الانتقام حتى أدمنته.. كيف سيكون حالها معي.. أنا.. أنا بالذات؟! كيف أجمع بينها وبين

أبي في حياة واحدة؟! هو المستحيل بعينه يا «سليمان»!

يرمقه «سليمان» بنظرة مشفقة إزاء المرارة التي تتساقط بين حروفه.. لترتجف شفتا «هارون» بابتسامة بطعم البكاء:

- من يخبرها أن هناك واحدًا لا تعرفه يكاد يهيم بها عشقًا؟! أيامه كلها نذرها لها لا منذ عام ولا عامين.. بل منذ سنوات تكاد تقارب عمرها؟! من يخبرها عن عذاب عشت أكتوي به لأجلها ولا أملك له دفعًا؟! عن دعوات ليل رفعتها للسماء أن تكون لي.. فيأتي النهار وأجدها مردودة ملطخة بذنبي.. من يخبرها أن لو باعتها الدنيا كلها فهناك واحد يقايض نظرة رضا منها بكل ما يملك؟!

كلماته ترجف قلب «سليمان» بحرارتها، فيكتوي لها قلبه ليرفع وجهه للسماء، مراقبًا نجوم ليل لامعة

بدت كشهود عدل على ما يدور:

- ربما لو عادت «فاطمة» القديمة.. لعاد معها الأمل.. أما هذه الجديدة فنار تحرق ما حولها.. وتحترق قبلهم!

* * *

- «فاطمة»!

يهتف بها «هاشم» بلهفة وهو يراها تهبط الدرج بخطوات ثابتة نحوه قبل أن تتجاهله تمامًا لتصافح والده بجواره:

- البقاء لله يا ابنتي.. جئنا نطمئن عليكِ.

- شكرًا.

تقولها باردة مطعمة بقناع قسوتها الجديد لتجلس

أمامهما مدعية الصلابة.. وقف «هاشم» يراقبها من علو بندم، ليرمقه والده بنظرة مشفقة سبقت خطابه هو لها:

- نعلم أن زيارتنا غير مناسبة.. وأن أهل البلدة قد...

- لا أهتم.. فليحترقوا بسوء ظنونهم!

تقاطعه بها بنفس القسوة، فيتنهد الرجل بأسف فيما يقترب منها «هاشم» هاتفًا بحرقة:

- ما الذي جرى لكِ يا «فاطمة»؟! كيف تبدلتِ هكذا؟!

- قف مكانك.. إياك أن تقترب!

تهتف بها بصرامة ذكّرته بـ«غالية»، لتقف مكانها ويتلون وجهها بانفعالاته:

- تسأل كيف؟! أخبرك كيف؟! في كل مرة كنت تشعرني فيها بأنك ترغب في إخفائي عن الناس.. تتظاهر بأنها رغبتي وأراك ترضى بعزلتي ما دامت تكفيك عار ظهوري.. في كل مرة كنت تشعرني بأنك لا تحبني بقدر ما تحب حبي لك.. جعلتك معجزتي، فأجدتَ أنت دور «النبي».. هذا الدور الذي حرمك منه القدر فعاقبتني أنا.. أحببتني يوم كنت هينة الشأن جوار مقامك العظيم.. فلما وجدتني أرتقي درجاتٍ أنت تهبطها بدأت تقصّ لي أجنحتي.. تسأل كيف؟! في كل مرة كنت تسمح فيها لتجبّر والدتك أن يكسرني مكتفيًا بدفاع واهن.. في كل مرة كنت ترى فيها دمعي، فتتغافل عنه قانعًا بعناق ينهي الحكاية.. في كل مرة كنت تعيّرني فيها دون كلمات أن لا ملجأ لي سواك..

عيناه تتسعان بصدمة من كلماتها ليخونها الدمع الحارق:

- تدري كيف قضيت ليلة طلاقنا؟! قضيتها على الأرصفة.. يمر بي الناس، فيظنني بعضهم متسولة يلقون لي بعض المال.. ويظنني البعض الآخر عاهرة فيقذفونني ببذاءتهم.. أنظر خلفي فلا أجد سوى بيت «غالية» ينتظرني بشماتتها.. وأنظر أمامي فلا أرى سوى بيتك يعيرني بخذلانه.. فكرت أن أقتل نفسي فأريح وأستريح.. لكنني وجدت زواجي من «طاهر» يمنحني الغاية نفسها مع ربح إضافي.. أن أكسركم كلكم كما كسرتموني.

يحوقل والده بصوت خفيض، مطرقًا برأسه، فيما يهتف بها «هاشم» مدافعًا:

- أنتِ من طلبتِ الطلاق.. وأنا فعلتها غير جاد واثقاً أنكِ...

- أنني سأعودا من لي غيرك؟! صحيح؟! نسيت أن الحب وحده لا يكفي.. وأن «الكونسيلر» يخفي

عيوبنا لكن لا يعالجها.. أنت زدتَ هالاتي السوداء عمقًا في كل مرة كنت أهرب فيها من نفسي فلا أجد سوى صورتي في مرآتك.. فلما تكسرت المرآة.. تهت عن نفسي.. وتهت عنك!

يخفق قلبه بلوعة.. كلماتها تبذر مزيجًا من الغضب والحسرة في وجدانه، لكنه يهتف مكابرًا:

- لم يفت الوقت بعد.. لم يعد لـ«غالية» سلطان علينا.. سأردّ لها قريبتها، وأهرب بكِ بعيدًا عن هنا.. نترك...

ضحكتها العالية تمتزج بدموعها في تجانس عجيب تقطع كلماته، قبل أن تتقدم هي منه هذه المرة لتغرس نظراتها القوية في عينيه:

- ألم تفهم بعد يا «كابتن»؟! الهدف هذه المرة خانك! أنت سددت الركلة للمرمى الخطأ!

- ليس صحيحًا.. أنتِ كاذبة.. تتظاهرين بعكس ما يخفيه قلبك!

يصرخ بها بجنون ليرتجف جسدها رغم برود حروفها الشاردة:

- أنا أحببتك كـ«معجزة» لكنني نسيتك كـ«ذنب».. ذنب أكفِّر عنه كل ليلة بمرأى المسخ الذي تحولتُ أنا إليه.. وأي كفارة!!

- كاذبة.. كاذبة!

يصرخ بها «هاشم» بانفعال، لكن والده يقف ليسحبه نحوه هاتفًا بصرامة:

- قُضِي الأمر يا «هاشم».. «فاطمة» قالت كلمتها، وانتهى الأمر.

يقلب بصره بينهما بتشتت وهو يشعر بالضياع.. لا..

لا يمكن أن تنتهي الحكاية هاهنا بعدما جدد موت «طاهر» الأمل فيه.. «فاطمة» له.. ملكه.. لن تتغير هذه الحقيقة أبدًا!!

تعطيهما ظهرها في إشارة لانتهاء المقابلة، فتشعر بهما خلفها يغادران.. لكن صوتًا ما بداخلها أبى إلا أن تختم اللقاء بقولها:

- «هاشم».. أنا تخلصت منك.. فتخلص أنت مني.. فلن يلتقي طريقانا بعد الآن أبدًا.

* * *

- كنت عندها؟!

تهتف بها «غنى» بحسرة وهي تستقبله في بيتهما، لتقابلها عيناه بنظرة أشد قسوة من ذي قبل.. عروقه النافرة مع ارتجاف جسده كانت تفضح لها انفعاله، وتصنع مع حمرة أذنيه وأنفه انعكاسًا مخيفًا.. فلم

تملك بكاءها لتهتف به:

- لماذا عدت إذن إلى هنا؟! لقد زالت كل الحواجز بينكما.. ارجع إليها.

- تظنينني أحتاج أمرك؟! تظنين أنني ما زلت تحت سلطتك أنت وغالية؟!

يهتف بها بقسوة ليعتصر ذراعيها بقبضتيه مردفًا:

- ما عادت لكما حاجة بي الآن؟! انتفت أهميتي؟!

لكنها تقاوم خوفها لتصرخ به لعلها تنقذه من هذه الهوة السحيقة التي ينجرف إليها:

- تريد الحقيقة؟! نعم.. ما عادت لي حاجة بك.. أنا أحببت البطل الشهم الحنون الذي تحدى العالم كله لأجل نداء قلبه.. أين أنت منه الآن؟! مجرد مسخ مشوه يثير شفقة الآخرين على حاله.. آآآه!

عبارتها تنقطع بصرختها، وكفّه يهوي على وجنتها بصفعة فقد فيها كل رشده، ليدفعها بعنف فتسقط على الأريكة صارخًا:

- الآن أنا مسخ؟! الآن صرتم كلكم تزهدونني بعدما كنتم تصطرعون للفوز بي؟! حسنًا.. ترينني مسخًا؟! سأريكِ أي وحش صرته!

تغطي وجهها بكفيها وهي تراه ينحني فوقها، فتصرخ برعب.. تسمع صوت تمزق ملابسها فيتوقف قلبها عن النبض للحظة قبل أن يعود لجنون خفقاته.. هذه لمساته التي طالما تمنتها في خيالها لكن.. بدلًا من أن تأتيها شغوف دافئة تكاد تمزقها بخشونتها.. الألم يتدفق في خلاياها، فلا تدري هل تئن به خلاياها أم إن قلبها من يبثه مع نزيف أوردته لسائر الجسد؟!

- لا تفعلها.. أرجوك.. لا تجعلني أكرهك.. لا تجعلني

أخسر الشيء الوحيد النقي الذي حظيت به في حياتي كلها.. اهجرني، لكن لا تبقِ لي ندبة كهذه خلفك.. دعني أحبك لآخر لحظة في عمري.. أرجوك.. لا تجعلني أكرهك.. أرجوك.

كلماتها تمتزج بدموعها، فتنافسها في حرارتها.. لتشعر به يتجمد فوقها، لكنها لا تجرؤ أن ترفع كفيها عن وجهها، مكتفية بهذه الهدنة المؤقتة التي منحتها بعض الأنفاس..

فيما كان يخوض هو صراعه الخاص بين شياطين غضبه وكلماتها التي تسربت عبر شقوق روحه كشمس تفرض نورها على الظلمات.. غضبه يستصرخه المزيد من العنف؛ كي يرضي سطوة شعوره.. كي ينفس عن هذا البركان الذي تحرقه حممه.. لكن نجمة فطرته بزغت وسط هذا الليل لتضيء دربه..

ينهض عنها ليحيط وجهه بكفيه هو الآخر مثلها، كأنما يخزيه أن يتحول هكذا.. هي لم تكذب.. هو صار مسخًا.. منذ سمح لـ«عاهته» المستحدثة أن تفسد حياته.. أخفاها متظاهرًا بمرحه، لكنه عاقب بها الجميع وأولهم «فاطمة».. كره نجاحها وهو يذكِّره بفشله.. والآن يجد الجرأة ليعترف أنه وجد في عرض «غالية» وقتها ميلًا خفيًا لم يُظهره.. كأنما أراد أن يُشعرها دومًا أنها ستكون في مرتبة أدنى منه.. والآن يكرر هذا الخطأ مع «غنى».. رغم يقينه أنها حقًا تحبه.. يعاقبها بذات الذنب.. كأنما يقتص منها هي لهذا النقص الذي يجده في نفسه!!

صوت أنفاسها اللاهثة المختنقة يقاطع أفكاره، فيرفع كفيه عن وجهه نحوها.. يقبض كفيه بقوة وهو يشعر أنه يكره نفسه أكثر وأكثر.. يمدّ أنامله ليغطيها بملابسها من جديد، فيرتجف جسدها ولا تزال تغطي وجهها بكفيها.. لكنه يرفعهما ببطء ليطالع عينيها المحمرتين من فرط البكاء.. ثم لم يشعر

بنفسه وهو يجذبها برفق ليضمها لصدره في عناق!

عناق لم يدرِ أيهما كان يحتاج إليه أكثر.. هي التي هدأت له أنفاسها بعد صخب، وكأنما وجدت أخيرًا شاطئ أمان ترسو عليه سفينتها الضالة.. أم هو الذي كان يريد أن يعتذر.. أن يصالح.. يصالح نفسه أولًا قبل أي أحد.. لعله متى صالحها أدرك النجاة لهما معًا..

يهدهدها بين ذراعيه كطفلة فلا يدري هل يواسيها أم يواسي نفسه.. هل يجبر كسرها أم كسره.. ولو صدق نفسه لأدرك أن كليهما في هذه اللحظة كان يمثل صورة الآخر في المرآة!

* * *

ضوء النهار يشاكس عينيه أخيرًا، فيفتحهما دون رغبة.. لم ينم.. لم يستطع فعلها بعد هذه الليلة التي مرت به.. إنه حتى لم يستطع الاستلقاء على الأريكة

التي كاد ينتهكها فوقها حتى بعد مغادرتها لغرفتها.. فاكتفى بجلسته فوق أحد المقاعد، تاركًا نفسه لجحيم خواطره..

لم يتبادل معها كلمة واحدة بعد عناقه لها.. فقط أبعدها بعدها برفق، ليعطيها ظهره قبل أن يشعر بها تغادر نحو غرفتها مغلقة بابها خلفها.

آن لهذه المهزلة أن تنتهي! لن يكمل حياته بهذه الطريقة.. ربما يجب عليه أن يدرك وضعه الجديد على «خريطة القدر».. ويتأقلم على «جغرافية المكان»!

- أنا تخلصت منك.. فتخلص مني!

يسمعها بصوت «فاطمة» فتشتعل في روحه كألف محرقة.. يريد أن يسألها كيف فعلتها بهذه البساطة؟! كيف وهو لا يزال يتخبط بين جدران يأس عقيم، فلا يبصر غدًا ولا حاضرًا.. وحده الأمس يعتصر عنقه

بقبضته!

- أفق يا «هاشم».. دع كل هذا خلف ظهرك.. لقد وصلت للقاع الذي ليس بعده سقوط.. فتشبث بالجدار كي تتسلق نحو قمة الهاوية.

يقولها لنفسه بعزم وعيناه تتوقدان بشعلة قديمة افتقدها في نفسه منذ زمن، لينهض من مكانه فيتوجه نحو باب الشقة.. سيعود للعاصمة.. ويترك كل شيء خلفه.. يفتح الباب لكن أنامله تتيبس على مقبضه.. هذه البائسة بالداخل.. ألا تستحق اعتذارًا وكلمة وداع؟!

على الأقل يخبرها بقراره!!

يعاود إغلاق الباب ليتوجه نحو غرفتها التي لم يدخلها يومًا.. يطرق بابها، لكنها لا تجيب.. خاطر مفزع ينتابه، فيجعله يفتح الباب بعنف ليتوجه نحو جسدها النائم.. لكن حركة جسدها بأنفاسه تسكن

هواجسه..

- «غنى»!

همسه باسمها كان غريبًا على أذنيه.. تمامًا كملامحها التي بدت له في نومها أكثر هشاشة.. هالات عينيها السوداء تذكره بفاطمة «القديمة».. فيود لو يميل عليها فيشبعها بقبلاته.. يجلس جوارها على طرف الفراش.. يمد أنامله برفق يتلمس بقايا دموع جافة تجمدت على وجنتيها يوقن أنه هو سببها.

شهقتها المرتاعة تجفله وهي تنتفض من نومتها فجأة، قبل أن ترمقه بنظرة مذعورة وهي تصرخ لتغطي وجهها بكفيها لا تزال تحت تأثير النوم وحدث الأمس الجلل.. نظرة ذبحت رجولته وجعلته يكره نفسه أكثر وأكثر!

- لا تخافي.. أنا فقط جئت لأبلغك آخر قراراتي.

يغمغم بها بخشونة لم يتعمدها، فترفع كفيها عن وجهها ببطء وهي تستعيد وعيها كاملًا.. تتفحص ملامحه بعاطفة لم تعد تحتاج لتأويل.. ماذا يريد أن يخبرها؟! أنه سيهجرها؟! فليفعل! كفاها منه هذا العناق بالأمس! عناق ما ذاقت في حياتها مثله.. أخيرًا مسّها قبس من حنانه هذا الذي يحكون عنه!! فلتكتفِ إذن برشفة من هذا الكأس الذي لن يكون أبدًا لها!

- سأسافر للعاصمة.. ولن أعود.. ورقة طلاقك ستصلك في أقرب وقت.. أعتذر عن كل ألم سببته لكِ.. سامحيني لعلي يومًا أسامح نفسي.

كان يتحدث بآلية مقتضبة دون أن يرفع عينيه إليها، لكنها كانت تستشعر البركان الذي يجيش بصدره.. هذا الشعور الذي تحفظه عن ظهر قلب.. شعور الفقد.. الخذلان.. الخيبة التي صارت هي أبرع

البارعين فيها!

ابتسامة مريرة تجتاح شفتيها وهي تراه ينهض ليغادر، لكنها تستوقفه بندائها:

- «هاشم»!

يلتفت نحوها ليجدها تنهض فتتوجه نحوه.. ملامحها كلها تنبض برجاء أفصحت عنه حروفها:

- لا تطلقني.. إن أردت ألا تعود فلا تعد.. لكن دعني أحيا على هذا الأمل..

ثم أشارت حولها لتردف بنبرة أكثر تهدجًا:

- أريد أن أبقى هنا.. ولو مجرد زوجة بالاسم لك.. لا أريد العودة لبيت «غالية»!

ابتسامة متهكمة ارتسمت على شفتيه وهو يغمض

عينيه بقوة.. لو كانت طلبت مثل هذا بالأمس فقط لطلقها في التوّ واللحظة؛ نكايةً بها وانتقامًا من «غالية».. لكنه الآن لا يملك إلا أن يستجيب لهذا الرجاء النابض في عينيها..

- لن أعود يا «غنى».. لا تضيعي حياتك في وهم.

- حياتي ضاعت من زمن وانتهى الأمر.. أنا فقط أمنحها بعض الأنفاس الأخيرة.

تقولها بابتسامة شاحبة محاولة صبغ صوتها بمرح زائف مزقه أكثر.. ليشيح بوجهه عنها..

- هل تسمح لي باقتراح أخير.. وهدية؟!

سؤالها يستجلب نظرة عميقة منه لعينيها العاشقتين تحمسها لتقول بحرارة:

- كنت أفكر منذ فترة بهذا الأمر.. أنت تشعر

باليأس؛ لأنك ابتعدت عن المجال الذي تحبه.. الكرة.. ابتعدت عنه تمامًا خشية أن ترى الشفقة والانتقاص في عيون الناس.. لهذا فكرت أن أعرض عليك فكرة ما.. أن.. تفتح بمالك المتبقي «أكاديمية» لتعليم الناشئين رياضة كرة القدم.. وهكذا تقضي وقتك في ممارسة عمل تحبه.. وفي نفس الوقت.. اسمك سيخلد بين الناس في كل فتى يخرج من عندك.. تخيل لو نجح الأمر.. جيل وراء جيل سيخرج منه ولو بطل واحد يرفع اسمك أنت.

كانت عيناه تتسعان بذهول مع كل كلمة.. قلبه يرجف بصدق حماسها.. حرارة كلماتها لم تكن تحتاج لتأويل.. لكنه لم يملك إلا رده المقتضب:

- فكرة جيدة.. سأحاول تنفيذها هناك.

ابتسامتها تتسع وهي تمسح دمعة فرت من طرف عينها، لتمد أناملها فتخلع عنها قلادتها التي ناولته

إياها:

- هذه سلسلة بـ«علَم بلادنا».. اشتريتها قبل أول مباراة لعبت أنت فيها في المنتخب.. يومها حققت أنت هدفين.. فصرت أتيمن بها ولم أخلعها من عنقي من وقتها.. خذها.. علقها في سيارتك.

ضمّ قبضتيه بجواره وهو يشعر بإحساس غريب نحوها.. من الصعب أن يلقى المرء من يخبره أنه كان يحبه بهذا الشكل طوال هذه الأعوام، وهو لا يعرف عنه شيئًا..

أساءت تأويل صمته بعدها، فاغتصبت ضحكة مفتعلة لتردف:

- في العادة يتهادى الناس ليتذكر بعضهم بعضًا.. لكن.. لا تأخذها على هذا المحمل.. بل العكس.. كلما رأيتها تذكر أنك يجب أن تنجح كي لا تعود لهذه الأيام الكارثية التي عرفتني فيها!

اختنقت عبارتها مع الجملة الأخيرة، فلم يستطع المكوث أكثر، وهو ممزق بين شعوره بالشفقة نحوها والرثاء لذاته هو.. لهذا تناولها منها ببعض العنف، ليغادر بخطوات راكضة، كأنما يهرب تاركًا إياها خلفه تبكي كعهدها.. لكن بكاءها هذه المرة كان ممتزجًا بابتسامة أمل!

* * *

- الولد ليس ابنه!

- «عِرق غفران دساس» والفتاة لأمها!

- طوال عمرنا ونحن نعلم أن «طاهر» لا ينجب من أين أتت له بهذا الولد، وبعد أقل من شهرين من زواجهما؟!

- أغوت الرجل وأكلت عقله بسحرها.. فلم ينتبه

لسذاجة خدعتها!

- لقد رأوها بعد زواجهما تخرج في منتصف الليل لتقابل «هاشم» ذاك.. بل إنه تجرأ وزارها في بيتها - وحده- بعد وفاة «طاهر».

- لن نسكت على هذه المهزلة.. فلتخرج بابنها من قريتنا.. ولتمارس فحشها بعيدًا عنا!

الشائعات تصلها في بيتها، فتدرك أن «غالية» هي من تروجها، لكنها لا تهتم.. تعلمت من «طاهر» كيف تخرس لغط الألسنة.. كيف تكمم الأفواه بـ«إطعامها»!!

- «الست فاطمة» ستعقد كل عشية مأدبة لجميع فقراء البلدة.. نذر نذرته حتى يصل ولدها بالسلامة.. من اليوم لن يبيت فقير جائع في القرية.

السيارة تجوب البلدة بـ«مكبرات الصوت»، فيصيح

الناس فرحًا، ويتناسون شائعات «غالية».. بل و«غالية» نفسها.. يبدو أن قاعدة «أطعم الفم تستحِ العين» لا يبطل مفعولها أبدًا!!

تبتسم «فاطمة» لصورتها في المرآة، وهي تتحسس بطنها المنتفخ برهبة تتزايد يومًا بعد يوم.. الشهور تمر بسرعة فلا تكاد تصدق أنها وصلت شهرها التاسع.. أيام قليلة ويصل صغيرها.. كل عائلتها التي ستكتفي بها عن الناس أجمعين..

- ماذا أسميك؟!

تهتف بها كأنه يسمعها.. ثم تبتسم بشجن وهي تذكر الأسماء التي كانت قد أعدتها أثناء زواجها من «هاشم».. كانت قد اختارت اسم «مازن» للذكر.. يزعمون أنه من «المزن».. السحب الممتلئة بالمطر.. تيمنت به وقتها.. لكنها الآن تشمئز منه.. من كل شيء يذكرها بـ«هاشم» وضعفها معه..

- سأسميك «مهاب».. كي تهابك الدنيا كلها.. كي أظل أذكّرك وأذكّر نفسي أن القوة هي من تضع لنا المكانة في القلوب.. وأن الحب هذا قوت الضعفاء.. لا يسمن ولا يغني من جوع!

تشعر بحركة الصغير في بطنها، فتتأوه بضعف لترتسم على شفتيها ابتسامة:

- غضبت من قولي؟! تظنني أعنيك أنت بحديثي عن «الحب»؟! لا يا صغيري.. حبك أنت مختلف.. حبك وضعه الله في قلبي منذ وعيت على هذه الدنيا، وتمنيت عائلة من دمي.. نعمة يتمرغ فيها الكثيرون ولا يشعر بقيمتها إلا من حُرِم منها مثلي..

تشعر بحركة الصغير تزداد شقاوة.. فتتسع ابتسامتها لتكور بطنها بذراعيها هاتفة بنبرة حالمة:

- أريدك تفيض شقاوة.. «عفريتًا» صغيرًا.. لم أحب يومًا الأطفال الساكنين بدعوى التهذيب.. أريدك أن

تملأ هذا البيت صراخًا وضجيجًا..

ثم تهدج صوتها لتردف بصوت متحشرج:

- أمك ملّت السكون والوحدة.. تنتظرك كي تعيد لها الحياة..

تنهيدة حارقة تغادر شفتيها بعدها لتغتصب ابتسامة، وهي تتوجه نحو غرفة الصغير التي جهزتها كاملة.. تفتح خزانتها تتلمس ثيابه الجديدة.. ألعابه التي انتقتها بنفسها.. جواربه المنمنمة..

- ماذا لو كانت فتاة؟!

الخاطر الأخير يزعجها بقوة.. الطبيب في البداية لم يخبرها بنوعه، زاعمًا أنه لا يستطيع مع وضعيته أن يجزم بالأمر.. لكنها هي من طلبت منه مؤخرًا ألا يفصح.. هي تريده ذكرًا.. ذكرًا يرث معها جلّ مال أبيه.. تتقوى به في هذا العالم الشرس..

(لما قالوا دي بنيّة.. فرح قلبي وعنيه)

من بعيد.. بعيد جدًا.. تدوي الأغنية في ذهنها بلحنها القديم بصوت «غفران».. يرقص لها قلبها على دقات الحنين والشجن.. لكنها تنفضها عن رأسها بشراسة..

- اخرجي من رأسي أنتِ وكل ما يذكرني بكِ.. أكرهك.. أكرهك كما أكره نفسي التي تدنست بعارك!

تهتف بها بقسوة صارت مرادفة لـ«المسخ» الجديد.. قبل أن تغلق الخزانة بعنف مردفة بعينين متوهجتين:

- هو ولد.. «مهاب».. رمز قوتي الجديدة الذي لن أسمح لأحد أن يطمسه!

* * *

- أوامرك يا «ست الكل»!

تهتف بها المرأة -خادمة «فاطمة»- بخنوع مقزز أمام «غالية» التي تفحصتها بنظراتها المتسلطة لتسألها:

- تعلمين ماذا سأفعل بكِ لو علم ما بيننا أحد؟!

- فليقطع لساني يا «ست غالية».. سرك في بئر!

تهتف بها المرأة وعيناها معلقتان ببعض المصوغات الذهبية التي وضعتها غالية أمامها على المائدة.. لتهتف الأخيرة بها بمكر:

- تعلمين ماذا يقول الناس عن «ذهب غالية»؟! قيمته ليست فقط في وزنه.. بل في تفرد أشكاله.. لو منحتك واحدة من هذه، فلن تجدي امرأة في البر كله ترتدي مثلها!

- أعرف يا سيدتي.. أعرف.

تهتف بها المرأة بطمع وعيناها تجحظان في محاولة لاختيار واحدة من هذه القطع الثمينة دون جدوى..

فيما ترمقها «غالية» برضا قبل أن تشرد ببصرها.. الأيام تمر.. وسلطان جبروتها يتهاوى أكثر وأكثر.. هذا الذي سيتفتت تمامًا متى وضعت «فاطمة» طفلها.. لا تصدق أنها ستحتمل سماع صوت بكائه عبر المسافة القريبة بين بيتيهما لتدرك مع كل صرخة منه أنها كسرتها هي حقًّا!

- يمكنني أن أدسّ لها دواء في الطعام يفقدها طفلها.. بل وحياتها كلها!

- لا!

تصرخ بها «غالية» دون وعي.. كأنما في باطن وجدانها لا تزال تعترف بـ«أمومة خفية» لـ«فاطمة»! غريب؟! ربما.. لم تفهم يومًا أبعاد حبها العجيب لهذه الفتاة.. وشعورها المتناقض نحوها.. لا تتقبل فكرة أن تموت «فاطمة».. لكن ابنها!

- أريد موت الطفل فقط.. فور ولادته..

تقولها بحقد قاسٍ وهي تتلمس موضع خاتمها «المفقود» في إصبعها.. هذا الذي أثار جنونها أكثر لتردف بنبرة أكثر اشتعالًا:

- لا أريدها أن تتنعم به يومًا واحدًا.. لكن أتمي الأمر بـ«نظافة».. لا أريد أن تتركي خلفك دليلًا واحدًا.

* * *

صرخات «فاطمة» في المشفى تعلو وهم يعدون بفراشها المحمول إلى غرفة العمليات..

ترفع وجهها نحو الأضواء البيضاء في السقف، فيرتجف قلبها بالأمل رغم الألم.. قلبها يناشدها الدعاء.. لكنها لا تستجيب.. هي أغلقت بينها وبين السماء ألف باب.. كأنما طمست مع فطرتها كل ما يمكن أن يذكرها بها.. مسخ.. هكذا صارت حقًا!

- «سليمان»!

تهتف بها بلهفة وهي تراه الوحيد الذي معها هاهنا.. عيناه الطيبتان تطوقان ملامحها فتتشبث بكفه لتردف بضراعة:

- ابقَ معي.. لا تذهب.. كن أول من يضم طفلي.

يبتسم لها مطمئنًا، وهو يرفع رأسه بدعاء خافت، فأغمضت عينيها بقوة تغالب خوفها.. قبل أن تشعر بهم يدخلونها لغرفة العمليات.. لن تلد ولادة طبيعية.. وما الذي كان طبيعيًا في حياتها كلها؟!!

ابتسامة ساخرة تودّع بها وعيها بفعل هذا المحقن الذي غرسوه في ذراعها.. لا بأس.. ستفتحين عينيك بعد قليل لتضميه.. استرخي.. استرخي..

تفتح عينيها ليعود إليها وعيها بعد دقائق.. تنتظر سماع صوت بكائه، لكن الصمت حولها يقلقها..

- «مهاب».. أين «مهاب» يا «سليمان»؟!

تتمتم بها بوعي منقوص ليصلها صوت «سليمان» مطمئنًا:

- هو بخير.. وضعوه في الحضّانة كي يطمئنوا عليه أكثر.

- يطمئنوا؟! حضانة؟! لماذا؟! ماذا به ابني؟!

وعيها يعود إليها تدريجيًا، لتعايش معه يومين

قاسيين بتفاصيل نهشتها بقلق.. قبل أن يصلها الخبر الصادم..

- الولد.. مات!

* * *

- ماذا تعنين بأنه مات موتة طبيعية؟! ألم تفعليها أنتِ؟!

صرخت بها «غالية» بغضب لم تفهمه الخادمة التي هتفت بانفعال:

- وهل كان لديّ وقت؟! الولد نزل بمشكلة صحية.. وضعوه في الحضّانة ليومين.. لكنه مات بعدها!

ملامح «غالية» تتجمّد لدقيقة كاملة.. عيناها تزيغان في الفراغ مع ارتجاف جسدها كله.. قبل أن تطلق ضحكة عالية رافقت صراخها، بينما تلوّح

بذراعيها كالمختلة:

- مات.. مات.. حرمتها منه.. لم تتنعم به بعد كل هذا.. خرجت خاسرة.. و«غالية» هي الرابحة.. الرابحة دومًا!

المرأة ترقبها بنظرة متوجسة وهي تشعر بأن جنونها يزداد يومًا بعد يوم، خاصة عندما تحول صراخها الفرح لدموع حقيقية انهمرت على خديها وهي تتهاوى جالسة على الأرض..

- من تخدعين يا بائسة؟! أنتِ لم تفعلي شيئًا.. حتى قتل الولد لم يكن لك يد فيه.. عن أي جبروت تتحدثين؟! وعن أي ربح؟! أنت الخاسرة.. يا ويلك.. يا ويلك..

تتراجع المرأة من أمامها بذعر وهي تراها تخلع عنها حجابها، لتنحني على نفسها فتمرغ رأسها في الأرض..

- خاتمي.. هاتوا لي خاتمي.. هيبتي راحت لما ضاع.. ردوا لي خاتمي..

نحيبها يمزق نياط القلوب وهي تعاود رفع رأسها.. تلطم خديها لتهتف بذات الجنون:

- بناتي.. أين بناتي؟! «فاطمة».. «غنى».. البيت خالٍ.. أين «طاهر»؟! لماذا تركتموني وحدي؟!

- المرأة فقدت عقلها!

تتمتم بها خادمة «فاطمة» بذهول قبل أن تنسحب بخطوات حذرة لتغادر البيت كله.. تاركة خلفها «غالية» لا تزال تولول كالثكالى:

- أنا أمكما.. أنا «غالية».. عودا ولن أؤذيكما.. لكما كل الحلوى في المطبخ.. لن أدع سواكما يأكلها.. لا تخافا من «طاهر».. سينام في غرفته وحده.. وأنتما..

أنتما ستنامان في حضني.. لكن عودا.. عودا..

* * *

الهالة السابعة عشرة

(طهر بعد دنس)

عودة للحاضر..

في مكانها حيث تم اختطافها تشعر فاطمة بدموعها تغرق وجنتيها.. لقد استغرقها الوقت الماضي في الشرود، وشريط عمرها كله يمر أمام ناظريها بهالاتها السوداء جميعها.. لينتهي بمشهد اختطافها هذا.. لقد فقدت طفلها.. بعد كل هذا العناء تخرج خاوية الكفين!

كأنما منحها القدر صفعة على صفحة وجهها كي تفيق.. كي تتخلص من تعويذة هذا المسخ الذي استحوذ على روحها..

تشعر بخطوات خاطفها تقترب، فيتشنج جسدها..
ماذا عساه سيصنع بها؟!

- من أنت؟!

يرمقها «هارون» بنظرة طويلة مشفقة ولا يدري بماذا يرد.. كيف ارتكب هذه الحماقة؟! كيف وصل به التهور حد الجنون كي يختطفها؟! لكن ماذا عساه كان ينتظر؟ أن تضيع منه للأبد؟!

منذ عرف عن وفاة طفلها وهو كان ينتظر منها فعلًا كهذا.. يعلم أن روحًا هشة كروحها لن تحتمل مرارة هذا الفقد الأخير.. لهذا راقبها خفية ليتمكن من إنقاذها في الوقت المناسب.. وها قد فعل.. لكن ماذا عساه يصنع الآن؟!

- لماذا أتيت بي إلى هنا؟! «غالية» كلّفتك بهذا؟! تريد مالي؟! أخبرها أنني سأمنحه لها كله.. أنا ما عدت أريد شيئًا من هذه الحياة.

حروفها تتقطع ببكائها الذي يمزق قلبه.. جميلةٌ أنتِ حبيبتي بهذا القرب.. جميلة حد الألم وأنا واقف مكاني لا يمكنني ضمك كما فعلت منذ ساعات في لحظة ضعف استغفرت لها ربي ألف مرة.. لكنني لم أشعر بحالي وأنا أراكِ هكذا بين يديّ!

- لماذا لا تتكلم؟! قل أي شيء!

تصرخ بها بجنون وهي تحاول تحريك ذراعيها المقيدين، فينقبض قلبه بألم أكبر.. هو عصب عينيها كي لا تراه.. إذ لا يضمن ردة فعلها لو تعرفت عليه دون تمهيد.. وقيّد معصميها كي لا يمكنها فك عصابتها.. فماذا عساه يصنع الآن؟! ترى هل آن أوان كشف المستور؟!

- «غالية» لا يمكنها فعل شيء الآن.. بل لم تعد في القرية أصلًا.. لقد منحها القدر جزاء من جنس فعلها.. فقدت عقلها، وأودعوها إحدى المصحات النفسية

في العاصمة.

المفاجأة تلجمها للحظات فلا تدري.. هل تشعر بالتشفي أم بالحزن.. أم بكليهما معًا؟! مزيج رهيب يكاد يبتلعها في دوامته، لكنها تهرب منها عمدًا بالتركيز في صوته.. صوته الرجولي بمزيج خشونته وحنانه الذي اخترق خلاياها بدفء.. لقد توقعت نبرة قاسية متوعدة.. لكن هذه تبدو ودود حانية.. ومع هذا لا تذكر أنها سمعته أبدًا من قبل!

- إذن.. من أنت؟! وكيف تعرف أني أحب اللافندر والبرتقال؟!

- «كنتِ» تحبين اللافندر.. الآن لم تعودي تفعلين!

الثقة التي يتحدث بها عنها تجعلها تفغر فاها للحظات قبل أن تزدرد ريقها لتسأله بتوتر:

- إذن.. هو «هاشم».. «هاشم» هو من خلفك!

- تظنينه حقًا صار يهتم؟! هو انشغل بـ«أكاديميته» منذ بضعة أشهر كما يقول الناس، ولم يعد للقرية ولو مرة واحدة منذ سفره.. ظننتكِ صرتِ توقنين أن ما بينكما قد انتهى.

تطرق برأسها وقد أخرستها عبارته قبل أن تتمتم:

- إذن.. هي «غنى».. لم يبقَ أحد في هذه العالم يعرفني سواها.

- و«سليمان»؟!

- تعرف «سليمان» أيضًا؟!

- أعرف عنك كل شيء.

صمت قصير يسود بينهما بعد عبارته لتعاود سؤالها هذه المرة برجاء مس قلبه:

- من أنت؟!

- لن أخبركِ قبل أن نتفق.

- علامَ؟!

- على أن تعودي للحياة.

- لم أعد أرغب في الحياة.

بمنتهى اليأس تقولها ليردّ بحرارة:

- لا تريدين حياتك القديمة.. لكنني أعرض عليكِ حياة جديدة.

- لا أريد كلتيهما!

- جرِّبي أولًا.. أنتِ جربتِ العيش مرة كأرنب مذعور.. ومرة كأسد منتقم.. لكنك في كل مرة كنتِ

تعيشين لنفسك فقط.. تحبسينها في دائرة شعورك بالظلم.. لم لا تجربين هذه المرة أن تكسري الدائرة؟! أن تعيشي لغيرك لا لنفسك؟!

كلماته الحارة تداعب وترًا خفيًا في وجدانها، لكنها تتنهد بحرارة لتغمغم بصوت كسير:

- لغيري؟! ومن بقي لي؟! آخر من كان لي فقدته!

- وأنا لن أسمح أن أفقدك!

هتف بها دون وعي وهو يقترب منها خطوة لتشعر بقلبها يخفق لهذه اللهفة المتساقطة بين حروفه.. من هذا؟!

- لماذا تفعل هذا معي؟!

- لم أجد حلًا ينقذكِ من نفسك إلا أن أحملكِ قسرًا إلى هنا!

- ولماذا تريد إنقاذي؟!

تهتف بها بانفعال وهي تشعر بهذا الغموض يكاد يفقدها عقلها.. بينما يصمت هو للحظة يبحث عن جواب مراوغ:

- ربما.. لأنكِ تشبهين حبيبة فقدتها!

- وهل يعرف الرجال الحب؟!

- ربما بأكثر مما تعرفه النساء!

تصمت للحظات تفكر وهي تهز رأسها لا تدري بماذا ترد.. فاحترم صمتها قليلًا قبل أن يعود صوته الآسر يدوي في أذنيها:

- هاك عرضي كاملًا.. حياة جديدة في مكان جديد.. مكان ربما تحتاجينه أنتِ بالذات كي لا

تغرقي في رثاء نفسك أكثر.. دار للأيتام والعجزة.. هناك ستتعلمين معنى آخر للعطاء.. يقولون إن فاقد الشيء لا يعطيه.. لكنني أثق أن فاقد الشيء هو خير من يمنحه بسخاء؛ لأنه جرب مرارة فقده.. هناك لن تسرفي في شعورك بالقهر والظلم.. بل ستعلمين أن القدر كان رحيمًا بكِ عندما منحك الحياة في بيت «غالية».. وأن الجحيم الذي كنتِ تتشدقين بضيقك منه هو نعمة كبيرة يتمناها غيرك.. هناك ستجدين مائة ابن يعوضونك الذي فقدته.. وألف ابتسامة تمحو عنك هذه الدموع.. هناك ستستعيدين فاطمة التي ضيعتها وسط زحام أحزانك.

لم تشعر ودموعها تعاود الجريان على وجنتيها، فلم تدرِ ما الذي صنعته بها كلماته؟! هل هو صدقها؟! دفؤها؟! شعورها أن هناك حقًا من يهتم لشأنها؟! من يفهمها إلى هذا الحد؟! أم كونها بدت لها كطوق نجاة وسط خضم الموج هذا الذي تخوضه؟!

لكن.. من قال إنها تريد النجاة؟!

تستسلم قليلًا لشيطانها الجديد لتصرخ به بانفعال وقد عاد جرح بطنها الطازج يؤلمها مذكرًا إياها بما فقدته:

- تعرض عليّ المساعدة بالعمل في دار أيتام؟! تظنني محتاجة بائسة؟! أنا لو تعلم وريثة «طاهر بيه» بكل ما كان يملكه.. فماذا تملك أنت؟!

- قلبي!

يقولها قاطعة لتخرسها للحظة قبل أن يردف:

- قلبي الذي لم أسمح للأيام أن تدنسه.. حافظت عليه طاهرًا قدر استطاعتي.. ربما لهذا أكملت طريقًا يتعجبون أنني سرته لآخره رغم عذاب أشواكه.

لا تزال كلماته تبذر أثرها بين ضلوعها، لكنها تكابر

بهتافها الساخط:

- لا تعنيني أنت ولا طريقك ولا قلبك ولا حديثك السخيف هذا.. أخرجني من هنا ودعني لشأني.

- لا.

يهتف بها صارمة لتشعر به يقترب أكثر حتى تشعر بلفح أنفاسه:

- لن تخرجي من هنا إلا لو وافقتِ على عرضي.. فيما عدا هذا فستبقين هنا مقيدة معصوبة العينين حتى ينال الموت من أحدنا.

تسيء تأويل عبارته لتهتف:

- أنت مجنون؟! كيف يتقلب حديثك هكذا؟! تارة تقول إنك تهتم بي؛ لأنني أشبه حبيبة فقدتها.. وتارة تهددني بالحبس هنا!

- أنا لا أهددك.. أنا أخيّرك بين حياة حرة اخترتها لك.. وحياة تختارينها أنتِ مقيدة معصوبة العينين.. بالله عليكِ ألم تسأميها وقد عشتِها كذلك عمرك السابق كله؟!

خفقاتها تتسارع بانفعال وهي تشعر به حقًا قريبًا.. ليس فقط قرب جسده.. بل روحه التي تستشعرها كأنما تحلق حولها بخفة تطوقها.. من هذا؟! من هذا؟!

تهتف بسؤالها الأخير من جديد.. تصرخ به مكررة لتسمع زفرته الملتهبة.. لكنه يتحكم في انفعاله ليرد بصبر:

- اقبلي عرضي أولًا.. وبعدها تعلمين.

كادت تهتف بالرفض من جديد لكن شيئًا ما جعلها تمتنع.. ربما هو إعياؤها الذي تملّك منها بعد كل هذا الانفعال.. وربما هي رغبتها الخفية في التعرف إلى

هذا الرجل العجيب الذي يبدو وكأنه يحفظ تفاصيلها كمن عاش معها.. وربما هو أمل طفيف.. طفيف جدًا.. أن يحمل لها العرض الذي يدعيه طهرًا بعد طول دنس.. وربما هو كل هذا!!

شعرت بخطواته تبتعد لتكتنفها ظلمة باردة فجأة.. كأنما تفتقد هذا الدفء الذي مسها بحضوره.. غريب أن يملك هذا الأثر في روحها في هذا الوقت القصير.. غريب كما هو موقفهما كاملًا.. منتهى الغرابة!

- انتظر!

نداؤها يستوقفه فيلتفت نحوها بلهفة لم ترها.. شفتاها تنفرجان فيشعر بدقات قلبه تكاد تخرجه من بين ضلوعه.. ماذا سيفعل لو رفضت عرضه؟! بل ماذا سيفعل لو قبلت؟! لو رأته وعرفته؟! آه! خياران قاتلان.. وبينهما هو ذبيح.. لكن لا مفر!

- أوافق!

رغم خروجها منها مرتجفة، لكنها دفعت المزيد من الخوف في أوصاله.. اقتربت المواجهة التي طالما كان يخشاها..

- واثقة؟!

- نعم.. حلّ وثاقي إذن.. ودعني أراك.

يتلفت حوله بعجز كأنما يبحث عن دعم ما قبل أن يرفع رأسه للسماء بدعاء خفي.. كم عاش يرجو هذه اللحظة.. ويخشاها!

ولما طال صمته وجدت نفسها تهتف بسخريتها القاسية:

- هل غيّرت رأيك؟! أم إن الأمر صعب إلى هذا الحد؟!

تشعر به يقترب فترتجف خفقاتها من جديد لتتأهب حواسها كلها وهي تشعر به يكاد يلامسها.. أنامله تمتد لفكّ قيد معصميها، ولم يكد يفعل حتى رفعتهما هي بسرعة نحو عصابة عينيها.. لكنه تمسك بكفيها بين قبضتيه بلهفة ليصلها صوته يمزج انفعاله بخوف لم تفهمه:

- انتظري يا «فاطمة».. بضع ثوانٍ فقط.. أريدك أن تثقي بشيء واحد.. أن آخر ما يمكنني فعله بك هو أن أؤذيكِ.. تعدينني أن تعي هذا جيدًا؟!

قبضة باردة تعتصر قلبها وتناقض هذا الدفء الذي يغشاها، وهي تشعر بقبضتيه تطوقان كفيها.. لكنها لم تملك إزاء حرارة كلماته إلا أن تمنحه وعدها:

- أعدك.

يبتعد عنها خطوة ليترك كفيها أخيرًا بشفتين

مرتجفتين فترفع هي أناملها نحو عصابتها لتزيحها شاعرة أنها ستفتح على نفسها بابًا من جحيم لا قبل لها به.. لكنها لم تتصوره أبدًا هكذا!

صرخة هائلة تغادر شفتيها وهي تتعرف على ملامحه، لتتراجع للخلف ببطء مطوقة جسدها بذراعيها لتنهمر صرخاتها متتابعة:

- «السرجاني»! أنت.. أنت.. جئت تذبحني مثلها!

الصور تنهمر في مخيلتها فيختلط الواقع بالخيال.. تغمض عينيها بقوة فلا ترى سوى السكين.. عنق أمها المنحور وثوبها الأبيض الملوث بدمها.. «جاثوم» الماضي الذي طالما أطبق على أنفاسها لليالٍ يعاود فرض سطوته فتعلو صرخاتها.. لكنه يقطع المسافة بينهما بخطوة واحدة، ليقبض على ذراعيها بكفيه هاتفًا بجزع:

- اهدئي يا «فاطمة».. أنا لست هو.. أنا «هارون»..

ابنه!

* * *

- كابتن «هاشم».. صورة معك!

يستوقفه بها أحد رواد أكاديميته مع ابنه، فيبتسم له «هاشم» ليلتقط الرجل لهم صورة قبل أن ينصرف وابنه يلوح لـ«هاشم» بكفه في مودة.. «هاشم» الذي راقبهما بشرود للحظة يتفكر كيف لم يعد يخجل من عرجته الخفيفة أمام معجبيه.. كيف صار يعمي عينيه عمدًا عن رؤية الإشفاق في عيونهم مقابل هذه المشاعر الصادقة التي تمطره بها عيونهم.. كيف لم يعد «يخفي» عيوبه.. بل صار يتقبلها.. يعالجها.. يداويها ويتناساها بنجاح يحققه يومًا بعد يوم.

يستقل سيارته لينطلق بها نحو بيته الجديد.. أجل.. لقد باع شقته القديمة التي حملت ذكرياته مع «فاطمة» في محاولة لدفن هذا الماضي لعله

ينساها..

- قلبك خفيف يا «هندسة»!

ذكرى باهتة من لقاءاتهما الأولى تجتاحه، فيرجف لها قلبه رجفة حنين.. لا رجفة حب.. لكنه يقاومها بضراوة مدركًا أنه ما عاد يصلح لها.. كما لم تعد هي تصلح له.. لقد علم بما آل إليه حالها بعد فقدانها لطفلها.. رغبة عارمة اجتاحته في الذهاب لمواساتها.. لكنه تذكر آخر لقاء بينهما..

- أنا تخلصت منك.. فتخلص أنتَ مني!

يذكرها بصوتها فيبتسم بمرارة ليتمتم:

- يبدو أنني الآخر تخلصت منك يا «فاطمة».

مع آخر حروفه تتعلق عيناه بسلسلة «غنى» المعلقة على مرآة سيارته، فتزداد ابتسامته مرارة، وهو

يتذكر كيف غيّر اقتراحها حياته.. كيف يمكن أن يفهمك أحدهم إلى هذا الحد الذي يمنحك فيه دواءك في لحظات؛ فقط لأنه يحبك! مرت شهور منذ آخر مرة رآها فيها.. لكن أمه تخبره أنها تزورها دومًا كي تطمئن على أبيه.. وترعاهما في غيابه!

إحساس غريب ينتابه وسؤال مفاجئ يفرض نفسه.. ترى لو كان قد تعرف إلى «غنى» قبل «فاطمة».. هل كانت لتجذبه بنفس الطريقة التي جذبته بها «فاطمة»؟! يعترف أنها أقل جمالًا بكثير لكن من قال إن جمال «فاطمة» هو وحده ما شده إليها؟! بل هذه الطريقة التي كانت تحبه بها.. وكأنه «معجزة»!

هكذا كانت تراه «غنى» هي الأخرى.. ولا تزال.. لكنه لا يملك الجرأة للتجاوز عن ماضيهما معًا، وكيف أدخلته «غالية» حياتهما قسرًا..

«غالية»!

تنهيدة حارقة تغادر حلقه وهو يسترجع ما أخبرته به أمه عما آل إليه حالها.. تنهيدة لم تحمل شماتة بقدر ما حملت رهبة التدبر في شئون الزمان حين يدور، ليسقي كل ساقٍ بما سقى!

السيارة أمامه تتوقف فجأة فيضطر لإيقاف سيارته عفويًا هو الآخر بحركة مباغتة تجعل «السلسلة» تسقط في دواسة السيارة.. حركة بسيطة، لكنها وخزت قلبه بشعور غامض.. فينحني ليلتقطها ويعيدها مكانها بسرعة كأنما صار يتيمن بها كصاحبتها..

«غنى»! ما عساه حالك الآن وقد صرتِ وحدك تمامًا بعدما حدث لـ«غالية»؟!

* * *

- خالتي!

تتمتم بها «غنى» بألم وهي تطالع وجه «غالية» الشارد الخالي من التعابير في غرفتها بمشفى الأمراض النفسية، وقد جلست كلتاهما على كرسيين متقابلين.. لتتساقط دموعها مع استطرادها:

- سأدعوكِ أمي كما كنتِ دومًا ترغبين.. سأنفذ لكِ كل أوامرك كما اعتدتِ.. أنتِ غاضبة مني؛ لأنني استقللت بحياتي في بيت «هاشم».. لا بأس.. سأعود للإقامة معك..

ثم ضحكت وسط دموعها وهي تجذب كف «غالية» بين راحتيها لعلها تستجلب من الوجه الجامد أي استجابة:

- سنتناول إفطارنا سويًا كالعادة.. ثم تتناولين قهوتك الخاصة.. وبعدها سأنادي «سليمان» يقرأ لك فنجانك كما تحبين.. فيخبرك أن الغد كله خير.. كله

خير يا خالـ... يا أمي!

تتلعثم بنطق كلمتها الأخيرة التي أبت أن تخرج عفوية.. لكن «غالية» لا تبدي أي رد فعل، كأنما وجهها قُدَّ من صخر.. بضع دقائق بعدها تقضيها في ثرثرة أحادية الجانب معها لكن.. لا نتيجة!

تغادر الغرفة يائسة فتلتقي الطبيب الذي يخبرها أن الحالة لا تتقدم.. وأن صمتها ردة فعل لصدمة قوية يرفض عقلها تقبلها.. والعلاج؟! الأيام وحدها كفيلة بالجواب لكن دون أي ضمانات!

اليأس يتملكها أكثر وهي تغادر المشفى لتستقل السيارة العائدة بها إلى القرية.. عيناها تجوبان شوارع العاصمة بشرود.. العاصمة التي لم تحمل لها سوى ذكريات بائسة مع «هاشم».. «هاشم»؟! ترى كيف صار حاله؟!

لافتة إعلانية على الطريق لـ«أكاديميته» تجعلها

تحملق فيها بفخر مشوب بالحسرة.. إنها تتتبع أخباره عبر برامج التواصل التي عادت تمتلئ بأخباره.. يبدو أن اقتراحها نجح! ترى هل يشفع لها هذا عنده؟! أي شفاعة يا غبية؟! إنه لم يزر البلدة مرة واحدة منذ شهور، ولو للاطمئنان على والديه، مكتفيًا بمكالمات هاتفية لهما!

آهة خافتة تُطلقها وهي تعود برأسها للوراء تراقب الطريق الذي تنهبه السيارة.. تتذكر كيف دار القدر دورته بالجميع.. ليضعهم في أماكن لم يتصوروها أبدًا.. «غالية» فقدت عقلها بعدما خسرت جبروتها وخسرت معه كل شيء.. و«فاطمة» خسرت طفلها وخسرت قبله نفسها عندما ورطتها في حرب الانتقام.. وهي نفسها فقدت حلم عمرها بـ«هاشم» لتصير مجرد زوجة له بالاسم، يعلم الجميع أنه هجرها ليعيش وحده في العاصمة.. كلهن خرجن خاسرات.. لكن عزاءها أن يكون هو قد نجا بنفسه!

السيارة تصل بها لبيتها فتترجل لتدخل.. عيناها تهيمان بحنين لأريكته التي لم يكن يحتل سواها.. تتوجه نحوها لتجلس عليها.. تمسّدها أناملها برقة.. تتذكر عناقه الوحيد لها تلك الليلة، فتدمع عيناها وهي تطوق جسدها بذراعيها تستعيد مذاق شعورها تلك اللحظة.. قبل أن تفتح هاتفها تطالع صفحته الإلكترونية.. صورته التي وضعها مبتسمة تداعب قلبها المغرم به، فتقبلها شفتاها لتهمس لنفسها:

- كنت غريبًا بعيدًا.. فلما صرت زوجي زدت بعدًا.. وبين هذا وذاك أنت أقرب لقلبي من هسيس دقاته.. حقًّا.. لا عدل في عرف الهوى!

جسدها يؤلمها من أثر السفر فتتمدد مكانها ترقب السقف بشرود.. تتذكر نصيحة «سليمان» القديمة لها.. لكنها لا تجد الرغبة ولا القدرة لفعل شيء..

صوت رنين الجرس يقاطع أفكارها لتنتفض

مكانها.. تراهم أعمامها جاءوا يناقشونها بشأن إقامتها وحدها من جديد.. «غالية» كانت تكفيها تدخلهم في حياتها.. لكن الآن.. صارت وحيدة تمامًا.. هي لا تريد مغادرة «بيته» ولو لم يكن هو فيه.. لكن بماذا تبرر وجودها هنا إذا كانت الحقيقة صارت معلومة للجميع.. «هاشم» هجرها دون رجعة!

الدموع تتكدس في عينيها وهي تعدل وضع حجابها لتتوجه نحو الباب فتفتحه.. لتفاجأ به أمامها..

«هاشم»!

* * *

لوهلة هيئ إليها أنه مجرد حلم.. حلم رسمته عيناها من فرط ما تمنته.. لهذا لم تشعر بنفسها وهي تلقي نفسها بين ذراعيه هامسة باسمه.. تسكب على صدره دموعًا ما عادت تنقطع.. لحظات سرقتها عنوة

من الزمن قبل أن يعود إليها إدراكها، لتتراجع عنه مبتعدة بينما تتمتم معتذرة بخجل:

- آسفة.. لم أقصد..

تشيح بوجهها وهي تكتّف جسدها بذراعيها، ليرمقها بنظرة متفحصة وعناقها السابق يخز قلبه بدلالته.. لقد قضى الشهور السابقة يظنها ستحاول استمالته إليها من جديد.. لكنها صدقته عهدها، فغادرت حياته تمامًا كي تسمح له بالنسيان.. والآن فقط بحرارة عناق عفوي كهذا يشعر كم كان هذا صعبًا عليها!

- تريد الدخول؟!

سؤالها المرتبك يقاطع أفكاره ولا تزال تتحاشى النظر نحوه.. فيجيبها عمليًا وهو يدخل ليغلق الباب خلفه.. تسير خلفه بارتباك، فيتقدم ليجلس على الأريكة، فيفاجأ بهاتفها لا تزال شاشته معلقة على

صورته!

يرفع عينيه نحوها ليزداد ارتباكها، وهي تتناول الهاتف لتضعه جانبًا، قبل أن تجد بعض الجرأة لتسأله:

- خيرًا؟! لماذا عدت؟!

ثم اغتصبت ابتسامة مفتعلة دارت بها انفعالها لتقول بمرح ساخر:

- يا لغبائي! السبب واضح.. جئت لتطلّقني بعد ما حدث لـ«غالية».

لكنه يجذبها من كفّها برفق ليجلسها جواره ناظرًا في عينيها مع قوله:

- جئت أشكرك.. وأطمئن عليكِ!

- تشكرني!

تتمتم بها مرتجفة وهذا الدفء الذي يناله كفها في راحته يحسدها عليه جسدها كله..

- لولا اقتراحك لما وصلت لكل هذا السلام النفسي الذي أعيشه الآن.. أنا استعدت روحي القديمة بكل شغفها وحبها للحياة.. والفضل لكِ.

الدموع تتكدس في عينيها، فلا تكاد تصدِّق نفسها.. «هاشم» هنا.. يمسك كفها ويشكرها.. عيناه خاليتان من الحقد القديم.. تنبضان بهذا الحنان الفطري الذي عشقته لأجله.. هل هو حلم؟! ولو كان حلمًا هي راضية.. بل أكثر من راضية!!

وأمامها كان هو يشعر بارتجافة جسدها.. هالة عشقها تحوطه فلا يحتاج للبحث عن دليل.. شحوب ملامحها المعهود يمتزج بحمرة خجل طفيفة تمنحها فتنة خاصة يتجاهلها ليطرق برأسه مردفًا:

- أخشى أن أسألك عن حال خالتك، فتظنينني جئت شامتًا؟!

- لن ألومك لو فعلت..

يرفع إليها عينيه، فتردف بابتسامة طيبة:

- لكنني أعرف طبعك.. لا تقلق.

ابتسامتها «الطيبة» المتشحة بهذا الألم الخالص تبذر أثرها في نفسه، فتزداد نظرته عمقًا ليضغط كفها دون وعي في راحته.. هذا الذي زاد ارتباكها وهي تخشى أن تضعف فتلقي نفسها بين ذراعيه من جديد.. لن تثقل عليه بمشاعرها أكثر.. لقد جاء في «مهمة إنسانية» كما يبدو.. ولن تفسدها له!

لهذا انتفضت مكانها فجأة لتجذب كفّها منه قائلة بنفس المرح البائس:

- سأصنع لك كوبًا من «الليمون بالنعناع».. أعرف أنك تحبه!

لا يزال فهمها لأدق تفاصيله يبهره، فتلتوي شفتاه بابتسامة واهنة وهو يتابع انصرافها بشرود.. جزء بداخله يناشده أن يترفق بها.. يستصرخه أنها مسئولة منه.. حتى لو كان دخولها حياته قسريًا، لكنها صارت أمرًا واقعًا!

جزء يعارضه عقله بزعم أنه ليس مستعدًا بعد للخوض في بحر كهذا من جديد.. هو بالكاد تعافى من تجربته مع «فاطمة».. ولن يدع شفقته عليها تفتح لها باب أمل في حياة طبيعية معه من جديد!

صوت زجاج يتكسر يقاطع أفكاره، ويجعله يهرول نحو المطبخ ليجدها منحنية على ركبتيها تجمع قطع الزجاج المكسور، لترفع إليه عينيها بقولها:

- آسفة.. الصينية سقطت مني.

لم تخبره أنها نوبة من دوارها المعهود الذي اعتاده جسدها الواهن بطبيعته.. كرهت أن تكون مثار شفقته أكثر.. خاصة عندما اندفع نحوها ليرفعها من كتفيها برفق قائلًا بجزع:

- أدميتِ أصابعك!

فانتبهت لجرح أناملها لتقول دون اكتراث:

- بسيطة.

- يبدو أنكِ اعتدتِ الوجع بسببي!

يقولها بنبرة ذات مغزى لترفع إليه عينيها بوجل قبل أن تغمضهما بقوة هامسة:

- لا داعي للحديث عن هذا الأمر.. لو تحاسبنا فلا

أدري من بنا سيكون المدين للآخر!

ارتجافها الهش بين ذراعيه يثير حميته الرجولية نحوها من جديد.. يتفحص ملامحها باحثًا عن طيف «غالية» فلا يجد سوى شبه طفيف.. حتى «هالات عينيها السوداء» ما عادت تذكّره بـ«فاطمة».. كأنها الآن.. الآن فقط.. صارت تمتلك كينونة خاصة بها وحدها في عينيه..

- أمي أخبرتني أن أعمامك يضغطون عليكِ للإقامة في أحد بيوتهم وأنتِ رافضة!

- كيف علمت؟!

هتفت بها بارتياع ليبتسم هو ببساطة:

- لا شيء يستتر في هذه البلدة!

فتحررت من ذراعيه لتبتعد وتعطيه ظهرها تبحث

عن كلام مناسب:

- لا ريب أنهم سيتحدثون معك بشأننا.. وضعنا هكذا لم يعد لائقًا بزعمهم.. أرجوك يا «هاشم».. لا تدعهم يجبروني أن أغادر هذا البيت.

- ربما لديّ حل أفضل!

غاص قلبها بين ضلوعها وهي تنتظر الغرض الذي جاء لأجله، ليفاجئها بقوله:

- ستنتقلين معي إلى العاصمة.

* * *

- ادخل لها يا «سليمان».. أنا أكاد أجن خوفًا عليها ولا يمكنني فعل شيء.. لم تكفّ عن الصراخ، واضطررت لإغلاق الباب عليها.

يهتف بها «هارون» بقلق، فيرمقه «سليمان» بنظرة مغتاظة سبقت هتافه:

- أنت جننت فعلًا؟! منذ متى تقدم على أفعال متهورة كهذه؟!

لكنه صمت لحظة ليمنحه شبه ابتسامة:

- لكن يبدو أن جنونك مفيد هذه المرة.. لم تكن لتنقذها إلا هكذا!

- تبتسم يا «سليمان»؟! هي تكاد تموت ذعرًا بالداخل منذ رأتني.

- هي لم تزَك بعد يا «مغفل»! هي رأت فيك صورة «السرجاني»، خاصة بخصلات شعرك التي شاب بعضها قبل أوانه هذه.. امنحها فقط بعض الوقت.. لعلها كانت تحتاج صدمة كهذه كي تفيق!

ثم أزاحه جانبًا ليردف:

- ابقَ هنا، ولا تدخل حتى أناديك.

أومأ برأسه مطيعًا ليتقدم ويفتح لـ«سليمان» الباب، فدخل وأغلقه خلفه لتهرع نحوه «فاطمة» تتعلق بذراعيه صارخة:

- «سليمان».. أخرجني من هنا.. «السرجاني» عاد لحياتي..

ثم أحاطت عنقها بكفها عفويًا متمتمة بهذيان لم يتبينه.. لكنه ربت على كتفيها مهدئًا بقوله:

- «السرجاني» لا يعرف شيئًا عنك بعدُ.. إنه «هارون».. ابنه.. ألا تذكرينه؟!

سؤاله يعيد إليها بعض الرشد لينعقد حاجباها وومضات خافتة تتلألأ في ذاكرتها.. «هارون»!

«هارون»!

تذكر ذاك الفتى اليافع الذي كان يكبرها وقتها بعشر سنوات على الأقل.. تذكر بنيته القوية.. ووجهه العابس دومًا.. تذكر كم كانت تخافه، لكن أمها كانت تخبرها بأنه ليس مخيفًا، بل هو حزنه على أمه التي فارقته.. تذكر عندما كانت تتسلل خفية ليلًا لتراه عبر شق باب غرفته نصف المفتوح يدفن وجهه باكيًا فوق مكتبه.. تذكر إعجابها الطفولي بهذه الرسومات التي كان يعلقها على حائط غرفته، لكنه كان يرفض أن يجعلها تمسُّها.. كان يتحاشاها ويتجنب حديثها.. بل وتذكر مرة عندما وضعت أحد الكراسي أمام سور الشرفة لتصعد فوقه وكادت تسقط.. لكنه أنقذها.. تمامًا كما فعل منذ قليل!!

- ماذا يريد مني؟!

تسأله بتشتت، وما زال ذهنها غائبًا بين ماضٍ

وحاضر، ليرد «سليمان»:

- لو تثقين بي.. هو لا يريد بكِ إلا خيرًا.

- يريد التكفير عن ذنب أبيه؟! يشعر بالشفقة لأجلي؟!

تسأله ببعض التهكم لتجيب نفسها بنفسها:

- وهل أخطأ أبوه؟! زوجته خانته فقتلها! دعه يتركني لشأني لو كان هذا كل همه!

لكن «سليمان» يهزها ببعض العنف هاتفًا بها:

- هي فرصتك الأخيرة.. آخر كوابيسك التي يجب عليك مواجهتها.. عشتِ عمرك كله تخافين صورة الرجل في خيالك.. تسجنين نفسك في دائرة انتقاصك لنفسك بسببه.. واجهيه لتكسبي آخر معاركك.. لتعالجي العيب الأساسي الذي كرهتِ

نفسك لأجله.

- أواجهه؟! تتحدث هكذا ببساطة؟! سأفقد وعيي رعبًا لو رأيته.. إنه ذبح أمي.. ذبح أمي يا «سليمان».

تهتف بها بخوف ارتج له جسدها، لكنه يتنهد بحرارة قائلًا:

- علّمتني الحياة أن لكل حقيقة وجهين.. صدقيني يا ابنتي.. أنتِ تحتاجين لدخول هذه التجربة.. ساعتها فقط قد تتخلصين من تخبطك وترمين الماضي كله خلف ظهرك؛ كي تخلقي «فاطمة» جديدة!

* * *

الهالة الثامنة عشرة

(سحر الميلاد)

هل هذا هو ما يفعله بنا الوهم؟! يضخم لنا مخاوفنا لتبدو لنا كجبل شاهق بينما هي في الحقيقة مجرد ذرات رمال تذروها الرياح..رياح الزمان التي لا تبقي شيئاً على حاله!!

* * *

- لن أقابل أحدًا بعد تلك المرأة.. لتكن آخر مقابلة اليوم.. أنا مللت.. كلهم أوغاد!

هتف بها «السرجاني» بنزقه المعهود، ليزدرد «هارون» ريقه بتوتر قائلًا:

- كما تريد يا «حاج».. هي فقط.

يتحشرج صوته في عبارته الأخيرة دون وعي، وهو يسمع صوت طرقات الباب الذي سبق دخولها «منتقبة الوجه».. كانت فكرة «سليمان الداهية».. فقد خشي أن يتعرف إليها «السرجاني» مع شبهها الكبير بوالدتها.. وماذا عن أوراقها؟! الرجل أمي لا يجيد القراءة ولا الكتابة، ويترك هذه الأمور لـ«هارون».. لن يكتشف أمرها.. أو هكذا يتمنون!

وفي مكانها وقفت «فاطمة» جاحظة العينين.. ورؤية الرجل تصدمها حد الذهول! حتى إنها تلفتت حولها تبحث عمن يمكن أن يكون غيره.. لكنها لم تجد!!

هل هذا هو «السرجاني»؟! الوحش المخيف الذي عاشت عمرها كله تهابه؟! هذا العجوز القعيد الذي تغضّنت ملامح وجهه، ويرتعش منه كفاه دون

تحكم!! عيناه غائرتان كسيرتان كأنهما تحتميان خلف حاجبيه الكثيفين.. لكن نظراته لا تزال على عهدها.. حادة.. نافذة.. وإن كانت تفيض بألم لو نطق لصرخ أن هذا الرجل عانى كثيرًا!!

عبثًا تحاول المقارنة بينه وبين هذا «الجاثوم» الذي عاشت عمرها تجده مطبقًا على صدرها بصورة سكينه.. فلا تجد أي شبه!!

- هل ستبقين واقفة مكانك للأبد؟! تقدمي!

هتف بها «السرجاني» بغلظة، مقاطعًا شرودها، فرفعت عينيها إلى «هارون» الذي رمقها بنظرة معتذرة جعلتها تتقدم ليرمقها أبوه بنظرة طويلة سبقت سؤاله:

- ما اسمك؟!

- «فاطمة».

صوتها يخرج متحشرجًا لا تكاد تصدق أنها تقف في وجه أكبر مخاوفها..

ليعاود هو سؤالها:

- هل عملتِ في هذا المجال من قبل؟!

- لا!

- ماذا كنتِ تعملين؟!

- لم أعمل من قبل.. كنت.. طالبة في كلية الهندسة!

- طالبة!! ولماذا تركتِ دراستك؟!

أغمضت عينيها بقوة وهي تشعر بخفقات قلبها تخزها حد الألم.. ماضيها كله يبدو كحلم بعيد لا تصدّق أنها استيقظت منه.. كل آمال طفولتها

وصباها دهستها تحت أقدامها قربانًا لانتقام غرَّها بريقه.. فلما نالته وجدته هباء منثورًا!

- ظروف!

جوابها المقتضب زاد توجسه ليسألها:

- متزوجة؟!

- كنت.

- لا أحب نظام «التقطير» هذا.. أجيبيني باستفاضة!

يهتف بها بعصبيته المعهودة، فيرتجف جسدها واشيًا ببكائها تحت نقابها، ليتوتر جسد «هارون» مكانه.. هل أخطأ إذ أحضرها إلى هنا؟! لقد أراد منها أن تواجه مخاوفها بعدما عاشت عمرها كله تستسهل الهروب والانزواء.. حدسه أخبره أن علاجها لن يكون

إلا بلقاء أبيه.. ومن بدأ المأساة ينهيها كما يقولون!

- تبكين لأنني رفعت صوتي عليكِ؟! ماذا ستفعلين إذن مع هؤلاء القرود بالخارج؟! سيأكلونك حية!

يهتف بها «السرجاني» بتهكم قبل أن يتحرك نحوها بكرسيه ليرمق عينيها بنظرة متفحصة قبل أن ترق نبرته كثيرًا بينما يردف:

- اجلسي يا ابنتي.. وكفي عن البكاء.. تبدين صغيرة السن عديمة الخبرة.. اعلمي أن هذا العالم ليس للضعيفات.

ثم أشار نحو «هارون» يصرفه:

- اخرج ودعنا وحدنا.. اطلب منهم أن يحضروا لها شيئًا تشربه..

لكنه عاد يلتفت نحوها مردفًا بنبرة عادت إليها

سخريتها:

- أم تفضلين المصاص والشيكولاتة؟!

توهّجت عيناها بمشاعر متناقضة وهي تنقل بصرها بينه وبين «هارون» في شبه استغاثة.. لم تستعد كامل تعافيها بعد كل ما مرّت به مؤخرًا.. ولولا رغبتها في الهروب من القرية بكل ما تحمله لها من ذكريات لما قبلت بهذا العرض أبدًا.. لكن «هارون» منحها نظرة مطمئنة منحتها بعض السكينة وهو يغادر الغرفة مغلقًا الباب خلفه..

لتطرق هي برأسها، بينما «السرجاني» يسألها:

- الدار في مكان منعزل كما ترين.. أقرب قرية من هنا على بعد كبير.. هل يوافق أهلك أن تقيمي هنا في السكن الخاص بالمشرفين؟!

- لا أهل لي!

خرجت منها عفوية لتثير شكوكه، فيرمقها بنظرة متوجسة جعلتها ترتدف، ولا تزال تتحاشى النظر نحوه:

- يتيمة الأبوين.. زوجي الأول طلقني بسبب مشاكل بيننا.. والثاني توفي منذ بضعة أشهر.. كنت أحمل منه طفلًا كنت أنتظره بفارغ الصبر كي يكون هو كل عائلتي.. لكنني فقدته عقب ولادته منذ وقت قصير.. «أولاد الحلال» أشاروا عليّ أن أعمل هنا كي... كي أعوض شعوري بهذا الذي فقدته.

- يا الله! كم عمرك يا فتاة؟!

- لم أكمل الحادية وعشرين بعدا!

- عانيتِ كثيرًا لما يفترض بفتاة في عمرك.. تذكرينني بـ«هارون» ابني.. هو الآخر احتمل من الألم ما يفوق سني عمره بسبب أخطاء غيره!

يقولها بشرود بائس غرس المزيد من الألم في العينين الغائرتين.. لتجرؤ على رفع عينيها إليه من جديد ولا تزال ترقبه مشدوهة.. لا يمكنها ربط صورته هذه بماضيه.. خاصة عندما استطرد بنفس النبرة الشاردة:

- يقولون إن في حياة كل منا لحظة لا تعود بعدها الحياة كما كانت.. لو كنتِ تريدين من عملك هنا السلوان، فلن أحرمك إياه.. أعرف جيدًا هذا الشعور عندما يريد المرء غمس جسده حتى الرأس في بحر هائج، مخافة أن يرفع عينيه فيبصر حقيقة لا يريد الاعتراف بها.

كلماته تخز قلبها بمرارتها، فترتجف أناملها لتشبكهما معًا بقوة.. بينما أفاق هو من شروده ليعاود قوله بنبرة أشد صرامة:

- لكن تعاطفي لا يعني التهاون.. ستمضين هنا فترة

تدريب مناسبة قبل أن أقضي بشأنك.. هذه الدار هي حصاد عمري كله.. ولا أقبل فيها بأي خلل.

* * *

تسير خلف العاملة التي أوصلتها لغرفتها في جانب قصي من حديقة الدار.. الدار التي فوجئت بضخامتها؛ إذ تتكون من مبنيين كبيرين، خُصِّص الأول منها لكبار السن من العجزة.. والثاني للأيتام.. وقد ألحق بهما مبنى خاص كسكن للمشرفين من الرجال والنساء.. ومبنى آخر علمت أنه مقر سكن «السرجاني» و«هارون».. كل هذا محاط بحديقة ضخمة خُصِّص جزء منها لملاهي الأطفال.. وآخر كمكتبة للكبار..

المكان كان يبدو كعالم منعزل حقًّا عن الوجود خارجه!

عبرت عن الخاطر الأخير بعبارة منطوقة والعاملة

تفتح لها باب الغرفة التي تكونت من بضعة أسرّة متجاورة وبضع خزانات.. لترد العاملة بود:

- «الحاج» حرص على هذا منذ قرر أن يقضي هنا بقية عمره مع ابنه عقب خروجه من السجن.

- السجن؟!

تمتمت بها «فاطمة» بصدمة، ليبدو على العاملة ندمها بتسرعها:

- آسفة.. ظننتك تعلمين.. الكل هنا يعلم عن ظروف الحاج.

- أي ظروف؟!

قالتها «فاطمة»، وهي ترفع نقاب وجهها لتبدو ملامحها الفاتنة التي جعلت العاملة تهتف بانبهار:

- سبحان الخلاق.. هذا الجمال يستحق أن تخفيه حقًا.. حفظك الله!

فابتسمت لها «فاطمة» مجاملة، وهي تتحرق فضولًا للمعرفة.. لكن العاملة بدت، وكأنها تخشى المزيد من الثرثرة، فأشارت لها نحو اليمين قائلة:

- اختاري واحدًا من هؤلاء.. الجانب الآخر مشغول لبقية المشرفات.

هزت لها «فاطمة» رأسها بتشتت وهي تود لو تسألها عن المزيد لكنها خافت.. خافت أن تفضح لهفتها.. وخافت المعرفة!

لهذا ما كادت العاملة تغادر حتى تقدمت نحو المرآة الجانبية تراقب وجهها بشرود.. صدمتها في لقاء «السرجاني» لم تكن هينة الوقع على قلب عاش عمره يخشاه.. لكنها كانت تشعر كمن تلقى عشرات الضربات على رأسه فلم يعد يشعر بوجع!

هالات عينيها السوداء رفيقة الدرب الطويل تذكّرها بومضات خاطفة من ماضيها.. تلسعها بسياط فقدٍ خلف فقد.. فتهون في عينيها الحياة وتود لو تعيد محاولة الانتحار من جديد.. لكن كلمات هارون تبزغ لها من العدم.. هي جربت العيش لأجل نفسها وخسرت.. فلماذا لا تجرب العيش للآخرين؟!

كأنما استدعته خواطرها لتجد هاتفها يرن برقمه.. شعور غريب يجتاحها نحوه فتتعجبه.. شعور بـ«الأمان»!

لو كان أحدهم قد أقسم لها أنها قد تضع «الأمان» و«أي شيء يخص السرجاني» في جملة واحدة لاتهمته بالجنون.. لكنها الآن تفعلها!

تتردد في فتح الاتصال، ولا تزال تشعر بالتشتت.. بالغربة وسط هذا العالم الذي لا تدري صواب ولوجها فيه.. لكنها تتذكر عبارته..

- آخر ما يمكنني فعله بكِ هو أن أؤذيكِ!

فتلتوي شفتاها بشبه ابتسامة وهي تفتح الاتصال أخيرًا ليصلها صوته الملهوف:

- أنتِ بخير؟!

تتسع ابتسامتها والمزيد من الومضات «الآمنة» هذه المرة يتتابع في ذهنها.. تراه بعين خيالها كيف يراقبها لينقذ حياتها.. يحتجزها ليجبرها على العودة للحياة.. حتى لو كان يفعلها لأجل حبيبة تشبهها قد فقدها.. هي لم تعتد هذا الوفاء من الرجال.. كلهم كانوا بعينها «هاشم المتخاذل» أو «طاهر الخائن»!

- «فاطمة».. ردي.. أرجوكِ.. لو كنت أثقلت عليكِ بهذه المواجهة، فيمكنني أن أبعدك عن هنا حتى تستعيدي توازنك.

- أنا بخير.

تقولها باقتضاب رغم امتنانها لهذا الحنان الذي يقطر بين حروفه.. لكنه عاد يسألها بالمزيد من الاهتمام:

- تريدين شيئًا؟!

تصمت قليلًا فيختلج قلبه بأضلعه ليأتيه جوابها حارقًا كألف دمعة:

- أريد أن أنام.. أنام طويلًا جدًا حتى أنسى من أنا.. وماذا كنت.. ثم أصحو فأمحو ما كان من عمري كله.. وأكتبه من جديد.. بخطي أنا.

فيأخذ نفسًا عميقًا ليرد بمزيج عجيب من قوة وحنان:

- أعدكِ أن أبقى جوارك حتى تفعليها!

* * *

فتحت «غنى» عينيها لترتسم على شفتيها ابتسامة حقيقية لم تعرفها منذ زمن بعيد.. تنهض من نومتها لتفتح نافذة غرفتها في بيتها الجديد.. لقد حاولت الاعتراض على قراره بالعودة معه إلى العاصمة، لكنه أقنعها بوجوب هذا كي تبقى قريبة من «غالية» وتسهل زيارتها.. وأقنعها -قبله- قلبها أنها واحدة من الفرص الأخيرة التي يجب أن تغتنمها كي تعيش حلمها به قبل فراق توقن أنه آتٍ لا محالة.. أجل.. ليست ساذجة لتدرك أنه سيحتاج زوجة «حقيقية» عاجلًا أو آجلًا.. صحيحٌ أنها تثق أنها لن تكون «فاطمة» فقد احترقت كل سفنهما معًا.. لكنها كذلك تثق أنها لن تكون هي!

تنهدت بحرارة محاولة دفع هذا الخاطر الأخير لتتجه نحو مرآتها.. لا تزال ترى في هالاتها السوداء

عقابًا عادلًا عما فعلته بفاطمة.. عقابًا تتقبله برضا تكفيرًا عن ذنب ترى أثره يومًا بعد يوم.. تمشط شعرها الذي استطالت أطرافه المفرودة صناعيًا، لتبدو منابته بطبيعتها المجعدة فتزداد يقينًا أنها مهما تجملت ستبقى «الدمية القبيحة» التي يزهدها الراغبون!

تغادر الغرفة نحو المطبخ.. لم تعتد أن يخلو البيت من خادمة.. لكنها تفعلها الآن حبًا.. تود لو يمكنها أن تترك أي بصمة في حياته قبل أن تغادرها..

تبتسم بفخر وهي تنهي إعداد الأطباق.. لتدمع عيناها بسعادة حقيقية وهي ترى نفسها تحقق واحدًا آخر من أحلامها به..

- صباح الخير!

صوته العذب يصدح في أذنها، فتلتفت نحوه ليتقدم نحوها قائلًا بحرج:

- لماذا استيقظتِ مبكرًا وأتعبتِ نفسك؟! أنا اعتدت خدمة نفسي بنفسي.

- تعبك راحة!

تقولها كردّ عفوي، لكنه يمس قلبه بصدقه ليرفع عينيه نحوها بنظرة مرتبكة، ولا يزال يشعر بأنه يزداد تورطًا بها يومًا بعد يوم.. ضعفها الهش يستفز حميته الرجولية؛ لاحتوائها، لكنه يصطدم دومًا بعشقها المهووس به.. فلا هو قادر على ردّها به مخذولة، ولا هو على مقابلته بمثله بمستطيع!

- أعجبتك الشقة؟!

يسألها وهو ينقل أطباق الطعام لمائدة السفرة، فترد وهي تسير خلفه:

- جيدة.. لكنني أخمن أنك اشتريتها «مفروشة»..

- كيف عرفتِ؟!

- الطابع «الكلاسيكي» هذا ليس ذوقك.. أعرف أنك تفضل الطابع الحديث.

يبتسم وهو يرمقها بنظرة طويلة أربكتها لتردف بتلعثم:

- لا أقصد أن أعيبها.. أنا قلت فقط..

- أنتِ تفهمينني حقًا!

قالها بنبرة غريبة مزجت غرورًا ذكوريًا معهودًا بأسف تفهمته، لتطرق برأسها بخجل رافق ابتسامتها «الطيبة».

- منذ سنوات وأنا لا أسعى إلا خلف هذا.

اتسعت ابتسامته وهو يسحب لها كرسيًا لتجلس، فيجلس قبالتها ويبدأ في تناول طعامه.. طبيعته المرحة تغلبه وهو يقرب منها سلة الخبز هاتفًا:

- كلي جيدًا.. لا تخافي.. لن أحاسبك على الطعام.

فاتسعت ابتسامتها، وقد انتقل مرحه إليها:

- هذا هو الأمر الوحيد الذي لا أضمن فيه طاعتك.. تناول الطعام عندي مهمة شاقة لا أمارسها إلا مضطرة.

- واضح!

قالها عفويًا مشيرًا لنحول جسدها الشديد، لتتلاشى ابتسامتها وهي تطرق برأسها:

- أعرف أيضًا أنك لا تحب النحيفات.

تجمّدت ابتسامته هو الآخر، وهو يشعر أنه جرحها دون قصد، لكنه تجاوز عن هذا بسرعة ليغير الموضوع بقوله:

- فيمَ تنوين قضاء وقتك هنا؟!

- لا أدري.. لم يدر بخلدي سوى زيارات خالتي فحسب.

- كيف تقضين وقت فراغك عامة؟! لا تملكين أي هوايات تلهيكِ في وحدتك؟!

لكنها تهز كتفيها قائلة بابتسامة خجول:

- اعتدت وحدتي.

عبارتها ذكّرته بـ«فاطمة».. ليجد نفسه يشرد للحظات.. هو كان يترك فاطمة لصومعتها المنعزلة راغبًا أن يخفيها عن عيون الناس وقانعًا أن يكون هو

مركز الكون بالنسبة إليها.. فهل يكرر خطأه من جديد؟!

التمعت عيناه بعزم ليقول وهو ينظر في عمق عينيها:

- ربما كان هذا هو الخطأ الذي يجب أن تتفاديه فيما بقي من أيامك..

رمقته بنظرة متسائلة ليبتسم لها مردفًا:

- عندما تعودين من زيارة خالتك في المشفى.. ستذهبين معي إلى الأكاديمية.. من المؤكد أننا سنجد لكِ ما يمكنك فعله هناك بدلًا من بقائك وحدك هنا.

* * *

تسير بجواره بخجل ممتزج بسعادتها في الممر

الدائري الخاص بالنادي الذي ألحقت به الأكاديمية.. حلمٌ آخر من أحلامها به يتحقق.. أن يسيرا متجاورين أمام الناس كأنما هو حقها!

- يعجبك المكان؟!

يسألها وهو يرى طيف ابتسامتها يتشاجر مع بوادر بؤس على ملامحها.. ليغلب الأول مع قولها وهي تتلفت حولها:

- جدًا.. أحب هذا الوقت قبيل الغروب.. عندما تنكسر أشعة الشمس قليلًا فتتوازن فتوّة النهار مع اعتدال حرارته.. وأحب هذه المساحات الشاسعة التي تشعرني أن أنفاسي حرة بلا قيود..

- وماذا تحبين أيضًا؟!

يسألها باهتمام محاولًا الاقتراب من فهم دواخلها، لتتسع ابتسامتها الخجول وهي تمس ياقة قميصها

مردفة:

- وأحب لون قميصي الأخضر هذا.. يشعرني براحة غامرة عندما أراه..

فيبتسم وهو يجد ما تقوله مشتركًا بينهما..

- وماذا أيضًا؟!

- وأحبك أنت!

كادت تهتف بها حارة كما ينبض بها قلبها في كل لحظة.. لكن حياءها جعلها تبدلها لقولها وهي تتلفت حولها:

- وأحب تقافز الأطفال وشقاوتهم.. هذه النظرة «الحرّة» في عيونهم والتي لم يقيدها حزن ولم يكسرها حاجز!

لامست عبارتها قلبه وهو يستشعر أنها تخفي بها معاناتها الخاصة.. «فاطمة» حدّثته كثيرًا عن تفاصيل حياتها معها، وكم كانت تشعر بالغيرة منها.. لكنه الآن يسأل نفسه.. من منهما كانت الأحق بالشفقة؟! «فاطمة» التي تمكنت في كل مراحل حياتها من انتزاع فرصتها مهما كانت الظروف؟! أم هذه البائسة التي عجزت كل مرة عن فعلها!

- «كابتن هاشم»!

النداء خلفه يستوقفه، فيلتفت نحو صاحبه ليشير نحوها بتعارف عفوي:

- «غنى».. زوجتي!

يرمقها الرجل بنظرة مصدومة للحظة ضخّمتها «عين النقص» التي ترى بها نفسها، ليهز رأسه بتحية مقتضبة قبل أن يكمل حديثه مع «هاشم».. تلفتت حولها بارتباك وهي تشعر بالحرج.. تعلم أنها ترتدي

أفخر الثياب بماركات عالمية ترسل في شرائها خصيصًا من العاصمة.. كما تعلم أن العقد الذي يلتف حول عنقها وحده يساوي ثروة.. لكنها كذلك تعلم أي جمال ضحل تملكه مع هذا الجسد النحيل.. لهذا لا تملك شعورها بالضعة وهي تجاوره هكذا..

- تعالي نتابع التدريب من المدرجات!

هتف بها «هاشم» بعدما أنهى حديثه مع الرجل، ليسير معها نحو المدرجات التي حوت حشدًا لا بأس به من الناس.. كادت تجلس بعفوية، لكنه جذب ذراعها برفق ليمسح لها مكانها بمحرمة ورقية، قبل أن يقول بمرحه المعهود:

- تأتين الملعب بتنورة بيضاء؟! عليه «العِوض»!

تبتسم له بسعادة حقيقية فضحتها «العينان الطيبتان»، لتجلس جواره يتابعان تدريب الفتيان.. وبينما انخرط هو بكليته في مراقبة التمرين.. كانت

هي تختلس نظراتها نحوه هو.. تراقب بافتتان عروق ذراعيه النافرة.. وهذه الحركة المميزة له عندما يبدل وضع قبضتيه في راحتيه بالتتابع مرة تلو أخرى في حركة لا إرادية عادية لكن عينيها كالعادة كانتا تتبعانها كـ«خارقة»!

- هذه إذن زوجته الثانية؟! ذوقه ينحدر مرة بعد مرة!

- لا بأس.. غدًا يطلقها كمن سبقتها!

الهمزات خلفها تطعن قلبها بسكين ثلم، فتكاد تلتفت نحوهما، لكن همسه يصلها آمرًا:

- إياكِ أن تلتفتي.. تظاهري أنكِ لم تسمعي شيئًا.

إذن هو الآخر قد سمع؟! يا للخزي!!

- دعنا نرحل.

تهمس بها بخفوت يكاد لا يسمع.. لكنه يتظاهر بأنه يتابع التمرين ليهمس بدوره:

- لا.. لا تتعودي على الهرب.. اتفقنا أن نتخطى عيوب الماضي.. صحيح؟!

ترتجف شفتاها وقد بدت على وشك البكاء ليخفق قلبها بجنون، وهي تراه يمد ذراعه فجأة ليحيط كتفيها ويضمها نحوه مؤازرًا!

شهقة خافتة تغادر حلقها قبل أن تغمض عينيها بقوة مستسلمة لهذا الشعور الغريب الذي يكتسحها كطوفان.. ويثملها بلا أدنى رغبة في استفاقة!

عقلها يستصرخها أنه لم يفعلها إلا شفقة بها.. لكنها تطرد عنها كل خاطر عدا شعورها المستحدث بهذا الأمان بين ذراعيه!

لم تحسب الدقائق بعدها وكيف تفعل؟! وكلها كانت مغيبة في حلم آخر تحققه معه.. شعور آخر تجربه معه.. «سحر الميلاد» عندما يزيغ الأبصار بخلق بعد عدم!

* * *

يراقبها عبر النافذة تلاعب بعض الأطفال بفرحة لا تزال شاحبة، لكنه يقسم لنفسه أنه لن يبرح حتى يبلغ بها عنان السماء.. لقد دخلت بقدميها عالمه.. حلمه بها الذي ظنه يومًا مستحيلًا يوشك أن يتحقق.. هي هنا.. هنا في أرضه.. كما كانت عمرًا هنا.. هنا في قلبه!

- مهتم أنت بهذه المرأة!

كلمات أبيه تنتزعه من شروده، فيلتفت نحوه بحدة فضحها ارتباكه:

- أي امرأة فيهن؟!

لكن والده يرمقه بنظرة طويلة متفحصة تسبق قوله:

- لا تهتم.. ما دمت لا تعرف من أقصد.. فأنا فقط يهيأ إليّ!

وجهه يتلون بانفعالاته التي خشي أن تفضحه أمام أبيه ليضحك بمرح مصطنع:

- لست سهلًا أبدًا يا «حاج»!

فيبتسم العجوز ابتسامة واهنة، وهو يتقدم بدوره نحو النافذة يراقب الحديقة التي ضمَّت العديد من المشرفات مع الأطفال.. قبل أن يتركز بصره على «فاطمة» ليقول ببطء:

- هل رأيت وجه «فاطمة» هذه؟!

- أين سأراه؟!

ارتباكه يوازي التفاتة أبيه نحوه برأسه:

- في أوراقها التي قدمتها.. ألم ترفق صورة؟!

كان يحتاط لشيء مثل هذا.. لهذا وضع صورة بديلة لصورتها الحقيقية، موقنًا أن لا أحد سيرى ملفها سواه:

- بلى.. رأيتها!

- كيف هي؟!

- امرأة.. عادية.

قالها بأقصى محاولات ضبط النفس، ليصمت والده للحظة قبل أن يقول بشرود:

- العاملة رأتها.. تقول إنها بارعة الجمال.

فازدرد «هارون» ريقه بتوتر مع هزة كتفيه:

- وما شأننا بجمالها يا «حاج»؟! ما يعنينا هو عملها!

لكن العجوز هز رأسه للحظات سبقت سؤاله:

- ما اسمها بالكامل؟!

- كما تقول أوراقها.. اسمها «فاطمة»...

زوَّر اسمها الكامل هو الآخر، ليصدر والده همهمة خافتة:

- من أين؟!

- كما تقول أوراقها.. من العاصمة!

- كم عمرها بالضبط؟!

- كما تقول أوراقها.. عشرون عامًا وبضعة أشهر.

- واسم والدتها؟!

- كما تقول أوراقها..

قطع «هارون» قوله فجأة، وقد انتابه الشك من سؤال والده الأخير، والذي ابتسم بغموض ليعاود سؤاله:

- ماذا؟! ألن تقول أوراقها هذه المرة؟!

- ما الأمر يا أبي؟! هل هناك شيء بشأنها؟!

يسأله متظاهرًا بالثبات، ليرد العجوز بابتسامة خبيرة:

- لم تعد تناديني بـ«أبي» منذ عهد بعيد، إلا عندما تصنع شيئًا ما خطأ.. كأنما تسترضيني بها!

شحب وجه «هارون» للحظة، ليقول ملوحًا بذراعيه:

- ما الذي سأفعله خطأ بشأن مشرفة لدينا؟! لو لم يعجبك عملها يمكنك فصلها بسهولة.

- على العكس.. عملها يعجبني جدًا.. ربما لهذا اهتممت بالسؤال عنها.

يقولها العجوز ليتراجع بكرسيه نحو الباب مغادرًا الغرفة، تاركًا «هارون» خلفه يزفر بقلق ليمسح قطرات عرق خفيفة نبتت على جبينه:

- لست سهلًا أبدًا يا حاج.. بل أنا الغبي.. ألم يكن بوسعي وأنا أزوِّر صورتها وبياناتها أن أزوِّر اسمها وعمرها كذلك؟!

* * *

- كيف حالك يا «قطة»؟!

ترتجف كعهدها كلما سمعت صوته رغم اللفظ التحببي الذي يخصها به.. لترد متحاشية النظر نحوه:

- الحمد لله!

- «مس فاطمة» هذه قطعة سكر.. هاتوا لنا منها المزيد!

يهتف بها أحد الأطفال لترد أخرى ببراءة:

- وجميلة جدًا خلف ستارتها التي تضعها أمام وجهها هذه.. دعها تخلعها الآن كما تفعل في الفصل.

ترتبك «فاطمة» وهي تشعر بالمزيد من التخبط في حضرته، ليرمقها العجوز بنظرة متفحصة سبقت قوله للأطفال:

- من يحب أحدًا يحترم رغبته.. ما دامت تريد تغطية وجهها فلا تضايقوها!

يطيعه الأطفال صاغرين كعهدهم قبل أن يتجمعوا حوله، ليفتح لهم أحد أكياس الحلوى هاتفًا:

- موعد «الحدوتة» اليومي.. اتبعوني لغرفتي.

لم يحتاجوا لأمره، وهم يندفعون خلفه في طابور منظم لم يحتج لترتيبه، بل صاغوه هم بأنفسهم كما تعودوا كل يوم تلاحقهم نظراتها الشاردة..

لا تزال عاجزة عن التأقلم مع وضعها الجديد.. لا تزال تشعر وكأنما تسير على الماء.. الصدمة تتراجع عن ذهنها تدريجيًا، فتشعر بأعراض الإدراك

المستحدث.. من هي؟! من هي حقًا؟! هل هي «فاطمة» ابنة «غفران»؟! أم «فاطمة» ابنة «غالية»؟! أم «فاطمة» زوجة «هاشم»؟! أم «فاطمة» زوجة «طاهر»؟! أم «فاطمة» جديدة تمامًا.. غريبة تمامًا عن كل ما عرفته حياتها من قبل؟!

- تشردين كثيرًا.

صوت هارون «الآمن» جوارها يجعلها تلتفت نحوه بلهفة.. «الآمن»! لم تعد تجد توصيفًا لكل ما يخصه إلا هذا الوصف.. هالة الأمان التي يحيطها بها لا تمنحها المجال لوصفه بالمزيد..

وأمامها كان هو يرقب لهفتها بمزيج من ارتياح وخوف.. قلبه العليم بتفاصيلها يخبره بأنها تأنس إليه.. لكن.. ماذا بعد؟! لا تزال العراقيل بينهما كثيرة.. الطريق طويل.. طويل يا «هارون»!!

- هل حدثكِ أبي بشيء؟!

هزّت رأسها نفيًا لترد بخفوت:

- أشعر بأنه يحاول التقرب مني.. لكنني لا أخفيك قولًا.. أنا ما زلت أهابه.

- لا بأس.. شعور طبيعي سيزول يومًا بعد يوم.. تعلمين أنه يمدحك كثيرًا؟!

ابتسامة شاحبة لم يرها، لكنه تبين أثرها في عينيها الكسيرتين:

- أحيانًا أشعر بالندم؛ لأنني وافقتك على القدوم إلى هنا.. لكنني أعود وأعترف.. كنت حقًا أحتاج لهذا المكان!

دموعها تتفرق بين عينيها وكلماتها لتسرق قلبه لوعة عليها، بينما يرى أناملها تتحسس بطنها لتردف:

- أحيانًا أكذب نفسي.. أخبرها أنه لا يزال هنا.. ينتظرني فقط كي أخرجه للنور.. وعندما تصفعني الحقيقة أكاد أجري من جديد نحو حافة التل كي أستسلم لسقوط ينقذني من هذه الحياة.. لكن ابتسامة كل طفل هنا.. نظراتهم.. أحضانهم التي يغمرونني بها.. كل هذا يمنحني ميلادًا جديدًا كأنني قبل وجودي هنا.. ما كنت!

تشعر به يقترب منها فتتأهب حواسها مستعيدة مذاق عناقه ذاك اليوم.. لكنه يتوقف على بعد خطوة واحدة منها ليهمس لها وعيناه تغرسان ألف شمس في عينيها:

- كيف أشكرك؟!

- أنت تشكرني.. أنا؟!

تسأله بغرابة وهذا السحر الغريب الذي يجتاحها في كنفه يشتتها.. فيبتسم بألم:

- كل خطوة تمشينها في هذا الطريق حلم تمنيت منحه إياكِ يومًا!

ترمقه بنظرة مصدومة ودوامة عاطفته في عينيه تسحبها دون وعي.. عاطفته التي أخفاها بقوة اعتادها وهو يعاود ابتعاده عنها ليردف بنبرة محايدة:

- أما آن الأوان أن تعودي لدراستك أيضًا؟!

- دراستي؟!

تغمغم بها بشرود كأنما يتحدث عن ماضٍ سحيق ليرد بنبرة حازمة:

- نعم.. دراستك.. حلمك القديم الذي رميته خلف ظهرك.. لو أردتِ يمكنني تدبر هذا الأمر بالجامعة من الغد..

وقفت مبهوتة للحظات كأنما لم يخطر ببالها هذا الأمر.. قبل أن تتلعثم حروفها:

- وعملي هنا؟!

- يمكنك التوفيق بينهما.. سأحدِّث أبي بهذا الشأن.

ابتسامة امتنان تشقّ طريقها عبر شفتيها فتلمع في عينيها كنجمتين براقتين اكتفى بهما لينتزع نفسه انتزاعًا من أمامها، فيتحرك مغادرًا، لكنها تستوقفه بسؤالها:

- «هارون».. لماذا تفعل معي هذا؟!

فلا يجرؤ على الالتفات نحوها؛ خشية أن يفضحه لسانه بما خفي طوال هذه السنوات..

- أخبرتك منذ التقينا من جديد.. تشبهين حبيبة

فقدتُها!

يختفي من أمام ناظريها، فتطرق برأسها وهي تشعر بمزيج متناقض من مشاعر.. لكنها جميعها تشترك بذات السحر.. سحر الميلاد!

* * *

الهالة التاسعة عشرة

(لحنٌ عصيّ)

كنت رجلا ك»مطر «.!

لا تليق بك سوى امرأة ك»ياسمين»!

وأنا امرأة أقفل على قلبها بمغاليق من حديد..فلا تعجب إن لم يزدني فيضك إلا صدءا!

* * *

أمام مرآتها تتوقف لتتناول الرفيق «المصحح».. تمسد به ما حول جفنيها من هالات لتخفي أثرها.. رغم عدم حاجتها لهذا مع ارتدائها لنقاب وجهها، لكن الأمر صار يمثل لديها نوعًا من «الهوس»! طيف

شاحب من «هاشم» يلوح لها من بعيد فتهرب منه قسرًا.. عجبًا لهذا الحب الذي يتملكنا عمرًا حتى نظنه امتزج بدمنا وعظامنا، ثم يتسرب منا كأنما يهرب مع كل زفير تاركًا لنا خلفه فراغًا كبيرًا وقطعة ناقصة من روحنا.. فنمضي طوال الوقت نسأل هل كان العيب فيه أم فينا؟! هو الضعيف الذي لم نقوّه فمات؟! أم نحن الذين صرنا أكثر ذكاء من التعلق بحبال واهية؟!

تتنهد ببعض الرضا وهي ترى نفسها أخفت أثر سهر الليالي.. ليصل أذنيها من الخارج هتاف «السرجاني» ينادي أحد العمال بصوته الجهوري.. تنتفض لأول وهلة و«السحر القديم» لا يزال يلقي أثر تعويذته عليها، لكنها تعود لتبتسم باطمئنان، وهي تتذكر معاملته الرفيقة لها.. حنانه الخفي الكامن خلف مظهره القاسي.. لا تزال تذكر عندما استدعاها في مكتبه منذ يومين يخبرها بأنه موافق على تغيير ساعات عملها لتوازن بينها وبين عودتها للدراسة.. قبل أن يشرع في سؤالها عن صحتها، وعما إذا كانت

تحتاج شيئًا.. ساعتها تمنت لو تملك القدرة لترفع عينيها نحوه، لعلها تكسر «الحاجز القديم»، لكنها للأسف لم تستطع!

الأيام تمر بها هنا سريعة في عدوها، لكنها عميقة الأثر على نفسها.. لقد اعتادت الهروب لمنفى، لكن الصومعة هذه المرة لا تنعزل فيها وحدها، بل تنصهر فيها بسواها، فتشعر أنهم جميعًا صاروا جزءًا منها!

وضعت نقابها فوق وجهها ثم تحركت لتغادر غرفة المشرفات نحو فصل الأطفال.. ليستوقفها صوته «الآمن»:

- صباح الخير يا «فاطمة».

تبتسم لا شعوريًا وهي تلتفت نحوه.. لم تعد ملامحه تثير نفورها كالسابق، وهي تراها صورة من «جاثوم الماضي» القديم.. بل صارت تشعر بألفة غريبة نحوه تتمكن منها يومًا بعد يوم.. كأنها قضت

معه عمرها السابق كله!

بينما لم يرَ هو ابتسامتها تحت نقابها، لكنه شعر بها في لمعة عينيها.. ليزداد البِشْر في ملامحه وهو يمنحها ما بيده:

- أحضرت لكِ هذه.

شهقتها فضحت فرحة حقيقية وهي تجده قد أحضر لها أدوات دراستها الخاصة مع الكثير من الأدوات المكتبية التي تحتاجها لتتناولها منه تقلبها بين كفيها، ثم ترفع المسطرة الكبيرة بشكل حرف T أمام وجهها لتقول بحنين جارف:

- اشتقت لهذه الأيام.. كأنني غبت عن الجامعة ألف عام!

فيبتسم لها بحنان قائلًا:

- ستعودين أفضل من ذي قبل.. أنا أنهيت لكِ الإجراءات.

تضحك ضحكة قصيرة عصبية لم تلبث أن تحولت لفيض من دموع:

- لا أعرف كيف أشكرك يا «هاشم».. كنت حقًا....

- أنا «هارون»!

قاطع بها عبارتها بغضب مكتوم جعل ملامحها تشحب للحظات، متبينة خطأها فيما أعطاها هو ظهره وهو يشعر بمخالب الغيرة تنهشه.. أما زالت تذكره بعد كل هذا؟!

فيما كانت هي لا تزال تشعر بهذا الشعور المقيت أنها تتأرجح بين ماضٍ وحاضر، وبينهما هوة سحيقة تكاد تسقط فيها فتبتلعها.. هديته لم تذكرها بـ«هاشم» فحسب.. بل بـ«غالية» كذلك! تلك الأيام

«البريئة» التي لم تكن تعرف فيها من الحياة سوى بياض فطرتها قبل أن تدنسها شهوة انتقامها!

- آسفة.. قلتها دون وعي.. هو كان آخر من شاركني اهتمامي بأمر دراستي هذا.

الحزن الذي كسا حروفها هزم غيرته ليعاود التفاته نحوها قائلًا بعد صمت قصير:

- لا بأس.. نحن لا ننسى من منحناهم قلوبنا في يوم وليلة.. وربما لا ننساهم أبدًا.

لا تدري لماذا شعرت أنه يتحدث عن نفسه لا عنها هي.. لتدرك ساعتها أنها لا تعرف عنه أي شيء.. لهذا تجرأت لتقول بتلعثم:

- أنا لا أعرف عنك شيئًا.. فيما تبدو أنت وكأنك تعرف عني كل شيء.. أليس هذا غريبًا؟!

- أخيرًا!

حروفه امتزجت بابتسامة ارتياح زادت وسامة ملامحه لتسبل جفنيها بخجل لم تجد له ما يبرره فيما هو يردف:

- كنت أنتظر منك هذا منذ عهد بعيد.

- ما الذي كنت تنتظره بالضبط؟!

- أن تنظري إليّ خارج إطار «ابن السرجاني»!

- وأنت؟! هل تراني خارج إطار «ابنة غفران»؟!

سؤالها ينكأ الجرح القديم لكليهما، لكنه كان راضيًا منها بأي خطوة تتقدم بها إليه، لهذا تجاهل سؤالها ليقول بنفس النبرة الدافئة التي تشعر بها تتخلل عبر صقيع روحها:

- قولي لي ماذا تذكرين عني من طفولتك؟! وأنا سأكمل لكِ الباقي.

شردت ببصرها لتردّ:

- لا أذكر الكثير.. كنت دومًا حزينًا وربما غاضبًا.. كنت تحب الرسم.. الوحدة في غرفتك..

ثم طاف على شفتيها شبح ابتسامة:

- أذكر أنك كنت مجتهدًا في دروسك.. «أمي» كانت تقول إنك تريد دراسة الطب.

تلكأت حروفها كثيرًا عند كلمة «أمي» هذه كأنما تخوض صراعها الخاص بين حبها الفطري لها وكراهيتها المستحدثة بعدما نالها في حياتها الجديدة.. ليرد هو بحزن خالط مرحه:

- لم يتغير شيء من هذا سوى دراسة الطب هذه..

أنا تركت الدراسة بعد ظروف سجن أبي.

تكدست نظراتها فوق ملامحه باهتمام كأنما أنساها الغوص في مأساته مأساتها هي الخاصة:

- أبي سُجِن لثلاث سنوات في قضية قتله لأمك.. ثلاث سنوات قضيتها أنا ملطمًا بين أقاربي.. وخرج من السجن مُقعدًا كما ترين.. لم أستطع بعدها التفرغ لأي شيء إلا رعايته.. تركت دراستي وكل شيء خلفي.. ولم أكترث بعدها إلا لتحقيق حلمه هو في هذه الدار.

ظهر التأثر على ملامحها لتسأله:

- تعني أنه لا عمل لديك؟!

- مزرعة قريبة.. أستثمر بها ما بقي من مال أبي.. وأزورها من وقت لآخر.. لكن غالب وقتي أقضيه هنا.

قالها ببساطة متجاوزًا حديث الماضي المؤلم ليردف:

- لهذا أردت بشدة ألا تنجرفي لهذا المصير.. ألا تتركي دراستك وحلمك.. كل شيء يسهل تعويضه.. إلا العمر يا «فاطمة»!

- نادم على ما فعلته لأجل أبيك؟!

- مطلقًا.. لو طلب مني حياتي فداء للحظة رضا واحدة منه فلن أتردد.. لكن وضعنا مختلف.. أنا ضحيت لأجل أبي.. بينما أنتِ تتخبطين دون هدف.. لهذا عز عليّ ألا أنتشلك من هذا!!

قالها بحرارة مخلصة جعلت خفقاتها تتسارع وأناملها الممسكة بهديته ترتجف.. لكن هاجسًا ما جعلها تسأله بيأس:

- وما دمت بارًا بوالدك إلى هذا الحد؟! لماذا

جلبتني إلى هنا؟! لا تخشى غضبته لو عرف الحقيقة؟!

فزفر زفرة مشتعلة ليشيح بوجهه قائلًا بألم لم يستطع كبحه:

- الحقيقة! هذا هو حد السيف الذي سرت عليه طويلًا حتى ما عدت أبالي بنزيف خطواتي.

رمقته بنظرة مندهشة وهي لا تدري ماذا يقصد بـ«طويلًا» هذه.. وما كادت شفتاها تنفرجان لتسأله حتى سمعت صوت «السرجاني» خلفها:

- تأخير «نصف ساعة» عن الفصل!

ارتجفت بتأثيره المعهود عليها، والذي ازداد وهي تراه يتقدم وعيناه مسلطتان على ما بيدها ليقول «هارون» بسرعة:

- أنا الذي عطّلتها.. أحضرت لها ما تحتاجه من أدوات لأجل دراستها، وكنت أعطيه لها.

فرمقه بنظرة متفحصة سبقت قول «فاطمة» المرتبك:

- سأذهب إلى الفصل حالًا.. آسفة.

تابع العجوز انصرافها بنظرات شاردة قبل أن يلتفت نحو ابنه ليقول بابتسامة باهتة:

- لن أسألك عن أسباب اهتمامك بإكمالها دراستها.. فيبدو أنك ترى فيها حلمك القديم.

- ربما.

قالها «هارون» مطرقًا برأسه ليسأله بغموض:

- فقط؟!

- ماذا تقصد؟!

يسأله لتتسع ابتسامة العجوز مع مزيد من المكر، ليلوح بكفه متجاوزًا الأمر بقوله:

- اذهب الآن وتولّ أمر حديقة الدار.. الجنايني الغبي تسبب في موت زهور الياسمين.

- لا.. إلا الياسمين! سأخرب بيته!

هتف بها «هارون» بحماس مصطنع يهرب من نظرات أبيه المتفحصة، ليهرول مغادرًا الرواق بسرعة تتبعه نظرات أبيه التي تبدلت لغموض ذي شجن:

- ليتك لا ترى فيها سوى بقايا حلمك الذي لم تحققه.. ليتها فقط تكون كذلك.

* * *

- كيف هو أول أيامك في الجامعة؟!

يسألها «هارون» وهو يستقبلها في حديقة الدار عقب عودتها، لتلتمع عيناها بالدموع بينما تغمغم بصوت متحشرج:

- صعب.. صعب جدًا.

ينعقد حاجباه بقلق وهو يشير نحو أريكة قريبة في الظل:

- الجو حار.. تعالي واستريحي هنا.

تجلس بجواره محافظةً على مسافة مناسبة فيودّ لو يمكنه أن يرى ملامحها كاملة.. خاصة وهي تنزف بوْحها:

- ما كنت أعرف من أنا.. المكان هو المكان.. والناس هم الناس، لكنني أنا من تغيرت.. بحثت عن «فاطمة» القديمة ببراءتها وحماسها فلم أجدها.. بحثت عن تلك الجديدة بتنمرها وقوتها فلم أجدها كذلك.. يبدو أنني ضعت من نفسي.. ولن أعيدها أبدًا.

لكنه يبتسم لها مؤزرًا ليحتضن عينيها بعينيه:

- التطرف آفة كل شيء.. سأحدثك بطريقتك.. «فاطمة» القديمة بالغت في عزلتها وانطوائها فصنعت لنفسها عالمًا وهميًا هربت فيه من حقيقة كان يستحسن لو واجهتها.. و«فاطمة» الجديدة بالغت في انتقامها وقسوتها لتنخرط في عالم لم يكن أصلًا لها.. لو أردتِ رأيي.. أنتِ لم تضيعي نفسك بل لم تجديها من الأساس!

ترفع عينيها نحوه بنظرة تكاد تذيبه.. نظرة نبت لها ذراعان تعلقا بعنقه.. بل بقلبه.. بروحه التي ود لو

يمنحها لها فداء دمعة من هذه التي تسقط الآن..

فيما كانت تشعر هي به وكأنه وسط هذا البحر الهائج «طوق نجاة»!

- ربما تكون محقًا.

- بل أنا حتمًا كذلك.

يقولها بمزيج من ثقة وحنان صار «أيقونة» مميزة لهذا الرجل في عينيها خاصة وهو يردف غارسًا فيها الأمل:

- ستبنين نفسك من جديد.. بروح مختلفة هذه المرة.. روح متوازنة تعرف متى تلين فلا تُكسَر ومتى تشتد فلا تُعصَر.. ستنسين الماضي وتفتحين ذراعيك للغد.

- تظن النسيان سهلًا؟!

- النسيان عطية القدر لمن يستحقها.

شبكت أناملها في حجرها لتطرق برأسها وقد شعرت بحديثه يمنحها حقًا ما تحتاجه.. بينما شعر هو بالأنظار بدأت تلاحقهما في جلستهما، فوقف ليقول مبتسمًا:

- هناك غرفة سفلية لم نعد بحاجة إليها.. أمرتهم كي يُعدُّوها لكِ لتذاكري فيها بعيدًا عن غرفة المشرفات.. هي ضيقة نوعًا، لكنها تفي بالغرض..

ثم لوح بسبابته في وجهها مردفًا:

- لقد كنتِ تحصلين على المراكز الأولى في العامين السابقين.. ولن أرضى بسواها هذا العام.

قالها ليعطيها ظهره مغادرًا تلاحقه نظراتها المندهشة.. هل يعلم هذا أيضًا عنها؟! ماذا في حياتها

لم يعرفه؟!

- «هارون»!

تستوقفه بندائها، فيطرب قلبه لصدى اسمه بين شفتيها، قبل أن تقوم لتقف قبالته، وتسكب نظرات حيرتها الآسرة في عينيه:

- لا أدري إن كان قدومي هنا نعمة أم حماقة سأظل ألعن عليها نفسي العمر كله.. لكن ما أثق به أنني يومًا ما سأشكرك.. سأشكرك كثيرًا على كل ما فعلته لأجلي.. يومًا ما عندما أستعيد توازني كاملًا وأخرج من هذه الدوامة التي لا تزال تبتلعني.

فتتسع ابتسامته وهو يرى انعكاس الشمس في عينين كعينيها كارثيًا.. يبذل ما فوق طاقة البشر كي لا يضمَّها الآن لصدره، فيحميها من العالم كله.. لهذا لم يشعر بنفسه وهو يقرب وجهه منها ما استطاع ليهمس لها بما سمعه قلبها قبل أذنيها:

- أنا أيضًا كل ما أثق به أنني سأكون دومًا معك.. لآخر نفس.

يرتجف جسدها بشعورها الخاص.. الخاص جدًا نحوه.. كيف تحولت هذه الملامح التي عاشت عمرها تخشاها كـ«جاثوم» إلى هذه الغيمة الدافئة من الأمان؟!

وجنتاها تحترقان بهذا الخجل الذي لا تعرف له سببًا.. فتحمد الله أن يداريه نقابها.. تهرب من هذا كله لتفرَّ من أمامه بخطوات شبه راكضة.. غافلة عن عيني «السرجاني» اللتين كانتا تراقبان المشهد من بعيد بنظرات متوجسة!

* * *

يقولون إن دروبنا متوازية لا تلتقي..

ونغماتنا شاذة لا تتفق..

فافرد ذراعيك وحلق بعيداً معي..

نعزف سوياً اللحن العصي الذي لن يطرب الروح سواه!

* * *

كانت «غنى» تقف في الشرفة تراقب بضعة من الصبية يلعبون في مدخل البناية، فوقف يراقبها من بعيد.. الأيام جرت على عهدها في التقريب بينهما ومن دخلت حياته كـ«عاصفة» صارت الآن نسمته الرقيقة.. هي تحبه وهو يحب حبها له.. تحتاجه وهو يحتاج احتياجها إليه.. يرمم هذا الشرخ الذي يجده بروحه.. ربما لهذا صار لها مكان في صدره أكبر من أن يهمله وإن لم يجد له توصيفًا.

صحيحٌ أن الحواجز بينهما لا تزال قائمة، لكنه

يشعر أنه اعتاد رفقتها.. هنا في بيته أو في الأكاديمية، حيث وجد لها عملًا بسيطًا هناك تقبلته مرحبة لتكون جواره..

- صنعت لكِ كوب شاي بـ«النعناع» معي!

قالها وهو يضع لها الكوب على سور الشرفة، لتلتفت نحوه بابتسامة عاشقة ممتنة.. بل بروح عاشقة ممتنة.. كل ما فيها دومًا يفيض له عشقًا وامتنانًا!

- لم أكن أعلم أنك تحبه!

- أنتِ جعلتني أحبه..

قالها عفويًا وهو يرتشف رشفة من كوبه، لتحمر وجنتاها حمرة طفيفة غريبة على ملامحها الشاحبة دومًا.. فابتسم برضا وهو يتابع مثلها لعب الصبية بالكرة ليسألها:

- تحبين الأطفال؟!

- أخاف عليهم.

رفع حاجبيه بدهشة لتردف بابتسامة بائسة:

- قد لا تفهمني.. لكنني تعودت من صغري أن يرتبط الحب عندي بالخوف.. هما دومًا عندي مترادفان.

ردّه حديثها لحادثة موت والديها صغيرة، فتنحنح ليقول باهتمام:

- لماذا لا تحدثينني عن نفسك؟! أليس من العدل أن أعرفك كما تعرفينني؟!

- لا أريد أن أثقل عليك.

- موضوع «الثقل» هذا لا يليق عليكِ بتاتًا..

قالها ممازحًا لتسيء فهم عبارته بعقدة نقصها المعهودة، فتتمتم مطرقة الرأس:

- صحيح.. أنا دومًا بلا وزن.

عبارتها تخز قلبه، فيمد كفه الحر ليحيط بكفها قائلًا بجدية:

- لماذا ترين نفسك دومًا بهذه الطريقة، فتسيئين تأويل كلماتي؟! كل ما قصدته أنني حقًا أراك كطيف رقيق.

ارتجفت ابتسامتها كسائر جسدها، وهي ترفع عينيها الدامعتين إليه بهمسها:

- حقًا؟!

أومأ برأسه مؤكدًا، فازدادت حمرة وجنتيها فاضحة

أثر كلماته، حتى إنها لم تحتمل المزيد من النظر نحوه، فأطرقت برأسها لتسأله:

- كنت أود لو أسألك منذ زمن.. لماذا لم تطلِّقني حتى الآن؟!

- لا أعرف عنوان المأذون!

قالها بمرحه المعهود، لتبتسم وهي تعاود رفع عينيها نحوه، فيهرب من سؤالها وهو يعاود متابعة لعب الصبية بالأسفل:

- هل ترين هذا الولد برتقالي الشعر؟! ترين كيف يجيد «ترقيص» الكرة؟! فنان يا ابني والله!

هتف بعبارته الأخيرة بصوت عالٍ ليلحقها بصفير طويل جعل الصبية يرفعون رؤوسهم نحوه، فيتعالى صخبهم وهم يلوحون له بأكفِّهم، فتنهدت وهي تدرك محاولته للتهرب من سؤالها الذي بقي يؤرقها لأيام

مضت.. ويبدو أنه سيبقى يؤرقها لأيام أُخَر قادمة..

- اشربي الشاي قبل أن يبرد.

يقولها مشيرًا بعينيه لكوبها فترتجف شفتاها بهذه الابتسامة التي تجعله يود في كل مرة لو يضمها بين ذراعيه.. عيناه تتفحصان ملامحها ببعض الدهشة.. كيف يراها الآن جميلة؟! بل كيف لم يرها يومًا جميلة؟! يبدو أن «الجمال» هو الحقيقة الكاذبة المراوغة التي تتلون في كل مرة بروح صاحبها.. فتبدل القبيح بالحسن والحسن بالقبيح!!

ترتشف من كوبها رشفة مستمتعة.. ها هو ذا حلم آخر يتحقق لها معه.. ها هي ذي تجاوره في بيته.. في شرفته.. يعد لها بيديه شيئًا تشربه.. يبتسم لها.. لها وحدها.. ابتسامة تغمض عليها عينيها، فلا تريد أن ترى بعدها شيئًا.. أي شيء!!

يا الله! ألا أيها العمر قف هاهنا.. فلا تتقدم ولا

تتأخر.

- لماذا تدمعين؟!

تشعر بهمسه الدافئ يرافق مسح طرف إبهامه لدمعة خائنة تسربت عبر عينيها المغمضتين، لكنها لا تفتحهما.. فقط تهمس بنبرتها الخاشعة:

- تعلم كم مرة طاردت فيها ابتسامتك عبر صورك وتمنيت لو تكون لي.. لي وحدي؟!

همسها يخترق قلبه بصدقه فلا يدري بماذا يرد.. يقولون إن الرجل يزهد المرأة متى تبين عشقها له.. لكنه لا يشعر بهذا.. على العكس.. كلما اقترب منها وذاق حرارة عاطفتها هذه ازداد بها تعلقًا.. كأنه كنز وقع في طريقه قدرًا ولن يضيعه!

أنامله الحرة تمتد لتحتضن راحتها، فتعاود شفتاها الارتجاف بهذه الطريقة المغرية..

- كفي عن التحدث بهذه الطريقة كي لا أغتر.

بمرحه يقولها لتقابلها بمرح يشبهه:

- الغرور يليق بك يا «كابتن»!

تفتح عينيها أخيرًا لتلتقي نظراتهما بهذا الدفء المشع.. حديث طويل تتبادله العيون بصدق.. وتعزفه الروح بترو.. لحنٌ عصي إنما.. نغماته متفردة كبصمة إصبع لا تتكرر!

- «جووووول»!

صراخ الصبية بالأسفل يقطع حبل وصالهما، لتنتفض هي مكانها، بينما يعود هو ببصره نحوهم ليلوح لصاحب الشعر البرتقالي الذي رفع رأسه نحوه هاتفًا:

- رأيت الهدف يا «كابتن»؟!

فيضحك وهو يغمزها جواره ليقول بمرح:

- فاتني.. سأراه في الإعادة!

تضحك بدورها، وهي تشعر به يقترب منها في وقفتها، حتى يكاد يلاصقها وهو يتابع لعب الأطفال باهتمام.. بينما هي كعادتها لا تتابع إلا هو!

* * *

- فيمَ أنتِ شاردة؟!

يسألها هاشم باهتمام وهو يغادر معها الأكاديمية نحو سيارته لتجيبه بأسى:

- حالة خالتي لا تتحسن.. قلبي يتمزق كلما رأيت ما آل إليه حالها.. من يصدق أن «غالية» التي كان

الجميع يهتزون بكلمة منها.. الآن عاجزة عن النطق؟!

أطرق برأسه آسفًا وهو لا يدري بماذا يرد.. جزء «بشري» طبيعي به يرى في هذا نهاية عادلة.. لكنه لا يملك هذه الشفقة التي يشعر بها نحو كلتيهما معًا..

- أعترف بأنها لم تحبني كما ينبغي.. لكنها أحبتني بأقصى ما يمكنها أن تحب.. تمامًا كما فعلت مع «فاطمة».. هي لم تقصد يومًا إيذاءها بقدر ما قصدت امتلاكها.. بقاءها في حياتها كابنتها التي لا تعصي لها أمرًا..

ثم صمتت لحظة لتردف:

- ستصفني بالجنون لو أخبرتك أنني أشعر أنها ستتحسن لو زارتها «فاطمة»؟!

فابتسم ساخرًا مع قوله:

-عن أي شيء تتحدثين؟! «فاطمة» لم تدُسْ على قدمها.. «فاطمة» سرقت زوجها وهيبتها في البلد كلها.. ما بينهما تدمر للأبد!!

لكنها تهز رأسها لتقول بنبرة مذنبة:

- أنا التي أحمل وزر كل هذا على ظهري.. لو لم أوافقها على ما تريد لكانت...

- لا داعي للخوض في الماضي يا «غنى».. كلنا تجرع نصيبه من الخطأ والعقاب.

يقولها بأسى لتعاود قولها بأسف:

- لن أسامح نفسي أبدًا.. أشعر بالقلق على «فاطمة» خاصة مع اختفائها بعد وفاة طفلها.. ماذا لو كانت آذت نفسها؟!

- لا تقلقي.. هي بخير.

نظرات أسفها تشوبها غيرة لم تملكها، وهي تسأله بوجل:

- أنت.. كلمتها؟!

ضحكة ساخرة مكتومة كانت جوابه قبل أن يفتح لها باب السيارة لتستقلها، فيركب هو بجوارها لينطلق بها مع قوله:

- أنا فقط رأيت «سليمان» في زيارتي الأخيرة لأبي في قريتنا.. تعلمين عمق علاقتهما معًا.. سألته عنها وعلمت أنها انضمت لإحدى دور الأيتام، لعلها تنسى هناك مرارة ماضيها.

صمتت للحظات مطرقة برأسها لتسأله:

- هل تفكر في العودة إليها؟!

- ما يكسره الخذلان لا يصلحه الندم.. كلانا خذل الآخر.. أنا بدأت وهي عاجلتني الضربة بأقوى منها.

يقولها بشرود آسف لتقول بتردد:

- تريد رأيي؟! أنت لم تحبها.. ولا هي كذلك..

اختلس نظرة جانبية نحوها لتردف:

- لو كنت أحببتها الحب الذي أعرفه لما فرطت فيها يومًا إلا عندما تزهق آخر أنفاسك.. هي الأخرى لم تحبك.. فالحب الحقيقي لا يطمسه انتقام.. كلاكما عاش في الآخر «وهم» حب تحطم عند أول اصطدام بصخرة الواقع.

شرد ببصره يفكر في حديثها شاعرًا أنها لم تبتعد كثيرًا عن الحقيقة.. لكن حتى لو لم يكن ما بينه وبين «فاطمة» حبًا ستبقى ندبته في قلبه العمر كله.. ربما لو اطمأن عليها.. لو علم أنها استردت فطرتها

النقية وعادت لحياتها من جديد.. ساعتها فقط قد يسامحها ويسامح نفسه قبلها..

* * *

- ما لها «غنى»؟!

يهتف بها «هاشم» بجزع والعامل يبلغه بسقوطها فاقدة الوعي، ليهرول نحو الغرفة التي استلقت على السرير فيها، بينما الطبيب يفحصها..

- أنا بخير.. أنا اعتدت نوبات الدوار هذه.

تغمغم بها بشحوب وهي تراقب تجمع الناس حولها شاعرة بـ«الخزي» من ضعف جسدها المعهود، ليهرع هو نحوها، فيضغط كفها في راحته، ويسأل الطبيب بقلق:

- ما الأمر؟!

- لا شيء يستحق القلق.. ربما كنتم تنتظرون حدثًا سعيدًا!!

يغمزه بها الرجل لتنطلق هتافات الحضور حوله في مباركات عالية..

- ننتظر «العدوي» الصغير، ليكون فخر الملاعب كأبيه!

فتغمض عينيها بألم وخزه هو الآخر ليزيد من قوة ضغط كفه لها هامسًا بقلق حنون:

- أنتِ بخير؟!

أومأت برأسها إيجابًا ليلتفت هو، فيفض الجمع حولهما بدبلوماسية.. قبل أن يعاود التفاته نحوها ليقول باهتمام:

- سنزور طبيبًا آخر قبل عودتنا للبيت كي نطمئن أكثر.

مسَّها هذا الحنان النقي بين حروفه لتشعر به يطوقها.. حلمٌ جديد يتحقق معه فتضمه لقائمة «النجوم» التي يُسقطها في حجرها.. حلم رسم ابتسامة فوق الشفاه المتشققة.. ابتسامة اتسعت كثيرًا وهي ترى حنانه يطوقها في رحلتهما للطبيب الذي طمأنهما، طالبًا منها فقط الاهتمام بغذائها، وكتب بعض الأدوية لها.. لينتهي بهما المقام على الأريكة في غرفة المعيشة بشقته..

- سأعد أنا الطعام بينما تستريحين!

قالها وهو يزيح عنها حجابها برفق لتشعر بالخجل من مظهر شعرها الذي فرد نصفه صناعيًا بينما بقي الآخر على طبيعته المجعدة.. ترى كيف يراها الآن لو قارن بينها وبين «فاطمة» بنعومة شعرها الطبيعية

وجمالها الأخاذ؟!

الخاطر الأخير أصابها بالإحباط لتغمغم بصوت متحشرج، بينما تحاول إعادة وشاحها لرأسها:

- لا تتعب نفسك.. سأنام في غرفتي للصباح.

لكنه تمسك بها ليقول بمرحه المعهود:

- لا! لا نوم قبل أن تتناولي عشاءكِ كاملًا.. لقد سوَّدتِ وجهي اليوم.. ماذا يقولون عني؟! يجوّع زوجته حتى تسقط فاقدة وعيها!

زادتها عبارته خزيًا وهي تسيء تأويلها، لكنه مدّ أنامله ليفرد شفتيها المزمومتين باستطراده:

- لن تكملي الليلة بـ«وجه الجرو» البائس هذا.. سنتناول عشاءنا ونشاهد فيلمًا كوميديًا.. أريد أن أراكِ تضحكين.. أم إن هذه «الخاصية» غير موجودة

في التحديث الجديد الخاص بكِ؟!

ابتسمت عفويًا، ليربت على كتفها هاتفًا بنفس المرح الحنون:

- بداية جيدة.. استمري!

قالها ثم قرص وجنتها بخفة مداعبًا، قبل أن يغادر نحو الداخل تلاحقه نظراتها المفتونة.. كيف تخبره بأنها صارت تخشاه؟! تخشى أن تُحرَم كل هذا النعيم الذي تعيشه قربه.. والذي يقلبه خوفها جحيمًا في لحظات؟!!

- يا رب! لو أردت أن تحرمني منه فاقبض روحي قبلها.. تعلم أني لن أحتمل فراقه من جديد!

ترفع بها عينيها بدعاء صامت تكدس معه الدمع في عينيها، لكنها تذكرت أمره فأخذت نفسًا عميقًا لتعيد رسم ابتسامتها على شفتيها..

- أفسحوا الطريق للعشاء الفاخر..

يقولها وهو قادم يحمل صينية الطعام، مردفًا بلهجة معلق كروي شهير: «الله عليك يا حبيب والديك»!

يضع الصينية على المائدة أمامها، ثم يجلس جوارها ليفتح التلفاز هاتفًا بحماس:

- فيلم «...» يقولون إنه «قنبلة ضحك»!

يخفق قلبها بسعادة حقيقية وهي ترى اهتمامه مضاعفًا هذه الليلة.. يضمها لصدره بأحد ذراعيه، بينما يطعمها بالآخر.. ولأول مرة لا تشعر بالخزي من وهن جسدها المعهود بل تكاد تحمده!

عيناها تنسحبان لمشاهد الفيلم أخيرًا، فتنخرط فيه بكامل تركيزها.. ضحكة عالية تطلقها عفويًا

تتبعها بأخريات لتفاجأ بقوله الدافئ:

- ضحكتك جميلة.. لماذا تخفينها إذن؟!

يقولها وهو يحيط إحدى وجنتيها براحته ليرفع وجهها نحوه.. حمرة الخجل بوجنتيها و«الخاصة به وحده» تداعب حواسه من جديد، فتدور عيناه على ملامحها بشغف.. قبل أن تتكدس نظراته فوق شفتيها.. ليكون اللقاء!

خجلها الفطري يمتزج بسحر قُبلتها الأولى لتذوب بين ذراعيه كقطعة سكر.. حلم آخر يأخذ دوره في سلمها نحو قمة عرش حبه.. تشعر به يرفعها ليجلسها فوق ساقيه.. ذراعاه يطوقانها بهذا المزيج بين قوة واحتواء.. أنامله تغوص بين خصلات شعرها فينقبض قلبها بـ«شعور النقص» من جديد، لكن حرارة عاطفته تغمرها كاملة فلا تعود تدرك سوى هذا السحر الجارف في لمساته..

- أنتِ جميلة.. جميلة حقًا!

قالها «غير مجامل» وقد أنبأه حدسه أن هذا ما تحتاج سماعه الآن بالضبط.. لكنها تدفعه أخيرًا برفق لتسند رأسها على كتفه.. فيشدد ضغط ذراعيه حولها مكتفيًا بهذا الآن منها -مؤقتًا- بينما همسها العاشق يصله:

- شكرًا على هذا الحلم الذي جعلتني أعيشه معك بتفاصيله.

لكنه يتحرك ليرفع ذقنها نحوه متسائلًا:

- لماذا أحببتني إلى هذا الحد؟!

- قد تظنه مجرد إعجاب مراهقة بلاعب شهير.. لكنني عندما أحاول تذكر البداية أجدني أمام مشهد واحد لك وأنت تضم طفلة صغيرة باكية إلى صدرك.. وقتها رأيتني أنا في صورتها، وتمنيت حقًا لو يمسني

قبس من حنانك هذا الذي يحكون عنه.. هذا الحنان الذي افتقدته في عمري كله..

كانت تهمس بها مغمضة العينين، وكأنما تخشى أن تفتحهما فيتبدد الحلم.. لكنه دار على جفنيها بأنامله ليجبرها على فتحهما..

- أحب «حبك لي»..

يهمس بها فتستصرخه عيناها المزيد ليردف بصدق:

- أحب هذه اللهفة في عينيك عندما ترينني.. هذا الخجل الذي تحمر له وجنتاكِ ويخصني وحدي.. هذه الابتسامة التي تتلون بلون مزاجي.. وهذه الضحكة التي سمعتها منذ قليل والتي أوقن أنني سببها..

عضت شفتها مسبلة جفنيها من جديد، ليعاود ضم

رأسها لكتفه هامسًا:

- أحب راحتي معك.. صورتي في عينيك.. هذا الشعور الذي يغمرني أنكِ تنتمين إليّ.. وهذا الأمان الذي تمنحه لي نظراتك المعطاءة دون انتظار مقابل.. أحب إيمانك بي.. بكل ما فعلت وبكل ما أفعل وما يمكنني أن أفعل.. أحب روحك التي تبدو دومًا شديدة الهشاشة إلا فيما يختص بي أجدها تتحول لقوة داعمة تؤازرني..

بكاؤها المنفعل يقطع همسه، فيربت على ظهرها مشفقًا متفهمًا لكل هذه المشاعر التي تكتسحها.. لو كان بيده أن يكذب فيقول إنه يحبها هي لفعلها.. لكنه لا يريد البوح بها إلا عندما يتيقن من حقيقة مشاعره نحوها.. من أنه حقًا يريد إكمال طريقه معها..

- يكفيني منك هذا.

تهمس بها وسط دموعها فيحيط وجنتيها بكفيه يمسح دموعها قبل أن يقبل جبينها ليقول بنبرة عاد إليها مرحها:

- نكد مصري أصيل.. كل هذه الدموع؛ لأنني قلت لك عن الذي أحبه فيك.. ضيعتِ مفعول الفيلم!!

فتضحك وسط دموعها، وهي تهبط عن ساقيه بخجل لتدفن وجهها بين كفيها، بينما هو يردف بنفس المرح:

- دعينا نكمله إذن.. ما بقي يستحق الانتظار!

نطق عبارته الأخيرة بنبرة ذات مغزى، لتدرك هي ما يقصده بحديثه.. ترفع كفيها عن وجهها ببطء لتطوقها ابتسامته بـ«نكهة الوعد»، فتبتسم بدورها وهي تشعر به يمد ذراعه ليضم كتفيها نحوه من جديد لتسترخي برأسها على صدره..

«اللحن العصيّ» تنبعث نغماته بينهما بتصاعد شهي.. فتثمل بطربه الروح واعدة أن تنهار الحواجز بينهما واحدًا تلو الآخر.

* * *

كانت تجلس في حديقة الدار تحت أحد الأشجار تراقب السماء بشرود.. لقد عادت لدراستها لكنها لم تعد بعد لنفسها!

شيء ما فقدته من «فاطمة» ولا تدري كيف تستعيده.. شيء لا يعوضه شغفها بالأطفال هنا.. ولا هذه الحياة النظيفة الرائقة التي صارت تحياها.. مزاجها أكثر سوءًا هذه الأيام.. ربما لأن هارون انشغل بمزرعته ولم تره منذ خمسة أيام.. هل تجرؤ على الاعتراف بهذا؟! هل يمكنها التسليم بما يعنيه هذا الاعتراف؟!

لقد اعتادت اهتمامه.. أدمنته.. هذا الشعور الحمائي

الذي يبثه حولها أينما وجدت.. ولا تعلم له سببًا سوى أنها نسخة من ماضيه.. يا للعبث!!

دموعها تسيل على وجنتيها، فتهم بمسحها تحت نقابها، لكنها تسمع رنين هاتفها.. إنه هو!! هارون!!

تفتح الاتصال لترد بصوت متحشرج، فيهتف بها بجزع:

- هل تبكين؟!

الحنان المتدفق في صوته «الآمن» يدفعها للبكاء بنبرة أعلى، ليهتف هو:

- ماذا حدث يا «فاطمة»؟! هل آتِ إليك؟!

لم تستطع الجواب مع هذه الغصة في حلقها، فأغلقت الاتصال وهي تشعر بالغضب من نفسها.. لماذا تكرر نفس الخطأ؟! لماذا تنجرف من جديد لهذه

الهاوية؟! لماذا تضع سعادتها رهينة بشخص؟! هل التأمت كل جروح ماضيها كي تعاجل قلبها بطعنة أخرى؟!

- كيف حالك يا «قطة»؟!

يسألها العجوز لتنتفض مكانها في استجابة معهودة لصوته، فيبتسم مردفًا:

- كنتِ سعيدة مشرقة حتى بضع أيام مضت، ولم أكن أحتاج لسؤالك عن أحوالك.. لكن الوضع اختلف فجأة!

جعلتها عبارته تتحسس «بطحة رأسها» لتقوم واقفة، وتنفض كفّيها لتقول بارتباك:

- وماذا حدث منذ بضعة أيام؟! أنا فقط.. أواجه بعض المشاكل في دراستي.

كانت لا تزال عاجزة عن رفع عينيها نحوه كعهدها، لكنها شعرت بمكر نظراته مع كلمته:

- «هارون»!

- ماذا به؟!

- هو الآخر منشغل منذ فترة عن الدار.. افتقدته!

عضّت شفتها السفلى بارتباك فضحته رعشة أناملها، لكن الصخب الذي هاج حولها فجأة أنقذها..

- «مهاب» فوق السور يريد القفز!

الصيحات حولها تتعالى لتشهق بارتياع، وهي ترفع رأسها للأعلى فوق قمة المبنى لتجد الصغير هناك!

امتقع وجه «السرجاني» وهو يصرخ بالحرس، لكنها لم تنتظر.. بل بدت وكأنها تحولت لآلة لا تجيد

سوى العدو، حتى وصلت لسطح المبنى ليلتفت نحوها الطفل قائلًا بكآبة:

- ابتعدي يا «ميس».. سأذهب لألحق بأمي وأبي.

كاد قلبها يقفز بين ضلوعها وهي تشعر بأنها تعيد مأساة حياتها مرتين.. خاصة والصغير يحمل اسم ابنها الذي لم تتنعم به..

- لا تفعلها يا «مهاب».. لو فعلتها فسأقضي بقية عمري أبكي عليك.. هل يرضيك حزني؟!

تهتف بها بلهفة وهي تقترب منه بوجل، والمشهد يعيد إليها ذكرى باهتة مع «هاشم»..

- أنا أمك.. ألستم تقولون لي دومًا هذا؟! انزل وسأرى من أغضبك وأقتص لك منه..

تقولها مهادنة وهي تقترب فاتحة له ذراعيها، ليبدو

التردد على ملامح الصغير للحظات، قبل أن يبدأ في البكاء مدركًا خطورة الوضع الذي هو فيه فوق السور.. لكنها تقدمت ببطء حذر لتجذبه فجأة بين ذراعيها فتضعه أرضًا، لكنها هي من اختل توازنها لتسقط على ذراعها..

* * *

- حمدًا لله على سلامتك يا «ابنتي».

يقولها العجوز بحنان، بينما يجلس بكرسيه المتحرك بجوار فراشها في غرفة المشرفات، والذي استلقت عليه بعد تجبير ذراعها.. فتتجرأ لترفع عينيها نحوه لأول مرة بهذا القرب.. عيناه غائرتان تنبضان بحزن خفي غريب على عهدها القديم به..

لم تنتبه أنه هو الآخر كان يتفحص عينيها باهتمام لتلتوي شفتاه بشبح ابتسامة وهو يعاود سؤالها:

التردد على ملامح الصغير للحظات، قبل أن يبدأ في البكاء مدركًا خطورة الوضع الذي هو فيه فوق السور.. لكنها تقدمت ببطء حذر لتجذبه فجأة بين ذراعيها فتضعه أرضًا، لكنها هي من اختل توازنها لتسقط على ذراعها..

* * *

- حمدًا لله على سلامتك يا «ابنتي».

يقولها العجوز بحنان، بينما يجلس بكرسيه المتحرك بجوار فراشها في غرفة المشرفات، والذي استلقت عليه بعد تجبير ذراعها.. فتتجرأ لترفع عينيها نحوه لأول مرة بهذا القرب.. عيناه غائرتان تنبضان بحزن خفي غريب على عهدها القديم به..

لم تنتبه أنه هو الآخر كان يتفحص عينيها باهتمام لتلتوي شفتاه بشبح ابتسامة وهو يعاود سؤالها:

- هل يؤلمك؟!

- اعتدت الألم.

تتمتم بها بخفوت وهي تعود برأسها لتستند على طرف الفراش، فتنهد ليقول بشرود:

- اعتياد الألم لا ينفي الشعور به.. إنما هو فقط يخرس آهاتنا.

عادت ترمقه بنظرة طويلة كأنما تقتص لكل هذه المرات التي جبنت فيها عن فعلها.. الاهتمام الصادق الذي نالته منه في الساعات السابقة جعل شعورها نحوه يتخبط أكثر.. الجميع هنا يحبونه كأبيهم.. فهل هي في طريقها لتفعلها مثلهم؟!

يا للأيام!

- لن أنسى شجاعتك اليوم في إنقاذ الطفل.

ينتزعها بها من شرودها لتقول بشرود:

- اسمه «مهاب».. على اسم ابني الذي... راح.. اليوم فقط شعرت أن القدر يرضيني بمنحة كهذه.. ربما لم أستطع إنقاذ طفلي، لكنني أنقذته هو!

- ذكرتني بأحد رفقائي في السجن.. قصته كانت تشبه هذه تمامًا..

قالها عفويًا وقلبه يتعاطف مع مأساتها.. ثم ضحك ضحكة خشنة مردفًا:

- تعلمين أنني دخلت السجن؟!

- لماذا؟!

تقولها متصنعة الجهل ليطرق العجوز برأسه، ثم يتحرك بكرسيه فيعطيها ظهره مع جوابه:

- قتلت زوجتي؛ لأنها كانت تخونني.

كان دورها لتطرق برأسها هي الأخرى عاجزة عن منحه أي رد.. ليردف هو بألم ما تصورته يومًا يعيش به:

- لو تعلمين كم كنت أحبها.. كنت أراها ملاكًا يسير على قدمين.. اعتبرتها عطية القدر لي ولابني كي تربيه بعد وفاة أمه.. ذقت معها الفرحة التي لم أعرفها في عمري كله.. حتى أنني الآن أتساءل هل كان من الأفضل لي أن أقتلها وقتها أم أقتل نفسي؟!

لم تشعر بدموعها التي سالت على خديها وهو يستطرد بنفس الألم:

- سُجِنت بعدها لثلاث سنوات ذقت فيها الويل.. خرجت من السجن مُقعدًا كما ترين، بعد شجار مع أحد السجناء.. لأقضي ما تبقى من عمري هنا.. كأن

موتها كان موتي أنا الآخر!

هزّت رأسها كأنما تحاول استيعاب هذا الجانب من الحقيقة الذي تراه لأول مرة.. لقد عاشت عمرها لا ترى سوى معاناتها هي بسببه.. والآن!

- «فاطمة»!

هتف «هارون» الجزع على الباب يقاطع أفكارها، فتلتفت نحوه بلهفة شاركها إياها، وهو يلج إلى الداخل ليسأل أباه بقلق:

- ماذا حدث؟!

- كانت تحاول إنقاذ طفل، فسقطت هي على ذراعها!

قالها العجوز مختصرًا وهو يكذّب رؤية هذا العشق الجارف في عيني ابنه، الذي تقدم نحو «فاطمة»

بنفس الانفعال:

- بماذا تشعرين؟!

يسألها فيصطدم ببلل نقابها فاضحًا دموعها تحته ليصيح بلوعة:

- فلننقلها للمشفى كي نطمئن أكثر.

- لو كنت أرى داعيًا لهذا لما انتظرت اقتراحك.. أنا أهتم بها أكثر منك.. فهي أولًا وأخيرًا موظفة عندي أنا.

كلمات والده الصارمة ردَّت له بعض رشده، فتمالك انفعاله ليشيح بوجهه دون رد، فيما العجوز يلتفت نحوها ليقول باقتضاب:

- سنتركك تستريحين.. العاملة ستبيت ليلتها معك كي ترعاكِ.

يقولها فيغادر الغرفة ليرمقها «هارون» بنظرة ملتاعة لم ترها قبل أن يضطر بدوره للمغادرة.. تاركًا إياها خلفه تبتسم بشجن.. ها هي ذي تجرأت لتنظر لـ«السرجاني».. ليس فقط لعينيه.. بل لداخل روحه!

بينما خاطر آخر يدغدغ أنوثتها برقة.. «هارون» عاد بمجرد أن سمع صوتها تبكي على الهاتف.. ترك كل شيء ليهرع إليها.. كعهده يشعرها بأنها شمس عالمه الثانية!

* * *

هاتفها يرن برقمه، فتبتسم ابتسامة مرتبكة.. كانت تتوقع اتصاله.. وتتمناه.. تراهن على هذه اللهفة التي سيغرق فيها صوته ويغرقها معه!

لهذا انسحبت بخطوات متمهلة من الغرفة، حيث رفيقاتها النائمات نحو الشرفة القريبة.. أغلقت الباب

خلفها لتفتح اتصاله، وهي تنظر للقمر الذي بدا لها هذه الليلة مختلفًا.. طالما رأته وحيدًا متباعدًا عن نجومه.. أو مختبئًا خلف غيومه.. لكنها الآن تراه وقد تكدست حوله النجوم تحيطه من كل جانب.. كأنما تهتف به: لست وحدك!

- كيف حالك الآن؟!

- بخير.. لا تقلق.. وأنت كيف حالك؟!

تسأله عن حاله؟! كيف يخبرها أنه دونها ليس بـ«خير».. وأنها هي فقط كل «خيره»!

فكرة أنها تأذت في غيابه تكاد تصيبه بالجنون.. هو عاهد نفسه منذ أقحمها في عالمه من جديد ألا يسمح لأحد بأن يؤذيها ولا حتى هي نفسها! لهذا غضّ صوته بجوابه:

- أخبريني ماذا حدث في غيابي؟! أنا عدت بمجرد

أن سمعت صوتك الباكي!

عبارته الأخيرة دغدغت قلبها بهذا الشعور الحمائي الذي طالما طوقها به.. لكن طبيعتها «المتمردة» تبرز طيفها الشاحب لترد مراوغة:

- ولماذا لا تخبرني أنت؟!

- بماذا؟!

- بكل شيء.. لماذا تطالبني دومًا أن تكون محيطًا بكل تفاصيلي فيما لا أعلم عنك إلا القليل.

تنهد بحرارة وهو يكاد يعتصر الهاتف بأنامله:

- فقط أخبريني أنك لا تتألمين من ذراعك.. وسأخبرك بكل ما تريدين.

طمأنته بكلمات قليلة ليسألها:

- ما الذي تودين معرفته عني؟!

ترددت قليلًا وهي تخشى أن تفتح هذا الباب، فلا تدري ما خلفه.. لكن نظرة واحدة للقمر الذي تدعمه نجومه جعلتها تحسم أمرها:

- حبيبتك التي تساعدني؛ لأنني أشبهها.. كيف فقدتَها؟!

شبح ابتسامة يطوف على شفتيه وهو يتحرك ليفتح نافذة غرفته، فيجدها أمامه واقفة في شرفتها، وقد رفعت نقابها!

لم يكن يستطيع مشاهدة ملامحها مع هذه المسافة خاصة، وهي تقف بهذه الطريقة حيث لا يمكنه إلا رؤيتها جانبيًا.. لكن مجرد مصافحة عينيه لملامحها التي اشتاقها من جديد جعلت قلبه يرجف بهذه الطريقة التي لم يعرفها إلا لها!

- «هارون».. لا تزال معي؟!

تقولها وهي تنظر للهاتف بترقب بعد طول صمته ليجيبها بنبرته الدافئة:

- دومًا معك.

دومًا ما تكون همساته سهامًا صائبة الهدف نحو قلبها.. هو شعور لم تعرفه مع «هاشم».. يختلف في كل شيء.. ربما لأن سلطان عشقها لـ«هاشم» كان طاغيًا على أي شعور سواه.. أدمنت معه العطاء حتى لم تكن تفكر في مقابل.. كانت تعيش له أكثر مما تعيش لنفسها..لكن «هارون».. تشعر معه وكأنها طفلة تمد يديها موقنة أنه لن يردهما خائبتين.. تحبو نحوه مدركة أنها لو تعبت فسيحملها على كتفيه.. شعور غامر بالأمان لا تراه منطقيًا أبدًا مع قصر مدة تعارفهما «المستحدث».. لكن من مثلها يمكنه تمييز شعور كهذا وهي عاشت عمرها كله محرومة منه؟!

- ضايقك سؤالي؟!

- لا شيء منك يضايقني إلا أن تؤذي نفسك.

- إذن.. لماذا لم تجبني؟!

صمت قليلًا هذه المرة لتتسع ابتسامته وهو يراها، بينما هي غافلة عنه ترفع أناملها نحو صدرها تضغطه بقوة كأنما تداري انفعالها.. كل تفاصيلها مهما بدت بسيطة ساحرة لديه..

- ربما لم أفقدها تماماً.. أشعر أنني بدأت أستعيدها.

يقولها مراوغًا لتسيء فهم عبارته فترد:

- هل كان هذا سبب غيابك للأيام الماضية؟!

لم تستطع منع هذه الغصة في حلقها وهي تقولها ليجيبها غافلًا عن حقيقة مشاعرها:

- لا.. كنت فقط مشغولًا بمزرعتنا إذ جدت فيها بعض المشاكل.

راعه الصمت الذي سادها بعد عبارته ليسألها باهتمام:

- هل تودين السؤال عن شيء آخر.

نفسها تراودها بألف سؤال عن حبيبته هذه، لكنها تجبن عن الاعتراف بما يعنيه هذا لديها.. فتغير الموضوع لآخر:

- كيف حال «سليمان»؟! افتقدته كثيرًا.

- زرته منذ يومين.. هو بخير ويبلغك سلامه.. استردّ أرضه وبيته من إخوته بعد تنازله عن تمثيلية المجذوب.. لكنه لا يزال يحب المكوث في مكانه الخرب المعهود.. يزعم أنه سيشعر بالخيانة نحو ابنه

لو عاد لحياته الطبيعية بعده.

- علاقتك به تبدو حميمة حقًا.

- جدًا.. أعرفه منذ سنوات طويلة.. كنت أزور القرية خصيصًا لأجله.

- كان صديقك أنت الآخر، كما كان صديقي؟!

- بل كان صديقي قبلك.. هو لم يعرفك إلا تلك الليلة التي منح فيها «غالية» ما ظنته هي نبوءة كي تهتم بكِ.. بينما يعرفني أنا من قبل ذلك بسنوات.

يقولها ببعض المرح الذي اختلط بشجن الذكرى.. لتغيم عيناها بحزن والاسم يعيد إليها ذكريات اختلط بؤسها بحلاوتها..

- لو أخبرتك أنني افتقدتها.. ستتهمني بالجنون؟!

تهمس بها بصوت خفيض يكاد لا يُسمع، كأنما تخجل من اعتراف كهذا.. لكنه يتنهد متفهمًا ليرد:

- أتفهم كل مشاعرك، وأوقن بصدقها كلها رغم تناقضها.

- يقولون إنها فقدت عقلها بسببي.. فلا أدري هل أشعر بنشوة القصاص وقد حرمتني هي قبلها زوجي وحياتي؟! أم أكره نفسي الجاحدة وأنا أراني أعض يدها التي امتدت لي؟!

للمرة الأولى منذ وفاة ابنها تتجرأ للحديث عن «غالية».. هذا الوزر الثقيل الذي حمله ظهرها وآن الأوان أن تضعه..

- في هذه الليلة التي طلقني فيها «هاشم»، وبعد جولة طويلة على الأرصفة لم أكن أعلم أين أذهب.. فقدت كل ملجأ يمكن أن يؤويني.. فكرت أن أقتل نفسي، لكنني وجدت زواجي من «طاهر» بنفس

المفعول.. الفارق الوحيد أنه سيمنحني مكسبًا إضافيًا هو نشوة التشفي.. لكنني الآن وبعد كل ما حدث أجدني أسأل نفسي.. هل وجدت للانتقام نشوة حقًا؟!

- والجواب؟!

يرجف قلبه بترقب منتظرًا لتصله تنهيدتها الحارقة، وهو يراها تنزلق ببطء بظهرها على سور الشرفة لتجلس أرضًا، فتختفي عن ناظريه مع جوابها:

- لا أعلم.. ربما أحتاج وقتًا أطول لمعرفة الجواب.

يشعر بالضيق وهو يفقد رؤيتها ليعاود سؤالها:

- وأبي؟! كيف تشعرين الآن نحوه؟!

- فقدت الكثير من نفوري القديم.. بل واليوم بالذات شعرت بالكثير من التعاطف معه..

ثم صمتت لحظة لتضحك ضحكة مكتومة ساخرة:

- اللطيف أن الأدوار انقلبت.. فصرت أخاف أن يكتشف هو حقيقتي، ويدرك أنني كنت أخدعه.. ترى ماذا سيفعل بي حينها؟! سيقتلني كأمي وهو يراني مخادعة مثلها؟!

عبارتها الأخيرة تعتصر قلبه بعنف، ليهتف بها بانفعال لم يتعمده:

- ألم تتعلمي الدرس بعد؟! ألم تكسري هذه الدائرة التي تصرين على التحليق حولها؟! أنا جلبتكِ إلى هنا كي تخرجي من وهم خوفك منه.. كي ترسخي حقيقة بداخلك أنك أنتِ «فاطمة».. «فاطمة» فقط.. قبل أن تكوني ابنة «غفران»!

فصمتت قليلًا تتدبر كلماته قبل أن تشعر بذراعها يؤلمها، فتفلت منها آهة متوجعة تجعله يهتف:

- آلمتكِ كلماتي؟!

- بل ذراعي.

تلين ملامحه بإشفاق وهو يستطيل على أطراف أصابعه محاولًا رؤيتها من مكانه، ولما عجز زفر بقوة قائلًا:

- عودي لغرفتك واستريحي.. لكن عديني أن تفكري في كلامي.

رآها بعدها تعاود الوقوف، فتعود معها ابتسامته.. وقد توقع أن تنهي الاتصال، لكنها ترددت قليلًا لتفاجئه بسؤالها الذي تعجبت سذاجته:

- لو استعدت حبيبتك.. فهل ستتخلى عن دعمي أنا؟!

فأخذ نفسًا عميقًا ليرد:

- لن أتخلى عنكِ أبدًا.

ثم أغلق الاتصال قبل أن يخونه لسانه بما بقي من عبارته:

- أبدًا يا «حبيبة العمر».. أبدًا.

* * *

- ما الطريف في هذا يا «سليمان»؟! هل تضحك؟!

يهتف بها «هارون» بعصبية، ليكتم «سليمان» ضحكته الطيبة وهو يربت على ظهره قائلًا بإشفاق:

- شكواك العاشقة تبدو هزيلة مقارنة بما سبق.. لماذا تثقل على نفسك هذا الحد؟! ظننتك ستستريح بقربها.

- أنا أيضًا ظننت مثلك.. لكنني أحترق بقربها وأنا أراني عاجزًا عن البوح لها بمشاعري..

- ولماذا لا تفعل؟!

- لا يزال الكثير بيننا يا «سليمان».. لو نسيت هي من أبي، فهو لن ينسى من هي.. وأنا لن أستطيع أن أميز أحدهما عن الآخر!

يهتف بها بلوعة معاناته، ليسأله «سليمان» بحذر:

- ألا تقول إنه تعلق بها كثيرًا في هذه الفترة، والجميع يرون أنه صار يعاملها كابنته؟!

- يفعل هذا ما دامت بعيدة عني.. لكنه يتذمر بشدة لو وجدني أقترب منها.. وطالما يسألني عن سر اهتمامي الخاص بها هي بالذات.

فهزّ «سليمان» رأسه بقوله:

- هي لا تزيد في نظره عن كونها امرأة تزوجت مرتين، ولا تليق بابنه الوحيد.

لترتجف شفتا «هارون» بردّه الساخر:

- ولو علم الحقيقة لأدرك أنني أنا من لا يليق بها.

رمقه «سليمان» بنظرة مشفقة طويلة ليسأله بحذر:

- ألا تفكر في البوح له بالحقيقة؟! ربما تكون هذه راحتك المنشودة!

لكن «هارون» يلوح بذراعيه ليعطيه ظهره كأنما عجز عن مواجهته بالذنب القديم، ليهتف بحسرة مذنبة:

- ماذا تريدني أن أقول له؟! كيف أواجهه بأنني أنا..

ابنه الذي خرج به من الدنيا كما يزعم دومًا.. كنت السبب في خراب حياته كلها؟!

ثم عاد يلتفت نحوه ليردف بنبرة أكثر لوعة:

- و«فاطمة»؟! كيف سأواجهها بعدها عندما تعلم أنني المجرم الحقيقي.. أنا... أنا الذي قتلت أمها وليس أبي!!

* * *

الهالة العشرون

(حد السيف)

أيتها البعيدة كالأنجمِ..

والقريبة تبحرين في دمي..

أيتها الشهية كالعناق..

والمريرة كالعلقم..

أيتها القديمة المتجددة..

ذنبي وزلتي واستغفاري وتوباتي..

على حد السيف سرت إليكِ..

فما عدت آبه بنزيف خطواتي..

* * *

تنظر «غنى» في الساعة لتجدها تشير للعاشرة.. لقد تأخر عن موعد استيقاظه اليومي ساعتين كاملتين!

ابتسامة مرتجفة تزين شفتيها وهي تتذكر السبب.. لقد قضى ليلته بالأمس ساهرًا بجوار فراشها يسامرها وقد كانت المرة الأولى التي تتخلف فيها عن الذهاب معه للأكاديمية إثر تعبٍ أصابها. لا يزال حنانه يغمرها.. يغذي شعورها بأنوثتها معه.. حنانه الذي يتطور يومًا بعد يوم لإدمانه مرافقتها.. وتخشى تصديق أنه يتحول رويدًا لشعور آخر.. شعور يشبه «الحب» مثلًا!

ابتسامتها تتسع وهي تطرق باب غرفته المجاورة لغرفتها برقة قبل أن تتجرأ لتدخل.. لم يحدث مرة منذ قدمت معه إلى هنا منذ أشهر أن احتاجت

لإيقاظه.. هو دومًا منضبط المواعيد في هذا الشأن.. تتردد قليلًا قبل أن تفتح الباب لتدخل بوجل.. عيناها تنسحبان مغناطيسيًا كعهدهما نحو ملامحه الحبيبة.. تحمر وجنتاها وهي تقترب أكثر لتنحني فوقه وقد همَّت بإيقاظه، لكنها فكرت أن تبقى تتأمله هكذا أولًا..

- هل يعجبكِ ما ترينه؟!

تشهق للمفاجأة وهي تراه يجذبها من ذراعها فجأة لتجد نفسها فوق صدره وعيناه تقابلانها بنفس المرح المشاكس:

- أنتظرك منذ ساعتين يا كسلانة.. لماذا تأخرتِ؟!

خفقاتها تضطرب بجنون كعهدها مع كل تلامس جسدي بينهما، لتتلعثم حروفها:

- ما كنت أعلم.. أقصد.. أنت.. دوماً..

ضحكته القصيرة تقاطع عبارتها ليتحسس وجنتيها بأنامله قائلًا:

- تعلمين كم تبدين شهية بحمرة خجلك هذه؟!

تسبل جفنيها بحياء كعهدها مع كل عبارة غزل منه.. صراحته تجعلها تتلقى مديحه دومًا بصدق، وهو ما تحمده له دومًا أنه لم يحاول يومًا مجاملتها بكذب يزعمه!

- «هاشم»!

تهمس بها باعتراض واهٍ وهي تجده يدير جسدها ليرقدها بجواره، قبل أن يتفحص ملامحها باهتمام جاد:

- صرتِ أفضل من أمس؟!

وجنتاها تكادان تحترقان خجلًا، وهي تجد نفسها معه على فراش واحد في سابقة لم تحدث من قبل.. هذه الذبذبات الحارقة التي يبثها قلبها بين خلايا جسدها تكاد تصيبها بالدوار وهي تشعر بالمزيد من الارتباك.. هو يرغبها كرجل.. تشعر بها -رغم قلة خبرتها- في نظراته.. لكنه لا يحاول إجبارها على هذا الأمر.. ربما هو ينتظر أن يمنحها قلبه قبل جسده.. ومن يدري؟! ربما هو يريد التخلص منها نهائيًا، ويخشى أن يتورط بها أكثر!

الخاطر الأخير يصيبها بالكآبة، لكنها تدفعه عن نفسها قسرًا، وهي تشعر بحديث عينيه يزيد سمك هذا الحبل الرفيع بينهما يومًا بعد يوم.. لهذا هربت من هذا كله بهتافها وهي تنهض من جواره:

- لقد أعددتُ الإفطار.. سأنتظركَ على المائدة.

فابتسم ببعض الأسف وهو يتبين هروبها الخجل

من أمامه.. لقد صار يحفظ تفاصيلها.. تحب أن يمسك يديها أكثر مما تحب أن يعانقها.. تحب أن يقبّل وجنتيها أكثر من شفتيها.. تحب مزاحه أكثر مما تحب حديث جدّه.. لكنها تحبه هو على كل حال!!

- الصبر حلو!

يقولها واعدًا بنفس المرح ليغادر الفراش فيلحق بها بعد دقائق.. يراقبها وهي تصنع الشطائر بحيوية تتمكن منها يومًا بعد يوم.. حيوية غريبة على «الفتاة البلاستيكية» كما كان يراها منذ أول مرة وقعت عيناه عليها..

- بماذا تفكر؟!

تقولها وهي تلاحظ تفحصه الطويل لها ليجيبها:

- أنكِ تغيرتِ كثيرًا عن أول مرة قابلتك فيها.

- للأحسن؟!

- بالتأكيد.

- أنا أيضًا أشعر بهذا!

تقولها بامتنان وهي تمنحه شطيرته ليتناولها منها متمسكًا بكفها للحظات قبل أن يرفعه نحو شفتيه ليقبل أطراف أناملها هامسًا:

- اعتدت تشابك أناملنا.. لم أعد أتصور أن أسير في طريق لا تشاركيني فيه!

اعترافه العفوي يفاجئه هو قبلها! لم يكن يخطط لقول هذا، لكن قلبه أجراه على لسانه.. قلبه؟! هل دخل قلبه في حساباته معها أخيرًا؟!

نفس الخاطر راودها وهي تشعر بدفء كلماته

يتغلغل بين حناياها.. فتعض شفتها بخجل وهي تسبل جفنيها لكنه يهمس بها:

- انظري إليّ يا «غنوة».

- «غنوة»؟!

تهمس بها بتعجب رسم ابتسامة خجول على شفتيها ليبتسم بدوره:

- كنت أبحث لك عن لفظ تدليل مناسب فلم أجد أفضل من هذا.. أنتِ فعلًا «غنوة» بلحن خاص لا تشبهك فيه غيرك.

قلبها يخفق بجنون وهي تشعر بأنها تكاد تلهث من فرط شعورها بالسعادة.. تعلم أن شعوره أقرب للاعتياد منه للحب.. تمامًا كما تعلم أنها لا تزال تقف على قمة هرم عشقها له، بينما لا يزال هو يتسلق هرمه الخاص بها.. لكنها تكتفي بأمل انتظاره.. فأي

حب هذا الذي تحمله له كي تكتفي منه بهذا القليل وتراه أكثر الكثير؟!

مزاجها يتلون بفرحتها فتتناول طعامها بشهية زائدة عن المعتاد.. تتركه لتتجه نحو غرفتها تتهيأ للخروج معه نحو الأكاديمية.. تفتح خزانة ملابسها، فتنتقي قميصًا أصفر مشعًا بلون الشمس تألق مع سمرة بشرتها ليضفي عليها جاذبية خاصة.. وسروال أسود اختارته واسعًا ليداري نحافتها.. ولأول مرة لا تشعر بالضيق من تجعد شعرها الذي ما عادت تكترث بفرده صناعيًا، بل صارت تتقبل شكلها به حتى قبل أن تغطيه بوشاح رقيق بلون كريمي.. وجنتاها تتخضبان بحمرة طبيعية تزيد تألقها.. هالاتها السوداء؟! تضاءلت كثيرًا.. فلا تدري هل اختفت حقًا أم أنها هي من لم تعد تراها!!

تخرج إليه لتنتشي روحها بصفير إعجابه وهو يفتح لها ذراعيه..

- تبدين فاتنة بهذا اللون!

فاتنة؟! هل وصفها حقًّا بهذا الوصف؟! زغاريد روحها تنطلق من كل مكان فتكاد تسمعها بأذنيها.. تترجمها بخجل لضحكة مشعة وهي تتأبط ذراعه..

- جاهزة للخروج معي؟!

يسألها وضحكتها تغرس بذورها في روحه التي تتعلق بها يومًا بعد يوم.. لترد بنبرتها العاشقة:

- ليس أحب عليّ من أن أكون معك!

* * *

-هاهو ذا «هاشم العدوي»!

هتاف بصوت أنثوي مغوٍ يصدح لدى باب غرفته في الأكاديمية، فتتسع عيناه للحظة، وهو يتبين

الممثلة الشقراء الشهيرة التي دلفت إلى الداخل تسحب طفلًا خلفها، وتخاطبه بقولها:

- صافح البطل الذي صدَّعت رأسي بحديثك عنه.. هيا!

يطيعها الصغير بخجل يناقض جرأة نظراتها هي نحو «هاشم» الذي حاول تركيز اهتمامه على الصغير، بينما هي تواصل حديثها:

- ابن شقيقتي مغرم بكِ.. أصر أن يلتحق بالأكاديمية خصيصًا لأجلك!

منحها «هاشم» ابتسامة مجاملة وهو يشير لها بالجلوس، محاولًا تجاهل هذه الإشارات التي تمنحها له لغة جسدها من خلال خبرته بالنساء.. جلستها التي تعمدت فيها الجلوس رافعة إحدى ساقيها فوق الأخرى كي تنحسر تنورتها أكثر.. انحناءة جذعها للأمام كي ينحسر طوق بلوزتها مبرزًا مفاتنها..

وأخيرًا نظراتها التي تركزت نحوه كألف دعوة!

- تبدو أصغر سنًا من شكلك أمام الكاميرا.. مثلي!

دعوة صريحة منها كي يتفحصها مختبرًا صحة ما تقول.. والحقيقة أن ما رآه أعجبه!

بنظرة ذكورية بحتة كان يصنفها كـ«صاروخ بشري واسع المدى».. لا يذكر أنه التقى امرأة أثرت فيه جسديًا بعد «فاطمة» كهذه!

لكنه حاول دحض هذا الأثر، وهو يرد بكلمات مقتضبة لينخرط بحديث جانبي مع الصغير لدقائق طالت كان يشعر فيها أن سهام عينيها الحارقة تزيد ضراوة هجومها عليه.. قبل أن تقف أخيرًا مستعرضة إمكانيات أنوثتها، لتزيح شعرها عن كتفيها بحركة مغناج ناسبت صوتها:

- فرصة سعيدة يا «كابتن»..

ثم رقّ صوتها أكثر باستطرادها المغوي:

- ولن تكون الأخيرة!

* * *

- سر العلاقة بين «هاشم العدوي» و«شقراء السينما» الواعدة!

- هل تتعرض حياة «هاشم العدوي» للطلاق مرتين؟!

- «العدوي» يرفض الإدلاء بتصريحات عن الأمر لكن النجمة تؤكد.. انتظروا مفاجأة سعيدة!

تمتلئ عينا غنى بالدموع وهي تطالع هاتفها، بينما تضج وسائل التواصل بالحديث عن الأمر.. كيف تغير الحال هكذا؟!

لم يكذبها يومًا حدسها معه.. هي تشعر بتباعده عنها منذ شهر كامل.. شهر شعرت فيه، وكأنما قد تراجع بظهره عن كل تلك الخطوات التي سارها نحوها منذ زواجهما.. ويبدو أن هذه «الشقراء» هي السبب.. لقد شعرت منذ رأتها أول مرة في ذاك الحفل الذي جمعهم أنها تريده، لكنها بررتها بغيرتها الطبيعية من كل أنثى تقترب من محيطه.. لكن تكرر زياراتها للأكاديمية بعدها دونما أسباب مقنعة لتختلي به في حوارات طويلة لم تكن تعلم هي شيئًا عن محتواها جعلها تتأكد!

- صباح الخير.

يقولها بنبرة داكنة وشت بشعوره بالذنب، وهو يرى دموعها، بينما يخرج من غرفته، لترد تحيته بفتور وهي تمسح وجهها لتقول بتماسك مصطنع:

- لقد أعددتُ الإفطار.

لكنه يشيح بوجهه ليرد:

- لن أستطيع تناوله معك اليوم؛ فلديّ مشوار مهم.

تنتبه ساعتها أنه يرتدي ملابس الخروج، فترتجف شفتاها بابتسامة شاحبة:

- كما تحب.

انعقادة حاجبيه مع انفراجة شفتيه ولغة جسده التي فضحت ارتباكًا مع المزيد من الشعور بالذنب.. كل هذا قرأه قلبها العاشق ليزداد يقينها بقرب خسارته.. فتلحق به عند الباب.. كبرياؤها يستصرخها أن تسأله عن صحة ما يشاع.. أن يخبرها لو كان حقًا زهدها، ويريد إكمال حياته مع غيرها.. لكن قلبها يرجوها ألا تفعل.. أن تتعلق بـ«قشة الغريق» حتى تلفظ آخر أنفاسها جواره.

- «هاشم».

همسة واحدة منها مع نظرة عينيها اللتين صار يجيد قراءتهما أغنتها عن قول المزيد.. ليزداد انعقاد حاجبيه مع توتر ملامحه:

- دعينا نتحدث فيما بعد.

أطرقت برأسها مستسلمة وهي تراه يفتح الباب ليغادر، لكنه توقف قليلًا ليردف:

- لا داعي لأن تأتي إلى الأكاديمية اليوم.. استريحي؛ فوجهك يبدو شاحبًا.

ولأول مرة تتلقى حنانه كصفعة!

لم تسمعها هذه المرة بأذني قلبها بل كبريائها.. فتختنق روحها بحسرتها وكلماته تتردد بدوي رهيب..هل قال إنها شاحبة؟! من الطبيعي أن تبدو

شاحبة مادامت منافستها هي تلك الشقراء!

تبتعد عنه لا إراديًا عدة خطوات دون أن تمنحه ردًا، فيرمقها بنظرة مشتتة قبل أن يخرج ليغادر ويغلق الباب خلفه!

* * *

خرجت من المصحة بعد زيارة «غالية» اليومية المعتادة التي يزداد ثقلها على روحها يومًا بعد يوم مع عدم تحسن الأخيرة.. سيارتها تنتظرها بسائقها لتغادر، فتستقلها منتوية العودة للبيت متذكرة عدم رغبته في وجودها بالأكاديمية، كما قالها صريحة هذا الصباح.. لكن شيئًا ما جعلها تغامر لتطلب من السائق الذهاب كالعادة..

هل هو شوقها لقربه؟! رغبتها من التأكد من هذه الشائعات التي تحاصره هو وتلك الشقراء؟! أم هي رغبتها في أن تصل لنهاية طريق معه.. أي نهاية..

فقد سئمت طول المسير دون جدوى؟!

قلبها يعاتبها للخاطر الأخير، لكنها تتجاوز عن هذا لتأخذ نفسًا عميقًا هامسة لنفسها..

- يبدو أن أوان الاختيار قد حان.. كفانا تعلقًا بحبال واهية.. الاعتياد يختلف عن الإعجاب يا مغفلة.. وهو اعتاد صحبتك، لكن للقلب حديثًا آخر!

كآبتها تعاود رسم ظلالها على ملامحها وهي تغادر السيارة نحو مبنى الأكاديمية، لتصطدم برؤية سيارة الشقراء هناك.. هي هنا إذن كما توقعت.. هل هذا هو سبب إبعاده لها هي؟!

تتوقف للحظة تفكر في الانسحاب الجبان كعهدها.. لكن قبسًا بروحها يجعلها تتقدم بخطوات أكثر حسمًا.. لو كانت هي النهاية حقًا فلتتقبل هزيمتها برأس مرفوعة.. هو لم يكن كابوسًا كي تفيق منه بصرخة.. هو كان حلمًا ستحرص أن تخرج منه

مبتسمة..

لكن الخيال شيء والواقع شيء آخر.. فها هي ذي تصطدم برؤيتهما متجاورين في الرواق.. الشقراء تكاد تلاصقه وتهمس له بما لم تسمعه.. قبل أن تتشابك أصابعهما!

لم توقف تقدمها نحوهما بهذه النظرة الخاوية في عينيها.. حتى التفت هو نحوها لينزع كفه من رفيقته وينعقد حاجباه بقوة.. وبينما تبتسم الشقراء باستفزاز كان هو يتقدم نحوها هاتفًا بانفعال:

- منذ متى أنتِ هنا؟!

هنا فقط فقدت تماسكها المصطنع لتنهار حصونها، فتهرب من أمامه راكضة نحو سيارتها من جديد..

* * *

تجذب حقيبة كبيرة لتضع فيها ملابسها بانفعال غير قادرة على منع دموعها مع شعور الدوار الذي انتابها كعهدها، لكنها تقاومه بضراوة.. لا مزيد من الضعف.. لا مزيد!

- ماذا تفعلين؟!

يهتف بها لاهثًا بانفعال، وهو يمسك معصمها مردفًا:

- لماذا انصرفتِ بهذه الطريقة في سيارتك ولم تنتظري؟!

- أنتظر؟! تظن حقًا أنه بقي هناك ما أنتظره؟!

تهتف بها بعنفوان غريب على طبيعتها الخانعة معه، فيشدد ضغط قبضته على معصمها عفويًا لتردف هي:

- كنت أفضل أن تأتيني وتعترف لي أنني مجرد

ورطة في حياتك لا تعرف كيف تتخلص منها، عن أن يدور شيء كهذا من خلفي فأكون آخر من يعلم!

تنفض كفّها منه بحدة مع آخر كلمة لتعود وتتوجه نحو الخزانة لتكمل جمع ملابسها، لكنه يلحق بها ليثبتها بقبضتيه هناك على باب خزانتها، مقتنصًا نظراتها بعينيه الغارقتين في انفعاله:

- لن أستطيع الشرح الآن.. ليس وأنتِ بهذه الحالة!

يشعر بها تكاد تتهاوى مكانها فيجذبها لصدره معتصرًا إياها بين ذراعيه بقوة آلمتها.. ليسكب همسه المتقطع بحرارته في أذنيها:

- أحتاجك أن تسمعيني.. ليس كزوجتي.. ولا صديقتي التي أدمنت رفقتها.. بل كامرأة أثق أنها تحبني كما لم يحبني أحد.

جسدها يرتجف بين ذراعيه قبل أن تمد ذراعيها

تتعلق بهما في عنقه أكثر، وهمسها يكاد يذبحه بضعف رغم ما تحاول صبغته به من قوة:

- اعترف أنك تحبها، وأنا سأتركك ببساطة دون كلمة واحدة.. أعدك أنني لن أخيب ظنك.

لكنه يشدد قوة ضمته لها بأحد ذراعيه، بينما تغوص أنامله الحرة في خصلات شعرها يغرس رأسها بين ضلوعه أكثر وأكثر..

- بل سأعترف أنني أحبك أنتِ!

يشعر بتجمد جسدها بين ذراعيه مع اعترافه المفاجئ.. فيربت على ظهرها برفق ليعاود همسه:

- هل أكمل اعترافي يا «غنوة»؟!

لفظته التحببية تعاود ضخّ الدم في عروقها بعدما جمده اعترافه، لكنها بقيت عاجزة عن رفع عينيها

نحوه..

- لن أكذب فأدعي أنني لم أتأثر بملاحقتها لي في البداية.. ظهورها كان الاختبار الحقيقي الذي اضطررت لتجاوزه كي أوقن من شعوري نحوك.. وهل أحبك أنتِ حقًا أم أحب فقط حبك لي؟! والجواب كنت أجده في كل مرة أراها تفرض نفسها على حياتي.. فتنتها التي يتحدثون عنها لم تكن شيئًا أمام هذا الارتياح الذي يغمرني عندما أنظر إليكِ.. اهتمامها لم يكن يعني لي شيئًا أمام صدق شعوري بانتمائي إليكِ أنتِ.. حتى محاولاتها الساذجة لتوريطي في علاقة معها والتي انتهت بتسريب شائعاتها للصحف لم تكن تزيدني منها إلا نفورًا.

صمت قصير ساد بينهما بعدها لتجد صوتها أخيرًا فتهمس بين طوفان دموعها:

- لكنك كنت تتباعد عني طوال الأيام السابقة.

- كنت بحاجة لوقفة لتقييم مشاعري.. لم أكن أريد أن أخدعك باعتراف تستحقين أن تناليه بصدق.

- ووقفتها معك اليوم؟! أنا رأيتكما متشابكي الأيدي!

- كوني صادقة واعترفي أنها هي من فعلتها، وأنا كنت أحاول سحب يدي منها بهدوء، مقنعًا إياها بالكفّ عما تفعله، وإثارة المزيد من الشائعات حولنا.

- ولماذا لم تطردها؟!

- لقد اضطررت لفعلها اليوم بعد هروبك العاصف مضطرًا، فلا أميل للعنف في هذه الأمور كي لا تنقلب لفضيحة بحكم كوني شخصية عامة.. لكنني لم أحتمل أن تشاهدي موقفًا كهذا مرة أخرى.

قالها بصدق مسّ قلبها لتعاود أنامله العزف بين خصلات شعرها، فتشعر أنها تعشقها أخيرًا بعد طول كراهية..

- أنا أحبك حقًا.. أحبك بقوة لم أدركها إلا مع هذا الرعب الذي غشيني وأنا أراكِ تجمعين ملابسك لتبتعدي.. إياكِ أن تفعليها ثانية.. أنتِ كنت وستبقين رفيقة الدرب الذي رسمتِ بحبك أولى خطواته وسأكمل بحبي بقيته..

- «هاشم»..

تهمس بها بحروف تقطر عشقًا لتردف:

- قلها وأنت تنظر في عيني.. سيكون هذا الحلم الوحيد الذي بقي من أحلامي بك لم يتحقق.

فيبتسم وهو يراها لا تزال تخفي وجهها في صدره.. يبتعد قليلًا ما يتيح له أن يحتضن وجنتها

براحته ليرفع وجهها نحوه.. شفتاه تطبعان على بشرتها مائة اعتراف.. وألف وعد..

وبينهما همسات حب طوقت حناياها بهذا الدفء اللذيذ الذي يدوخها.. لتنتهي بهمسه العابث:

- أما أنا فلا يزال لديَّ المزيد من الأحلام.

تتخضب وجنتاها بخجل وهي لا تدري كيف وجدت نفسها معه فجأة فوق الفراش.. ذراعاه يضمانها برفق فتشعر وكأنما العالم كله قد اختزل فيه وحده!

- لو بقيت في حياتك هذه المرة فلن أكون كالسابق.. لن أرتضي إلا أن أكون سيدة قلبك كما أنت سيد قلبي!

- كوني الأولى والأخيرة.. كوني سيدة عالمي بل كل عالمي!

همسه الحار يلفحها بعاطفة من نار تنصهر فيها بكامل جوارحها، وهي تشعر بتلاشي آخر الحواجز بينهما.. «هاشم» يحبها حقًا.. ومن مثلها يمكنه تمييز شيء كهذا..

- أنت.. تحبني!

تهمس بها بإقرار لا يقبل الجدل، وهي تحلق معه فوق سحاب عشق لا يعترف بحدود ليصلها همسه:

- ما فوق الحب يا «غنوة».. ما فوق الحب وأكثر!

* * *

- هل كان اللقاء التلفزيوني هذا ضروريًا؟!

تسأله وهي تتفحص ملامحها في المرآة بوجل، ليضحك وهو يحتضن خصرها من الخلف ليطالعها

عبر المرآة:

- خائفة من الكاميرات.. اطمئني لا تعضّ!

فتبتسم بدورها وهي تلتفت نحوه، ليحتضن وجهها بين كفيه مردفًا:

- لقد تعلمت درسي.. لن أهرب بل سأواجه.. أفضل وسيلة لمقاومة هذه الشائعات أن نظهر أنا وأنتِ على الشاشة معًا.

- لكنني لا أهتم.. ما دمت أنت معي.

تقولها وهي تبسط راحتيها على صدره ليطبع هدية ناعمة على شفتيها سبقت همسه:

- أنتِ تستحقين ردّ اعتبار كهذا؛ كي يقف كل واحد عند حدّه.

ابتسمت بسعادة حقيقية وعيناها تمطرانه غيثًا من عشق لتعاود هتافها المرتبك:

- شكلي..

- تخطفين القلب!

يقاطعها بها بسرعة مدركًا نقطة ضعفها هذه، والتي تحولت لشموس من ثقة شعت في ملامحها لتزيد جمالها.. يزعمون أن الحب للجميلات، ولا يعرفون أن الحب هو ما يمنح المرأة جمالها.. هو كحل العيون وطلاء الشفاه وحمرة الوجنتين.. ودونه جمالها باهت كأوراق الخريف!
لهذا تأبطت ذراعه أخيرًا فمنحها قبلة أخيرة على جبينها ليغادرا نحو الاستوديو.. ارتباكها يعود للظهور أمام الكاميرات وهي تتعرض لموقف كهذا لأول مرة.. لكن يده الممسكة بها تمنحها أمان الكون كله فتسترخي مكانها بهدوء واثق.

اللقاء يمضي على ما يرام.. يديره هاشم بمرحه ولباقته المعهودة.. ويجيد تحوير الأسئلة التي تحاول بها المذيعة الزج به فيها للرد عن شائعات علاقته بالممثلة الشقراء.. حتى إذا يئست أخيرًا من حسن مراوغته سألته السؤال المعهود:

- كابتن «هاشم».. بعد إصابتك توقّع الجميع أن تهجر عالم الكرة.. وقد حدث هذا حقًا لفترة طويلة.. فما الذي دفعك للعودة بهذا الشكل المختلف!

- هي!

قالها بيقين عاشق وهو يرفع كفّ «غنى» الذي يحتضنه، والذي تسلطت عليه الكاميرات:

- هي لم تعدني لعالم الكرة فقط.. بل أعادتني لنفسي.. لهذا لن أضيعها من يدي أبدًا.

تطلق المذيعة صفير إعجاب قصير مرح، وقد

وجدتها إجابة ذكية تنفي ما يتردد من شائعات.. فخرجت لفاصل إعلاني.. فيما التفتت نحوه «غنى» بعينين دامعتين انفعالًا ليميل عليها بهمسه العابث:

- ادخري جينات «النكد» هذه لمكان يمكنني ضبط مزاجك فيه.. إلا لو كنتِ تريدين أن نقدم لهما عرضًا خاصًا هاهنا ستتحدث عنه البلد لسنوات.

* * *

زفرت فاطمة بإرهاق وهي تذاكر للمراجعة الأخيرة قبل امتحان الغد.. كانت تجلس في الغرفة الضيقة التي خصصها لها هارون للمذاكرة.. ابتسامة شاردة تزين شفتيها وهي تتذكر كيف تطورت مشاعرها نحوه في الشهور الأخيرة.. كيف اختلف أول عامها الدراسي عن آخره، وكيف كان يساعدها كل مرة كي تتجاوز صعابها فتستعيد حماسها.. وهاهو ذا الاختبار الأخير بالغد.. لو أدته كما يجب فتأمل أن تحقق

مركزًا متقدمًا هذا العام.

وضعت قلمها جانبًا وهي تتمطأ بتعب ثم غادرت مكانها لتتوجه نحو غرفة المشرفات حيث تبيت لياليها.. تمر بالحديقة فتستوقفها جلسته هناك على الأريكة.. قلبها يحدثها أنه ينتظرها هنا ككل ليلة كي يطمئن عليها قبل أن يخلد للنوم.. لكنها تكذبه كعهدها في كل مرة ترى فيها عاطفته نحوها..

- هو فقط يراكِ شبيهة لحبيبته.. فلا تسيري في طريق ليس لكِ.

الهاجس الأخير يملأها بكآبة تنكرها على نفسها.. شعورها نحوه يتضخم كل يوم فلا تملك له دفعًا.. هو صار قوتها وأمانها.. منذ أنقذها ذلك اليوم من الموت، وقد منحها عمرًا جديدًا صبغ برائحته أيامه.

تراه من بعيد منشغلًا بشيء ما، فتختبئ خلف شجرة تراقب ما يفعله.. إنه يصنع عِقدًا من الأحجار!

تعقد حاجبيها بقوة وهي تراه مبتسمًا يرفعه أمام عينيه وقد أتم نظمه.. قبل أن يضعه في جيبه.. يبدو أنه قد أعده لحبيبته.. يا لحظّها به!

تطرق برأسها في وجوم وهي تغادر مخبأها لتتوجه نحو غرفتها بخطوات كئيبة، لكنها تسمع نداءه خلفها يستوقفها..

- أنهيتِ مذاكرتك؟!

تومئ برأسها دون أن ترفع عينيها إليه، فيسألها بصوته «الآمن»:

- لا تقلقي.. ستبلين بلاء حسنًا.

تعاود هز رأسها وصوته يغزل كعهده داخلها ألف ثوب للأمان:

- أنتِ بخير؟!

الدموع تتكدس في عينيها وهي تشعر في هذه اللحظة بخوفها من فقده.. لكنها تبدلها بقولها:

- خائفة من الامتحان.

- الخوف لا يليق بكِ يا مجاهدة.. «فاطمة» خُلِقت لتحارب وتنتصر.

- حقًا؟! لماذا إذن لا أستشعر إلا مرارة الهزيمة في حلقي؟!

- انظري إليّ!

يقولها آمرًا بحزم حنون لترفع عينيها نحوه، فيقول لها ببطء كأنه يغرس حروفه في روحها:

- أنتِ قوية.. ومن مثلك يمكنها لمس نجوم السماء

متى أرادت.. لا تصدقي غير هذا.

تنهدت بحرارة وهي تود لو تخبره أنها ما عادت تريد نجوم السماء هذه.. ما عادت تريد سوى أن تقبع خلف شجرة هادئة تراقب العمر يسير حتى ينتهي..

- دعكِ من هذه الكآبة، وتعالي لترى شيئًا.

يقولها وهو يدفعها للسير خلفه هناك، حيث شجرة للتوت وقف تحتها ليهتف بها:

- تذكرين عندما كنتِ صغيرة، وتحبين تسلّقها بجوار بيتنا القديم؟!

الذكرى تضربها كصاعقة، فتبتسم بشرود وهي ترى نفسها طفلة بثوب منقوش بالورود وضفيرتين بلون الذهب تتسلق الشجرة بعسر فتسقط ليتسخ ثوبها.. لكنه هو يكون هناك.. يعنفها في البداية لتهورها المجنون، لكنه يخفي «فِعْلتها» عن والدتها ووالده،

بل ويزعم أنه رآها تسقط في الطريق وهذا سبب اتساخ ثوبها!

- أنقذتني يومها.. كما أنقذت حياتي بعدها مرتين.

تقولها بامتنان وهي ترفع عينيها نحوه.. فيمنحها أروع ابتساماته وهو، يتذكر أنه زرعها خصيصًا لأجلها منذ سنوات، كأنما كان يوقن أنها يومًا ما ستأتي إلى هنا.

- كنت شديد التجهم معي في الماضي.. لا أذكر أنني رأيتك يومًا مبتسمًا.

فتغيم عيناه بحزن قبل أن يطرق برأسه مغمغمًا بخفوت:

- كنت مخطئًا.

لم تفهم سر هذا الألم الذي خنق ملامحه، فانفرجت

شفتاها تهم بسؤاله، لكنه عاد يرفع رأسه بسرعة ليتكلف ابتسامة:

- هذه شجرتك.. اعتبريها هدية مني إليكِ؛ كي تتفاءلي بامتحان الغد!

فالتمعت عيناها بقولها الذي مزج امتنانها بحسرتها:

- لو منحتني شجرة في كل محنة أودّ تجاوزها لتحولت حياتي إلى جنة.

لكنه اقترب منها خطوة لتنبض عيناه بعاطفته:

- ليتني أستطيع فعلها.. والله ما تأخرت!

قلبها يخفق بجنون وحرارة كلماته لا تحتاج إلى تأويل، لكنها تصطدم بنداء عقلها.. لا تسرفي في التمني يا «فاطمة».. لا تعودي للتعلق بـ«المعجزات».. فلم تنسَي بعدُ «الذنب القديم»!

لهذا لا تشعر بنفسها وهي تهرب من أمامه لتهرع نحو غرفتها التي ما كادت تصل إليها حتى وجدت «السرجاني» ينتظرها بكرسيه هناك.. ملامحه تفضح شعورًا غامضًا لا تفهمه رغم الحنان الظاهر لعبارته:

- أنهيتِ مذاكرتك يا «قطة»؟!

فتومئ برأسها إيجابًا، ليردف هو بحنان امتزج بعتاب لم تدرِ سببه:

- ليوفقك الله.. نامي مبكرًا؛ كي تكوني بخير غدًا.

قالها وهو يتحرك بكرسيه مغادرًا لتستوقفه بندائها قبل أن تتحرك لتقف قبالته مطرقة برأسها:

- منذ فترة وأنا أريد أن أشكرك.. على كل شيء.

لم تستطع رؤية هذه النظرة التي تلوّنت في

عينيه.. لتردف بنفس النبرة:

- كنت أريد أن أخبرك شيئًا عني.

- أي شيء؟!

تتردد قليلًا قبل أن تحسم أمرها لترد:

- أنا لا أعمل هنا لأجل المال.. فقد ورثت من زوجي مالًا كثيرًا، لكنني لا أريده.. سأضعه بين يديك كي تستثمره هنا في هذه الدار.

فالتوت شفتاه بابتسامة غريبة ليعاود سؤالها:

- هل هذا فقط ما تودِّين إخباري به؟!

ارتجف جسدها برهبة خفية وهي تود لو تكمل معه حديث صراحتها لآخره.. لكنها جبنت! فمن يلومها؟!

لهذا تحركت مبتعدة مع قولها المقتضب:

- نعم.. تصبح على خير.

إغلاقها الباب يوازي التفاتته هو الآسفة نحوه.. والحنان في عينيه يمتزج بشيء آخر أكثر غموضًا!

* * *

خرجت من الامتحان مطرقة الرأس وهي تشعر بالكثير من الرضا عن أدائها.. خطواتها تتهادى نحو الساحة تراقب الوجوه حولها ببعض الحسد.. الطلبة تحلقوا في مجموعات ضاحكة متفاعلة.. ووحدها هي بقيت منعزلة كعهدها..

- رأيت زوجة «هاشم العدوي»؟!

تلتفت عفويًا تظنهم يقصدونها، لكنها تنتبه أنهم ينظرون في شاشات هواتفهم.. هم لا يقصدونها

إذن.. بل «غنى»!

الغريب أنها لم تشعر وقتها بغيرة بل بالارتياح! كأنما تودّ لو يطوي الناس هذه الصفحة كما طوتها هي!

- كيف كان الاختبار؟!

تلتفت بدهشة لصاحب الصوت.. إنه أحد أساتذتها في الجامعة.. لترد بإجابة مقتضبة وهي تشعر بالدهشة من اهتمامه.. لكن نظراته التي تبعتها منحتها الجواب.. نظراته التي تشبه نظرات «طاهر» القديمة.. كأنما تعريها من ملابسها!

لقد كبرت الصغيرة.. صارت تجيد تمييز نظرات الرجال!

- لقد عرفت الكثير عن ظروفك.. وتعاطفت كثيرًا معك.. لو احتجتِ شيئًا فلا تترددي بالاتصال بي.. أعطيني رقم هاتفك.

تتسع عيناها بصدمة من جرأته، فتهم بالبحث عن جواب دبلوماسي تهرب به منه..

- لا تملك واحدًا.

الصوت يأتي من خلفها صارمًا لتلتفت فتجده «هارون».. قلبها يرجف بهذه الرجفة التي صارت تخصه، بينما تسمع أستاذها يقول باستخفاف:

- وهل بقي أحد في هذا الزمان لا يملك واحدًا؟!

- لا تحتاجه!

يقولها «هارون» بنفس الصرامة، فيلتفت نحوها الرجل يسألها متظارفًا:

- من هذا يا «فاطمة»؟! حارسك الشخصي؟!

يقولها مشيرًا لضخامة جسد «هارون» مع بساطة ثيابه، فترتبك «فاطمة» تبحث عن جواب، لكن «هارون» يرد وهو يتقدم نحوه أكثر بمظهر أكثر عدائية:

- يمكنك اعتباري كذلك.

تلفت الرجل حوله شاعرًا بالحرج لينسحب بقوله:

- حسنًا.. ما زلت عند وعدي.. إذا احتجتِ شيئًا هاتفيني أنتِ.. الطالبات المجتهدات مثلك يستحققن الدعم.

يقولها وهو يرمقها بنظرة متفحصة أخيرة، قبل أن يغادر لتلتفت هي نحو «هارون» قائلة بقلق:

- لماذا جئتَ اليوم؟! هل حدث شيء؟!

- لماذا تخلعين نقابك في الجامعة؟!

يسألها بنبرة تفيض غيرة، لكنها تتلقاها كاتهام، فتهتف به بانفعال:

- لا أرتديه إلا في الدار؛ كي لا يتعرفني والدك.. هل نسيت؟!

يزفر بقوة وهو يقبض كفيه بقوة يود لو كان قد لكم ذاك المتظارف بنظراته القذرة مثله.. لتعاود هي سؤاله بانفعال:

- ألن تخبرني بسبب مجيئك بخلاف التفتيش على ملابسي؟!

يرمقها بنظرة طويلة ضائقة قبل أن يقول بنبرة أكثر لينًا:

- كنتِ قلقة بالأمس.. أردت أن أطمئن عليكِ.. وأعرض عليكِ لو نتناول الغداء سويًا.. أظنك بحاجة

لنزهة بعد كل هذا الإرهاق!

الاهتمام الحمائي الذي يحيطها به يطفئ نيران غضبها، فتطرق برأسها ليردف هو بنكهة اعتذار:

- لا تغضبي مني.. لم أقصد الإساءة إليكِ.. لكن نظرات ذاك الرجل لم تكن مريحة إطلاقًا.

- وماذا تنتظر أن تكون نظرته لفتاة بعمري وبظروفي التي يعرفها الجميع؟!

تقولها بيأس، لكنه يهتف بها بانفعال:

- إياكِ أن تسمحي لأحدهم أن ينظر إليكِ هذه النظرة.. فليحترقوا بسوء ظنونهم ولترتقي أنتِ سلمك لآخره.. غدًا تنظرين لهم جميعًا من علٍ وتسخرين من هذه الأفكار التي تملأ رأسك الآن.

ابتسامة وليدة تتسع رويدًا رويدًا على شفتيها

فتجد شبيهتها على شفتيه، لتقول هي أخيرًا بنبرة عاد إليها صفاؤها:

- حسنًا.. إلى أين تريدنا أن نذهب؟!

- اختاري أنتِ المكان.. اليوم كله لكِ.

صرخات فرحة تطلقها روحها وتترجمها ملامحها لابتسامة واسعة.. هذا الشعور الغامر بالأمان الذي يملأها معه يطوقها كألف عناق.. هواجسها تتوارى خلف هذه السعادة الطفولية التي ملأتها في الدقائق التالية.. تسير بجواره فيغادران الجامعة.. يتمشيان قليلًا على الرصيف المجاور للبحر.. «غزل البنات» بلونه الوردي ومذاقه المميز.. بالونة ضخمة حمراء بنقاط بيضاء كبيرة أصر على شرائها لها.. وأخيرًا تجلس أمامه على مائدة أحد المطاعم تراقب مظهر البحر عبر واجهته بنظرات شاردة مصطبغة بسعادتها..

- لم أركِ يومًا أكثر جمالًا من اليوم.

يقولها غير كاذب وهو يشعر بخلاياه تكاد تذوب عشقًا لكل تفاصيلها.. لا يزال يذكر شعرها الذهبي.. تراه لا يزال كما كان في طفولتها؟!.. هاتان الضفيرتان اللتان طالما أرقتا مضجعه.. كم يود الآن لو يتلمّسه بين أنامله.. لو يضمها في عناق طويل.. طويل بطول سنوات انتظرها فيها بقلب لم يعشق سواها من بين نساء العالمين.

بينما عادت هي ببصرها نحوه بخجل خضب وجنتيها، وهي تخشى تصديق عبارته كغزل.. ربما هو يجاملها كعهده في التخفيف عنها.. ربما هو لا يزال يشعر بالذنب؛ لأن والده أفسد حياتها.. ربما هو فقط شبّهها بحبيبته.. لكن ألا تعد هذه خيانة لها؟!

- ألن تغضب حبيبتك لو رأتنا سويًا؟!

- حبيبتي؟!

يقولها بتشتت ليقطع حديثهما النادل وهو يضع لهما قائمة الطعام، فاستغلت انشغاله معه لتتفحص ملامحه بشرود.. هو لا يملك وسامة «هاشم».. ولا أناقته.. ولا شهرته.. لكنها تشعر نحوه الآن بشعور مختلف عن «شعور الأمان» الذي طالما راودها نحوه.. جاذبية مختلفة لرجولته كأنما تود لو ينتمي إليها وتنتمي إليه ما بقي لها من عمر..

ينهي كلامه مع النادل ليلتفت نحوها من جديد، مبتسمًا ليفاجأ بلمحة الحزن التي طوقت ملامحها..

- احكِ لي عنها.. منذ متى تحبها؟!

فيشبك أنامله هاربًا من نظراتها قائلًا:

- منذ سنوات طويلة..

- ما شكلها؟!

- أجمل امرأة رأيتها، بل لم أرَ في حياتي سواها.

قلبها يخزها بغيرة متأصلة في طبعها، لكنها تشعر بها معه لأول مرة بهذه الضراوة..

- كيف فقدتها؟!

يصمت باحثًا عن جواب مراوغ، ثم يرد:

- لا يهم.. المهم أني بدأت في استعادتها.

- قلت لي هذا منذ عهد بعيد.. هل تتطلب استعادتها كل هذا الوقت؟!

تسأل وعقلها يرسم آلاف القصص والتصورات، ليردّ بنبرته الدافئة:

- ولو كان العمر كله.. هو لها!

الحرارة التي يتحدث بها قطعت أملها فيه، فأطرقت برأسها واجمة والكآبة تظلل ملامحها.. لكنها تشعر به يُخرج شيئًا ما من جيبه.. قبل أن يتناول معصمها بنظرة استئذان ليلفه حوله.. إنه العِقد الذي رأته من بعيد أمس يصنعه.. لم يكن عِقدًا بل مسبحة زرقاء تشبه تلك التي كان يمنحها لها «سليمان»!

جسدها يشمئز رافضًا وقد كرهت هذه الذكرى، لكنه يتشبث بمعصمها في قبضته، ليحتكر نظراتها بقوله:

- لا تخطي بقدميك فوق ألغام الكراهية.. متى انفجرت فستكونين أول ضحاياها!

- رغمًا عني.. تظن مسامحتها سهلة وقد ضاع عمري بسببها؟!

تهتف بها بانفعال ليروعها هذا الألم الذي اكتسح ملامحه هو.. ألم رهيب شعرت به يكتوي به لترتجف

أنامله حول معصمها بينما يقول:

- «سليمان» كان دومًا يقول إن بعض الخطايا لا تغفرها توبة.. لكنني أظن أن لكل ذنب كفارة.. ليس عدلًا أن تحرق خطيئة واحدة عمرًا بأكمله!

كلماته تجد موقعها في قلبها، فتشرد ببصرها ليعاود حديثه:

- ألم تفكري أنها.. قد.. تكون.. بريئة؟!

كلماته تتقطع كأنما يتقطع معها قلبه، فتعاود التفاتها نحوه ببعض الدهشة، وهذا الانفعال الطاغي على ملامحه يجعلها تودُّ لو تضمه لصدرها.. لو تحتوي هذا الألم الذي لا تدري سببه.. إنها مأساتها هي.. فلماذا تؤذيه هو إلى هذا الحد؟!

وصول الطعام يقاطع حديثهما، فتروعها هذه البرودة التي نالت من معصمها الذي تركه.. كيف لم

تشعر بالنفور من لمسته تمامًا كتلك الليلة التي اختطفها فيها ليبادرها بعناق لم تذق في حياتها أكثر منه دفئًا؟! هل هو شعورها أنه أبدًا لن يؤذيها؟! أم هو إحساسها الذي يتضخم يومًا بعد يوم أنها تنتمي إليه؟!

عيناها تتعلقان بالمسبحة الزرقاء التي التفت بضع مرات حول معصمها تتذكر حديث أمها لتجتاح شفتيها ابتسامة شجن.. وخاطر ما يراودها..

- أنت الذي كنت تمنحها لـ«سليمان» كي يعطيني إياها؟!

لم تدرِ هل قالتها كسؤال أم كحقيقة باتت تراها كعين الشمس.. لكنه اكتفى بإطراقة رأس وهو يصارع رغبته في الاعتراف لها بمشاعره.. لكن موقفًا ما طفا على ذهنها هي فجأة.. لترفع سبابتها المرتجفة نحوه وعيناها تحطان على عينيه بلهفة

الإدراك:

- أنت.. أنت الملثم الذي رأيته على السور ليلة زفافي.. لهذا كنت أعرف هاتين العينين؛ لأنهما كعيني أبيك.

أغمض عينيه بقوة هاربًا منها، لتنفرج شفتاها مشدوهة للحظات واستنتاجاتها تتوالى فتردف لاهثة الأنفاس:

- لهذا تعرف كل شيء عني.. «سليمان» كان عينك عليّ.. طوال هذه السنوات كنت معي دون أن أشعر.. لم تكن لتنقذني تلك الليلة التي فكرت فيها في الانتحار إلا لو كنت تراقبني..

ثم صمتت لحظة تلتقط أنفاسها ليرتجف جسدها وأناملها تعود لصدرها، فتبسطها فوقه لترتعش كلماتها بتمتمتها:

- أنا.. أنا هي حبيبتك!

* * *

- أنا.. أنا هي حبيبتك؟!

جسده يرتجف بقوة انفعاله وعروق جبهته تنفر في استجابة لهذا الصراع المحتدم بداخله.. لا يزال يغمض عينيه بقوة يفكر في جواب مراوغ جديد.. سينكر كل هذا.. لن يسمح للأوراق أن تنكشف أكثر.. فليبقَ ما بينهما مجرد حلم.. حلم أجمل من أن يتحقق!

لكنه لما فتح عينيه اصطدم بنظرتها.. ذهول.. فرحة.. رجاء.. امتنان.. كل هذا كانا تصرخ به مغلفًا بإطار من عاطفتها الوليدة نحوه.. فكيف يقاوم؟!

اعترافه لم يبدُ مجرد كلمات عشق.. بل فيضان انهار أمامه السد فاندفع هادرًا دون توقف..

- تسألين؟! ظننت هذا هو السؤال الذي لن أحتاج لجوابه أبدًا.. هل يسأل المرء عن شمسه أين يراها؟! طوال هذه السنوات وأنا عالقٌ بكِ.. لا يمكنني وضع وزرك عني كي أمضي ولا يمكنني الرجوع.. منحتِ قلبكِ لغيري لكنني لم أيأس.. تزوجتِ آخر فلم أتغير.. حبكِ كان حجرًا مربوطًا في قدمي يجرني لقاع لا نهاية له.. لكنني أدمنت فيه الغرق!

دموعها تسيل دون وعي على وجنتيها، فتمسحهما بسرعة خشية أن تتشوش نظراتها إليه.. هي تريد الآن رؤيته بوضوح.. تتفرس بكل خلاياها في هذه الصورة العاشقة التي طالما تمنتها.. يا لغبائها! كيف غفلت عن عشق كهذا طوال هذه الأشهر معه وهو الذي كان يمنحها كل اهتمامه.. كل وقته.. بل كل روحه!

- «هارون»!

تهمس بها ولا تجد ردًا لتمتد أنامله فتطوق أناملها.. بل تحتضن روحها بكل هذا الحب الذائب في همساته:

- كنتِ دعوة سنوات وددت لو يتقبلها ربي على عظم ذنبي!

- أي ذنب؟!

تسأله مشدوهة ودقات قلبها تتجاوز حد الجنون، لتزداد عروقه نفورًا ولهاث أنفاسه يصرخ بما عجز عنه لسانه..

- أي ذنب يا «هارون»؟!

تعاود سؤالها برجاء ليغمض عينيه هربًا من جديد، وهو يهم بترك أناملها لولا الهاتف الذي جاء بجوارهما..

- كنت أعلم أنه أنتِ!

كلاهما يتجمد مكانه والصدمة تلجمه بينما يشير «السرجاني» للرجل الذي يدفع كرسيه المتحرك كي يصرفه.. قبل أن يقترب أكثر لتصبّ عيناه لهيبهما فوق ملامحها.. إنها هي.. نفس ملامحها الخائنة.. نفس صورتها المخادعة.. نفس الجمال الذي غرَّه يومًا يظنه نورًا، فاستحال نارًا حرقت عمره كله!

- أبي!

يهتف بها «هارون» بجزع، لكنه كان عاجزًا عن ترك كفِّها من كفِّه.. «حد السيف» الذي سار عليه عمرًا حتى لم يعد يبالي بنزيف خطواته.. الآن يوشك أن يرتفع ليغرس في صدره للأبد!

العجوز يتقدم أكثر حتى يكاد يلاصقها.. صدره يعلو ويهبط بانفعال، وأنامله المرتجفة ترتفع نحوها ببطء كأنما يريد أن يتأكد أنها حقيقية.. كأنما الماضي

يعود بكل عنفوانه ليكتسحه من جديد..

لكن «هارون» يسيء فهم حركته فيظنه سيصفعها ليوقف أنامله في وسط الطريق بقبضته هاتفًا وهو ينتفض مكانه:

- لا تمسَّها يا أبي.. أرجوك.. دعْ حديثك معي أنا.

لكن ملامح العجوز تشحب تدريجيًا ليزداد لهاثه مع تسارع أنفاسه، ثم ينتزع كفه من قبضة ابنه ليضعها فوق صدره مع هذا الألم الحارق الذي اعتصره قبل أن تنفلت منه آهة حادة سبقت سقوط رأسه على صدره!

* * *

تهرول خلفه في رواق المشفى وهي تشعر بالذعر.. لم تكن تتصور أن معرفة العجوز بالحقيقة ستؤذيه إلى هذا الحد.. بينما ظل «هارون» ممسكًا بكفّ أبيه

وهو يهرول بجوار الفراش المحمول لأبيه والذي كانوا يسعون به لغرفة ما.. خلاياه كلها تنبض برعب حقيقي وأسوأ كوابيسه يتحقق.. أبوه سيموت بسببه!!

طيف شاحب من ذكرى قديمة يلاحقه..

صورة «غفران» منحورة العنق والدم يغرق ثوبًا -هو- من مزقه..

صورة «فاطمة» تصرخ والأذرع تتلقفها لتحملها بعيدًا..

صورة والده خلف القضبان، وقد تهدّل كتفاه بفضيحة العمر..

وأخيرًا صورته وهو يغادر السجن قعيدًا على كرسيه المتحرك!

ذنب خلف ذنب وقيد خلف قيد هو من فرَط أول حبات عقده لتتوالى الأخريات!!

يرفع عينيه لأعلى بعجز والدموع تحرق مقلتيه..

- يا رب.. تعلم أنني عشت هذا العمر أحاول التكفير عن هذا الذنب، فلا تجعل عقابي في أحب من أملك.

- توقف هنا.. لن يدخل أحدا!

الصوت بجواره يمنعه من الولوج للداخل، حيث دلف الباقون ليغلقوا الباب خلفهم.. الباب الذي استند هو عليه بكفيه وجبينه فلا يشعر بهذه الدمعة التي تسللت عبر طرف عينه..

تربت على ظهره برهبة وقلبها يرتجف هي الأخرى بوجل.. الآن فقط تعترف أنها أحبت العجوز حقًا.. وستكره نفسها لو حدث له مكروه بسببها..

- أنا آسفة.. كل هذا بسببي.

لكنه يلتفت نحوها ببطء.. عيناه الحمراوان الدامعتان تنبضان بهذا الألم الذي لم تفهمه يومًا.. وصوته المتحشرج يكمل صورة العذاب:

- اصمتي يا «فاطمة».. لا أدري من يفترض به أن يعتذر!

- سيكون بخير.. وسأخرج من حياتكما بلا رجعة.

يغصّ حلقها بمرارته وعيناها تفضحان جحيمًا يشاطرها فيه.

لا.. ليس بعد ما قطع هذا المشوار الطويل!! ليس بعد أن اعترف لها بعشقه أخيرًا بعد طول جبن!!

لهذا امتدت أنامله تعتصر كفها بقوة كأنما يستصرخها البقاء.. لكنها غمغمت وسط فيض

دموعها:

- لن يكون هذا ردّ الجميل يا «هارون».. كيف تصورت يومًا أن يكون لي مكان في حياتك؟! كفاني ذنب غالية.. لن أعض اليد التي امتدت لي للمرة الثانية!

ليتها تعلم! أن اليد التي تحكي عنها هي أول من امتد لها لكن بالأذى! ليتها تعلم أنه هو المدين لها وليس العكس.. ليتها تعلم أن لن يكون لغيرها مكان في حياته وقد عدم عالمُه نساءه بعدها!! ليتها تعلم.. بل ليتها لا تعلم أبدًا!

أنامله تضغط كفها للحظة.. لحظة واحدة شعرت بها روحها أشد دفئًا من عناق قبل أن تلمح دمعة أخرى تفر هاربة من عينه.. دمعة تحمل اسمها هي.. قبل أن يفلت كفها ببطء كأنما يلفظ معه روحه!

- شكرًا على كل ما فعلته لأجلي.. شكرًا لأنك

وضعتني على أول الطريق الذي أستعيد فيه نفسي.. ربما آن الأوان أن أكمله وحدي.

- وحدك؟! أنا لم أتركك وحدك يومًا وأنت بعيدةٌ تجهلين من أكون.. أأتركك الآن وقد صرتِ مني بهذا القرب وبهذا اليقين من عشقي لك؟!

صوته المستنكر يمتزج بيأسه وهو يخبط رأسه بالباب أمامه، فينفطر قلبها لوعة وهي لا تدري ماذا تفعل..

- عندما يفيق أعلمه أنني أحببته حقًا ولم أقصد خداعه.. أعلمه أني كان يجب أن أقترب منه هذا الحد حتى أكف عن حقدي القديم نحوه.. حتى أرى نصف الحقيقة الذي كنت عاميةً عنه.

تغمغم بها بين دموعها التي مسحتها بسرعة، وهي تنسحب عنه سائرة بظهرها، كأنما لا تريد تضييع لحظة واحدة يمكنها فيها رؤيته.. بينما ضم هو

قبضتيه بجواره وهو يشعر أن روحه تتفتت كجبل دكته صاعقة فتركته هباء يذروه الرياح..

- يريد رؤيتك!

ينفتح الباب فجأة ليصدمه وجه الطبيب الشاحب، فيهرول نحو الداخل، ليخلوا هم له الغرفة وقد أيقنوا قرب النهاية..

* * *

- أبي!

يهتف بها بأنفاس لاهثة وهو يجثو على ركبتيه أمام فراشه، فيرمقه العجوز بنظرة لم يفهمها وصدره يعلو ويهبط..

- لو كنت تحبها فلا تأخذها بذنب أمها.. موتي هو الحل الوحيد الذي قد يجمعكما.

- لا!

يصرخ بها «هارون»، وهو يتشبث بكفِّ العجوز كأنما يود لو يبثه من روحه هو.. لكنه يبتسم ابتسامة شاحبة.. وهو يغمض عينيه مستسلمًا للحظاته الأخيرة:

- أخبرها أنني كنت أشك أنها هي منذ أول مرة رأيتها فيها.. لن ينسى الرجل عيني امرأة أحبها حد القتل.. وهي ورثت عينيها بل... وروحها كذلك.. أو ما ظننته أنا روحها يومًا..

الدموع التي حبسها تسيل الآن على خديه دون محاذير، وكفه يتشبث بكف العجوز أكثر.. الصراع يحتدم بداخله أكثر، فيعصف بكيانه ممزقًا إياه.. هل من الحكمة أن يعترف الآن؟! أن يخبره أن عمره ضاع لأجل «خطأ مراهق»؟!

- دعها تسامحني.. وتقبل هديتي.

- هديتك؟!

يتمتم بها «هارون» بتشتت، لكن العجوز يطلق آهة خافتة قبل أن تفيض روحه إلى بارئها..

- لا.. لا.. ليس الآن.. ليس بسببي.. ليس بسببها.. أنا عشت عمري أحترق بالحقيقة لأجلك خشية لحظة كهذه..

يصرخ بها بيأس وهو يخفي وجهه في راحة أبيه للحظات قبل أن يرفعه ليهز رأسه بعدم تصديق..

- الآن أجد الجرأة لأعترف.. أنا المجرم أبي ولست أنت.. «غفران» بريئة.. أنا الذي استغللت طبيعتك الغيورة لأبث شكوكك فيها.. كذبت بزعمي لك أنها تأخذني لبيت الشيخ، ثم يتركني وحدي ليختلي بها في غفلة عن زوجته.. والحقيقة أنها كانت تقضي

وقت حصتنا في المطبخ تعد الطعام مساعدة للمرأة القعيدة.. خافت أن تخبرك لعلمها بغيرتك، ووسوس لي شيطاني أن هذه هي الطريقة الوحيدة لأبعدها عن حياتنا.. كنت مجرد فتى رأى فيها سارقة لمكان أمي.. لفراش أمي ومكانها في قلبك.. لم أكن أعلم أنك ستؤذيها.. ظننتك فقط ستبعدها عن حياتنا وتعود لي وحدي.. كنت أغار عليك منها وأنا أرى كيف تعلقت بها لتنسى أمي وتنساني في غمرة عاطفتك نحوها..

ثم صمت لحظة يسترد أنفاسه ليحترق بلهيب الذكرى التي عاش بذنبها هذا العمر..

- تلك الليلة كان الشيخ معي كعادته في الغرفة يحفظني القرآن.. رأيتك عبر النافذة تغادر بيتك نحونا والغضب يملأ وجهك.. عرفت أنها الساعة المناسبة.. استأذنت منه بسرعة لأغادر نحو المطبخ حيث كانت هي تعد الطعام كعهدها.. نزغت عنها

حجابها بسرعة تحت نظراتها المصدومة، وأنا أسمع طرقاتك لأشد ثوبها بقوة مزقت أزراره.. صدمتها منعتها الصراخ، وهي تراك تدخل غاضبًا لأنتبه أنا وقتها للسكين في يدك.. ساعتها صرخت أنا وأخبرتك أن تسمعني أولًا.. لكنك لم تفعل.. غضبك أعماك وقبلها وشايتي الكاذبة.. رأيتها فجأة غارقة في دماء كنت أنا سببها.. دماء تلطخت بها يدي ولم أعرف كيف أغسلها.. عشت أحترق بهذا الذنب الذي كان ينهشني في كل يوم أكثر من سابقه.. الذنب الذي جعلك تدخل السجن لتخرج منه قعيدًا.. أجل.. أنا كنت المجرم يا أبي.. وليس أنت..

صراخه يتقطع بلهاث أنفاسه ليبح صوته وهو يعاود هز رأسه كمن فقد عقله:

- فكرت كثيرًا أن أخبرك.. لكن بماذا أخبرك؟! أن عمرك كله ضاع هدرًا بسبب خطأ طفل؟! أن المرأة التي أحببتها من كل قلبك بريئة وأنني ضيعتها..

ليس هي فقط بل وابنتها كذلك؟! أعترف كنت جبانًا يا أبي.. بل.. كنت أحبك أكثر من أن أحتمل مواجهتك بكل هذا.. ولم أعرف كفارة لذنبي تعيد الذي كان.

كلماته تنتهي بأن يعاود دفن وجهه في راحة أبيه يغرقها بدموع ندمه للحظات قبل أن يسمع شهقة نحيبها خلفه..

- «فاطمة»!

يتمتم بها وهو يلتفت برأسه نحوها، لتلتقي عيناهما بإعصار!!

كانت قد سمعت من الممرضات أن العجوز يلفظ أنفاسه الأخيرة، فعادت لتكون بجوارهما.. لكنها لم تتوقع أن تسمع هذه الحقيقة التي قلبت حياتها رأسًا على عقب.. نظراتها المصدومة لا تقل فتكًا عن نظراته، وهو يضع كفّ والده جانبًا برفق ليتحرك كالمأسور نحوها..

- سمعتِ الحقيقة؟!

يسألها بنبرة ميتة عبر صوته المبحوح ثم يتقدم منها خطوة تراجعتها هي بصدمة ليردف هو بنفس النبرة:

- عرفتِ أن اليد التي ظننتِها امتدت لكِ هي في الحقيقة من ذبحتك!

شفتاها تنفرجان ببطء ودموعها تشاطر دموعه سيلانها..

- الآن فقط يمكنني الاعتراف بجريمتي.. من كنت أخشى عليه الصدمة راح..

ثم أطرق برأسه مردفًا بحروف متقطعة:

- وما بيننا كذلك.

يشعر بها تبتعد، فيرفع عينيه لتتشوش نظراته بالمزيد من دموعه، وهو يراها تعدو هاربة بكل قوتها.. فمن يلومها؟!

* * *

- كنت تعلم يا «سليمان»؟!

تقولها بصوت متحشرج وهي تقف أمامه في مكانه المعهود بالقرية.. ملامحها الشاحبة تزيد عمق «هالاتها السوداء».. ليتنهد «سليمان» وهو يرفع وجهه للسماء قائلًا بحكمة:

- سبحان من يدبر الأمر.. إذن مات «السرجاني».. مات دون أن تقتله حسرة الحقيقة.. كما تمنى «هارون» طوال عمره.

- وأنا؟!

تسأله عبر غمامة من دموعها مردفة:

- أنا كيف أتعايش مع الأمر؟! كيف أنسى أنه كان سبب دمار حياتي كلها؟!

- كان مجرد مراهق، ولم يظن الأمر سيصل إلى هذا الحد!

- وبعدما وصل.. لماذا لم يبرّئ أمي؟! لماذا ترك سيرتها ملوثة تلوكها الألسنة وتلوكني معها؟!

تصرخ بها بانفعال وهي تشعر بخراب روحها أكبر من خراب المكان حولها، ليصمت هو للحظات سبقت قوله:

- ما أشبهه برجل أحرق الدنيا حوله وأحرق نفسه معها بزلة يشفع لها صغر سنه.. بماذا كان سيفيد اعترافه يا بنية؟! كان سيغرس النصل أكثر في قلب

أبيه؟!

- وأمي؟!

- الموتى هناك في دار العدل، حيث لا ينالهم ظلم البشر ولا افتراءهم!

- وأنا؟!

تسأله ليرمقها بنظرة طويلة سبقت قوله:

- أنا أكبر شاهد أنه لم يكن يعيش إلا لأجلك أنتِ وأبيه.. هو الذي جاءني وطلب مني أن أقنع «غالية» بتبنّيكِ.. وبعدها كان يراقب حياتك بهوس المذنب.. هو الذي كان يمنحني المسابح الزرقاء كي تواسي وحدتك.. وحتى عندما تزوجتِ «هاشم» ذاك.. سافر خلفك كي يطمئن عليكِ هناك.. أنتِ كنتِ وجهته في كل طريق مشاه.. لا أعرف رجلًا أحب امرأة كما أحبك..

- ولا آذاها كما آذاني!

تقولها بقسوة طفت عبر نبرتها ليعاود تفحصها بقوله:

- قبل أن تفكري في الانتقام.. تذكري.. أنه ربما سلبكِ حياة، لكنه منحكِ أخرى.. لوّث ماضيًا، لكنه أهداكِ حاضرًا وغدًا..

- بماذا تحاول أن تقنعني؟! أن أسامح؟! أن أعود «فاطمة» القديمة التي يدهسها الناس بأقدامهم؟!

- وماذا فعلتِ بـ«فاطمة» الجديدة التي غذّت نيران حقدها وانتقامها؟!

تصلبت ملامحها مصدومة ليردف هو بنبرة أعمق:

- ربما كان هذا هو اختبارك الأخير.. هل تريدين

العودة لطريق الانتقام حقًا؟! لو تريدينه فليس أسهل عليكِ من تدمير رجل يحبك بجنون!

قلبها يخفق بقوة ولسانها يفقد كلماته.. المفاجأة تتراجع لتترك خلفها فراغًا كبيرًا في روحها..

صخب شديد يأتي من بعيد، فيلتفت كلاهما نحو مصدر الصوت قبل أن يتحركا نحو الجمع الغفير من أهل القرية الذين خرجوا إثر نداء مكبر الصوت في المسجد يطلب منهم التجمع في ساحة بوسط القرية..

- تعالِي نذهب معهم!

- لا أهتم.. فليذهب العالم كله للجحيم!

- حدسي يخبرني أن الأمر يتعلق بكِ.. تعالِيْ!

يقولها وهو يتحرك لتلحق به كارهة، وهتافات

الناس حولها تزيد ضجيج روحها..

- ابن «السرجاني» ظهر بعد موت أبيه.. أين كانا طوال هذه السنوات؟!

- شيخ الجامع القديم أيضًا ظهر معه.. حكاية غريبة!

- لماذا يجمعوننا هكذا؟! تظن الأمر بخصوص «غفران»؟!

تحمد الله أن ترتدي نقابها؛ كي يكفيها شر فضولهم، لتندسّ مع سليمان وسطهم، ويتجهون نحو الساحة الواسعة في القرية، لتجد «هارون» هناك منكس الرأس شاحب الوجه وشيب شعره قد ازداد في الأيام القليلة هذه حتى منحه عمرًا يفوق عمره..

- اسمعوا يا أهل البلد.. الله يظهر الحق ولو بعد حين.. حكاية غريبة لكن ماذا نقول؟! له في خلقه

شئون!

يقولها شيخ الجامع الجديد لتشخص الأبصار، ويسود الصمت بعد طول صخب..

صمت قطعه «هارون» وهو يتحدث إليهم يخبرهم بالحقيقة بذات النبرة الميتة.. ليختمها بقوله:

- أحمد الله أن مدّ في عمري حتى أبرئ سيرتها وسيرة هذا الرجل الطاهر.. ذنبي عظيم، لكن عزائي أنني عشت عمري كله أحترق به.. سأخصص بيت أبي القديم هنا في القرية لأقيم به مستوصفًا خيريًا باسم «غفران».. من اليوم لن يذكرها الناس إلا بالخير!

تحشرج صوته في عبارته الأخيرة، لتنهال هتافات أهل القرية بين تعجب واستحسان.. فيما التفت «سليمان» نحو «فاطمة» المطرقة برأسها جواره، ليجد جسدها يرتجف بنحيب بكائها، ولم يكد يمد

يده ليربت على ظهرها حتى فوجئ بها تتراجع لتعدو هاربة من القرية كلها!

* * *

- جعل لـ«فاطمة» نصيبًا في الدار!

تمتم بها «هارون» بدهشة، وهو يطالع وصية أبيه أمام المحامي الذي رفع كفيه باستسلام قائلًا:

- لا أعرف السبب.. لكن الغريب أنه ذكر اسم «فاطمة» فحسب دون أن يمنحني بقيته.

- كان يعلم أنه ليس حقيقيًا.

همس بها «هارون» لنفسه ودمعة حارقة تخدش طرف عينه.. ليمنحه الرجل مظروفًا آخر مغلقًا قائلًا:

- ترك لك هذا أيضًا وطلب مني ألا تفتحه إلا حال

وفاته.

- أخبرها أنني عشت عمرًا أحمل ذنبها فلم يكن لها ذنب في جريرة أمها.. فكرت أن أبحث عنها لأربيها تحت جناحي، لكنني في النهاية بشر ولست ملاكًا.. لا أعرف إن كان عمري سيمتد حتى أفهم كيف عثرت أنت عليها وما قصتك معها.. لكنني أوصيك بها خيرًا فلم أرَ منها إلا خيرًا.

الدمعة الحارقة تفر لتجد سبيلها على وجنته، فيغص حلقه بمرارته وهو يغلق المظروف ليغادر مكتب المحامي.. خطواته متثاقلة شاردة مشتتة مثله تمامًا.. لم يتصور يومًا أن تكون هذه النهاية!

كان يأمل أن تبقى بجواره أمام ناظريه حتى ولو لم تشعر بحبه.. لكن أن تنكشف لها الحقيقة هكذا فيخسرها وأباه في نفس اللحظة فهو الجحيم بعينه!

آهة خافتة تنبعث منه وهو يستقل سيارته نحو

الدار.. يفتح بابها فيخيل إليه أنها مظلمة.. مظلمة حتى في وضح النهار!!

كرسي أبيه المتحرك هناك.. وضعه في مكان مميز في الحديقة، كما كان يحب صاحبه أن يكون.. يراقب الجميع.. فيبتسم لضحكة طفل ويعبس لبكاء آخر.. يسامر عجوزًا ويربت على كتف آخر.. عاش هنا وسيبقى يعيش هنا!

يغمض عينيه بقوة على فيض دموعه، ثم تحين منه التفاتة نحو أريكة جانبية تشاركها معها هي يومًا.. يسمع صدى ضحكتها -في خياله- وهي تلاعب الأطفال.. عيناها الحبيبتان عبر فتحة نقاب أسود تبدو له كشمسين عنيدتين وسط ليل حالك.. وتبتسم! تبتسم تلك الابتسامة التي لا يراها بعينيه بل بقلبه.. قلبه الذي تعثر بها منذ سنوات فأبى أن يقوم منذ حينها من عثرته!

هل كان شعوره بالذنب هو ما جمع بينهما؟! ربما.. تبدو البداية دومًا غامضة ثقيلة ثم ينحدر الصخر من علٍ بأقصى سرعته دون توقف نحو قاع ليس له وجود!!

خطواته تحمله نحو غرفة مكتبها التي خصصها لها.. يتحسس أوراقها وقلمًا أمسكته يومًا أناملها.. يقلب في دفاترها لعله يرى كلمة منسية منها تحمل له رائحتها.. ليجد ضالته في رسم!

رسم بالقلم الرصاص لأول حرف من اسمه.. لكن من يدري.. ربما ليس اسمه هو بل اسم «هاشم»!!

مزيج قاتل من الغيرة واليأس يجتمعان عليه فيتراجع للخلف..

هل تحق له الغيرة حقًا؟! ومجرد الحلم بها حماقة بعدما أحرقت كل سفنه معها؟!

كتفاه يتهدلان بانكسار، وهو يغادر غرفتها مغلقًا الباب خلفه..

لكنه يرفع هاتفه بأنامل مرتجفة.. يجب أن تعلم عن وصية والده.. وليكن هذا آخر وداع!

حاول ضغط الاتصال لكنه لم يستطع! لم يستطع أن يسمع صوتها يناحره بقسوة أو باتهام.. فآثر أن يرسل لها صورتين.. واحدة لوصية والده وأخرى لخطابه الأخير.. ثم بعث لها رسالته هو المكتوبة..

- أعرف أن كل ما يملأ رأسك الآن هو الانتقام مني.. لكن لا تتعبي نفسك.. فلا تحتاجين إلا لأن تبتعدي ساحبة روحي معك.. أنا أرتشف كأس عقابي منذ سنوات تقارب عمرك لتبقى القطرة الأخيرة هي وداعي لكِ.. لا أعدكِ أن أكون صادقًا بنسيانك فمن عاش يتنفسك طوال هذه السنوات سيموت في أول لحظة يُحرَم فيها منكِ.. لكنني أعدكِ أن أخرج من

عالمك، كأن لم أكن لأعود غريبًا كما كنت..

ثم أخذ نفسًا عميقًا ليكتب عبارته الأخيرة..

- إذا لم يكن هناك سبيل لتنسي ذنبي إلا أن تنسيني كاملًا فافعلي.

وبينما يضغط زر الإرسال كان يوقن أنه لن يتلقى ردًا إلا حظر رقمه عن هاتفها.. وقد كان!

* * *

في غرفتها بشقتها الجديدة التي اختارتها بنفسها بعيدة عن القرية.. عن الدار.. وعن كل شيء جلست تتفحص هاتفها بفيض دموعها.. لا تصدق أن «السرجاني» فعلها حقًا، وأن «جاثوم الماضي» لم يكن أكثر من رجل مخدوع غرَّه تدبير طفل مراهق!!

آهة عالية تغادر حلقها وهي تقرأ كلمات «هارون»

عالمك، كأن لم أكن لأعود غريبًا كما كنت..

ثم أخذ نفسًا عميقًا ليكتب عبارته الأخيرة..

- إذا لم يكن هناك سبيل لتنسي ذنبي إلا أن تنسيني كاملًا فافعلي.

وبينما يضغط زر الإرسال كان يوقن أنه لن يتلقى ردًا إلا حظر رقمه عن هاتفها.. وقد كان!

* * *

في غرفتها بشقتها الجديدة التي اختارتها بنفسها بعيدة عن القرية.. عن الدار.. وعن كل شيء جلست تتفحص هاتفها بفيض دموعها.. لا تصدق أن «السرجاني» فعلها حقًا، وأن «جاثوم الماضي» لم يكن أكثر من رجل مخدوع غرّه تدبير طفل مراهق!!

آهة عالية تغادر حلقها وهي تقرأ كلمات «هارون»

واحدة تلو الأخرى.. تحاول غرس حقدها بين حروفه، لكنها لا تزهر إلا حبًا!!

حب؟! هل تجرؤ الآن على الاعتراف بهذا؟! الآن!!

الصراع بين جنباتها يشتد وهي تنظر على يسارها، فتراه بعين خيالها يمزق ثوب أمها ليفضحها..

لكنها تنظر عن يمينها فتجده يفرد لها هي عباءته ليسترها!

عن يسارها تراه يقتل أمها بكذبته..

وعن يمينها تراه ينقذها هي من الموت ليعيدها -قسرًا- للحياة!

عن يسارها تراه يلطخ ماضيها كله بعار لا ذنب لها فيه..

وعن يمينها تراه يمنحها قلمه لترسم غدها كما تحب!

عن يسارها تراه الشيطان

وعن يمينها هو ملاكها الحارس..

وبينهما هي مشتتة لا تدري في أي خانة تضعه!!

الخاتمة

الهالة الـ(....)؟؟

لا.. لم تعد هناك هالات.. لم تعد تحتاج «كونسيلر»!

* * *

بعد عام..

* * *

- المركز الأول هذا العام أيضًا.. مبارك يا «فاطمة»!

تقولها صديقتها «الجديدة» في الجامعة لتبتسم «فاطمة» وهي تلتفت نحوها بودّ لتحتضنها.. مجموعة أخرى من الصديقات تجمعن حولها لتدرك الفارق بين هذا العام وما سبقه.. لم تعد تخشى

الناس.. بل صارت تجد وجودهم داعمًا لها.. لهذا سعت لتكوين صداقات جديدة بروح مختلفة عن تلك المنزوية القديمة..

- يجب أن نحتفل بالنجاح.. فاطمة ستدعونا.. هي الثرية بيننا!

- لن أرضى بأقل من «سينابون»، بيتزا، تشيز كيك، ميلك شيك!

- رحم الله أباكِ.. كان يغمس الـ«الآيس كريم» بالخبز!!

- شششششش.. «هيثم» قادم.. سيسمعك.. رأيتِ كيف يبدو وسيمًا بهذه اللحية؟!

- وهل سينظر إليكِ «هيثم» بتيشيرت «سبونج بوب» الذي ترتدينه هذا؟!

تبتسم «فاطمة» وهي تستمع لمزاحهن المعهود بصبغته المراهقة..صامتة بعينين لامعتين رغم الحزن الذي تأصل فيهما.. هن في نفس عمرها، لكنها تشعر أنها هرمت؛ بسبب ما رأته في عمرها القصير!

تشرد ببصرها وهي تتذكر كيف مرّ عليها العام الماضي.. كيف هربت من كل شيء حتى من التفكير.. آلة لا هم لها إلا العدو في الاتجاه المعاكس لما سارت عليه حياتها من قبل.. وقد نجحت!

لم تشعر بانسحاب صديقاتها من حولها إلا عندما سمعت الصوت خلفها:

- مبارك يا جميلة!

تسمعها بصوت أستاذها البغيض الذي لم يكفّ عن التعرض لها طوال العام بمناسبة ودون مناسبة.. لكنها الآن تملك من القوة ما يكفيها لردعه:

- ادعني «الباشمهندسة فاطمة» من فضلك.. لم أتعب طوال هذه السنوات كي يدعوني أحدهم بما تخاطب به فتيات الشوارع!

لهجتها كانت مهذبة تمامًا تناقض هذا البريق الشرس الذي التمع في عينيها وهي تستحضر صورة «الوشم الأخضر القبيح» لـ«طاهر».. والذي صارت تراه في كل من تسوّل له نفسه التحرش بها.. لكنها صارت تملك من البأس ما يمكّنها من حماية نفسها..

- آسف يا «باشمهندسة »!

يقولها الرجل ساخرًا ببعض الغيظ، وهو يتلفت حوله قائلًا:

- أين حارسك الشخصي هذا العام؟! ألن يحضر؟!

قلبها يغوص بين ضلوعها بحنين وعبارته تحملها لذكرى مشابهة كهذه العام الماضي.. يا الله! هل مر

عام واحد فقط؟! لماذا تشعر إذن أنها لم تره منذ ألف عام؟!

صديقاتها يعدن للتحلق حولها، فيكفينها المزيد من سخافة ذاك الرجل الذي انسحب خالي الوفاض شاعرًا باليأس منها.. فيما أطرقت هي بوجهها تضم حقيبتها لصدرها وهي عاجزة عن منع خفقات قلبها للذكرى.. لم تتصل به منذ ذاك اليوم الذي أرسل لها فيه رسالته.. لكنها تطمئن عليه عرضًا من «سليمان».. تعلم أنه لم يعد يزور الدار إلا قليلًا، وقد أوكل إدارتها لغيره، كأنما لم يعد يطيق أن يدخلها دون والده.. ودونها! كما تعلم أنه صار يقيم في مزرعته القريبة من العاصمة، وقد اتخذها منفى جديدًا له بعيدًا عن العالم كله.. لا يزال يعاقب نفسه بذنبه القديم.. فهل هي بقادرة على الصفح؟!

ترفع عينيها بتنهيدة حارقة لتصطدم برؤيته هناك.. لحظة واحدة تقابلت فيها عيناهما قبل أن يختفي

من أمامها خلف إحدى الأشجار.. «هارون» هنا!

قدماها تتيبسان مكانهما للحظات قبل أن تجد نفسها تعدو نحو الشجرة المقصودة، لكنه كان قد اختفى! هل كان يهيأ إليها من فرط ما تمنّت رؤيته؟!

تطرق برأسها في حزن لتقع عيناها على ما رسم ابتسامة واهنة على شفتيها.. فهناك أسفل الشجرة كانت مسبحة زرقاء انحنت لتتناولها وتقلبها بين أناملها بحنين.. هو لم ينسها كما وعدها.. لا يزال يراقبها ليشاطرها حياتها ولو دون علمها!

وفي مكانه استقلّ هو سيارته خارج أسوار الجامعة، ليعود نحو مزرعته.. فرحته اليوم بها وهو يراها قد تجاوزت أزمتها لا توصف.. شعوره بأنها وجدت نفسها بين صديقاتها فلم تعد تخشى الناس.. بأنها صارت تجيد حماية نفسها، فلا ترهب الطامعين كأستاذها.. بأنها لا تزال قادرة على اقتناص نجومها

من سماء الليل بمركزها الأول الذي حافظت عليه.. كل هذا جعله يوقن أنها لم تعد تحتاجه في حياتها.. لكنه لم يعد يهتم فقد ضاع أمله فيها من زمن!

- فليحظَ أحدنا على الأقل بأمله.. كوني سعيدة حبيبتي.. ربما وقتها يمكنني مسامحة نفسي.

يقولها لينطلق بسيارته بسرعة كأنما ينتزع قلبه انتزاعًا من تشبثه بالعودة إليها وعناق عينيها.. إذا كانت راحتها في وداعه فهو لم يسعَ يومًا إلا لمنحها الراحة!

* * *

حملتها خطواتها لزيارة تريدها من زمن بعيد بقدر ما تخشاها واليوم قررت حسم الصراع!

تتقدم بخطوات مرتجفة نحو القبر لتتكدس الدموع في عينيها وذكرياتها مع صاحبته تعود

لتطفو بعد طول غرق فتملأ ذهنها كله..

(لما قالوا دي بنية.. فرح قلبي وعنيا)

ترفع معصمها الذي التفت حوله المسبحة الزرقاء منذ ألبسها إياها «هارون» فلم تخلعها.. قلبها يكاد ينخلع من مكانه فتجثو على ركبتيها أمام القبر، وقد عجزت عن وقف نحيبها..

- أخيرًا زارها أحد بخلاف ذاك الرجل.

يقولها حارس المقبرة من خلفها، فتلتفت نحوه بدهشة، بينما يردف وهو يتقدم نحوها:

- سنوات مرت ولا يزور هذا القبر إلا رجل واحد.. يجلس هنا دامع العينين مثلك في نفس الموعد من كل شهر..

- ما شكله؟!

تسأله بصوت مبحوح ليردّ:

- ضخم الجسد.. غزا شعره المشيب رغم صغر سنه الظاهر.. يبدو أنه ابنها!

تعضّ على شفتها محاولة كتم انفعالها.. إذن «هارون» وحده من كان يزورها طوال هذه السنوات!

- هل تمتّين لها بصلة قرابة؟!

يسألها الرجل بفضول ولأول مرة لا تجد غضاضة في التصريح.. بل بالصراخ بها..

- أمي!

يجفل الرجل وهو يعود خطوة للخلف، بينما تنثني هي على نفسها تبكي بحرقة.. تكررها بين صرخاتها المكتومة..

- أمي.. أمي..

كأنما تعوِّض بها سنوات الكره التي عاشتها تلفظها فيها بعيدًا عن ذاكرتها.. الكره الذي تعلمت أن تمحوه تمامًا من عالمها فلم يدنس خطواتها مثله!

- ربما السر في اسم أمك.

تسمعها -في خيالها- بصوت «سليمان» وقد قالها يومًا فلم تفهمها.. والآن تبزغ في ذهنها كشمس ساطعة.. أجل.. السر في الاسم.. لو كنتِ تريدين المضي قدمًا فليس لكِ إلا الـ«غفران»!

* * *

- ألم يأذن الله لكما بالإنجاب بعد؟!

تسأله والدته وهما يجلسان معها في بيت أبيه

بالقرية، ليجيبها «هاشم» وهو يحتضن كف «غنى»:

- لسنا متعجلين!

فتمصمص شفتيها وهي تشيح بوجهها قائلة بفظاظتها المعهودة:

- معك حق.. هي بالكاد تحمل نفسها، فكيف تحمل طفلًا؟!

شحب وجه «غنى» لتطرق برأسها، فضغط «هاشم» كفها برفق قبل أن يتركه ليقف مكانه مخاطبًا أمه:

- أريدك بشأن ما.. وحدنا!

تبعته المرأة وهي ترمق «غنى» بنظرات غيور، ولم يكد يغلق باب إحدى الغرف خلفهما حتى قال لها بحزم:

- لو كنتِ تظنين أنه يمكنك قهر «غنى» كما كنتِ تفعلين بـ«فاطمة»، فاعلمي أنني لن أتسامح في هذا الشأن.. لن أجعل أحدهم يؤذيها ولو بكلمة حتى لو اضطررت لزيارتكما وحدي دونها.

- دومًا تظلم أمك لأجل زوجتك! ماذا قلت أنا لكل هذا؟!

تهتف بها بسخط لتزداد ملامحه حزمًا مع رده:

- تعلمين ماذا أقصد.. أنا ألاحظ تلميحاتك التي تقلل من شأنها وتجرحها، لكنها تتغاضى لأجلي، فلو لففت العالم كله لن أجد واحدة مثلها.. لا تجبريني على أن أعزلها بعيدًا عنكِ.

التمعت عيناها باستنكار ليخبط أحد كفيه بالآخر مردفًا:

- أنا لا أفهم.. أليست هذه «غنى» قطعة الذهب التي كنتِ تتمنين أن أتزوجها وأحسن إليها.. ماذا حدث؟!

- لأنها سحرتك كالأخرى.. لم تعد ترى سواها.

هتفت بها بغيرتها المعهودة، فزفر بقوة ليقترب منها مربتًا على كتفيها برفق وهو يحاول كظم غيظه:

- ألا تحبين رؤيتي سعيدًا؟!

- بلى بالطبع.. كل أم تبتغيها.. لكنني أخشى عليك أن تكون تابعًا لإحداهن، ولا تكون رجلًا في بيتك.. اكسر أنفها كي لا ترفعه في وجهك.

تقولها بضيق أفقها المحدود الذي اعتاد احتماله ليبتسم لها قائلًا:

- «غنى» لا ترفع أنفها في وجهي، بل ترفعني أنا

فوق رأسها، وليس لها إلا أن أعاملها بالمثل.

مطّت المرأة شفتيها باستياء غيور، لتتمتم بكلمات ساخطة سبقت قولها:

- وما الذي سأريده أفضل من ذلك؟! هنأكما الله.

- إذن ستراعينها أكثر؟!

أومأت برأسها بطاعة مصطنعة لتحاول تكلف المرح بعدها طوال مدة زيارتهما، لكنهما ما كاد يغادران حتى حسمت أمرها لتتناول قطعة من مصوغاتها الذهبية، وتتجه بها نحو بيت الشيخة!

- الولد سيضيع مني.. لا بد أن أتصرف كالمرة السابقة.

لكنها لم تكد تصل هناك حتى فوجئت بصوت سارينة سيارة الشرطة التي تقف أمام بيت المرأة

يسحبونها أمامهم والهتافات حولها تعلو..

- ظهرت حقيقتها النصابة! ترى كم واحدة خدعت لتستنزف نقودها؟!

- العيب ليس فيها بل فيمن يصدقها ويسلمها ذقنه!

فخبطت صدرها بكفها بقوة وهي تتراجع للخلف مدركة حقيقة الفخ الذي كانت واقعة فيه.. قبل أن تعود لبيتها منكسة الرأس والهامة!

* * *

تطالع «غنى» مرآتها بشعور رضا زادها فتنة وهي تتأمل ملامحها.. تبتسم وهي تتذكر ليلتها السابقة معه كيف مرت ساخنة بشغف تزداد حرارته بينهما يومًا بعد يوم.. «أنوثتها» التي ظنتها يومًا فقيرة تزداد ثراء بين ذراعيه، فيشعرها وكأنه لم يعد يرى من النساء سواها.. هذا الشعور الذي يجعلها تتفنن

في إبراز ما كانت تداريه بخزي يتحول الآن لفخر عاشقة بأثرها في نفس عاشقها!

تتسع ابتسامتها وهي ترى كيف اختفت هالاتها السوداء.. فلم تعد ترى من وجهها سوى ظلال عشق تسكن روحها شمسه!

ضحكة قصيرة عابثة تغادر شفتيها وهي تتحرك لتعيد ترتيب الفراش بعد فوضى أمس.. لتشعر بذراعيه تحيطان خصرها من الخلف وشفتاه تلقيان تحية الصباح على ما تطاله من بشرتها:

- صباح الخير يا «غنوة».

- صباح الحب يا «كابتن»!

تقولها مستديرة نحوه تحيط عنقه بذراعيها، وهي تتأمل ملامحه الحبيبة بهيامها المعهود:

- الليلة أول حلقة من برنامجك.. لا أصدق أنك ستعود للظهور بكل هذه الوسامة أمام النساء، بينما أنا أتفتت غيرة وحدي.

كان قد تلقى عرضًا من إحدى القنوات التلفزيونية الرياضية؛ لتقديم ما يشبه استوديو تحليلي للمباريات مع بعض رفقائه من مشاهير هذا العالم.. رفضه في البداية وقد جعله هذا يشعر بالحنين لماضيه في الملاعب، لكنها أقنعته أن يوافق ما دام سيبقى منخرطًا في العالم الذي يجد نفسه فيه.

- لا نساء في عالمي غيرك.. هذه هي القاعدة الأولى.

يقولها بينما يقرص وجنتها مداعبًا كعهده لتلتمع عيناها ببريق عابث مرح مستحدث على طبيعتها المعهودة، لترد وهي تداعب أنفه بأنفها:

- والثانية؟!

- الثانية أنكِ لن تكوني أبدًا وحدك.. عهدٌ عليّ ألا أسير في طريق إلا وخطواتك تجاور خطواتي.

يهمس بها بحرارة وهو يلصقها به أكثر كأنما يمنحها مع القول برهان فعل!

- هل توجد ثالثة؟!

تسأله بنفس النبرة لتغرد ضحكته في أذنيها للحظات، قبل أن يميل بها فوق الفراش هامسًا بمكر:

- لدينا حتى الأربعين.. سأخبركِ بها الآن هنا.. واحدة.. واحدة..

تتأوه بدلال بينما تغزل عاطفته خيوطها بينهما.. لو أخبرها أحدهم أنها ستعيش كل هذه السعادة التي تتنعم بها معه يومًا لاتهمته بالحمق! لكن ها هي ذي تحقق كل حلم رسمته له.. بل وما تجاوز أحلامها

بكثيرا!

تشعر بأنامله تتراقص على جيدها للحظات، فتفتح عينيها لتميز ما ألبسها إياه ثم ترمقه بنظرة متسائلة.. ليهمس:

- أنتِ أهديتني واحدة.. وأنا أرد لكِ الهدية!

تبتسم وهي ترفع الدلاية المميزة نحو عينيها، والتي بدت ككوكب دائري وحوله فلكه، بينما تجاوره نجمة لامعة..

- مَن فينا الكوكب ومن نجمه؟!

تسأله بدلال غير متكلف يليق بطبيعتها الجديدة، ليتحسس وجنتيها بأنامله هامسًا بصدق مسّ قلبها:

- يومًا ما كنتُ أنا نجمك.. والآن.. وللأبد.. أنتِ وحدك نجمتي!

* * *

خطواتها تتهادى في الممر المؤدي لغرفة «غالية».. غصة تجتاح حلقها كعادتها كلما أتت إلى هنا.. ورغم أن الحالة لا تتقدم فلا تزال خالتها غارقة في صمتها المتشح بشرودها، لكنها تشعر أن كلتيهما تحتاج لهذه الزيارة يوميًا..

فتحت الباب برفق لتدخل حيث «غالية» جالسة كعهدها على كرسيها أمام نافذة غرفتها.. تتقدم أكثر لتأخذ مكانها المعهود قبالتها..

- صباح الخير يا أمي.

لم تعد تتلعثم بها كالسابق.. ربما لأنها رأت «غالية» صارت تصلح؛ لأن تكون أمًا حقيقية طالما تخلى عنها جبروتها المعهود..

تتناول كفها لتقبله بعاطفة ثم تضعه على قلادة «هاشم» الجديدة حول عنقها..

- «هاشم» أهداني هذه أمس.. ترين كم هي جميلة؟!

لكن وجه «غالية» الجامد لا يمنحها أي تعابير.. فالتمعت عيناها بالدموع وهي تردف كأنما تحدث نفسها:

- زوجي صار يحبني يا أمي.. صار لديَّ رجل أنا سيدة قلبه.. ليس بمالي ولا نفوذ عائلتي.. بل بحب منحته بسخاء فبادلني إياه بسخاء أكبر.. أخيرًا أنا سعيدة.. سعيدة بحق!

يخيل إليها أن كف «غالية» يرتجف بين أناملها، فتنفرج شفتاها بترقب وهي تميز دمعة جانبية تجمعت في طرف عينها..

- هل تسمعينني يا أمي؟!

كانت هذه أول استجابة تتلقاها من «غالية» منذ دخلت إلى هنا.. والدمعة اليتيمة تنحدر عبر وجنتها، بينما يمسد إبهامها مكان خاتمها المفقود في إصبعها..

- وجدنا خاتمك.. تريدينه؟! هل أحضره معي غدًا؟!

الدمعة العزيزة تصل لطرف شفتي «غالية» فترتجفان بقوة، بينما يهتز وجهها ببطء.. بطء شديد في جواب بالنفي، قبل أن تعود ملامحها لسابق شرودها!

* * *

- الطبيب يقول إنها استجابة جيدة وبداية مبشرة..

تقولها «غنى» بأمل وهي تستقل سيارة هاشم منطلقًا بها نحو قريته لتردف:

- يقول إن وجودي جوارها ضروري هذه الأيام.. كي لا تشعر أنها خسرت ابنتيها..

ثم ارتجف صوتها باستطرادها:

- لا سيما لو فعلتها «فاطمة» كذلك.

تنهد بحرارة والاسم يعيد إليه ذكريات حارقة ليرد:

- تظنين «فاطمة» قد تفعلها بعدما أغراها بريق الانتقام؟!

- «سليمان» يقول إنها صارت أفضل، خاصة بعدما كشف ابن «السرجاني» الحقيقة وبرّأ أمها.

- لكنها سافرت هاربة من كل شيء.. ما الذي يجبرها على الخوض في هذا البحر من جديد؟!

يقولها مشفقًا عليها من أمل كاذب، لكن «غنى» ترد بانفعال:

- وفاء للمرأة التي ربّتها والتي تسببت هي لها في هذا كله!

مطّ شفتيه باستياء ملاحظًا تحيزها، فارتجف صوتها:

- أعرف فيما تفكر، لكنني لا أتصور أن أرى أحدًا يحتاجني وأخذله.. فما بالك بالمرأة التي ربتني!

- ليت العالم كله في طيبتك!

يقولها بينما يرفع كفها نحو شفتيه بقبلة ناعمة، فتنهدت لتقول بشرود:

- سأذهب لـ«سليمان» وأطلب منه أن يقنعها بزيارتها.. لعل هذا يفيدا!

- «سليمان»! «سليمان»! ألا تلاحظين أنكِ صرتِ تختلقين الذرائع لزيارته؟!

يقولها وهو يرفع أحد حاجبيه بغيرة مصطنعة، لتضحك ضحكة عالية سبقت قولها:

- تغار من «سليمان» يا «كابتن»؟!

- وما له «سليمان»؟! أليس رجلًا؟! ما أدراني كيف تفكر النساء العابثات أمثالك؟!

بنفس الغضب المصطنع يقولها لترد ضاحكة وهي تشير لصدرها باستنكار:

- عابثات؟! أنا!

- هل أذكرك بليلة أمس عندما..

مال على أذنها يكمل عبارته، لتحمر وجنتاها هاتفة:

- لا فائدة فيك.. رأسك مبرمج على الوقاحة كما قدمك مبرمجة على ركل الكرة.. انتبه للطريق.. ستضيعنا!

ضحكته الرائقة تعاود اجتياح أذنها، فتبتسم بارتياح وهي تتأمل جانب وجهه.. لا تصدق كيف تحولت شخصيتها الخانعة المترددة فاقدة الثقة لهذه المشعة التي تتوهج قوة ورغبة في مساعدة غيرها.. هل هو أثر الحب عندما تجتاح فرشاته بـ«معجزة» سواد لوحتنا لتمنحها ألوان قوس قزح؟! أم هو أثر «ذنبنا» عندما نحاول نسيانه بتكفيره كي نستعيد براءة بسمتنا؟!

ربما كلاهما معًا.. المزيج بين «المعجزة» و«الذنب»!

عيناها تنجذبان نحو سلسلتها -التي كانت قد أهدته إياها -تتأرجح في مكانها العتيق على مرآة

السيارة، وتلتمع مع ضوء الشمس ببريق أخاذ، فتجد في قلبها بريقًا يشبهه..

- «هاشم»..

- مممم!

- أحبك.

- أعرف!

يقولها مغيظًا إياها بحركة حاجبه المتراقصة، لكنها تبتسم وهي تخفي وجهها في كتفه:

- وأنت تحبني.. لا أحتاج لسماعها، فلن يدرك هذا أحد مثل امرأة تحفظك كخطوط كفها!

* * *

- إلى أين تأخذني؟!

تسأله غنى وهي تراه يسحبها من كفها قبيل الغروب نحو المكان المنعزل في أطراف القرية، لكنه شاكسها بتراقص حاجبيه الصامت.. فتأرجحت ابتسامتها على شفتيها، وهي تميز البيت الخشبي هناك، والذي وصلا إليه أخيرًا.. لتلمح في عينيه نظرة غريبة تكللت بالحنين..

- ها هنا كنت تلتقي «فاطمة».. صحيح؟!

تسأله بترقب وقد أنبأها حدسها ليبتسم قائلًا بحذر:

- يخيفني ذكاؤك في استقرائي كثيرًا.

هزّت رأسها بتفكر وهي تتأمل المكان حولها، وقد مر بها خاطر غيرة خفي، لكنها دحضته بقوة، وهي تقترب منه، لتكتنف كفيه براحتيها قائلة:

- السبب الوحيد الذي يجعلك تأتي بي إلى هنا أن يكون للمكان نفسه ذكرى خاصة عندك، وتريد أن تطمس أثر «فاطمة» فيه بي أنا!

فرفع كفيها بكفيه نحو صدره قائلًا بحب تساقط بين حروفه:

- هذا صحيح.. أنا أحب هذا المكان.. جزء من طفولتي وصباي.. هذا البيت صنعته لنفسي بنفسي منذ سنوات طويلة في عزاء عن كلية لم أدخلها.. هنا التقيتها مصادفة أول مرة.. وعندما فارقتها لم أستطع أن أمنع نفسي من زيارة المكان.. لكنني مؤخرًا كنت أشعر بالذنب وأنا آتيه وحدي..

- الذنب فقط؟!

تسأله ليرمقها بنظرة متسائلة، فتبتسم وهي توضح:

- لو كنت مكانك لما أتيت بك إلى هنا فقط لأجل شعوري بالذنب.. بل لأجل أن ألون بك ما بقي من عالمي.. ما كان قبلك وما سيكون بعدك!

فيضحك وهو يضم رأسها لصدره قائلًا بصدق:

- هو كذلك يا «غنوة».. أنتِ فقط تجيدين التعبير عما عجزت عنه!

- هذا يعني لي الكثير لو تعلم..

- ولي أيضًا!

يقولها وهو يحتضن وجنتيها براحتيه ليهمس أمام عينيها:

- منحتك حاضري وغدي، ولو لم يبقَ إلا الماضي فهو كذلك لكِ.. كوني سيدة كل عصوري فلا يليق بكِ

رجلٌ مقسّم!

* * *

بخطوات متثاقلة تمر «فاطمة» عبر الرواق الطويل نحو غرفة غالية في المشفى.. شريط عمرها يمر أمام ناظريها بوجع يستنزف روحها من جديد، فتتوقف مكانها تنظر للخلف تريد الرجوع..

لكنها تتذكر حديث «سليمان»..

- ارتقي سلّم الصفح كما ارتقيتِ سلم الانتقام.. ربما عند قمته تجدين صك غفرانك أنتِ.

تتنهد بحرارة وهي تعاود تحركها نحو الغرفة المنشودة.. تطرق الباب بأنامل مرتجفة، لتدخل حيث «غالية» القابعة مكانها هناك بوجهها الشارد الغارق بألمه رغم جموده..

قلبها يخفق بقوة وعيناها تنسحبان لإصبعها الخالي من خاتمها.. هل يمكنها الزهو بزعمها أنها هي.. هي من خلعته عنها؟!

لا.. لا تجد في صدرها الآن مكانًا للشماتة ولا للتشفي.. بل لوجع خالص يعتصر قلبها لتجد نفسها دون وعي تتقدم لتلقي بنفسها بين ذراعيها فجأة..

- أمي!

جسدها كان يرتجف ببكائه، فلا تدري ما الذي يبكيه بالضبط.. تشوُّه روحها هي، أم تشوُّه روح غالية، أم كلاهما؟!

كل قبيح تذكره عنها يتوارى خلف جدار سميك من ذكريات سحيقة تلاحقها من طفولتها معها..

- أنا سامحتك.. فسامحيني.

ترفع بها رأسها نحو وجه «غالية» الجامد الذي لا يزال غارقًا في شروده، ثم تمتد أناملها تتحسس وجهها مردفة:

- تذكرين عندما كنتِ تسمحين لي بالنوم بجوارك في صغري، كنت أنتظر أن تنامي كي ألمس وجهك بهذه الطريقة.. كنت أحب ملمس بشرتك وهي تمنحني الأمان.. أنا أحببتك حقًا كأمي.. ربما لهذا ضعت عندما فقدتك.. لا تكرهيني.. أنا آذيت نفسي بقدر ما آذيتك وربما أكثر.. ما زلت أترنح في الطريق يا أمي، لكن ما يثبت خطواتي هو نداؤك.. ابنة «غالية» لا تسقط.. وأنا.. ابنتك!

آهة خلف آهة ودمعة خلف دمعة تغادرها محترقة بشعورها، لكنها تنتفض مكانها وهي تشعر بكفّ «غالية» يتحرك.. أخيرًا يتحرك ببطء لا لتتحسس خاتمها المفقود، بل لتتحسس وجهها هي.. نظراتها الجامدة تلين.. بل تنصهر في نظرات «فاطمة»،

والدمع العصيّ ينهمر مدرارًا دون توقف..

- أمي.. أمي!

تهتف بها «فاطمة» بلهفة وهي تنحني تقبّل كتفيها، لتشعر بضمّة غالية لها ولسانها يتحرك لأول مرة منذ أشهر طويلة..

- ابنتي!

* * *

- الوضع غريب.. لكنه يحدث!

يقولها الطبيب المختص مخاطبًا «فاطمة»، ليردف بينما يعدل وضع نظارته على أنفه:

- هي استجابت للحديث أخيرًا بفضلك، لكنها لا تذكر شيئًا عن تلك الفترة التي تلت خروجك من

حياتها.. كأنما نبذ عقلها الباطن تذكر هذه الأحداث كاملة في حيلة دفاعية يلجأ لها العقل أحيانًا لتفادي استرجاع ذكرياته السيئة!

- عفوًا.. ما الذي تقصده بالضبط؟!

تسأله بتشتت ليرد مبسطًا أكثر:

- أعني أنها تذكرك وتتذكر كل حياتها ومعارفها باستثناء تلك الفترة الأخيرة.. إدراكها يقف عند ذاك الحد!

- تعني أنها لم تعد تذكر زواجي بـ«طاهر»؟!

- ولا حتى بـ«هاشم».. ذهنها متوقف عند تلك الفترة التي سبقت اهتزاز استقرارها النفسي.. ما بعد ذلك طمسه عقلها تمامًا.

- يا إلهي!

تمتمت بها بخفوت وهي تضع كفها على شفتيها، ليبتسم الطبيب مشفقًا:

- صدقيني هذا أرحم حلّ وجدته لحالة تشبهها.. تعلمين عدد البشر الذين يريدون أن يفقدوا ذاكرتهم السيئة فلا يكون لها وجود!!

تبتسم وسط دموعها بتأثر هاتفة:

- تعني أن رصيد ذنوبي عندها قد انمحى.. الآن يمكنني رؤيتها وزيارتها دون خوف؟!

لكن الرجل يبسط راحتيه باستسلام:

- حتى الآن نعم.. الله وحده يعلم كيف ستتطور الحالة.

تشكره بكلمات مرتجفة وهي تغادر غرفته لتلقي

نظرة أخيرة على «غالية» التي استسلمت للنوم على فراشها.. تبتسم بشجن وهي ترى القدر قد منحهما معًا نسيانًا رحيمًا، لعل كلتيهما تتمكن من أداء دورها مع الأخرى.. لن تتخلى عنها.. ستبقى بجوارها كابنتها.. ربما وقتها فقط تستعيد فطرتها التائهة!

تلتفت لتغادر، لكنها تصطدم بـ«غنى» واقفة خلفها ترمقها بنظرات مختلطة بين ذنب وامتنان..

ملامحها تصرخ بألف كلمة، لكن لسانها بقي عاجزًا.

- كيف حالك؟! تغير شكلك كثيرًا!

تقولها «فاطمة» ملاحظة هذا التغيير الذي طرأ على ملامحها.. لم تعد شاحبة واهنة كالسابق، بل اكتست بإشعاع عجيب كأنما تحولت لأخرى أكثر توهجًا.. هل هو أثر «هاشم العدوي» على نسائه؟!

الخاطر الأخير يرسم ابتسامة تهكم مريرة على

شفتيها، لكنها ابتلعتها بسرعة بينما ترد «غنى»:

- أنتِ أيضًا.. تغيرتِ!

كان الموقف غريبًا وكلتاهما تناظر الأخرى بعين جديدة غير عين الماضي.. كلتاهما وجدت طريقها فلم تعد ترى في صاحبتها منافسة، بل تجابهها بإشفاق، كأنما هي صورة مرآتها في ضميرها!

- شكرًا لأنكِ أتيتِ.. الطبيب أخبرني عما جرى.

تقولها «غنى» بامتنان لا تدعيه، فأطرقت «فاطمة» برأسها قائلة:

- سأبقى أزورها ما لم يأتِ اليوم الذي تمنعني فيه..

ثم تحركت لتغادر مردفة:

- إلى اللقاء.

- انتظري!

تستوقفها «غنى» لتردف من خلف ظهرها، وقد عجزت عن مواجهتها:

- أعرف أنني أذنبت في حقك، لكنكِ لا تعرفين كيف كفَّرت عن ذنبي هذا.. يشهد الله أنني ندمت على فعلتي.. لو كنتِ وجدتِ القوة لتسامحي خالتي.. فسامحيني!

تغمض «فاطمة» عينيها بقوة تستدعي صورة «هاشم» بجوارها، لعلها تجد قبسًا من الحقد القديم، لكنها للعجب لم تجد سوى صورة «هارون» تملأ عينيها، بل كيانها كله!!

هكذا يجب أن يقابل المرء حبًا حقيقيًا؛ كي يمكنه التمييز بين النور والظلال!!

لهذا كانت ابتسامتها حقيقية تمامًا، وهي تعاود التفاتها نحوها لتقول باقتضاب:

- انعمي بحياتك.. دعي لكل ما تكبدناه ثمناً!

ترتجف ابتسامة «غنى» وهي تمد لها كفّها بتردد، لكن «فاطمة» بطبيعتها -غير السهلة- تقول بمكر أنثوي:

- أعرفك غيورًا.. لو صافحتك بيدي فلن تمسي زوجك اليوم؛ خشية أن يتسرب عطري منكِ إليه!

لكن «غنى» تثبت تغيّر طبيعتها، فترمقها بنظرة واثقة:

- رجلي لا يجعلني أغار من امرأة عارية تمر جواره، فكيف ببقايا عطر قديم؟!

يرتفع حاجبا «فاطمة» بدهشة للحظة، قبل أن يفترّ

ثغرها عن ابتسامة واسعة:

- أعجبتني!

فابتسمت «غنى» بدورها وهي تشعر أنهما للحظة عادتا كطفلتين مشاكستين.. لكنهما الآن كبرتا لتدرك كل منهما حقيقة الأخرى.. لقد عاشت كل منهما عمرها تبصر فقط ما تختلفان عليه لتتنازعا حوله.. والآن يتغير الحال لتبحثا معًا عما يمكن أن يجمعهما وأهمه.. حب «غالية».. أمهما!

* * *

تحت شجرة توت ضخمة في مزرعته يجلس مسندًا ذراعيه على ركبتيه.. يشعر بالوحدة كما لم يشعر من قبل.. نفس الشعور الذي انتابه عندما فقد أمه صغيرًا، لكنه الآن أشد ضراوة وقد حرم أباه و.. هي!

عزاؤه أنها هناك في مكان آمن.. أنها استعادت فطرتها وروحها الطيبة.. أنها عرفت طريقها وتسير فيه دون عراقيل.. وأنها -كما يبدو- نسيته هو كاملًا بزلاته وحسناته!

ابتسامة تلطخها دمعة تجمعت في طرف عينيه، وهو يتخيلها في جميع مراحل عمرها كما يذكرها.. طفلة ذهبية الضفيرتين، ثم فتاة كستنائية الشعر تحت حجاب متهاوٍ.. ثم امرأة تتخفى خلف نقابها من ماضٍ هو من لوثه!

يشعر بخيال يقترب فيلتفت برأسه نحوه.. دومًا يتخيلها تأتيه بقدميها هاهنا.. تخبره أنها سامحته.. و.. لا شيء آخر! هو لا يجرؤ على أن يطمع منها بالمزيد!

الخيال يقترب أكثر وأكثر حتى يميز تفاصيله، فيفك تشابك ساعديه ليقف.. هل يتخيلها حقًا بكل

هذا الوضوح؟!

بينما تقترب هي بخطوات بطيئة وعيناها تتعلقان بهذه «الغيمة الآمنة» التي طالما عشقتها في عينيه.. لم تشعر أنها افتقدته إلى هذا الحد حتى وصلت هاهنا.. «جاثوم الماضي» الهزيل يحاول بسط نفوذه على الصورة، لكنها تملك الآن من القوة ما يمكنها من ردعه.. فلا تبصر إلا «عشقًا» هادرًا في عينيه و«مسبحة زرقاء» لم تخلعها عن معصمها منذ ألبسها إياها!

تتعثر بحجر في الطريق، فتطلق صرخة خافتة لتجده في لحظة أمامها.. يمسك ذراعيها بقوة ليحميها السقوط.. عيناهما تلتقيان لأول مرة بهذا القرب.. وهذه الشفافية.. كأنما تُسكب روحاهما عبر حديث الأحداق!

- دومًا كنت حولي تسندني كي لا أقع!

تهمس بها أخيرًا، وهي تستعيد بدورها ما كان خافيًا عنها، لترتجف ابتسامته بل وجسده كله مع همسه المتحشرج:

- أنتِ حقًا.. هنا؟!

تتكدس الدموع في عينيها وهي تميز كعهدها أثرها عليه.. ليرتعش جسدها بدوره بينما ترد بمزيج عجيب بين حسم ورجاء:

- دومًا سأكون هنا!

عيناه تتسعان بذهول وهو يعود لا إراديًا خطوة للخلف، لكن قلبه يعيده قسرًا ليقترب بدلًا منها خطوتين بل ثلاث.. حتى كاد يلاصقها.. يتنشق رحيقها.. يغيب في نشوة هذا الشعور الذي طالما استعبده.. بينما لسانه يتمتم:

- ماذا تعنين؟!

فتسيل دموعها وهي تجيبه:

- أنا أخذت عهدي بأن أنتقم..

تشحب ملامحه وهو لا يشعر بضغط قبضتيه على ساعديها، كأنما لا يتشبث بها هي بل بروحه نفسها.. إذن هذا هو سبب عودتها.. ألم يكفها عذابه بها طوال هذه الأيام؟!

- أن أقتلك...... حبًا!

تهمس بها بحروف متقطعة وابتسامة تتأرجح على شفتيها، لتتسع عيناه بصدمة للحظة قبل أن يجذبها فجأة على صدره!

رأسها يحطّ بين ضلوعه كطير ملهوف أرهقه السفر، وهاهنا أخيرًا وجد موطنه..

جسدها يشاطر جسده ارتجافته.. قلبها يشاطر قلبه تحليقه.. روحها تشاطر روحه عشقها.. حتى دموعهما امتزجت فلم تعد تميز أحدهما دون الآخر..

لم يحتجْ منها المزيد من الشرح.. فقلبه كان يجيد استقراء روحها ككتاب مفتوح.. حبيبته عادت.. عادت إليه كاملة ولن تضيعه ثانية في متاهات فراق!

- تزوجيني يا «فاطمة».. ومارسي عليّ طقوس انتقامك هذه كل يوم!

يهمس بها وقد استعاد صوته وتعقله أخيرًا ليبعدها عنه بأنامل مرتجفة، فاتسعت ابتسامتها وهي تومئ برأسها موافقة لترد:

- هكذا أضمن أن أبقى أنتقم منك عمري كله!

ثم تلفتت حولها تنظر أين كان يجلس:

- لا تزال شجرة التوت تذكرك بي؟!

فتنهد بعمق ليجيبها بقلبه قبل لسانه:

- لا أنساكِ كي أحتاج ما يذكرني!

* * *

ترتدي الثوب الأبيض للمرة الثالثة.. لكن أي فرق!!

الحفل كان بسيطًا أقاموه في مزرعته، وحضره بعض أقاربه وصديقاتها و.. «سليمان» بالطبع!

تتأبط ذراعه وهي تسير معه في وضح النهار.. وسط هذه المساحات الشاسعة دون حدود.. لا شيء يعلوها سوى سماء ودود.. ولا شيء أسفلها سوى أرض داعمة.. وحولها.. هو حولها.. بحبه الذي يساوي الدنيا بما رحبت!

ترفع رأسها باعتزاز وهي تسير بينهم دون خزي.. دون عار.. دون ألم.. قبل أن تلتفت نحوه لتروعها هذه الفرحة الصارخة في ملامحه.. لم تره يومًا سعيدًا إلى هذا الحد.. ابتسامته كانت رائقة حقًا وهو يرفع وجهه للسماء كأنما هاهنا فقط تلقى دليل غفرانه الأخير!

هي الأخرى لم تعرف شعورًا بالأمان كهذا الذي تعيشه الآن في كنفه.. وكأنما لا يحيطها بجسده بل يطوقها بروحه.. يغلفها بغلالة عشق لم تعرف له شبيهًا ولو في رواياتها القديمة!

- ويجاااا.. ويجاااا.. يا من تبحث في سلة الألوان.. الأحمر مبهر لكنه خطير.. الأسود جاذب لكنه مهلك.. الأزرق فريد لكنه وحيد.. اجعل غايتك الأبيض فلا روح تصفو إلا به!

- «سليمان»!

تغمغم بها بودّ وعيناها تفضحان شعورها الجارف نحوه..

لم تعد تسيء فهم كلماته، بل تستعيدها لتدرك أي حكمة كان يملكها.. فيتقدم نحوهما ليبسط كفه على كتفي كل واحد منهما.. عيناه تمتلئان بالدموع وهو يشعر بالفرحة تزلزله.. لم يكذب يوم قال إن القدر حرمه ابنًا وعوضه باثنين.. هو وهي!

_عيناكِ تسبحان في العسل.

يقولها لها -كالأيام الخوالي- معبراً عن هذه الفرحة المشعة في عينيها لتنظر لهارون بحب قبل أن تعود إليه بقولها الفائض بمشاعرها:

_بل لم تسبحا فيه كما تفعلان اليوم.

- لست معتادًا على الثياب النظيفة، وشعري الممشط هذا.. أفسدتم الهيبة!

يقولها بمرح غريب على طبيعته الوقور، مغالبًا تأثره بانفعالاته لتجلجل ضحكة «فاطمة» مع قولها:

- وددت لو أسألك منذ زمن.. ما سر «الويجا» هذه؟!

فيلوح حزن باهت على ملامحه، وهو يشرد ببصره:

- لعبة كنت ألعبها مع ابني عندما كان صغيرًا.. كنت أزعم له أن «ويجا» هذه روح طيبة تساعدني لقراءة الغد.. وهو كان يصدقني، فيقضي ساعاته حولي، بينما أنسج له حكايات خيالية عنها.

ملامحها تفيض بإشفاقها، لكن العجوز يغتصب ابتسامة واسعة يغالب بها حزنه، وهو يرفع معصم «فاطمة» حيث التفت المسبحة الزرقاء قائلًا:

- قلتِ لي يومًا إن «غفران» قد أخبرتك أنها لو ماتت فستبقى تحوم حولك كفراشة زرقاء.. كم من

غالٍ فقدناه نود لو تبقى روحه تحوم حولنا تمنحنا السلوان عن فقده فتحلو بطيفها الأيام.

* * *

- أخيرًا.. أنتِ لي!

يهمس بها هارون بتبتُّل عاشق وهو يحيط وجهها براحتيه.. بينما يردف:

- تبتسمين لي؟! ترتدين الأبيض لي؟! تنتمين لي؟!

- بل وسأعيش لك!

تهمس بها بجرأة لا تدري من أين امتلكتها، إلا من اجتياح شعوره الكاسح نحوها بالمقابل!

تأوُّه عميق يطلقه وهو يضمها نحوه.. لعناقه مذاق مختلف أنساها كل وشم لرجل قبله على جسدها.. لم

يبدُ وكأنه يعانقها، بل وكأنه يعيد لروحه بعض روحه!

كأنه يكمل بها هذا الفراغ الذي بقي طويلًا قبلها ولن تشغله غيرها بعدها!!

شفتاه تطوفان على وجهها بتقديس، فيرتجف جسدها وهي تجد نفسها تدفعه لتبتعد..

- امنحني بضع دقائق.. بضع دقائق فقط!

يرتجف بها جسدها وعيناها تفيضان بدمع لم تملكه، بينما كفاها يرتفعان بتضرع صامت، فرمقها بنظرة طويلة متفهمة كأنما يدرك أي صراع توشك الآن على خوضه.. صراع مع أشباح الماضي كلها.. قلبه يستصرخه ألا يتركها فيه وحدها.. لكن عقله يحسم الأمر.. هذا هو الصراع الذي يجب أن تخوضه وحدها!

يمنحها قبلة داعمة على جبينها، فتسبل جفنيها

وهي تتحرك لتبتعد نحو غرفتهما تغلق بابها خلفها.. تتوجه لحمام الغرفة.. صورة المرآة رفيقة العمر تناظرها بإشفاق.. فتبتسم لها.. تخلع عنها حجاب رأسها فتمشط شعرها تاركة إياه حرًا كما تشعر بروحها الآن.. تغسل وجهها كي تزيح عنه زينته..

ابتسامتها تتسع وهي تغادر نحو الغرفة.. تفكر أن تخلع عنها ثوبها بنفسها، لكنها تتراجع مدركة كم يعني له أن يفعلها بنفسه.. عيناها تغيمان بنظرة بائسة، وهي تتجه نحو مرآة طاولة الزينة، فيراودها شبح هزيل لليلتها الأولى مع «هاشم».. جسدها يفور بغضب أوليّ لم يدم سوى لثوانٍ قبل أن تتنهد بحرارة وطيف آخر مقبض بلون وشم «طاهر» القبيح يعاود اجتياحها.. فيرتجف له جسدها، لكنها تأخذ نفسًا عميقًا، لتتقدم نحو صورتها أكثر كأنما تنشد صدق هذه المواجهة..

الآن فقط صارت تعرف نفسها بعد طول تيه.. الآن

وجدت هذا التوازن الذي حكى لها يومًا عنه «هارون» بين فاطمة «القديمة» و«الجديدة»..

«هارون»!

اسمه وحده يدفع كل هواجس الماضي.. يطوقها كعهده بهذه الغلالة الرقيقة من الأمان، ويمطرها عشقًا تزهر له روحها..

تتقدم أكثر لترمق عينيها بنظرة متفحصة.. لا هالات سوداء!

مضى زمن السهر.. مضى زمن الحزن.. مضى زمن «العيوب»!

ابتسامة ثقة تنحفر حفرًا على الشفاه النابضة بالحب.. عيناها تنسحبان لـ«الرفيق المصحح» الذي اصطحبها في هذه الرحلة الطويلة، فتتحرك أناملها لترفعه نحو عينيها متأملة.. ما عادت تحتاجه حقًّا..

«هارون» عالج عيوبها، فما حاجتها لتغطيها؟!

تفتح أحد الأدراج الجانبية، لتدسه هناك، موقنة أنها لن تعود بحاجة إليه بعد الآن.

تخرج إليه بوجه خلا من أصباغه، إلا من زينة عشق غير متكلفة، فيتلقفها بين ذراعيه هامسًا بحنانه القلِق:

- أنتِ بخير؟!

- أنا معك.. فماذا يضيرني بعد؟!

قالتها كجواب لا يحتمل الجدل.. بيقين امرأة تدرك أنها وجدت عاشقها وحاميها.. وبقلب عاشقة تسامح فيما مضى أملًا فيما هو آت!

كل هذا قرأه هو واضحًا ليبتسم لها بحب وهو يضمها نحوه، قبل أن يتحرك بها نحو إحدى الغرف

قائلًا:

- هاهنا تعيش حبيبتي منذ سنوات.. ألا تودين رؤيتها؟!

ترمقه بنظرات متسائلة فيفتح ضوء الغرفة لتشهق بانفعال، وهي تراقب كمّ الصور المعلقة على الجدران.. صور مرسومة باليد لها هي في جميع مراحل عمرها.. طفلة وفتاة.. وامرأة!

- أنت رسمت كل هذا لي؟!

تهتف بها بانبهار وأناملها تتحرك بين لوحة وأخرى، ليبتسم وهو يتناول أناملها بين راحتيه هامسًا:

- أنا عشت كل هذا لكِ ومعك!

يقولها ثم تنسحب أنامله لخصلات شعرها التي يراها لأول مرة منذ سنوات، فيتلمسها بحنان مردفًا:

- لم تعد ذهبية تمامًا كالسابق.

فتبتسم بشجن وهي تريح رأسها على صدره:

- وأي شيء يبقى كالسابق؟! لوّنها الوجع فزادها قتامة.

لكنه يرفع ذقنها نحوه ليحتكر نظراتها غارسًا فيها ألف شمس عشق:

- انثري شعرك على كتفيّ..أريد أن يمحو عبيره رائحة الذنب القديم..

ابتسامتها تولد على شفتيها كشمس صغيرة تتسع رويداً رويداً فتبدو له غمازتاها اللتان تتوهج لهما عيناه..يتأوه بخفوت وهو يتحسسهما بأنامله هامساً:

_هل أخبرتكِ يوماً كم أحببتهما؟! كم تمنيت فعل

هذا

يقولها لتنحني شفتاه فتمس غمازتيها بارتجافة تقديس تليق بقوله:

_لا تكفّي عن الابتسام يا فاطمة..شروق غمازتيكِ هو مكافأتي على ليل طويل عشته دونك.

شفتاها تستجيبان بأنين صامت تراقص على عزفه قلبها، وهي تشعر بروحها تضج بكل زغاريد السعادة التي تنطلق الآن بروحها..لترفع إليه عينيها هامسة:

_تعلم أن اليوم يوافق يوم مولدي؟!

_تسألين؟!

عتاب حانٍ يظلل عينيه وأنامله تغوص بين خصلات شعرها يقرب وجهها منه أكثر هامساً:

_لماذا تظنيني إذن اخترته لزفافنا؟! هو يوم مولدنا معاً يا حبيبة العمر..يا فرحة العمر..يا كل العمر.

همساته تنقطع بين شفتيها وأنامله تعرف طريقها لسحاب ثوبها..فتغمض عينيها برهبة لم تملكها مع ذكرى مشابهة..بل اثنتين!

يالله! فارقٌ كبير بين حب وحب..بين رجل ورجل..وبين نفسها و..نفسها أيضاً!

غيمة الأمان الوردية التي ظللتها في كنفه تكفيها المزيد..تشعر بثوبها يسقط فيسقط معه ماضٍ توقن الآن أنه لن يؤرقهما بعد..وأن ما بقي من العمر لن يتسع سوى لحب..وحب..وحب..

* * *

بعد بضعة أشهر..

- حامل!

تهتف بها «فاطمة» بفرحة جنونية وهي تنحني فجأة لتسجد شكرًا.. تعترف أن علاقتها بالدعاء تحسنت مؤخرًا، وقد بدأت تتحرر من قيود ماضيها، وتثق في حكمة خالقها ومولاها الذي جعل لها كل مرة من الضيق مخرجًا..ثم تستقيم لتتقافز بين ذراعيه ليضحك هارون بدوره قائلًا بحنانه المعهود:

- كنت أدعوها من الله لأجلك أنتِ فقط!

- تعني أنك لست سعيدًا؟!

تسأله بدلالها المعهود وهي تستطيل على أطراف أصابعها تتعلق بعنقه ليرد بتنهيدة دافئة:

- تعرفين الجواب يا حبيبة العمر!

«حبيبة العمر».. لا تزال ترتجف كلما سمعتها كأنما

تستعيد معها كل ماضيها قبله، وكل سعادتها بعده.. فابتسمت وهي تريح رأسها على صدره:

- أي اقتراحات للأسماء؟!

همهمة خافتة كانت جوابه قبل أن يقول بتردد:

- لو كان ذكرًا.. فلنجعله باسم ابن «سليمان» الراحل.. تعلمين كم سيعني هذا لديه!

اتسعت عيناها بدهشة وهي ترفعهما نحوه، لتبتسم بهيام قائلة:

- هل حملت الأرض من هو أطيب منك؟!

شفتاه تطبعان هدية ناعمة على شفتيها فتعاود تنهدها وهي تبسط كفها على موضع خافقه لتقول بشرود:

- لو كانت أنثى.. فسأسميها «غفران»..

ثم اغتصبت ضحكة باهتة لتردف:

- تعلم أن أبي طلقها؛ لأنها لم تكن تنجب إلا الإناث.. لكنها لم تكترث.. كانت دومًا تخبرني أن الولد الصالح يرفع ذكر أبيه سواء كان ذكرًا أم أنثى.. لم أكن أفهم حديثها وقتها لكنني الآن.. الآن أفهم!

تحشرج صوتها في عبارتها الأخيرة،وقد تذكرت أفكارها أيام حملها بابنها الراحل فشدد من ضمته الداعمة لها لتأخذ نفسًا عميقًا مستطردة:

- صحيح أنني ضيعت الحلم بالعمل بهيئة التدريس بعد العام الذي فقدته في الجامعة.. لكنني سأكمل طريقي هذا لآخره.. وسأربي ابنتي لتكون مثلي فلا تحيد عن حلم حلمته مهما كان صعبًا.. ستكون هذه هديتي لأمي حتى آخر العمر!

دمعة تأثر في عينيه تمتزج بابتسامة فخر فيحيط وجنتها براحته ليهمس أمام عينيها اللتين توهجتا بألَقٍ خاص:

- تعلمين كيف تبدو عيناكِ عندما تتحدثين هكذا؟!

- «سليمان» كان يقول أنهما تبدوان كأنهما تسبحان في العسل!

فيتنهد بحرارة عشقه وهو يقرب وجهها منه أكثر هامسًا:

- بل كأن شمسين تغتسلان في حدقتيكِ فلا يبصر الرائي بعدهما أي ظلام!

* * *

تتحرك فاطمة في الرواق الطويل بالمشفى نحو غرفة «غالية» حاملة رضيعتها.. تبتسم وهي تفتح

الباب لتدخل فتقابلها ابتسامة «غالية» المشتتة وهي تفتح لها ذراعيها.. عيناها غائمتان كأنما هي تائهة بين حقيقة وخيال.. لا تزال عالقة بهذه الحالة الغريبة من «فقدان الذاكرة الانتقائي» هذا..

- غبتِ طويلًا!

تقولها «غالية» بنفس النبرة الزائغة، فتدمع عينا «فاطمة» وهي تتقدم نحوها قائلة:

- وضعت طفلتي يا أمي!

ينتفض جسد «غالية» مكانه كأنما يعود له إدراكه فجأة.. تتسع عيناها وهما تحيدان نحو الجسد الصغير الملفوف.. يرتعش كفاها وهي ترفعهما نحوها.. قبل أن يسيل خطان متصلان من الدمع العزيز على وجنتيها..

هنا لم تملك «فاطمة» دموعها، وتتقدم أكثر لتضع

الصغيرة في حجرها.. ثم تجثو على ركبتيها أمامها تقبل كفها.. لكن «غالية» كانت غافلة عن هذا، وهي تشعر أن الكون كله قد اختزل في هذه الصغيرة التي ما أن فتحت عينيها لتميز لونهما العسلي كأمها، حتى ارتجفت شفتاها بتمتمة خافتة متصلة بدت كالهذيان لم تميز فيها «فاطمة» سوى كلمة واحدة:

- حفيدتي!

تقولها «غالية» ثم ترفع الصغيرة تضمه بقوة وشفتاها تتحركان بذات التمتمة الخافتة، كأنما تشعر أنها الآن تضم طفلتها هي.. «حلم كمالها» المفقود!

كانت «فاطمة» تراقبها برهبة خاشعة وهي تشعر أنها لأول مرة ترى روح «غالية» عارية.. ليس فقط من جبروتها المعهود.. بل من قناع تماسكها.. الآن تبدو لها دون رتوش تجميلية.. مجرد امرأة خاسرة عاشت عمرها تائهة بين هالات سوداء أحاطت

عينيها مثلها..

تسمع صوت الصغيرة تبكي، فتمد ذراعها لتتناولها، لكن «غالية» تهتف بجزع:

- دعيها.

- سأرضعها فقط.. وأعيدها!

تشعر بنظرات «غالية» غير المتزنة تعاود شرودها، بمجرد أن أخذت منها الصغيرة لتعود لعالمها المجهول، فتنهدت بحرارة وهي تبدأ في إرضاع صغيرتها، قبل أن تعيدها إليها، لتعود معها ابتسامتها الباهتة..

ولم تكد تنهي الزيارة فتغلق الباب خلفها حتى وجدت «غنى» أمامها ترمقها والصغيرة بنظرة دافئة:

- ابنتك!

تهمس بها بحنان، وهي تداعب وجنة الصغيرة بإصبعها، فابتسمت فاطمة وهي تناولها إياها:

- «غفران».

ترفع إليها «غنى» عينيها بنظرة إدراك لم تلبث أن اكتست بالدموع وهي تستحضر ماضيهما معًا لتقول أخيرًا بصدق لم تتكلفه:

- كوني سعيدة يا «فاطمة».. أنتِ تستحقين هذا!

تتسع ابتسامة «فاطمة» وهي تراها الآن كأول يوم رأتها فيه قبل أن يغزل الحقد نسيجه بينهما.. مجرد يتيمة تنشد الحب!

- أنتِ أيضًا تستحقين السعادة.

تقولها «فاطمة» وهي تميل نحوها بعناق لم تعرف

إحداهما مذاقه لسنوات.. وبينهما كانت «غفران» الرضيعة تفتح عينيها وعلى شفتيها ابتسامة بريئة.

- أنا أيضًا أنتظر طفلًا.. لو كانت أنثى فسأسميها «غالية».

تقولها «غنى» وهي تمسد بطنها برفق، لتبتسم «فاطمة» تقول بمكر مذكرة إياها بعهدهما القديم:

- أخيرًا ستفعلين شيئًا ما يجعلك تسبقينني في قلب أمي.

ضحكت «غنى» وهي تلكزها في كتفها بمرح متسامح، فضحكت «فاطمة» بدورها شاعرة بتهاوي المزيد من الحواجز بينهما.

* * *

تجلس معه غنى على أريكة الصالة ببيتهما الجديد

الذي صممه على ذوقهما الخاص يشاهدان إحدى مبارياته القديمة المسجلة ..

أجل..لم يعد يشعر بالحرج من فعلها فقد تعلم أن يحترم القدر عندما يسلبنا بأحد كفيه «شيئاً»فيمنحنا بكفه الآخر «أشياء»..لهذا ابتسم وهو يرقب قدمه المصابة بنظرة طويلة ثم قبل رأس غنى المستكين على صدره ليسألها:

_بماذا تشعرين عندما تشاهدين واحدة من هذه؟!

_أشعر أنني أحببت بطلاً لن يموت أبداً في قلوب الناس.

تتسع ابتسامته وهو يراها تمنحه الإجابة التي ترضيه لكنه يتفحص ملامحها ليسألها بحذر:

- ماذا بكِ؟! هل يتعبكِ «العدوي» الصغير؟!

يقولها وهو يتحسس بطنها لتضحك ضحكة راضية وهي تهز رأسها نفياً قبل أن ترفع إليه عينين مترددتين بقولها:

-قابلت فاطمة اليوم.

عيناه تزيغان قليلاً والاسم يحمل إليه ماضياً لا ينكر أثره فيسألها باهتمام:

- هي بخير؟!

فتومئ برأسها لترد بحذر:

- وضعت صغيرتها..غفران.

- الحمد لله.

يقولها بارتياح حقيقي مغمضاً عينيه ليردف:

- لم أكن لأنعم في حياتي إلا لو اطمأننت عليها.

- هاشم.

تهمس بها بغيرة لا تملكها فيبتسم وهو يعاود فتح عينيه ليقول بنبرة مذنبة نوعاً:

- لا تغضبي لو أخبرتكِ أنني كنت أطمئن عليها من سليمان طيلة الشهور السابقة..فاطمة لم تكن زوجتي فحسب..فاطمة كانت يوماً..ابنتي..

دمعت عيناها بالمزيد من الغيرة لكنه احتضن كفها ليبسطه على صدره حيث موضع قلبه ليردف بصدق:

- لكنكِ كنتِ محقة عندما قلتِ أن أحدنا لم يحب الآخر كما ينبغي..كلانا عشق في صاحبه وجهه المضيء فلما رأى ظلمته زهده..والآن هي وجدت «معجزتها» الحقيقية..وأنا كذلك!

تبتسم وسط دموعها التي انهمرت غزيرة فجأة فيهتف بمرحه المعهود:

- تبتسمين وتبكين في نفس اللحظة.. «هرمونات» الحمل هذه كارثة!

فتهز رأسها دون أن تغير حالها ليردف:

- ابكي أو اضحكي لكن لا تمزجيهما هكذا كالمخابيل..أساعدك؟! سأساعدك!

يقولها كأنه قد اتخذ قراره ليبدأ في دغدغتها برقة ليعلو صوت ضحكاتها مع هتافها محاولة الإفلات من بين ذراعيه:

- لا... هاشم.. حسناً.. لن أبكي.. لن..

كلماتها تنتهي بالمزيد من ضحكاتهما معاً وهي تتلوى بين ذراعيه لتسقط أخيراً على ظهرها على

الأريكة فينحني ليشرف عليها من علوّ..يمسح بقايا دموعها عن وجهها ثم يتلمس قلادتها المميزة بشكل «الكوكب والنجمة»على جيدها بأنامله هامساً أخيراً بابتسامة هادئة:

- ليس أحب عليّ من انتزاع ضحكاتك هذه.

- ضحكاتي فقط؟!

تهمس بها بعبث وذراعاها يتعلقان بعنقه تقربه منها أكثر فيرفع أحد حاجبيه متفاجئاً ليهمس مكر:

- لا حول ولا قوة إلا بالله!القطة مغمضة العينين انحرفت! لم أكن أعلم أن تأثيري على النساء سيئ إلى هذا الحد

- بركاتك يا «كابتن»!

تهمس بها وهي تقربه منها أكثر وأكثر..تبتسم وهي

تتلقف عطايا عشقه لتردها له بمثلها..تغتسل من درن الماضي بنقاء مطر هذا الحب في عينيه..غيرة؟! لا..لم يعد هناك مجال لغيرة هاهنا..هو الفخر بعاشق كهذا فحسب!

* * *

على كرسيها في حديقة دار الأيتام تجلس «فاطمة» بابنتها تحملها في حجرها، بينما التفّ حولها الأطفال يحاولون مداعبة الرضيعة التي مدّت ذراعيها بضحكات صاخبة، كأنما تتلقى تحياتهم بدلال..

رائحة «اللافندر» تفوح منها فتتنشقها فاطمة بعمق مستعيدة معها عبق العزيزة الراحلة..

- احكي لنا حكاية!

- بل غني أغنية!

يصرخ بها الأطفال بصخبهم المعهود حولها، فتهدئهم بإشارة حازمة.. قبل أن تحيد ببصرها نحو الصغيرة..

(لما قالوا دي بنية.. فرح قلبي وعنيّه)

تدندن بها بذات اللحن القديم وعيناها تمتلئان بالدموع مكملة الأغنية التي وجدت نفسها تحفظها كاملة، وقد انغرست في وجدانها منذ سنوات.. قبل أن تحيد عيناها هناك.. نحو «الكرسي المتحرك» الذي بقي مكانه هناك في وسط الدار كما كان يحب صاحبه..

تشعر بكفّ «هارون» على كتفها، وقد تعلقت عيناه هو الآخر بما تعلقت به عيناها.. فترفع وجهها نحوه هامسة:

- أشعر أنه لا يزال هنا معنا.. يشاطرنا بروحه!

فيغلق عينيه بألم هامسًا:

- تظنينه يسامحني؟! تظنين الله يعفو عن زلتي؟!

لكنها تبتسم وهي تحتضن براحتها كفه على كتفها هامسة:

- ربٌ رحيم جعلنا نلتقي بعد كل هذه الأعوام ليجد كل منا ضالته في صاحبه.. تظنه سيبخل عليك بعفو؟!

فيبتسم بدوره وهو يرفع عينيه للسماء التي امتلأت بسحبها البيضاء في هذا الوقت من النهار.. يهيأ إليه أنها تتشكل له كعرائس ناعمة ترفع دعاءه للسماء وتبشره بالقبول..

فيما راقبت «فاطمة» ابتسامته برضا وعيناها تشردان في ماضٍ لم تعد تراه بهذا السوء مادام قد

انتهى بها هكذا..ضحكتها تمتزج بضحكة ابنتها فلا تكاد تميز إحداهما من الأخرى..هاهي ذي وجدت عائلة تتضخم يوماً بعد يوم هاهنا..ليست ابنتها فحسب بل كل هؤلاء الصغار هنا!

أناملها ترتفع لحدود عينيها تمسد حولهما برفق موقنة أنه لم تعد هناك هالات سوداء.. وأنها لن تعود يومًا بحاجته ذاك الـ«كونسيلر»!

* * *

تمت بحمد الله

يوليو ٢٠١٩